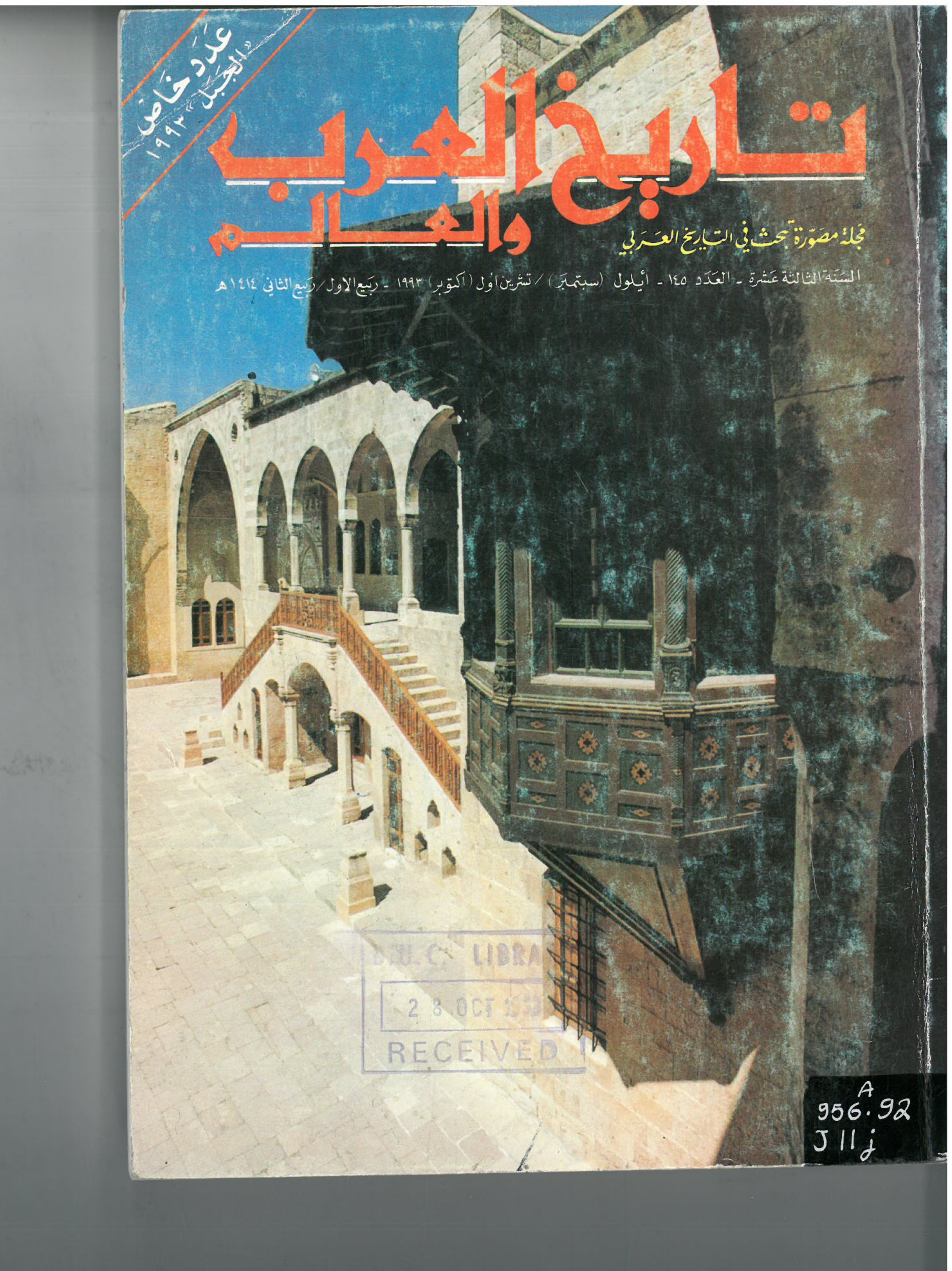

عدد خاص
"الجبل" ١٩٩٣
تاريخ العرب والعالم
مجلة مصورة تبحث في التاريخ العربي
السنة الثالثة عشرة - العدد ١٤٥ - أيلول (سبتمبر) / تشرين أول (اكتوبر) ١٩٩٣ - ربيع الاول / ربيع الثاني ١٤١٤هـ



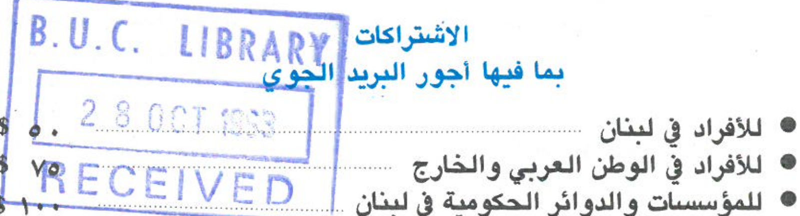
تصدر عن «دار النشر العربية للتوثيق والأبحاث» كل شهرين

● السنة الثالثة عشرة ـ العدد ١٤٥ ـ أيلول/تشرين الأول ١٩٩٣ ـ ربيع الأول/ربيع الثاني ١٤١٤هـ

رئيس التحرير: فاروق البربير — المستشار: د. أنيس صايغ

المدير المسؤول: محمد مشموشي — قسم التوثيق والأبحاث: شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات: علي عبد الساتر



الاشتراكات
بما فيها أجور البريد الجوي

- للأفراد في لبنان .... ٥٠ $
- للأفراد في الوطن العربي والخارج .... ٧٥ $
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان .... ١٠٠ $
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي والخارج .... ١٥٠ $
- مجلدات السنوات الإثنتي عشرة (١٦ مجلداً) .... ١٥٠٠ $

- ترسل الأعداد للمشتركين بواسطة البريد المضمون
- تدفع قيمة الاشتراكات مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص. ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت لبنان ● بناية ابو هليل شقة ١١ شارع السادات
تلفون ٨٠٠٧٨٣ تلكس: جمل ٢٢٤٤٣ LE
● التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات
● الإنتاج: مطبعة المتوسط ش. م. م.

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

Vol. 17, No. 145, Sep/Oct. 1993
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 150 (INCLUDING $ 25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADAT ST. ABOU HILEIL BLG
P. O. B. 5905 TEL. 800783
Telex: JAMAL 22443 LE
BEIRUT, LEBANON

في هذا العدد

خضع ترتيب المقالات والدراسات التاريخية القيمة في هذا العدد الخاص عن «الجبل» للتدرج التاريخي والموضوعي. وليس لقيمة المقالات والكتّاب الذين نجلّهم جميعا ونحترم جهدهم الكبير في الإسهام في هذا العدد الخاص والمميز عن «الجبل» المناضل.

الجبل: تراث وصمود

فاروق البربير

عندما نتكلم عن الجبل، بجبله واقليمه وسهله، إنما نتكلم عن «جبل» قام بدور مهيمن وبارز في تاريخ لبنان والمنطقة العربية.

لقد أستوطن العرب بلاد الشام في عصور سابقة على الفتح العربي، وانشأوا إمارات بلغت درجة عالية من الحضارة، أهمها مملكة تدمر في بادية الشام ومملكة المناذرة التنوخيين في الحيرة ومملكة الغساسنة في حوران. إن انتشار القبائل في بلاد الشام سهّل الفتح العربي، فالرابطة العرقية بين العربي المقيم في الحضَر والبدوي القادم من الصحراء، كانت من أسباب النجاح السريع الذي لاقاه أصحاب الدعوة الإسلامية. ومما يجب التركيز عليه أن أكثر القبائل التي استوطنت بلاد الشام قبل الإسلام كانت من عرب الجنوب وإلى هذه القبائل تنتسب الأكثرية الساحقة من سكان الجبل، بالإضافة إلى قبائل عربية أخرى ساهمت في الفتح وتوطنت هذه البلاد والتحقت بالقبائل العربية القاطنة أصلا والتي تمت إليها بصلة النسب والتحالف، ونعني بذلك قبائل تنوخ التي قامت بدور بارز في تاريخ هذه المنطقة في الدفاع عن ثغورها ضد البيزنطيين والفرنجة.

في هذا العدد الخاص عن «الجبل» حاولنا من خلال ثلاثين بحثا ودراسة أن نلقي بعض الضوء على تراث هذا «الجبل» وحضارته ونضاله. إن سكان الجبل تميزوا منذ القدم بمواقفهم الوطنية وميولهم التحررية ونزعتهم الإنسانية. وخلال الحرب الأخيرة التي اجتاحت لبنان من شماله إلى جنوبه استطاع الجبل أن يصمد وأن يقاوم وأن يساهم في النهاية في منـع تقسيم لبنان وشرذمته... ولكن أهم من كل هذا.. هناك شعب تفاعل ويتفاعل مـع التاريخ منذ القدم وحتى يـومنا هـذا. إن التجمـع السكاني في أي مدينة أو قرية أو بقعة جغرافية معينة لا قيمة حقيقية له من الناحيتين الحضارية والتاريخية إلا إذا كان مساهما قولا وفعلا في بناء الحاضر والمستقبل.

يمر لبنان اليوم وعلى الرغم من وضعه غير المتعافي كليا بمرحلة انبعاث جديدة على جميـع الصعد الإنمائية وبصورة خاصة الاقتصادية والثقافية. ويتميز «الجبل» بصورة خاصة بالقرار الجريء الذي اتخذ والقاضي بإرجاع جميـع المهجرين إلى بيوتهم وأراضيهم وبالمتابعة الجدية لمعالي الأستاذ وليد جنبلاط بتنفيذ هذا القرار الصعب على الأرض.

والآن يسرنا أن نقدم هذا العدد الخاص عن الجبل وتاريخ شعبه المناضل والمصرّ دائماً على الإستقلال والحرية والكرامة.

ولا يسعني في هذا المجال إلا أن أشكر جميـع الذين ساهموا ودعموا هذا العدد الخاص من كتّاب وإعلاميين ومعلنين وعسى أن نكون قد وفينا الجبل وشعبه حقهم علينا من خلال هذا العدد الخاص. ●

الجبل
قلب العروبة النابض

وليد جنبلاط
وزير شؤون المهجرين

شهد الجبل على مر التاريخ صراعات سياسية وعسكرية، كانت تأخذ طابعاً مأساوياً عندما تتدخل القوى الأجنبية والإقليمية في نسيجه السياسي والإجتماعي، وهذه ليست صدفة بل تأكيدا على ارتباط الجبل بمحيطه ارتباطاً جغرافياً وتاريخيا وسياسيا بالإضافة إلى موقعه الجغرافي الذي يشكّل حماية طبيعية للداخل العربي، الذي ارتضى أبناء الجبل عن قناعة أن يكونوا فرسان الدفاع عن هذا الداخل في الماضي والحاضر والمستقبل.

فالجبل منذ حكم الأمير بشير الشهابي الكبير، دخل في دوامة الصراعات الإقليمية، حيث ارتضى الأمير الشهابي أن يلعب أوراق الخارج ضد أبناء الجبل، حتى كانت المجازر الطائفية عام ١٨٤٠ وعام ١٨٦٠ التي كانت للقوى الإستعمارية اليد الطولى فيها، بعد أن هيأت سياسة الأمير بشير الشهابي «النفوس» في الجبل لإنجاح مشاريـع الفتنة التي لم تنته منها بعد حتى يومنا هذا.

وكما حدث في العهد الشهابي في القرن التاسـع عشر، كذلك حدث للجبل «الفيلم المأساوي ذاته» في هذه الحرب المأساوية التي عصفت في لبنان طيلة عقد ونيف من الزمن، بسبب تراكمات السياسات الفئوية التي سادت الجبل في عهد المتصرفية ومن ثم لبنان في عهد الإنتداب والعهود الإستقلالية التي سبقت الحرب الأهلية حيث كان «التزوير» هو السياسة الرائدة: تزوير التاريخ، تزوير الشخصيات والقيادات، تزوير الجغرافيا والحقائق السياسية والتاريخية، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه من عفن سياسي وحرمان إقتصادي وإجتماعي لطبقات واسعة من الشعب واستغلال رخيص لحفنة قليلة من الناس لمقدرات البلد وتبعية عمياء للإستعمار وحلفائه الإقليميين حفاظا على مكاسب ضيقة ورخيصة وانفجر البلد وانفجرت معه كل هذه التركيبات المزورة التي كانت تتحكم بمقدراته وبشعبه. وهنا لا بد من التذكير أن قيادات مخلصة وذات أبعاد وطنية وقومية وتقدمية، حاولت أن تصحح تلك المسيرة السياسية المتخلفة من خلال نضالاتها المتشعبة المباشرة وغير المباشرة التي اثمرت وعيا سياسيا شعبيا هو خميرتنا اليوم في إعادة تصحيح المفاهيم والرؤى السياسية التي كانت سائدة والتي سببت الكارثة الكبرى.

هذه القوى الشعبية التي قادها كمال جنبلاط سياسيا وشعبيا وفكريا ساهمت في تغيير الكثير من الحقائق السياسية المغلوطة لكنها عجزت عن إيقاف المؤامرة ضد مصالح الشعب اللبناني، لكن اليأس لم يتسرب إلى نفوسها ولا إلى رموزها حيث نحاول معها العمل على تصحيح «التزوير» الذي طال المفاهيم الوطنية والسياسية ورسخ في عقول أبنائنا من خلال إعادة نظرة شاملة في مناهجنا التربوية، خاصة في مناهج التاريخ والأدب والفلسفة، لتكون أجيالنا على صلة صحيحة بتاريخ وطنها وقياداته الوطنية كما على علاقة وثيقة بالمفاهيم العصرية للعلوم والفلسفة والآداب.

هذا الدور الكبير الذي ينتظرنا بدأناه من خلال مشاركتنا الفاعلة في إنجاح وثيقة العمل الوطني في الطائف التي أسست للبنان الجديد ورسمت الخطوط العريضة لسياساته وتطلعاته وعلينا نحن جميعا وخاصة القوى الوطنية والتقدمية أن نتعاون ونتكاتف لتطوير هذه الصيغة سلميا حتى نصل إلى لبنان العربي المصير والإنتماء والنظام الديمقراطي العلماني الذي يكفل العدالة والمساواة لجميـع أبنائه في الحقوق والواجبات ويؤمن التوازن الفعلي في الإنماء والإعمار، هذا التحدي قبلناه عندما وافقنا على تسلم وزارة شؤون المهجرين لنساهم بالتعاون مـع الجميـع على عودة كل مواطن إلى بيته وأرزاقه في كل منطقة من مناطق لبنان بدءا بالجبل الذي دفـع ضريبة التهجير الكبرى وصولا إلى الجنوب الذي لا يزال حتى الآن يدفـع ضريبة الإحتلال الإسرائيلي الذي هو أساس الإنقسام والحروب الأهلية التي عصفت بلبنان وأهله.

ونحن نعتبر ان عودة المهجرين هي مفتاح الوحدة الوطنية التي نريدها راسخة في النفوس على قاعدة صلبة لأنه بدون هذه الوحدة لا عودة إلى لبنان العربي الحر المستقل والسيد، بل عودة إلى لبنان الدويلات والطوائف والمذاهب ولبنان هذا مفتاح الإنقسام على صعيد الوطن العربي كله.

لذلك، نحن قبلنا هذه المهمة ونعمل بكل مسؤولية على إنجاحها ولن نترك وسيلة إلا وسنلجأ لها، ويبقى على إخواننا العرب والقوى الدولية المؤمنة بوحدة لبنان والحريصة على مصالحها ومصالح شعوبها أن تدعم مشروع عودة المهجرين سياسيا وعمرانيا وماليا حتى يبقى لأبنائنا وطن يعتزون بالإنتماء إليه، ويبقى للعرب إمكانية للتماسك في وجه المؤمرات التي تعمل ضدهم وتنشط للقضاء على كل فرص تقدمهم وإزدهارهم ليبقوا أصحاب أدوار سياسية فاعلة في هذه المنطقة الإستراتيجية من العالم. ●



الصحوة الاسلامية في إقليم الخروب

الشيـخ الدكتور محمد على الجوزو
مفتي جبل لبنان



نستطيـع القول أن الإستعمار الغربـي عمل طوال فترة وجوده على أرضنا على تجهيل المسلمين بتاريخهم وحضاراتهم ودينهم.. حتى كدنا نفقد شخصيتنا، وندور في فلك الثقافة الغربية والتقاليد الغربية، مبهورين بها، مرددين شعاراتها، بإعجاب وافتتان..

كان الغزو الثقافي يرمي إلى تغريب العرب، وإبعاد المسلمين عن عقيدتهم، وتشكيكهم بها، وما المحاولات التي بذلتها فرنسا على أرض الجزائر من أجل تغيير هُويتها وتغيير لغتها إلا الدليل الدامغ على أهداف الإستعمار في بلاد العرب والمسلمين..

ومن يتابـع تلك المرحلة التي مرت ببلادنا، يدرك إدراكاً جازماً أن الهدف كان عزل هذه الأمة عن تراثها ولغتها، واستبدال ذلك بالتراث الغربـي واللغات الغربية، حتى أن بعض الناس كان يفخر بأنه يجيد اللغة الفرنسية أو الإنكليزية، بينما يجهل كل الجهل لغة قومه ولسان أهله.. نطقاً وأدباً وكتابة.. فظهر علىساحـاتنامن يردد كالببغاوات المصطلحات والصور الغربية في الشعر المنثور أو النثـر «المشعور» في لغة لا تمت إلى الأصالة العربية بصلة..

أما الأحزاب فكان بعضها ينقل ما تعلمه من شعارات غربية، ومناهج غربية إلى ساحتنا دون تحريف ولا تبديل.. فكانت بلادنا تضج بالأفكار المستوردة والجاهزة والتي لا تحتاج إلى شيء من الترجمة حتى نلبسها ثوباً عربياً براقاً بينما المضمون لا صلة له على الإطلاق بالعروبة والعرب..

وإقليم الخروب جزء من هذه المنطقة، وقد انتقلت اليه العدوى، وتسللت إلى ساحته تلك الشعارات وتلك الأفكار.. المادية والعلمانية.. وكان بعضها يتنكر لكل ما يتصل بالتاريـخ والعقيدة.. حتى ظن كثير من الناس أن الإقليم قد تحول إلى قاعدة للمناهج «المعلبة» و«الجاهزة» والمستوردة من الشرق أو الغرب..

وفجأة، بدأت تظهر حركة جديدة بين الشباب المثقف.. حركة تعتبر المسجد منطلقاً لها، والعقيدة الإسلامية أساساً لإيمانها، حركة تنادي بالعودة إلى الأصالة والتاريـخ والتراث الحقيقي لهذه الأمة.. فالإقليم يشهد صحوة إسلامية مميزة تكاد تنتشر في كل قرية وفي كل بيت.. وبعد أن كان رواد المساجد من كبار السن فقط، أصبـح روادها من الشباب الغض، حتى تغص بالمصلين في أكثر الأوقات وفي كافة المناسبات..

ويشهد الإقليم حركة معمارية جديدة تؤكد حرصه على هويته وتاريخه وشخصيته.. ففي كل قرية يرتفع مسجد جديد.. والمآذن المشوقة والباسقة التي تهتم بالفن المعماري الإسلامي تقف شامخة أبية.. وبعض هذه المساجد يكاد ينافس مساجد العاصمة في إتساعه وفخامته وروعة بنيانه..

وتتنافس القرى المختلفة من بلاد الإقليم في بناء المساجد الحديثة، حتى أن هذه المساجد أصبحت هي الدليل على تمسك أبناء الإقليم بتاريخهم ودينهم وعقيدتهم..

وفقدت الأحزاب التي اتجهت إلى المادية بريقها، وأخذ العمل الإسلامي يشد الإنتباه ويلفت الإنظار.. لأن «ديناميكية» الشباب المسلم أخذت تدفعه إلى بناء المدارس وإنشاء المستوصفات وتقديم الخدمات الإنسانية في أكثر من مكان..

واليوم تقوم على أرض الإقليم ورشة عمل كبرى لإنشاء أول مؤسسة إسلامية، وهي تضم مدرسة عليا للتعليم المهني، ودراراً للافتاء، ومسجداً، ومحكمة شرعية، ومعهداً دينياً، ودراراً للأوقاف الإسلامية.

إن الإقليم يخطو خطوات حثيثة نحو الحفاظ على شخصيته الإسلامية، وهويته الحضارية، رغم أن الدولة قد حرمت الإقليم من أي عمل مثمر يقدم الخدمات لأهله، فلا مؤسسات صحية ولا هاتف ولا مياه.. ولا يوجد حتى اليوم أي مؤسسة تستطيـع الدولة أن تقول إنها تعبر عن إهتمامها بهذه المجموعة من أبناء لبنان.

ولولا أن أبناء الإقليم قد اتجهوا نحو العلم، وحققوا نجاحاً كبيراً في ميدانه، وتسلموا المناصب الكبرى في الدولة، بفضل كفاءاتهم الشخصية وطموحاتهم الذاتية لما كان للإقليم دوره الحيوي الذي يشهد له الجميـع، ويعرفه المسئولون في كل مؤسسة من مؤسسات الدولة.

الإقليم قلعة إسلامية وعربية تقف صامدة في وجه المؤامرات التي تحيط بالأمة، وتدفع ثمن إخلاصها وتفانيها وتضحيـاتها حـرمانـاً مجحفاً بحق أبنـائها من الدولة ومؤسساتها، وقد يقع العبء الأكبر من هذا الحرمان على عاتق بعض أولئك الأبناء الذين تسنموا مراكز كبيرة في الدولة دون أن يكون لهذه المراكز أي إنعكاس إيجابـي على منطقتهم.

بعض هؤلاء يهتم بتحقيق طموحاته في الوصول إلى أعلى المناصب دون أن يفكر في تسخير نفوذه من أجل أن يخدم قريته أو يحل مشكلة حيوية من مشاكل منطقته كما يفعل الآخرون في مناطقهم..

والإقليم يعتب على هؤلاء الأبناء ويتمنى لو أمكنه الإستفادة من نجاحهم ومناصبهم فيعطوه كما أعطاهم..

إن هؤلاء الأبناء شغلتهم المنافسات العائلية عن التوجه نحو العمل الجماعي الذي يخدم الإقليم بشكل عام بدل أن يخدم العائلة أو أفرادها فقط.. ومما يؤسف له أن نجد الشباب المسلم الناشىء أكثر غيرة على منطقته وأكثر رغبة في تقديم الخدمات من بعض الذين يتسنمون مراكز كبرى يعتز بها الإقليم ويفخر..

ويوم يعود هؤلاء إلى مبادىء الإسلام وقيمه يمكن لهم أن يدركوا أهمية التعاون في سبيل النهوض بشؤون الإقليم والعمل على تعويضه الحرمان الذي يعاني منه والإجحاف الذي أصابه على مدى الأيام الماضية.

وفي ظل الصحوة الإسلامية التي تنتشر في الإقليم، يمكن أن تصل آثار هذه الصحوة إلى هؤلاء الأبناء للقيام بواجبهم نحو دينهم وتاريخهم وأهلهم في الإقليم..

هناك روح وثابة تدين بالولاء لله وحده، وتعمل بإخلاص للحفاظ على هوية الإقليم، وهذه تتمثل في جيل الشباب الجديد.. وهي أمل الإقليم ومستقبله. ●

«الجبل تاريخ لبنان العربي»

مروان حماده
وزير الصحة العامة

كم نحن بحاجة للتعرّف من جديد على هذا الجزء العزيز من تاريـخ بلادنا وأعني الجبل... وما أحوج اللبنانيين، وخاصة الأجيال الطالعة، إلى إعادة قراءة تاريـخ لبنان، من منظار موضوعي وطني، بعد هذه الحرب الأهلية الطاحنة التي طحنت الكثير من عزائمنا كما من عمران مدننا ودساكرنا المنتشرة على كافة أراضي الوطن العزيز.

هذه الحرب، التي كان لكتابة تاريخنا الخاطيء الدور المهم في اندلاعها وتأجيجها — نريدها خاتمة الحروب تطبيقاً للمثل اللبناني «تنذكر وما تنعاد».

لماذا التركيز على الجبل اليوم؟ إنه السؤال البديهي الذي يطرحه كل عاقل يريد وحدة لبنان كما يريد وحدة العرب، حيث لا وحدة عربية ولا عروبة جامعة ورابطة، إذا كان لبنان منقسماً ومقسّماً وإذا كان جبل لبنان مصاباً بمرض التقسيم والتهجير والتدمير القاتل إذا لم نجد له العلاج الشافي.

العلاج السياسي كما العلاج الإقتصادي والعمراني.

فالجبل ليس فقط تعايش الدروز والموارنة، وقلب لبنان، وأساس الإستقلال والسيادة التي تعود جذورها إلى أيام فخر الدين المعني الكبير.

فالجبل هو جزء لا يتجزأ من جغرافية تمتد من شاطيء البحر المتوسط إلى أعالي جبال الشيخ وجبال العلويين في سوريا مروراً بالسلسلة الشرقية في البقاع، وفيه عاشت كل الطوائف اللبنانية قبل فخر الدين وبعده وأثناء حكمه، وفوق كل ذلك هو حامي الداخل العربي من الهجمات الإستعمارية التي توالت على أمتنا العربية حروباً صليبية في القرون

السابقة، وحروباً إسرائيلية في عصرنا الحاضر، وحروباً إقتصادية وثقافية ضدّنا في الماضي والحاضر والمستقبل ولا خيار أمامنا إلّا المواجهة، والمواجهة تنجح بقدر ما تحقق من عناصر موضوعية لنجاحها.

أول هذه العناصر وأهمها: ترسيخ مفهوم العلاقة الجدلية بين جبل لبنان ولبنان الكبير، كما العلاقة التاريخية والجغرافية بين لبنان والداخل العربي، وهذا يتطلب كتابة تاريخ لبنان من جديد وتصحيح التزوير الذي انغرس في عقول أبنائنا من خلال كتابات تاريخية متنوّعة ومتناقضة تفوح منها رائحة المستعمر والمستوطن الذي يهمه زرع بذور الانشقاق والتفرقة في نفوس أبنائنا، وهنا لا بد من ترسيخ دور الجبل كجغرافيا وتاريخ غير منفصل عن محيطه وإبراز معالم القيادات الوطنية الكبيرة التي آمنت بمفهوم الوطنية الموحّدة، وعلى رأس هذه القيادات المناضلة المعلم كمال جنبلاط والأمير شكيب أرسلان وداود عمّون وغيرهم من الوجوه الأدبية والسياسية والثقافية البارزة في تاريخ الجبل ولبنان ودنيا العروبة.

وإذا كانت كتابة تاريخ لبنان مثار جدل بين القيادات اللبنانية لأسباب لا مجال لذكرها وتعدادها، فهناك خطوات أساسية أخرى يمكن الولوج في تحقيقها وفي طليعتها التضامن لإنجاح مشروع عودة المهجرين إلى الجبل وكل لبنان، لأن هـذا المشروع السياسي ـــ الإنمائي الكبير يخدم في العمق مشروع وحدة لبنان التي هي أساس نجاح المشروع العربي في مواجهة إسرائيل والقوى الدولية التي تدعمها، وهذا يتطلب دعماً عربياً متعدّد الوجوه: سياسياً واقتصادياً ومالياً، وكل تأخر في دعم هذا المشروع ينعكس كارثة على لبنان والعرب وتضيـع كل الجهود التي بذلت حتى الآن لعودة لبنان إلى مساره الطبيعي.

ولأننا طلاب وحدة وطنية وروّاد عروبة وفرسان مواجهة مـع الإستعمار وإفرازاته منذ وجودنا على هذه الأرض، وفي هذا الجبل العربيالأشم، إرتضينا أن نفتح ملف عودة المهجرين وتحصين الجبل ولبنان، وراء قيادة الوزير وليد جنبلاط الذي كان السبّاق إلى تحذير الجميـع من مخاطر السياسات والتحالفات الفئوية الخاطئة والسبّاق أيضاً إلى إحتضان الفرص السياسية المتاحة لعودة اللحمة والإنصهار بين اللبنانيين على قاعدة ثابتة، تتحكم في مسار عمله وعملنا السياسي وهي: لبنان عربي الهوية والإنتماء والمصير ونظامه ديمقراطي للفقراء فيه ولذوي الدخل المحدود الحق في العيش بكرامة وحرية بعيداً عن كل أنواع التعصب والطائفية والمذهبية التي كانت أساس مصائبنا الداخلية وستبقى «اللغم» في مسيرتنا إذا لم نساهم مـع الوزير جنبلاط باقتلاع أسبابها من الجذور.

هكذا عرفنا الجبل، وهكذا عاش أجدادنا فيه، وهكذا نريده نحن لنا ولأبنائنا ونمارس دورنا السياسي على هذه الأسس ونريد هذه الحقائق أن ترسخ في أذهان الجميـع.

شكراً لمجلة «تاريخ العرب والعالم» التي أتاحت لنا أن نكتب هذا المقال وستتيح لأبنائنا في الجبل ولبنان إلى التعرّف على الجبل، وسيبقى الجبل، سدّاً منيعاً في وجه كل التواريخ المزوّرة.

●

العودة إلى الجبل ومرتكزاتها بين القديم والجديد

النائب الأستاذ فؤاد السعد

إن من اصعب الأمور، التذرع بواقع لا يستند إلى اي أساس، وفي مسألة العودة إلى الجبل، واستعادة مرتكزات حياة الإلفة والعيش المشترك فيه، لا بد من الرجوع إلى الذاكرة التاريخية، لنستقريء وقائع ومعطيات، كانت من مقومات اعماره، واستقرار حياة العائلات الروحية فيه.

اولا

إذا رجعنا إلى أواخر القرن السادس عشر، تستوقفنا سمات بارزة كانت في أساس التركيز السكاني في الجبل.

لقد كانت بلدة رشميا وما جاورها في منطقة الحرف والعرقوب. هذه المنطقة التي شكلت في أيام المتصرفية، مديرية الجرد الجنوبي وتوزعت بعدها في عهد الاستقلال بين قضائي عاليه والشوف، من أولى المواضع التي شهدت ذاك الوئام عند بدايات التوافد المسيحي عامة والماروني خاصة، بهدف الإعمار وجعل هذه المناطق مأهولة بأعداد من العاملين في مجالات شتى، بدءا من استصلاح الأراضي واستغلالها.... ومن هذه الوقائع أن المناطق المذكورة كانت بوكالة الدروز منذ أيام المعنيين، وهم الذين يستنكفون من العمل بالأرض واستثمارها.

وسرعان ما اتضح لهم بأن مواطنيهم الموارنة الذين أتوا من مناطقهم الشمالية للإستيطان في الجبل والعمل على توفير الإستغلال الجيد للأرزاق والممتلكات، هم بحاجة ماسة للرعاية الدينية، فلم يترددوا أبداً ولم يتأخروا بل اندفع وجهاؤهم وبعضهم من مشايخ آل عطا الله، لإصطحاب مواطنيهم القاطنين في بلدة رشميا، ليتوجهوا معهم إلى عمق المنطقة الكسروانية وليعقدوا اتفاقا (في قرية بطحا) مع كاهن منها لينتقل إلى رشميا ويكون راعيا روحيا للموارنة المقيمين بها وكاهنا لرعيتهم مؤمنا لهم ممارسة فرائضهم الدينية.

فكان أن جاء الخوري بشاره بن مبارك إلى رشميا سنة ١٥٨٤ (وهو جد آل السعد والخوري هذه العائلة التي قدمت منذ ذلك التاريخ وبدون انقطاع رجالات عملت في السياسة والخدمة العامة) ولقد عقد مع الكاهن الوافد الاتفاق بكفالة وتوقيع المشايخ الدروز مع الموارنة بغية تأمين متطلبات الكاهن. ولم يتوقف الأمر على هذا الشأن، بل أن الدروز قدموا العون للخوري بشاره عندما بدأ بتشييد كنيسة على اسم القديس قرياقوس.

من هنا تتضح أهمية العودة، فالوافدون الأوائل من المسيحيين جاؤوا للإعمار وتأهيل الجبل باستصلاح أراضيه وتثمير مزروعاته وتقديم الخدمات من مهن وحرف. لقاء بدلات كان منها نصيب في شراكة الأرض سندا للمبدأ الشرعي «من أحيا أرضا مواتاً» فهي له أو عبر استيفائهم للأجر عن الخدمات على شكل ربع سنوي موسمي.

فسرعان ما ازدهرت المنطقة وأخذ الوافدون إليها عمالا ومأجورين يشترون الأرض ويتملكون المساحات فيبنون القرى ويشيدون الكنائس والأديرة وقد شهد القرنان السابع والثامن عشر بناء ثلاثة أديرة في رشميا، إثنان منها على يد الرهبانية اللبنانية المارونية ــ وكان اسمها آنذاك الرهبانية البلدية ــ وهما دير مار يوحنا رشميا ومار انطونيوس سير، ودير ثالث للرهبانية المخلصية للروم الكاثوليك وهو دير مار إلياس رشميا. كما شيدت الرهبانية البلدية في الفترة نفسها دير مار مارون في بلدة مجدل المعوش المجاورة.

ويوم أصبحت رشميا مركزا لعهدة من العهدات المقاطعجية، والعهدة هي الوحدة الادارية في الحكم المحلي آنئذ، كان ذلك إقرارا بأحقية اولئك المواطنين من الجبل حيث أنهم كانوا في غالبيتهم من المسيحيين الموارنة، ولأن الجبل تنصهر فيه العائلات الروحية في إطار من عيش الإلفة والمودة والمشاركة في المسؤولية.

وما حصل في رشميا اتخذ قاعدة في الجبل كله. فالجميع يعلم دور آل جنبلاط في تأسيس دير المخلص سنة ١٧١٢، والتاريخ سجل دور الأمير يوسف مراد اللمعي (وكانت الأسرة اللمعية آنذاك لم تزل تنتمي للطائفة الدرزية) في العام ١٧٩٠ وقد سلم لأحد آباء الرهبانية الانطونية أرضا وبيتا لتأسيس انطوش وكنيسة على إسم مار إلياس الحي في بلدة قرنايل (تاريخ الرهبانية الأنطونية ص ٤٨٨) وكذلك الحال بالنسبة لمساهمة مشايخ وأعيان الدروز في بناء العديد من الكنائس والأديرة في مختلف مناطق الجبل.

ولقد كان من نتيجة ذلك توافر مؤسسات محلية للرهبانيات واضحت الأديرة مراكز للتعليم والتطبيب والرعاية الاجتماعية، تؤمن الخدمات المهنية والحرفية المطلوبة في ذلك العصر ولكل الناس. فكان لأولئك الرهبان الذين صدقوا في نذورهم المعهودة وكرسوا حياتهم الرهبانية عطاء حقيقيا. نأمل بأن تستعاد فيه سيرتهم الأولى وفي مثل ذلك التسامي.

فكان ازدهار الجبل ودوره السياسي المميز نتيجة هذا التعاون المسيحي ــ الدرزي خلال قرون ثلاثة لم يعرف خلالها اهل الجبل معنى للطائفية.

ثانيا:

أما اليوم، وقد مرّت على الجبل زوبعة الحرب الأهلية وتفسخ المجتمع الجبلي وبنتيجته فقد الجبل من دوره السياسي وحجمه الوطني وازدهاره الاقتصادي، وعودته إلى ما كان عليه ترتبط بعودته إلى وحدة كيانه السياسي وتكوينه الإجتماعي. وإننا نشدد ونطالب عاليا بأن تلعب المؤسسات الروحية من أبرشيات ورهبانيات وأوقاف في هذه العودة الدور الذي لعبته في عملية الاستيطان في القرون السابقة.

ذلك دون أن ننسى بأن المعطيات لم تعد ذاتها وبأن مستلزمات التطور في بداية القرن الواحد والعشرين تجعل متطلبات العودة تفوق قدرة أية مؤسسات غير الدولة.

العودة إلى الجبل من جديد، إننا نراها وإلى جانب ما يتطلبه الإعمار فيه من إعادة التأهيل وتقديم العون الحقيقي والمساعدة المادية الفعالة،

وتأمين كافة مستلزمات السكن للمواطن، من تجهيزات تطال المياه والكهرباء والهاتف وشبكة المواصلات والطرق الزراعية.

فكانت مطالبتنا الدائمة في السنين السابقة وسنستمر في مطالبة الدولة:

١ ـ بتأمين وتسهيل كافة مستلزمات العودة وتوفير الاستقرار السكاني من خلال إصدار القوانين والقرارات الإدارية التي تساعد على إعادة التركيز السكاني، للقيام بكافة أعمال البناء والتجهيز اللازم.

٢ ـ تأمين البنى التحتية، من شبكات الطرق والمياه والكهرباء على الصعيد القروي والاقليمي في مناطق العودة، بغية ربط القرى فيما بينها وإعادة التواصل بين المناطق.

٣ ـ إنشاء «مراكز للخدمات الشاملة» تتمثل فيها كافة وزارات الخدمات، وذلك في القرى التي تشكل نقاط ارتكاز وسطي (كبلدة رشميا مثلا) تتوزع من خلالها الخدمات الصحية والبيئية والمساعدات الزراعية من إرشاد ومبيدات واسمدة وتسويق للإنتاج. وتشارك فيها فروع للتوجيه التربوي والثقافي والتوعية الهادفة إلى تكريس الإلفة والتضامن الوطني، وفروع للخدمات الإجتماعية ورعاية المعوقين والمعوزين وتنشيط نوادي الشباب والرياضة وفروع للتوجيه المهني وتدريب الناشئة على مهن تتطلبها الحياة في الأرياف وتنقص فيها اليد العاملة المدربة والمتخصصة.

٤ ـ وأخيراً تنشيط الهيئات المحلية القائمة من بلديات ومجالس اختيارية ومجالس محافظة ولجان محلية وتعزيز دورها وإعطائها صلاحيات موسعة سندا لما يرتقب لها من مهمات وفقا لما اتفق عليه في الطائف وما تضمنته وثيقة الوفاق الوطني.

●



ماذا يريد نسيب بك من الست؟

لما عيّن المرحوم سير درموندهاي قنصلاً جديداً لإنكلترة في بيروت زاره نسيب بك جنبلاط الزيارة التقليدية للتعارف. وبعد المصافحة وتبادل التحية، سأله السؤال المتداول عن اللبنانيين: كيف حال سعادتك؟ كيف حال الست، والمحروسين؟ العسي مبسوطين؟...

وترجم المرحوم إسبر أفندي شقير سؤال نسيب بك عن صحة الست، فبلعه القنصل، ولم يجب...

وزار نسيب بك القنصل في مناسبة ثانية وكرر السؤال عن صحة الست والمحروسين. ثم زاره مرة ثالثة وألقى السؤال عينه... وكان سير درموندهاي لا يزال يجهل المجاملات التي يتبادلها أهل البلاد، فغضب من «تدخل» زائره في شؤون يراها عائلية بحت، وقال للترجمان:

ـ لماذا يسأل نسيب بك عن الست، دائما؟ ماذا يريد منها؟

من مجلة «أوراق لبنانية». الجزء الأول ـ كانون الثاني ١٩٥٥

دور الغرب في «تهجير» نصارى الشرق

النائب الدكتور عصام نعمان

لماذا كان النصارى في بلاد الشام كثرة في مطلع القرن التاسع عشر فأصبحوا قلة في نهاية القرن العشرين؟

سؤال لم يجب عنه أحد، بل لعله لم يطرح في صورة مباشرة من قبل. غير أنه سؤال مهم، في اعتقادي، لأنه يستبطن مسألة خطيرة هي دور الغرب في «تهجير» نصارى الشرق.

ليس المقصود بالتهجير قيام دول الغرب بحمل النصارى عنوة على مغادرة ديارهم، بل هو التسبّب في هجرتهم من خلال اعتماد سياسات وتدخلات، وحبك مخططات ومؤامرات، وتوفير إغراءات ومشوقات أدت جميعها إلى تسريع ظاهرة النزوح والإغتراب والإستقرار في مختلف البلدان الأوروبية والأميركية.

يحدثنا المؤرخ كمال الصليبي في كتابه «تاريخ لبنان الحديث» (صفحة ١٧) أن سكان بلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) كانوا في معظمهم حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي من النصارى. ولئن تقلص الوجود المسيحي تدريجا بعد ذلك فإن كثرة من المسيحيين كانت ما زالت تسكن بلاد الشام العام ١٧٩٩ عندما حاصر نابليون بونابرت عكا في أعقاب غزوه مصر.

قد يتبادر إلى الذهن أن ضمور الوجود المسيحي كان بسبب الإضطهاد الديني. الحقيقة أن هذا السبب هو أقل الأسباب شأنا في تفسير الظاهرة المطلوب درسها. فالإضطهاد لم يتسبب، عند وقوعه، بإيذاء الطوائف المسيحية دون غيرها بل هو أصاب أقليات شتى، إسلامية في معظمها، لأسباب سياسية في الدرجة الأولى. ويقول غسان سلامه في كتابه «المجتمع والدولة في المشرق العربي» (صفحة ١٠٠) أن «هناك أرضية قديمة، ما زالت حية، يمكن وصفها عند المسيحيين بمزيج من الإعتراف بأن الإسلام خصّهم بمعاملة هي بالنهاية مقبولة (حماية / استتباع سياسي) ومن الأسى لأن وضعهم تحوّل مع الإسلام من

اكثري إلى أقلي مهدد في وجوده».

لماذا أصبح النصارى مهددين في وجودهم؟
كمال الصليبي يعزو ذلك إلى أنهم كانوا «متهمين ــ وبحق ــ بالميل إلى الصليبيين».

ليسوا كلهم بالطبع. ثمة نصارى، كما في مناطق الزاوية والكورة في شمال لبنان، قاوموا الصليبيين بحد السيف، كما يحدثنا سركيس أبو زيد في إحدى مداخلاته. غير أن الذين حالفوا الصليبيين من الموارنة لم يتوانوا، كما يقول الصليبي، عن «وضع إمكاناتهم العسكرية تحت تصرف الفرنجة» (الصفحة ٢١ من كتابه). كل ذلك أثار نقمة **الأيوبيين** ثم المماليك عليهم، فاقتصوا منهم كما من سائر الأقليات الإسلامية التي أبدت فتورا في نصرة الدولة السنّية في حربها على الفرنجة.

غسان سلامه يشير أيضاً إلى قيام أقلية من المسيحيين في بلاد الشام بمساعدة الصليبيين والمحاربة إلى جانبهم. إلا أنه يشدد على عنصر خارجي آخر ستكون له، منذ العام ١١٨٠، آثار مهمة. فقد ارتبط الموارنة «اكليريكيا وإلى حد ما سياسيا بروما وبالغرب المسيحي، ولن يفقد الغرب بعدها حلمه باستتباع المسيحيين الشرقيين الآخرين، في خطى الموارنة، ولا في الوجود الذاتي في المنطقة» (الصفحة ١٠٠ من كتابه).

وبالفعل التحق، بعد الموارنة، مزيد من الأقليات المسيحية بروما: جماعة كبيرة من النساطرة (العام ١٥٥١)، ثم أقلية أرثوذكسية (العام ١٧٢٤)، ثم أقلية أرمنية (العام ١٧٤٢) ثم أقلية سريانية (العام ١٧٨٣). ويلاحظ سلامه أن هذه الأقليات الملتحقة بروما أضحت بالضرورة أكثر ميلا للغرب، وبالتالي أضعف ولاء للسلطة العثمانية القائمة. كما أنها خلقت حالة جديدة من التوتر في الولاء بين المسيحيين أنفسهم، أي بين دعاة الإلتحاق الإكليركي (وإلى حد ما السياسي) بالغرب، وبين دعاة مشرقية موالية للعثمانيين انتعشت كثيرا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع بداية **حركة التنظيمات** والإنتقال العثماني التدريجي من نظام الملل إلى نوع من المواطنية الحديثة (الصفحة ١٠٢).

غير أن هجرة المسيحيين إلى خارج بلاد الشام سبقتها هجرة أو نزوح داخل البلاد نفسها لأسباب مسيحية مذهبية. ففي العام ٥١٢ ميلادية بطش الملك أنسطاس، صاحب أنطاكية، بتحريض من تيموتاوس بطريرك القلسطنطينية، بالموارنة سكان سوريا الشمالية بالأصل، فكانوا طليعة اللاجئين إلى جبل لبنان فزعا من إضطهاد أقرانهم في الدين (أنظر كتاب «تاريخ لبنان العام»، الجزء الأول، للدكتور يوسف مزهر، صفحة ١٦٣ ــ ١٦٤).

وبعد إنشقاق الكنيسة الملكية البيزنطية نكّل الروم الأرثوذكس بالروم الكاثوليك، الذين فزعوا إلى لبنان هربا من الإضطهاد. وكذلك كان حال الأرمن الكاثوليك (أنظر كتاب الصليبي صفحة ٢٢ ــ ٤٢).

هذه الأمثلة لا تنفي، بالطبع، اضطهاد الدولة العثمانية لبعض الأقليات المسيحية، خصوصا الأرمن، الأمر الذي تسبب في نزوح أعداد كبيرة منهم إلى لبنان. ومع ذلك فالحقيقة الساطعة تبقى أن نزاعات المسيحيين فيما بينهم هي السبب الرئيس لنزوحهم بأعداد كبيرة من سوريا الشمالية إلى لبنان.

ثم يأتي دور الإرساليات وجماعات التبشير من فرنسيسكان، ولعازاريين، وكرمليين، ويسوعيين وانجيليين في زرع قيم الغرب الثقافية في قلوب نصارى المشرق وصولا إلى زرع مصالحه في الأوساط المشرقية كافة. أكثر من ذلك: لقد لعبت هذه الإرساليات، بدءا من مطالع القرن الثامن عشر الميلادي، ثم القناصل والسفراء الأجانب، أدوارا مباشرة وصارخة في استتباع مسيحيي بلاد الشام وفريق من مسلميه أيضاً. وليس من شك في أن الإرساليات وجماعات التبشير ومؤسسات التعليم الوافدة أرست في لبنان وفي غيره من بلاد الشام تقاليد وطرائق في الحياة غربية أسهمت، بدورها، في اجتذاب الكثير من المسيحيين ليس للتماهي والتعامل مع دول الغرب فحسب بل للهجرة إليها ايضا والإستقرار فيها.

رغم كل هذه التطورات، كان النصارى ما زالوا كثرة في بلاد الشام عندما ضرب نابليون بونابرت حصاره على عكا عشية ولادة القرن التاسع عشر. بل لعلهم استمروا كثرة لغاية إندلاع الحرب العالمية الأولى في العام ١٩١٤. فلماذا تسارعت هجرتهم، من جميع أنحاء بلاد الشام منذ منتصف القرن التاسع عشر وصولا إلى الوقت الحاضر، حتى بات عددهم الآن سدس ما كان عليه في مطلع القرن الماضي؟

لا يملك الدارس إلا أن يشير إلى صلة سببية بين واقعة الهجرة المتسارعة وواقعة تزايد التدخل والتأثير الغربي في بلاد الشام، خصوصا في أوساط المسيحيين.

لقد كانت السلطنة العثمانية تعج بالنصارى، من شتى المذاهب، خلال القرن الماضي ولغاية إنهيارها في العام ١٩١٨. ومع أن معاملتها للأقوام والأقليات التي خضعت لسيطرتها في آسيا وإفريقيا وأوروبا لم تخل من استبداد واضطهاد، إلا أنها بقيت دولة تعددية تشارك عناصرها الإثنية المختلفة، بقليل أو كثير، في حياتها العامة بمختلف وجوهها.

ولست أحسب أن غيرها من الإمبراطوريات المعاصرة لها كبريطانيا وفرنسا والنمسا، كان أكثر احتراما منها للتعددية ولدور الأقليات في حياته العامة. بل لعلها ــ أي السلطنة العثمانية ــ كانت تتطور باطراد، خاصة بعد انطلاق **حركة التنظيمات**، نحو تعددية تحمل في أحشائها مشروع ديمقراطية شوروية واعدة. وليس من شك في أن سعي دول أوروبا الدؤوب للتدخل في شؤونها ولتفكيكها أسهما بقوة في إجهاض تطورها الشوروي وعجّل في سيطرة جماعة «تركيا الفتاة» على مقاليد السلطة فيها وبالتالي في دفعها في طريق التغريب والإستتباع. هذا بالإضافة، طبعا، إلى قيام إسرائيل لاحقا بفضل الغرب بالتسبب في تهجير نصارى فلسطين.

إنه لأمر غريب حقا أن يكيل مدرّسوا الناشئة العربية، ممن تجرعوا حتى الثمالة ثقافة الغرب والتزموا قيمه وطريقة حياته، شتى النعوت والأوصاف السيئة للسلطنة العثمانية، داعين تلامذتهم إلى تبني دول أوروبا كنماذج للتعددية والديمقراطية. فهل بإمكان هؤلاء الآن أن يتنكروا للميراث العثماني الذي ما زال عرضة لصراعات دموية متمادية في فلسطين والعراق والبوسنة والهرسك، وربما غدا في مقدونيا وبلغاريا، بسبب الفعل الإستعماري لدول غربية أكدت وقائع التاريخ المعاصر أنها لم تكن البتة أكثر تسامحا ورحمة ورعاية للأقوام والأقليات التي تعيش فيها من «رجل أوروبا المريض» الذي تواطأت دهرا على تفكيكه قبل الإجهاز عليه؟

كانت السلطنة العثمانية تعج بالمسيحيين في ذروة تفككها، فإذا بدول الغرب تعج اليوم بالمسيحيين الذين جرفتهم إليها دسائس التفكيك وصراعات الإستئثار بميراث «رجل أوروبا المريض»!

ما هي العبرة التي يمكن أن يستخلصها العرب، مسلمين ومسيحيين، من هذه الظاهرة التاريخية اللافتة؟

لعل ما استخلصه كمال الصليبي هو العبرة الساطعة: «قلما استفاد بلد صغير من تورطه في نزاع دولي. فأيا كان الجانب الذي يؤيده، تضحى مصلحته الحقيقية على مذبح المصالح العليا. وكثيرا ما يخفي عنه حلفاؤه أهدافهم البعيدة، فينساق إلى مواقف معقدة يصعب عليه إدراكها أو التحكم بها. وفيما تقع شؤونه الداخلية في ورطة النزاع الخارجي، تفلت هي أيضاً من يده، فيصبح تحت رحمة القوى التي تسود».

انتهى كلام الصليبي... فهل انتهى تورط طوائف هذا البلد الصغير في نزاعات الدول وانسياقها إلى مواقف معقدة يصعب عليها إدراكها والتحكم بها، وصولا إلى أن تصبح تحت رحمة القوى العظمى؟!

●

الدروز وقضايا العرب

السفير د. حليم أبو عز الدين

في التحدث عن الدروز أسلك السبيل القومي التوحيدي الذي هو أسلوب الدروز كما هو أسلوبي الشخصي، فاتطرق إلى موضوع الدروز، لا من ناحية طائفية أو مذهبية اتخذت سبيلها لدى الكثيرين ومن جميع الطوائف والمذاهب، بل من منطلق قومي، عربي الدنيا إسلامي الدين.

وهذه هي السمة الحقيقية للدروز: فالدروز هم من صفوة العرب الذين حافظوا على تراثهم القومي وعلى نقائهم السلالي العربي. والدروز هم جند الإسلام المرابطون على هذه الثغور العربية منذ أن دعاهم الخلفاء الأوائل في صدر الإسلام للمرابطة عليها.

ومع أننا لسنا هنا في وارد البحث في تاريخ الدروز فذلك يعود إلى موضوع آخر، إلا اننا لا بد أن ننطلق في بحثنا عن «الدروز وقضايا العرب» بتبيان أصولهم العربية الصحيحة.

وأتذكر بل اذكر، في هذا الصدد، رسالة المؤرخ سليمان أبو عز الدين رداً على رسالة للدكتور فيليب حتي ذكر الأخير فيها «إن الدروز مؤلفون من عناصر فارسية وعراقية وعربية تسلطت عليها مؤثرات فارسية». وجاء في رده الذي نشرته كبرى المجلات العربية في حينه ـ المقتطف ـ ما يلي: «الدروز عريقون في العروبة، كما أنه من المشهور عندهم أن أكثرهم ينتسبون إلى قبائل تنوخ التي ارتحلت من الحيرة في العراق إلى معرّة النعمان في الديار الحلبية بعدما أوقع كسرى أبرويز بالنعمان ابن المنذر ملك الحيرة، وما عقب ذلك من الكوائن بين الفرس والعرب. ثم ارتحل فريق منهم من المعرّة إلى جبل لبنان ووادي التيم في أوائل القرن الثالث للهجرة، وبقي فريق آخر في المعرّة أشار إليه القلقشندي في «صبح الأعشى» حيث قال «ولتنوخ بقايا في المعرّة في بلاد الشام. أما إدخال أفخاذ من القحطانيين من اليمن إلى البحرين واتحاد قبائلهم هناك حيث أطلق عليهم إسم «تنوخ» ثم انتقالهم من البحرين إلى الحيرة وتأسيس مملكة عربية تولى أمرها آل تنوخ ثم آل نصر اللخميين فأمره مشهور».



□ سلطان باشا الأطرش



□ عادل النكدي

□ كمال جنبلاط

ويستطرد المؤرخ فيقول: «إن ما يعتمد عليه الدروز في أنسابهم فهو:

أولاً: الروايات الشفوية المتواترة على ألسنتهم خلفاً عن سلف.

ثانياً: ما لديهم من المخطوطات التي تؤيد الروايات الشفوية.

ثالثاً: عدا عما هو معروف الآن من أن أسماء الدروز إلا القليل منها عربية.

رابعاً: إن الدروز من أصح الفروع العربية لفظاً لبعض الحروف الهجائية، أي الثاء، والذال والظاء والقاف.

خامساً: نتائج الدراسات والانثروبولوجية والفسيولوجية التي قام بها أساتذة في الجامعة الأميركية في بيروت في حينه أظهرت أن جماجم الدروز ودمائهم من الصنف العربي الصحيح.

أما الأمير شكيب أرسلان فيقول في الدروز: «الدروز في النسب عرب أقحاح لا يوجد من العرب الحاليين في جزيرة العرب أصح عروبة منهم ونستدل على ذلك بما يلي:

أولاً: من سمتهم العربية الصرفة وتشابه بعضهم لبعض إذ لا يوجد قبيل يشبه بعضه بعضاً مثل الدروز. وكان أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده، رحمه الله كثيراً ما يفضي إلي بعجبه من شدة هذا التشابه فيقول لي: إذا رأيت الرجل المعروفي فكأنك رأيتهم جميعاً.

ثانياً: من نقاوة لغتهم العربية وإخراجهم الحروف من مخارجها الصحيحة فلا نجد في الخارج من جزيرة العرب من يتكلم العربية مثل الدروز، ولا من يتلفظ بالعربية مثل الدروز، وأن المرأة منهم تسوق الحديث بعبارة إن لم تكن معربة فهي فصيحة صريحة متينة مستعملة فيها الكلمات بالمعاني التي وضعت لها. فتجدها أصح لغة من الرجل العالم من غيرهم. والفصاحة التي اشتهر بها الدروز، رجالاً ونساء آتية من كونهم عرباً.

ثالثاً: التواريخ التي عند الدروز والتي عند الطوائف الأخرى المساكنة لهم في جبل لبنان متفقة على كونهم أبناء اثنتي عشرة قبيلة عربية هاجروا من ديار حلب إلى لبنان في أوائل عهد العباسيين. ولا تزال منهم بقية في الجبل الأعلى بجهات حلب. وهذه القبائل كانت في معرّة النعمان منذ أوائل الفتح العربي. ثم أن التواتر فيما بينهم، المأثور من الخلف عن السلف يؤيد هذه التواريخ المكتوبة.

رابعاً: أنهم كانوا من الشيعة السبعية أي القائلين بالأئمة السبعة وهم فرقة من الشيعة. لما كانت الدعوة الفاطمية وتلقاها بعض الشيعة فكان منهم الإسماعيليون وكان منهم الدروز، انقسمت بعض العائلات إلى قسمين، منهم من بقي على التشيع الأصلي، ومنهم من

غلا غلو الفاطميين. ولكن هذه العائلات التي أصلها واحد معروف كثير منها إلى هذا اليوم. وهم يعرفون انهم أقارب وهؤلاء دروز وأولئك شيعة. وكذلك موجودة قرابات عصبية بين كثير من الدروز والمسلمين السنيين ويدل على ذلك انهم منذ تسعمائة سنة أي منذ وقع الانشقاق في الشجرة الواحدة — لا يزال بعضهم يعرف بعضاً. ولا يوجد حفظ الأنساب إلى هذا الحد مع تعاقب القرون العديدة إلا عند العرب.

خامساً: في الدروز أنفسهم بطون وأفخاذ معروفة الانساب إلى قبائل العرب، هذا إلى لخم، وذاك إلى طي، وناس إلى تميم وناس إلى كلب، ومنهم من دُرست سلالاتهم بأقاربه من القبائل، ومنهم من لا تزال معروفة».

وأضيف إلى ما ذكرناه من أقوال الأمير شكيب ارسلان والمؤرخ سليمان أبو عز الدين أنه بسبب تمسك الدروز بأصلهم فقد ساروا على خطة حصر التزاوج فيما بينهم محافظة على نقاء الأصول.

وحديثي عن عروبة الدروز هو، في الواقع، منطلق لقراءة الصفحات البيضاء التي خطها الدروز في سفر الأمجاد العربية، وفي ميادين العمل القومي من أجل قضايا العرب، وحرمات الإسلام.

فمنذ أن أوفد الخلفاء الأوائل بعض القبائل العربية من الجزيرة العربية والعراق إلى الديار الشامية لترابط على تخوم الدول العربية الإسلامية الناشئة، وتقيم أجنادها فيها لتحمي ثغورها من غزوات الأروام وغيرهم، وهذه القبائل التي نزلت في وادي التيم وسواحل الشام في سوريا ولبنان وشمالاً حتى حلب تقوم على حراسة الحدود.

بين هذه القبائل قامت «الدرزية» عندما استجاب البعض منها إلى الدعوة الفاطمية الحاكمية، في أوائل القرن الخامس الهجري — الحادي عشر الميلادي.

هؤلاء المستجيبون — الدروز — ثابروا على اداء مهامهم في حراسة الثغور العربية الإسلامية. بل وكأن استجابتهم للدعوة أعطتهم دفعاً جديداً للقيام بواجبهم تجاه العروبة والإسلام. وتزامن نشر الدعوة الدرزية وتركيزها في بعض المناطق مع قدوم الحملات الصليبية إلى هذه الديار.

وكانت السلطة الإسلامية في تلك المرحلة، على قدر من الضعف تتشارك فيه كل الدول الإسلامية القائمة آنذاك. من عباسية وفاطمية وسلجوقية. ضعف امتد حتى الأندلس.

وهبّ الدروز من مناطق انتشارهم — أي في وادي التيم وسواحل الشام وأعالي حلب — هبوا لمقارعة الغزاة الصليبيين. وكان التنوخيون ومنهم البحتريون والأرسلانيون، يرابطون على الجبال المشرفة على بيروت ولكن وبسبب ضعف الدولة الفاطمية التي كانوا ينتمون إليها، لم تتمكن القوات الإسلامية من صد الغزو الصليبي. على أن التنوخيين ظلوا، على قلة عددهم يقاومون امتداد الغزاة وفي واقعة «عين التينة» جنوبي بيروت انتصر البحتريون الدروز على الفرنجة. وغدر الصليبيون، فيما بعد، بالأمراء التنوخيين، ولكن الدروز تمكنوا بمساعدة السلطان صلاح الدين الأيوبي من الثار منهم.

ويقول المؤرخ كمال الصليبي في كتابه «منطلق تاريخ لبنان» بالحرف: «وكان الجهاد الناجح ضد الفرنجة في فترة الحروب الصليبية قد اقتصر على الدول السنية وحلفائها من الباطنية (الدروز) في وادي التيم، ثم من الدروز في جبل بيروت» انتهى.

ومع انتقال المنطقة من حكم المماليك إلى حكم العثمانيين في أوائل القرن السادس عشر انتقل الحكم بين الدروز من التنوخيين إلى المعنيين. وكان المعنيون، المنتمون إلى قبيلة «ربيعة» العربية، والنازلون في شمالي سوريا قد حاربوا الصليبيين هناك قبل أن ينتقلوا، وبطلب من المماليك، إلى البقاع، ومن ثم إلى الجبل الدرزي حيث نزلوا لدى الأمراء التنوخيين ليساندوهم في صد الغزوة الصليبية. وما لبثوا أن خلفوا التنوخيين في الإمارة، وثبت الفاتح العثماني السلطان سليم الأول حكمهم على البلاد. وتناسب المعنيون مع التنوخيين الدروز وكذلك مع الشهابيين السنّة، واشتركوا جميعاً في قتال الصليبيين.

وكعهدهم الدائم في الاباء كان الدروز أول من اصطدم مع الحكم العثماني الجديد عندما اتهموا زوراً بالتعرض، قرب جون عكار، لفرقة من الجنود الأتراك كانت تواكب عملية نقل الخزنة السلطانية إلى استانبول. وهذا الحادث جرى خارج نطاق حكم المعنيين، ولكن الدسائس الصقت بهم المسؤولية. وجردت السلطة العثمانية حملة كبيرة غدرت بهم عندما دعي قادتهم لمقابلة القائد العثماني في عين صوفر فجاؤوها وهم عزّل من السلاح ليفاجأوا بمذبحة نكراء قام بها القائد العثماني وجنوده.

كانت تلك الواقعة الغادرة بداية عهد عثماني ساده الجور والظلم والجهل وقابله الدروز بالمجابهة والتمرد والثورة. حتى لقد كان العهد العثماني في بلاد الشام عهد ثورات متلاحقة قام بها الدروز في الجبلين: جبل الدروز أي جبل لبنان، وجبل العرب في حوران ضد الحكم العثماني.

وساد خلال حكم المعنيين العدل العربي مقابل الجور التركي، وعمّ التسامح أرجاء البلاد. وامتد حكم فخر الدين المعني الثاني على أكثر بلاد الشام وأطلق عليه لقب سلطان البر. وثبته السلطان حاكماً على عربستان من حد حلب إلى حد القدس كما جاء في تاريخ الخالدي.

وفي عهد فخر الدين، ومنذ ذلك العهد، انتقل الكثير من المسيحيين وأكثرهم من الموارنة — من شمالي لبنان إلى وسطه وجنوبه حيث نزلوا في أراضي الدروز وعملوا فيها وتمتعوا بكل مزايا العدل والتسامح. وأقطعهم المعنيون والجنبلاطيون والعماديون والنكديون والتلاحقة وغيرهم من مناصب الدروز الأراضي، وبنوا لهم الأديرة والكنائس.

ومثل الحكمان التنوخي والمعني عدل العرب وسماحة الإسلام في التعامل مع المواطنين المسيحيين.

وانقرض الحكم المعني في آخر القرن السابع عشرة بوفاة الأمير أحمد المعني بدون عقب، فاختار عُقال الدروز وزعماؤهم الأمير الشهابي السني حيدر حفيد الأمير أحمد المعني، من أمراء وادي التيم أميراً. وانتقل الحكم من المعنيين الدروز إلى الشهابيين السنة بمبادرة من الدروز وبموافقة عامة منهم، وبدون أن يثير الأمر أية حساسية. وهكذا كنا قبل استفحال الطائفية السياسية، فأين أصبحنا بعدها!

سار الشهابيون في البدء على خطى أسلافهم المعنيين ولكن الدسائس المحلية والأجنبية ما لبثت أن بدأت تذر قرنها. فقد كانت السلطة العثمانية بدأت عهد الانحدار، وبدأ الغرب المسيحي يتطلع إلى وراثة تركة «الرجل المريض». وتدفقت البعثات والإرساليات الدينية الأوروبية على هذه المنطقة تبذر التفرقة وتزكي الخلاف. وبدأت ريح الطائفية السياسية تهب، وادى ذلك إلى تنصر بعض الأمراء الشهابيين المسلمين استجابة لدعوات أطلقها الغربيون وانصارهم. وحدث ذلك في قلب السلطنة العثمانية المسلمة. فتنصر الحكام الشهابيون السنيون في ظل الخلافة الإسلامية، وتبعهم انسباؤهم اللمعيون الدروز، وبقوا في سدّة الحكم بدون أن يطالهم عقاب الردة. وإن دلّ ذلك على شيء فعلى تسامح الإسلام. ومع ذلك يتهمون الإسلام بالتعصب!

من هنا بدأت سموم الطائفية تنتشر في البلاد لتقضي عليها. فقد كان الحكم على عهد التنوخيين والمعنيين، وفي مطلع العهد الشهابي وطنياً، غير طائفي. كان الأمير درزياً أو سنياً، ولكنه كان متسامحاً يساوي في أحكامه وفي المعاملة بين جميع الفئات. كان الدين لله والوطن للجميع.

وأصبح الوضع بعد أن تفشت الطائفية السياسية أن الدين للاستغلال، والوطن للطائفة. فما أوضح الفرق بين العهدين!

وفي أواخر العهد الشهابي ثار الدروز كعادتهم ضد الطغيان. ثاروا ضد الأمير الشهابي، وثاروا ضد المحتل إبراهيم باشا. وحاول الفريقان الشهابي وإبراهيم باشا نزع سلاح الدروز وتجنيدهم توطئة لضربهم. ولم يكتفيا بذلك بل عمدا إلى تسليح خصومهم. ولكن الدروز ثاروا ضد الإثنين وقارعوهما حتى نهاية الاثنين. وخلفهما عهد القائمقاميتين. ثم قامت الحركات في الجبل وأسفرت عن فرض نظام المتصرفية عليه حتى نهاية الحرب العظمى الأولى، التي قضت على الحكم العثماني في هذه البلاد.

وشاركت قوات الثورة العربية ـ وفيها قوات درزية ـ في إنهاء الحكم العثماني. وقام على أثره الحكم العربي الفيصلي في الداخل وبعض الساحل وشارك فيه الدروز مع سائر الوطنيين. وكان سلطان الأطرش أول من رفع العلم العربي، على دار الحكومة في دمشق. كما عين الملك فيصل الأول الهاشمي الأمير عادل أرسلان حاكماً عسكرياً معاوناً للمنطقة العربية. وشارك الدروز في قتال الفرنسيين في ميسلون كما ثاروا مراراً على حكم الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان.

وقام الدروز عام ١٩٢٥ بثورتهم الكبرى ضد الفرنسيين وتبعهم إخوان لهم وقاتلوا الفرنسيين لمدة سنتين وأنزلوا بهم خسائر فادحة دخلت في سجلات الجيش الفرنسي العريق في أمجاده العسكرية. وزعزعت الثورة السورية الوطنية مركز فرنسا في سوريا ولبنان. واشترك الدروز في ثورات فلسطين ضد الانتداب البريطاني والاستعمار الصهيوني. ولم تقم حركة وطنية في المشرق العربي إلا واشترك الدروز فيها. وكانوا في جميع وقائعهم، والحق يقال، فرسان العرب وسيوف الإسلام.

وأعود الآن بعد هذه اللمحة التي كان لا بد منها. أعود للتحدث عن «الدروز وقضايا العرب» وخاصة في العصر الحديث.

الدروز هم أقل العشائر العربية عدداً ـ ولا يوجد دروز غير عرب. ولكنهم ليسوا أقل العشائر العربية عملاً وجهاداً في سبيل العروبة والإسلام. لقد قام في هذه العشيرة رجال هم، من حيث تفانيهم في خدمة العروبة والإسلام، في سدرة المنتهى. ولا أعدو صحيح التقييم إذا ما قلت أن أعمال الدروز ومآثرهم هي، في الواقع، على تناسب عكسي مع عددهم. فهم على قلة عددهم الذي لا يصل إلى المليون الواحد، قاموا بأعمال ومآثر تتجاوز بكثير نسبتهم العددية. ولو تكلمنا عن الدروز، بذكر أعمالهم أمام مقدريهم ممن لا يعرفو ن بالدقة عدد الدروز لظنوا أن الدروز ملايين وملايين.

وهل أنا في حاجة لذكر أعلام الدروز؟ وهل بإمكاني أن أذكرهم جميعا؟ كلا، فالوقت يضيق لذلك، والذاكرة قد لا تحويهم جميعاً، وحتى الكتب والسّير قد لا تستوعب جميع أصحاب الحق. فلا أقل من أن أستعيض عن ذكر الكل الجدير، ولكن غير الممكن، بالبعض الممكن مع التقدير للكثرين ممن قد لا يرد ذكرهم للأسباب المقدمة آنفاً.

وهل من يتقدم ذكره ـ وحتى ولو تجاوزنا نطاق الدروز ـ على ذكر الأمير شكيب أرسلان، أمير البيان، وإمام المسلمين المجاهدين في العصر الحديث.

هو المجاهد الأديب، الناثر والشاعر، العلّامة، لسان العرب، وداعية الإسلام. هو منا من هذا البلد الذي يعرفه الكثيرون بأنه بلد شكيب أرسلان.

إشعاعه غطى العالمين العربي والإسلامي ووصل إلى أقاصي المعمور.

لم يكن من حظي أن أتعرف إليه شخصياً وأن أجالسه سوى مرة واحدة في بيروت ١٩٤٦ ـ ذلك أنه عاش طيلة سنواته الأخيرة مبعداً عن بلاده، عاش في جنيف وسائر أوروبا. ولكنني تعرفت إليه من كتبه وكتاباته ورسائله، وأحاديث الناس عنه.

أمضى حياته الطويلة والغنية والمثمرة في الجهاد من أجل الإسلام والعرب. جاهد بفكره وبقلمه وبسيفه، وجاهد بماله وصحته، وطبعت حياته كلها بالعمل الدائم من أجل قضايا أمته وبلاده.

عام ١٩٣٥ نشرت مجلة «الضياء» الهندية التي كانت تصدرها «ندوة العلماء المسلمين» في لاكناو في الهند، أن مجمعاً إسلامياً انعقد ذلك العام لاختيار أعظم رجل بين المسلمين الأحياء. وحضر الاجتماع عدد كبير من العلماء والأئمة والأدباء. وترددت في الاجتماع أسماء: الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال، والأمير شكيب أرسلان، والسيد محمد رشيد رضا، والأمير عبد الكريم الخطابي، والسيد شريف السنوسي، ومولانا محمد علي، ومصطفى كمال أتاتورك، ومحمد رضا بهلوي. وفاز الأمير شكيب أرسلان بلقب أعظم رجال الإسلام.

ويروي الأمير عادل أرسلان في مذكراته أنه كان بصحبة شقيقه الأمير شكيب ينتظران في

مرفأ مرسيليا الصعود إلى الباخرة للعودة إلى بيروت. ويقول: «وإذا بحمّالة مغاربة سمعوا كلامنا بالعربية فسلموا علينا وإذا بأحدهم وقد رأى بطاقة أخي شكيب مربوطة بإحدى الحقائب يقول من هو الأمير شكيب؟ فقلت هذا فوقع على يديه يلثمهما. فظننت أنه من برقة عرف أخي أثناء جهادها، فإذا هو من تونس. ذهب الرجل ثم عاد بخمسة من رفاقه التوانسة والجزائريين فأخذوا بلثم يدي شكيب والدعاء له، وحملوا الحقائب وشقوا لنا طريقنا وانتهى بنا المغاربة إلى مكاننا في الباخرة. وإذا بهم قد صاروا عشرين يتصايحون: الأمير أرسلان هنا. هذا هو نصيرنا. فحمّالة وعملة من فقراء المغاربة يقرأون مقالات شكيب في الدفاع عن بلادهم فيثور فيهم هذا الشعور الطيب الكريم»

هذا هو الأمير شكيب أرسلان، صنو الملوك والرؤساء، ونصير الشغيلة والفقراء وأمير المجاهدين والأدباء.

وأتحدث عن سلطان باشا الأطرش، القائد العام للثورة السورية الوطنية، الذي نازل الأتراك الذين أعدموا والده ذوقان الأطرش غدراً، ونازل الفرنسيين وأنزل بهم الهزائم يقود جحافل الثوار الميامين من الجبل إلى الغوطة إلى الجولان ووادي التيم. الأطرش الذي قال فيه الشاعر القروي:

«فيا لك أطرشاً لما دعينا
لثأر كنت اسمعنا جميعاً»

حياته كانت سلسلة متصلة من الجهاد ضد الأتراك وضد الفرنسيين؛ وضد الطغيان. وسنوات طويلة عاشها منفياً في الصحراء. ولما عاد إلى سوريا المستقلة، وطنه الحر أصبحت داره في «القرية» في جبل العرب محجة للوطنيين، ومنارة للمجاهدين إلى أن وافاه القدر المحتوم. وأذكر أنني شاركت مع فريق من صحبي في مأتم الراحل الكبير. وكتبت لدى عودتي من مهرجان البطولة أقوال «أنا عائد من جبل العرب، جبل البطولة والرجولة والوفاء عائد من مهرجان فارس الجبل وكل جبل. لم أذهب إلى السويداء لحضور المأتم، ولا من المأتم عدت. ذهبت لتحية البطل الخالد سلطان الأطرش ولأستعيد النشوة القومية التي افتقدناها منذ حين. وبالنشوة عشت تلك الساعات وبالكبرياء عدت. فأنا من الجيل الذي نما على وهج بطولة سلطان وإخوان سلطان. من معينها نهل، ومن نورها استضاء، ومن تعاليمها اقتبس، وبذكرها يعتز».

وتشع علينا ذكرى أمير السيف والقلم الأمير عادل أرسلان وإشعاعها يبهر العيون.

فالأمير عادل هو الفارس العربي النبيل ـ هو الأديب، المفكر، والشاعر الناثر، والإداري الحازم، والمقاتل الباسل. هو المتحدث اللبق، والجليس الأنيس، والمفاوض الساحر، والحاكم العادل ـ عمل قائممقاماً للشوف وعضواً في مجلس المبعوثان العثماني. شارك في الثورة العربية، وعينه الملك فيصل الهاشمي لدى تحرير الشام معاوناً للحاكم العسكري العام للبلاد. وشارك في الثورة السورية الوطنية فكان القائد المغوار الذي يخوض بنفسه المعارك. وقاسى الحرمان في الصحراء، في الأزرق ووادي الرحان يقتات، وهو ربيب العز والجاه، على أعشاب الصحراء، ويقاسم رجاله شظف العيش.

لقد أغدق الله، عز وجل، على الأمير عادل من الخلائق ما عزّ نظيرها، وما قلّ أن تجمعت في شخص واحد. لقد أعطاه الله وأجزل له العطاء. كان كريم المحتد، نبيل الخلق، جميل الصورة، متين البنية، قوي الشخصية، سلس الحديث، سريع الخاطر، وكان، قبل كل ذلك سيداً لمكارم الأخلاق.

لقد كان من حظي أن تعرفت عليه وأنا في مطلع حياتي، طالباً في الحقوق في جامعة باريس، وجالسته وتعلمت منه الكثير، وأسبغ علي صداقته ومودته، وحدثني عن سيرته وهو الذي دربني وشجعني على كتابة المذكرات. وأذكر أن المغفور له مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني قال لي عنه: «الأمير عادل هو رجل العرب» قال لي الحاج أمين ذلك في وقت كان فيه الكثيرون يعتبرون الحاج أمين رجل العرب.

في الأميرين الشقيقين، الأمير شكيب والأمير عادل قال الشاعر العربي الكبير الرصافي:

«لبعضهم شهرة بالسيف واحدة
وبعضهم شهرتاه السيف والقلم
كعادل وشكيب في أكفهما
جال اليراع وصال الصارم الخزم»

واصل إلى كمال جنبلاط، وكلكم تعرفونه فهو واسطة العقد بين رجال الفكر والأدب والسياسة، وحتى السيف، وهو المعلم الألمعي البارز لصفوف العمل الوطني على صعيد التحرر والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وكمال جنبلاط بحر عُباب لا حصر لحدوده، على أنني سأقصر كلامي عنه ضمن نطاق الحديث عن قضايا العرب.

عمل كمال جنبلاط لقضايا العرب، كما عمل للبنان. كان على رأس الهيئة العربية المساندة للثورة الفلسطينية، وأدى لإخواننا الفلسطينيين مساعدات جلى في لبنان وفي دنيا العرب، ووحد بين جهود الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية، ووضعهما في خندق واحد. وكان من أقرب القادة العرب، إن لم يكن أقربهم، للرئيس العربي الخالد جمال عبد الناصر. وكانت له لدى الرئيس منزلة خاصة وكثيراً ما قال لي الرئيس عبد الناصر أن كمال جنبلاط كان من رجالات العرب الذين يقدرهم ويحترم آراءهم. ولا غرو في ذلك فكمال جنبلاط قيمة فكرية كبرى.

لقد أنشأ كمال جنبلاط مدرسة نموذجية للعمل الوطني العربي، وأنشأ جيلاً بل أجيالاً من الشباب العربي العقائدي النابه ووضع أسلوبا متقدما ومتميزا للعمل الفكري، والادبي والسياسي. كمال جنبلاط، هو في الواقع، معلم للجيل العربي الحاضر ورائد قومي للأجيال العربية القادمة.

وأتحدث عن رشيد طليع، وقد لا يعرفه الكثيرون من الجيل الجديد، فأقول أنه كان من كبار رجال الحكم والإدارة في الديار الشامية، في العهد العثماني، وفي العهد العربي في دمشق. تقلب في مختلف المناصب الإدارية قائمقاماً ومتصرفاً. كان متصرفاً لطرابلس الشام حيث بقيت ذكراه المجيدة تفوح في تلك المدينة العزيزة وسمعت أصداءها الطيبة بنفسي عندما توليت إدارة الفيحاء. واختير فترة نائباً في مجلس المبعوثان العثماني. وعمل خلال الثورة العربية الكبرى. وشارك في الحكم العربي الفيصلي في دمشق، وتولى فترة إدارة الشؤون الداخلية، وذهب والياً على حلب وبقي فيها حتى زوال الحكم العربي بعد ميسلون. وانتقل إلى جبل العرب، ومن ثم إلى الأردن حيث دعاه الأمير عبد الله الهاشمي إلى تشكيل حكومة عربية في الأردن، ولكنه لم يلبث أن اصطدم بالمستعمر البريطاني، فاستقال وغادر الأردن إلى القدس فمصر. ولما قامت الثورة السورية سارع للانضمام إليها، وجاهد رشيد طليع مع إخوانه في الثورة، وتولى مهام قيادية رفيعة فيها. وظل يناضل حتى وافته المنية ودفن في جبل العرب.

وأتحدث عن الدكتور قاسم أبو عز الدين، وهو أيضاً غير معروف من الجيل الجديد. كان على رأس دوائر الصحة العامة في السلطنة العثمانية لفترة طويلة قام خلالها بأعمال وإصلاحات كثيرة، خاصة في ميادين الوقاية الصحية، وفي تنظيم وتركيز الحجر الصحي في الديار الإسلامية المقدّسة. وانتقل من الحجاز إلى ولايات بيروت. فدمشق وحلب والعراق وإلى ولايات الأناضول وسائر أنحاء السلطنة وأنشأ أنظمة صحية حديثة لم تكن تعرفها قبل. وأصبح مشرفاً عاماً على الشؤون الصحية في السلطنة العثمانية، وممثلاً للسلطنة في المجلس الصحي الدولي. وعاد بعد الحرب العالمية الأولى إلى موطنه، حيث دعاه الملك فيصل الهاشمي إلى دمشق لتكليفه بوزارة الصحة في الحكومة العربية. ولم يكد يصل إلى دمشق حتى دخلها الفرنسيون وقوّضوا الحكم العربي فيها. وعاد إلى العبادية، ولكنه لم يستطع العيش في ظل الانتداب الفرنسي فقفل عائداً إلى استانبول حيث توفي.

والدكتور قاسم أبو عز الدين هو والد صلاح أبو عز الدين احد رجال الحكم العربي في دمشق وسكرتير الملك فيصل. وقد رافقه بعد ميسلون إلى بغداد.

وأتحدث عن المجاهد البطل فؤاد سليم، الفتى المعروفي الذي التحق بالثورة العربية وهو في أوائل العشرينات من عمره وقاتل الأتراك من العقبة حتى دمشق التي دخلها مع الجيش العربي. وفي دمشق عمل مع يوسف العظمة في تأسيس الجيش العربي السوري الفتي. وقاتل بجانب البطل العربي يوسف العظمة في ميسلون، وغادر دمشق لدى الاحتلال الفرنسي لها وذهب إلى الأردن حيث انضم إلى إخوانه في حزب الاستقلال العربي. وعند تشكيل الجيش العربي



□ عند الحاجة كان المقاتلون يجتمعون على الفور في دير القمر. (رسم غرانسير وفقاً لوصف سبول)

الأردني تولى فؤاد رئاسة الأركان فيه. ولكنه ما لبث أن اصطدم بالقيادة البريطانية. وغادر الأردن إلى مصر. ولما قامت الثورة السورية سارع إلى الانضمام إليها واشترك في معاركها، وقاد مع زيد الأطرش، شقيق سلطان، قوات الثورة في الجولان وأقليم البلان ووادي التيم.

واستشهد فؤاد في معركة مجدل شمس في الجولان. وكان بجانبه، في الجهاد حمد صعب. ودفن فؤاد في تراب مجدل شمس. وكان عمره لدى استشهاده ٣١ عاماً.

وأصل إلى النكديّين عارف وعادل، وكلاهما نور ونبراس. عارف النكدي أديب وقانوني ومصلح اجتماعي ومجاهد في سبيل الحق والعروبة. عمل في سوريا فكان مثال القاضي العادل والإداري الحازم والحاكم النزيه. وانتخب عضواً في المجمع اللغوي العربي في دمشق. وكان محافظاً لجبل العرب. وعاد إلى لبنان ليتولى إدارة الأوقاف الداودية فأنشأ بيت اليتيم الدرزي. وخلف في لبنان وسوريا أحسن الذكرى لما كان عليه من علم وخلق وتفانٍ في العمل الوطني.

وأذكر عادل النكدي الدكتور في القانون من جامعة لوزان، والعامل الدائم لقضايا العروبة حتى الاستشهاد الذي غادر جامعته في سويسرا وعاد إلى وطنه مسرعاً للاشتراك في الثورة السورية وقاتل في معاركها واستشهد في الغوطة وهو في الخامسة والثلاثين من عمره.

وأتكلم عن عجاج نويهض الأديب والمجاهد والمؤرخ والقانوني والعامل في قضايا العرب منذ قيام الحكم العربي الفيصلي في دمشق ولأكثر من ستين عاماً أمضى زهرتها في دمشق والقدس، وانتقل منها إلى فلسطين حيث عمل سكرتيراً للمجلس الإسلامي الأعلى بجانب الرئيس الحاج أمين الحسيني. وشارك في حزب الاستقلال العربي وفي تنظيم المؤتمرات العربية والإسلامية لنصرة قضية فلسطين. واعتقلته السلطات البريطانية مع رفاق قوميين له، وعمل في المحاماة وفي الصحافة وأنشأ مجلة «العرب» وانتقل بعد النكبة إلى عمان وعمل في الديوان الملكي الهاشمي وفي دوائر الإعلام. وعاد في نهاية المطاف إلى مسقط رأسه رأس المتن.

واصل إلى كمال جنبلاط، وكلكم تعرفونه فهو واسطة العقد بين رجال الفكر والأدب والسياسة، وحتى السيف، وهو المعلم الألمعي البارز لصفوف العمل الوطني على صعيد التحرر والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وكمال جنبلاط بحر عُباب لا حصر لحدوده، على أنني سأقصر كلامي عنه ضمن نطاق الحديث عن قضايا العرب.

عمل كمال جنبلاط لقضايا العرب، كما عمل للبنان. كان على رأس الهيئة العربية المساندة للثورة الفلسطينية، وادى لإخواننا الفلسطينيين مساعدات جلى في لبنان وفي دنيا العرب، ووحد بين جهود الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية، ووضعهما في خندق واحد. وكان من أقرب القادة العرب، إن لم يكن أقربهم، للرئيس العربي الخالد جمال عبد الناصر. وكانت له لدى الرئيس منزلة خاصة وكثيراً ما قالي لي الرئيس عبد الناصر أن كمال جنبلاط كان من رجالات العرب الذين يقدرهم ويحترم آرائهم. ولا غرو في ذلك فكمال جنبلاط قيمة فكرية كبرى.

لقد أنشأ كمال جنبلاط مدرسة نموذجية للعمل الوطني العربي، وانشأ جيلاً بل أجيالاً من الشباب العربي العقائدي النابه ووضع أسلوبا متقدما ومتميزا للعمل الفكري، والأدبي والسياسي. كمال جنبلاط، هو في الواقع، معلم للجيل العربي الحاضر ورائد قومي للأجيال العربية القادمة.

واتحدث عن رشيد طليع، وقد لا يعرفه الكثيرون من الجيل الجديد، فأقول أنه كان من كبار رجال الحكم والإدارة في الديار الشامية، في العهد العثماني، وفي العهد العربي في دمشق. تقلب في مختلف المناصب الإدارية قائمقاماً ومتصرفاً. كان متصرفاً لطرابلس الشام حيث بقيت ذكراه المجيدة تفوح في تلك المدينة العزيزة وسمعت أصداءها الطيبة بنفسي عندما توليت إدارة الفيحاء. واختير فترة نائباً في مجلس المبعوثان العثماني. وعمل خلال الثورة العربية الكبرى. وشارك في الحكم العربي الفيصلي في دمشق، وتولى فترة إدارة الشؤون الداخلية، وذهب والياً على حلب وبقي فيها حتى زوال الحكم العربي بعد ميسلون. وانتقل إلى جبل العرب، ومن ثم إلى الأردن حيث دعاه الأمير عبد الله الهاشمي إلى تشكيل حكومة عربية في الأردن، ولكنه لم يلبث أن اصطدم بالمستعمر البريطاني، فاستقال وغادر الأردن إلى القدس فمصر. ولما قامت الثورة السورية سارع للانضمام إليها، وجاهد رشيد طليع مع إخوانه في الثورة، وتولى مهام قيادية رفيعة فيها. وظل يناضل حتى وافته المنية ودفن في جبل العرب.

واتحدث عن الدكتور قاسم أبو عز الدين، وهو أيضاً غير معروف من الجيل الجديد. كان على رأس دوائر الصحة العامة في السلطنة العثمانية لفترة طويلة قام خلالها بأعمال وإصلاحات كثيرة، خاصة في ميادين الوقاية الصحية، وفي تنظيم وتركيز الحجر الصحي في الديار الإسلامية المقدّسة. وانتقل من الحجاز إلى ولايات بيروت. فدمشق وحلب والعراق وإلى ولايات الأناضول وسائر أنحاء السلطنة وأنشأ أنظمة صحية حديثة لم تكن تعرفها قبل. وأصبح مشرفاً عاماً على الشؤون الصحية في السلطنة العثمانية، وممثلاً للسلطنة في المجلس الصحي الدولي. وعاد بعد الحرب العالمية الأولى إلى موطنه، حيث دعاه الملك فيصل الهاشمي إلى دمشق لتكليفه بوزارة الصحة في الحكومة العربية. ولم يكد يصل إلى دمشق حتى دخلها الفرنسيون وقوّضوا الحكم العربي فيها. وعاد إلى العبادية، ولكنه لم يستطع العيش في ظل الانتداب الفرنسي فقفل عائداً إلى استانبول حيث توفي.

والدكتور قاسم أبو عز الدين هو والد صلاح أبو عز الدين أحد رجال الحكم العربي في دمشق وسكرتير الملك فيصل. وقد رافقه بعد ميسلون إلى بغداد.

واتحدث عن المجاهد البطل فؤاد سليم، الفتى المعروفي الذي التحق بالثورة العربية وهو في أوائل العشرينات من عمره وقاتل الأتراك من العقبة حتى دمشق التي دخلها مع الجيش العربي. وفي دمشق عمل مع يوسف العظمة في تأسيس الجيش العربي السوري الفتي. وقاتل بجانب البطل العربي يوسف العظمة في ميسلون، وغادر دمشق لدى الاحتلال الفرنسي لها وذهب إلى الأردن حيث انضم إلى إخوانه في حزب الاستقلال العربي. وعند تشكيل الجيش العربي



□ عند الحاجة كان المقاتلون يجتمعون على الفور في دير القمر. (رسم غرانسير وفقاً لوصف سبول)

الأردني تولى فؤاد رئاسة الأركان فيه. ولكنه ما لبث أن اصطدم بالقيادة البريطانية. وغادر الأردن إلى مصر. ولما قامت الثورة السورية سارع إلى الانضمام إليها واشترك في معاركها، وقاد مع زيد الأطرش، شقيق سلطان، قوات الثورة في الجولان وأقليم البلان ووادي التيم.

واستشهد فؤاد في معركة مجدل شمس في الجولان. وكان بجانبه، في الجهاد حمد صعب. ودفن فؤاد في تراب مجدل شمس. وكان عمره لدى استشهاده ٣١ عاماً.

وأصل إلى النكديّين عارف وعادل، وكلاهما نور ونبراس. عارف النكدي أديب وقانوني ومصلح اجتماعي ومجاهد في سبيل الحق والعروبة. عمل في سوريا فكان مثال القاضي العادل والإداري الحازم والحاكم النزيه. وانتخب عضواً في المجمع اللغوي العربي في دمشق. وكان محافظاً لجبل العرب. وعاد إلى لبنان ليتولى إدارة الأوقاف الداودية فأنشأ بيت اليتيم الدرزي. وخلف في لبنان وسوريا أحسن الذكرى لما كان عليه من علم وخلق وتفانٍ في العمل الوطني.

واذكر عادل النكدي الدكتور في القانون من جامعة لوزان، والعامل الدائم لقضايا العروبة حتى الاستشهاد الذي غادر جامعته في سويسرا وعاد إلى وطنه مسرعاً للاشتراك في الثورة السورية وقاتل في معاركها واستشهد في الغوطة وهو في الخامسة والثلاثين من عمره.

واتكلم عن عجاج نويهض الأديب والمجاهد والمؤرخ والقانوني والعامل في قضايا العرب منذ قيام الحكم العربي الفيصلي في دمشق ولأكثر من ستين عاماً أمضى زهرتها في دمشق والقدس، وانتقل منها إلى فلسطين حيث عمل سكرتيراً للمجلس الإسلامي الأعلى بجانب الرئيس الحاج أمين الحسيني. وشارك في حزب الاستقلال العربي وفي تنظيم المؤتمرات العربية والإسلامية لنصرة قضية فلسطين. واعتقلته السلطات البريطانية مع رفاق قوميين له، وعمل في المحاماة وفي الصحافة وأنشأ مجلة «العرب» وانتقل بعد النكبة إلى عمان وعمل في الديوان الملكي الهاشمي وفي دوائر الإعلام. وعاد في نهاية المطاف إلى مسقط رأسه رأس المتن.

وعجاج نويهض من أكبر أدباء العرب وضع مؤلفات عديدة، ونقل إلى اللغة كتاب «حاضر العالم الإسلامي» الذي علق عليه الأمير شكيب أرسلان. وله في ميادين التأليف والكتابة والعمل القومي جولات واسعة جعلته علماً من أعلام العروبة والإسلام.

وأذكر علي ناصر الدين المجاهد العربي. أمضى حياته في العمل الدؤوب من أجل تحرير العرب ووحدتهم. وكتب وناضل في سبيل الأهداف القومية. واعتقل ونفي مراراً بسبب آرائه الوطنية، وذاق مرارة العيش، وحتى القلة والحرمان، وتحمّل أنواع القهر من أجل عقائده الراسخة. وفي الوقت الذي وصل فيه العديد من رفاقه إلى الحكم والسلطة، بقي هو يكافح ويناضل ويعاني مرارة الخذلان حتى آخر حياته ومات كما عاش، غنياً في مبادئه وفكره وجهاده. وفقيراً في حاله وماله، معتزاً بكلا الحالتين.

واختم حديثي عن مجاهد معروفي عربي كبير قد لا يعرفه الكثيرون هنا، ولكن العروبة والإقدام والتضحية وميادين القتال كلها تعرفه، لأنه كان ابنها البار. هو المجاهد حمد صعب من الكحلونية في الشوف. عاش حياة كلها جهاد وتفان. فما قامت ثورة عربية إلا سارع إلى المشاركة فيها. قاتل في الثورة العربية الكبرى، وفي ميسلون، وفي الثورة السورية الوطنية، وفي ثورات فلسطين كلها.

شارك فوزي القاوقجي في معاركه. وانضم إلى حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام ١٩٤١، وانتقل مع صديقه ورفيق دربه فوزي القاوقجي على رأس مجموعة من قوات المساندة العربية لثورة العراق على البريطانيين لمجابهة قوات غلوب باشا «أبو حنبك» التي دخلت العراق لتطويق الثورة وأصيب حمد صعب في معركة قرب الرطبة في الصحراء إصابة قاتلة ودفن في رمال بادية الشام تاركاً وراءه ذكرى خالدة في الجهاد.

هذه الصفحات اللامعة من تاريخ الدروز القومي العربي الإسلامي لا يجوز أن نطويها قبل أن نشير إلى جهاد المرأة الدرزية ومشاركتها الرجل، أباً كان أو أخاً، أو زوجاً، في نضاله، وحتى في القتال. فهي تلازمه في المعركة، وتسانده، وتمده بالمؤن والذخائر، وتنخيه، وتثير رجولته وفروسيته، وينتخي الأب والأخ والزوج، ويزأر بصيحة الحرب «أنا أخوك يا سلمى، أنا أخوك يا هند» ويكر على العدو، ولا يعود من المعركة إلا منتصراً أو شهيداً.

وفيها يقول الشاعر القروي:

«ونساؤهم لو تشهدون نسائهم
في الحرب هاجمة مع الفرسان
كالماء ألطف ما يكون، وانه
لأشد ما يسطو على النيران»

شاهدت أخيراً على شاشة التلفزيون العربي السوري الشقيق صداماً وقع في مجدل شمس — مثوى البطل فؤاد سليم — بين نساء درزيات — صاحبات المناديل البيض — ولفيف من رجال الشرطة الإسرائيلية المدججة بالسلاح يحيط برئيس حكومة إسرائيل السابق لحراسته خلال زيارته لمجدل شمس. شاهدت بأم عيني صاحبات المناديل البيض يندفعن نحو رجال الشرطة الإسرائيلية ويدفعنهم بقبضات أيديهن ويلقين ببضعهم على الأرض ويضربنهم ويسارع هؤلاء للإحاطة برئيس حكومتهم ويدفعون به إلى سيارة للشرطة أسرعت بتهريبه، وخاصة عندما بدأ ظهور الرجال، أصحاب العمائم البيض، وهم يتقدمون للاشتراك في المعركة.

بوركت تلك وكل المناديل والعمائم البيض!

والآن، وقد أشرفنا على نهاية الحديث عن «الدروز وقضايا العرب»، لا أقول مع الفرزدق:

«أولئك أصحابي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع»

فنحن بصدد الفخار، لا التفاخر.

ولكنني أقول مع شوقي، أمير الشعراء:

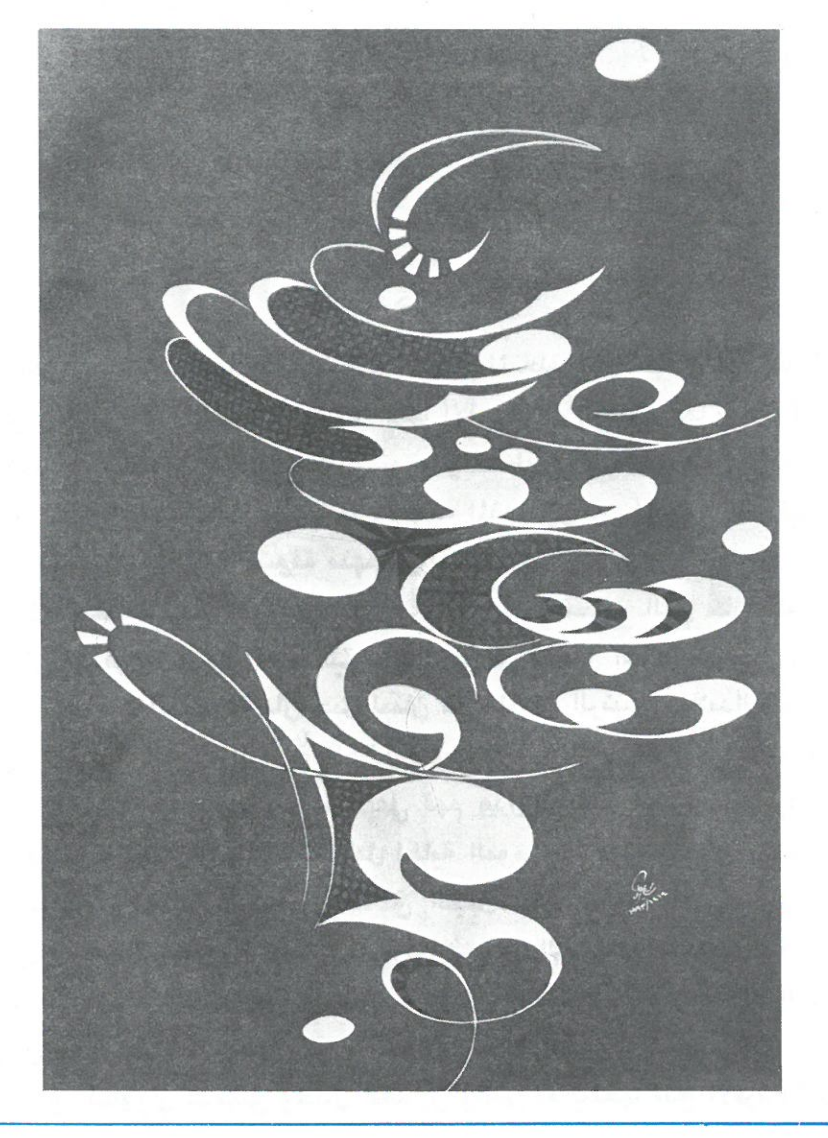
«وما كان الدروز قبيل شر
وإن أُخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيف
كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل أشم له شعاف
موارد في السحاب الجون بلقُ
لكل لبؤة ولكل شبلٍ
نضال دون غايته ورشقُ
كأن من السموءل فيه شيئاً
فكل حياته شرف وخلقُ»

●

من عرف نفسه فقد عرف ربه

«حديث شريف»

● لوحة بريشة الفنان الدكتور سامي مكارم الذي بلغ شهرة عالمية في الفن الحروفي وتقوم مدرسته الفنية على أن الحرف العربي يمتاز بحركية وليونة يستطيع الفنان بهما أن يعبّر عن جمالات تتعدى المعنى إلى انطباعية تسرح منها العواطف والأخيلة لتتلاقى مع المعاني العقلية. وبذلك يتّحد الفنان بعمله الفني ويعطي المشاهد المجال ليعبّر هو أيضاً عن عواطفه وأخيلته فيشترك مع الفنان في العملية الفنية.



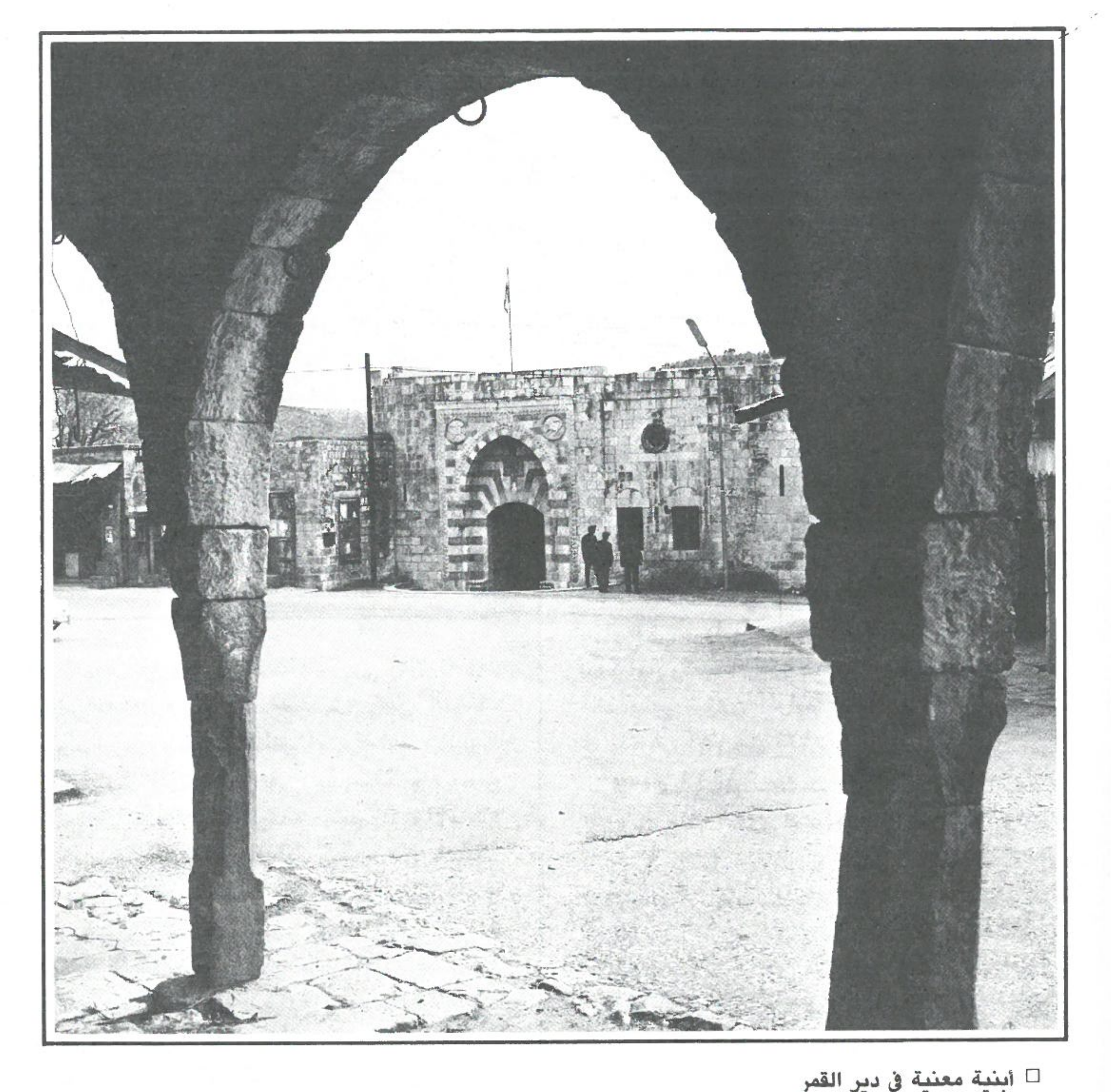
الحضور المسيحي في الشوف

الأب سليم غزال

اولاً: مدخل تاريخي:

لم تكن السيطرة الاسلامية غائبة عن معظم المناطق اللبنانية في أي وقت من الزمن منذ الفتح العربي، عدا الفترة التي جاء فيها الافرنج إلى الشرق، مما ساعد على انحسار النفوذ الاسلامي في بعض مناطق لبنان وسوريا وفلسطين. وبدءاً من الحكم العباسي، كانت جبال لبنان تعتبر ملجأ هادئا نسبيا يتردد إليه المتعبدون من المسلمين الاتقياء القادمين من أنحاء الشام ولا سيما المتصوفة منهم للتامل والتعبد في ربوعه.(١)

وينقل إلينا التاريخ اشارات كثيرة عن حسن الضيافة التي كان يلقاها هؤلاء القادمون ان من قرى الشمال المسيحية بالذات أو من مناطق أخرى من جبل لبنان. وكان الاعتقاد السائد بين المتصوفة بأن جبل لبنان هو الموطن الرئيسي «للابدال» وهم قوم من الصالحين يوفرون البركة الدائمة للعالم بوجودهم وان لم تكن هويتهم الشخصية معروفة في غالب الأحيان كما يساعدنا على فهم هذا الواقع انتشار الأديرة في الجبال اللبنانية حيث ما زالت قرى كثيرة تحمل لغاية اليوم اسم دير، وكذلك انتشار الخلوات الدرزية للصلاة والعبادة في معظم مناطق الجبل. لكن حروب الافرنج الذين عرفوا بالصليبيين اساءت للحضور المسيحي المشرقي في جبال الشوف والجنوب، فبعد انكسارهم الأخير وخراب مدينة عكا لم يبق في جبال الشوف والسواحل الجنوبية إلا القليل القليل مبعثرين في بعض مدن الساحل وقرى الجبل، وانكفأ الوجود المسيحي إلى شمال لبنان وداخل العمق السوري كدمشق وجبال القلمون والتي لم يبلغها فتح الافرنج ابدا.



□ ابنية معنية في دير القمر

أ ــ في عهد فخر الدين الثاني:

اتسم عهد الأمير المعني بالتسامح والإنفتاح مما شجع النصارى وللمرة الأولى على النزوح من الشمال اللبناني إلى بلاد الشوف والإستيطان في مناطق مختلفة وعلى نطاق واسع وذلك بسبب سياسة الأمير المرتكزة على دعائم ثلاثة: الأمن والإزدهار الإقتصادي والتسامح الديني.

إن هذه العوامل شجعت المسيحيين على الهجرة إلى بلاد الشوف خاصة والإمارة عامة وإسهامهم في النهضة التجارية والزراعية والصناعية عن طريق استغلال الأراضي وبناء الأديرة مما خلق جوا من الصفاء والأمان بين الطائفتين الدرزية والمسيحية اللتين تلتقيان لأول مرة في منطقة الشوف تحت مظلة الأمير الذي اختار مدبريه من آل الخازن واستعان بالموارنة في قيادة جيشه وعديده. وفي منطقة الشوف واقليم الخروب كانت هناك حقيقة ساطعة هي حقيقة العيش المشترك بانسجام ووئام بين الدروز

والمسيحيين والسنة والشيعة. وقد دهش المؤرخ الفرنسي «فولني» عندما زار المنطقة، وشاهد تقارب العادات والآداب العامة وجو الوفاق الذي يسود العائلات الروحية المتعددة «إن العلائات الدرزية والمارونية تعيش جنباً إلى جنب متصافية، متوادة، وأحياناً يصطحب الموارنة جيرانهم الدروز إلى الكنائس للصلاة والتبرك».[٢]

وفي عهد فخر الدين الثاني نعم المسيحيون بالأمن والبحبوحة، وتبوأوا مراكز حكومية عالية وحملوا السلاح ولبسوا العمامة البيضاء وركبوا الخيل المسرجة مما ساعدهم على الإستقرار والإنخراط في الحياة العامة طيلة عهد الإمارة.

ب ــ في عهد الشهابيين:

اعتمد الشهابيون في حكمهم على الموارنة وقد كان عددهم في تزايد مستمر، ومنذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدأ الأمراء الشهابيون بالارتداد الى المسيحية والإلتحاق بالكنيسة المارونية. ومع إنغماس الأمراء الشهابيين بالسياسة الدولية وما يسمى بالمسألة الشرقية، أخذت المشاكل تعترض طريق حكمهم، فقد ضاق العثمانيون بهم ذرعاً كما ناصبهم الدروز العداء، وهم أصلاً لم يعترفوا بشرعية حكمهم. ومع إنهيار الحكم الشهابي وتدخلات الدول الأجنبية في المسألة اللبنانية بدأت الصراعات بين الطوائف وقد كانت على احسن ما يرام من الود والإحترام والتعاون وهذا ما تؤكده عامية انطلياس سنة ١٨٤٠، حيث اقسم النصارى والدروز والشيعة والسنّة عند مذبح الكنيسة على ان يظلوا يدا واحدة مهما تغيرت الأحوال. وبعد موت الامير سنة ١٨٥٠، وإنهيار عهد الإمارة سارعت الدول الأجنبية إلى التدخل في تركة الرجل المريض وهذا ما أدى الى اندلاع الفتن بين الموارنة والدروز بتشجيع من فرنسا وانكلترا وتواطؤ من قبل الولاة العثمانيين.[٣]

إن العلاقات الإسلامية المسيحية كانت دائماً علاقات ود وإحترام وآخاء ولم يكن ما يميز بين المسيحي والدرزي في العادات والملابس وطريقة العيش، وقد نشأ التباعد منذ عهد المماليك ثم في زمن الشهابيين الذين تقربوا من النصارى إلى حين إندلعت الفتن الدامية، يغذيها الأجانب لمآرب خاصة ومصالح شخصية.

ثانياً: الكنيسة المارونية

إن الحدث المسيحي البارز هو لجوء البطريرك الماروني يوحنا مخلوف سنة ١٦٠٩ إلى كنف فخر الدين ليسكن في ظله بعد المضايقات والمظالم التي لقيها على يد المقدم شدياق خاطر الحصروني، فقد نزح هو وكهنته قاصدا الشوف عرين العدالة في ظل «المير» الذي انزله في بلدة مجد المعوش التي يملكها ابنه علي ويعمل فيها مزارعون موارنة. بنى البطريرك فيها دارا لسكناه، وكنيسة على اسم السيدة، ومن هناك اخذ يدير شؤون الموارنة كافة ويرعاهم مستقرا في المعوش اكثر من ثلاثين سنة.[٤]

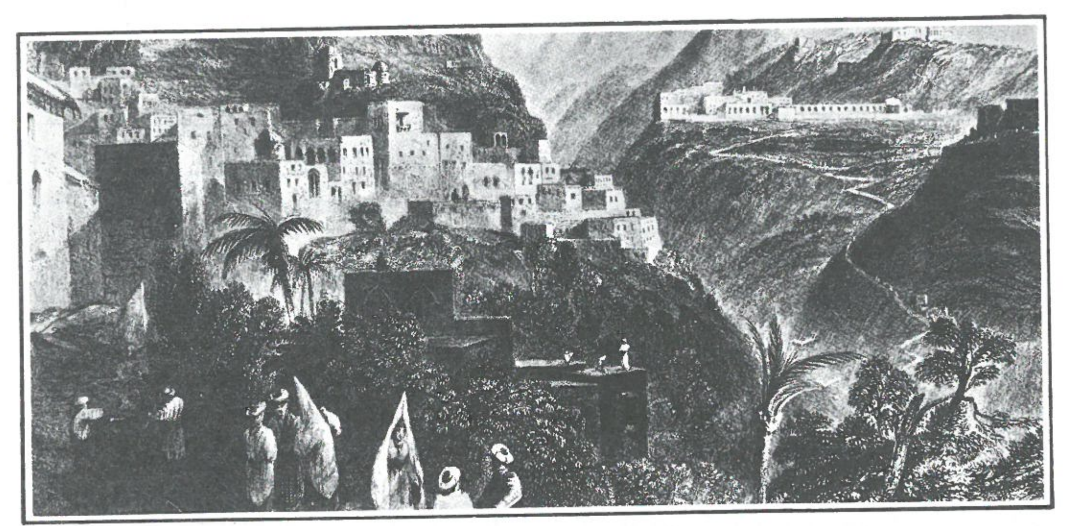
وسنة ١٦٢٦ رسم يوسف العاقوري مطرانا مساعدا له ليهتم بشؤون موارنة الشوف وابرشية صيدا. وبقيت منطقة الشوف وصور وصيدا ابرشية بطريركية يديرها مندوب عن البطريرك الرئيس المحلي الأعلى لكافة الأبرشيات المارونية. ولكن المجمع اللبناني المنعقد في اللويزة سنة ١٧٣٦ قسم الكنيسة المارونية إلى ثماني ابرشيات هي:

١ ــ حلب
٢ ــ طرابلس
٣ ــ جبيل والبترون والجبة (في الشمال)
٤ ــ بعلبك
٥ ــ دمشق
٦ ــ قبرص
٧ ــ بيروت

اما صيدا وصور والشوف فقد اعتبرت ابرشية بطريركية يديرها نائب بطريركي وذلك لما تتمتع به من مركز سياسي مرتبط بالإمارة.

وقد تعاقب على الابرشية البطريركية هذه كل من:

ــ اغناطيوس شرابية ١٧٣٢ ــ ١٧٤٧



□ دير القمر وقصر بيت الدين ــ القرن التاسع عشر

ــ جبرائيل عواد ١٧٥٥
ــ يوسف حبيش ١٧٥٥ ــ ١٧٧٠
ــ سمعان زوين ١٨١٤ ــ ١٨٤٨
ــ عبد الله بستاني ١٨١٩ (الذي في عهده جرى التعديل المجمعي سنة ١٨٣٧ حيث أصبحت أبرشية جبيل والبترون والجبة أبرشية بطريركية، أما أبرشية صيدا وصور والشوف فأصبحت أبرشية مستقلة وسرعان ما انسلخت عنها في عهد المطران بولس بصبوص، أبرشية صور، وأصبحت مطرانية مستقلة سنة ١٩٠٦ وذلك بقرار من البطريرك الياس الحويك آنذاك.)

مطارنة أبرشية صيدا وصور والشوف

ــ عبد الله بستاني (١٨٣٦ ــ ١٨٦٦): من مواليد الدبية (إقليم الخروب)، بنى اكليركية في قرية مشموشة (جزين) وكان يتنقل بين مشموشة وانطش كنيسة مار مارون (بيت الدين). بعد تنحيه عن إدارة الأبرشية، سكن قرب الدبية متقشفا حتى توفي سنة ١٨٦٦.

ــ بطرس البستاني: رقي مساعدا لرئيس اساقفة الابرشية سنة ١٨٥٦، وأصبح بعد وفاة عمه المطران عبد الله مطرانا أصيلا حتى سنة ١٨٩٩. رافق نشوء المتصرفية وكان رجل الحوار، والسياسي المحنك، وقد لعب دوراً كبيراً في وأد فتنة ١٨٦٠ المؤلمة وتضميد جراح الشوفيين وتهدئة خواطر اللبنانيين وتعمير ما تهدم وتعميم الصفاء بين قلوب دروز الجبل ومسيحييه. سنة ١٨٧٠ اشترك في المجمع الفاتيكاني الأول وفي سنة ١٨٦٣ اشترى من الست حسن جهان، حرم الأمير بشير الكبير، قصراً في أعالي بيت الدين جعله الكرسي الأسقفي للأبرشية وفيه توفي ودفن.

ــ اوغسطين البستاني: من مواليد دير القمر ١٨٨٥. انتخب اسقفاً سنة ١٩١٩ مع بداية عهد الانتداب، وطد العلاقة مع الدروز وبالأخص البيت الجنبلاطي، وارسى الحوار مع سائر الطوائف الإسلامية، وصادق الفرنسيين، فاحترمه الجميع واتخذوا من كرسيه في بيت الدين ملتقى الوئام والوفاق. من اعماله: بناء كاتدرائية مار الياس في صيدا سنة ١٩٥٢ وكنيسة سيدة الخلاص الى جانب مطرانية بيت الدين. توفي سنة ١٩٥٧.

ــ انطونيوس خريش: من مواليد عين ابل (الجنوب) ١٩٠٧. عين مساعدا للمطران اوغسطين البستاني سنة ١٩٥٠، ثم مطراناً

اصيلاً بعد موت سلفه. عمل على بناء واصلاح ما تهدم من الابرشية من كنائس على اثر زلزال ١٩٥٦. انتخب بطريركاً للطائفة المارونية سنة ١٩٧٥، وعين كاردينالاً، وقد قدم استقالته في العام ١٩٨٥.

ـــ ابراهيم الحلو: من مواليد وادي جزين ١٩٢٥، انتخب رئيساً لأساقفة صيدا والشوف سنة ١٩٧٥. واجه أحداث الحرب اللبنانية وما نتج عنها من مآسي التهجير والتهديم في منطقتي صيدا والشوف، بالصمود والدراية. وكان داعية لعودة ابناء المنطقة لبيوتهم وقراهم. وتقديرا لموقفه وفطنته عينه البابا يوحنا بولس الثاني سنة ١٩٨٥، مدبرا رسولياً على الكنيسة المارونية بعد استقالة البطريرك خريش، وتنويهاً بما قام به، منحه البابا وسام جليس العرش البابوي، وهو لا يزال يتابع عطاءه في خدمة ابرشيته وعودة المهجرين إليها.

أهم الأديار المارونية

١ ــ انطش وكنيسة سيدة التلة في دير القمر: بنته الرهبانية المارونية المريمية (حلبية سابقاً) سنة ١٧٥٢ في عاصمة الإمارة، وأقامت بجانبه مدرسة لتعليم الأحداث. وهذه المدرسة جمعت أولاد النصارى وأولاد الأمراء والدروز، فكانت أول مدرسة في الشوف.(٥)

٢ ــ دير مار عبدا في دير القمر: في عهد البطريرك الماروني يوسف حبيش استحصل الأبوان نعمة الله البكفاوي وبطرس الغزيري على الإجازة لهما بمباشرة بناء دير مار عبدا سنة ١٨٥٠ وحوالي السنة ١٩٦٣ بنت الرهبانية المريمية مدرسة ثانوية متكاملة.

٣ ــ دير مار مارون ــ مجد المعوش: اشترته الرهبانية المارونية من الامير منصور شهاب سنة ١٧٥٧ وكان الرهبان قد عملوا في اراضيه كعمال زراعيين منذ سنة ١٧٤٠. تم بناء الدير سنة ١٧٨٣ وتشييد كنيسته سنة ١٧٩٥.

٤ ــ دير مار جريس الناعمة: في سنة ١٧٥٦ تسلمت الرهبانية اللبنانية من الشيخ كنعان أبي نكد أحد وجهاء الدروز، أرض الناعمة لأجل تشييد دير للرهبانية، وذلك بموجب صك شرعي: «هو اننا أعطينا إلى حضرة أعزازنا الرهبان اللبنانيين في وقت تاريخه دون غيرهم وهو مكان دير يعمرون بأرض الناعمة ويكون وقفاً مخلداً في سبيل الله تعالى ويكون ملكاً لهم كباقي ديورتهم وأملاكهم الشرعية. وقد أوقفنا للدير المذكور بستان المشمش وشهرته تغني تحديده وقفاً مخلداً للدير المذكور كباقي حدود الدير بلا ميري ولا خراج... ولهم منا السعفة والحماية والصيانة هم وجميع رهبانهم كذلك كل من يدخل ديرهم وكان مظلوماً أو متهوماً لا نسمح أن ينمسك في الدير لأجل وقار الدير لأن ناموس الدير وناموس حارتنا واحد» في شهر جمادي الأول سنة ١١٧٠ هجرية التي توافق مسيحية ١٧٥٦» (الأب يوسف محفوظ مختصر تاريخ الرهبانية ص ٢١٤).

٥ ــ دير مار شربل الجيه: في السبعينات من هذا القرن انشأت الرهبانية المارونية اللبنانية ديراً على إسم القديس شربل في بلدة الجيه ــ الشوف وأتبعتها بمدرسة ثانوية.

٦ ــ دير مار انطونيوس ــ سير (رويسة النعمان): انشأ هذا الدير راهب يدعى انطونيوس من بيت مبارك، ثم أوقفه على الرهبانية اللبنانية بموجب صك مثبت من السيد البطريرك يعقوب عواد سنة ١٧٠٧. في هذا الدير نشأ الأمير بشير الشهابي متخفياً، وكان الأب اغناطيوس بليبل مبتدئاً في الدير نفسه. فكلفه الأب الرئيس العناية بالأمير، فقام بهذه المهمة أحسن قيام، وتمكنت الصداقة منذ ذاك الحين بين هاتين الشخصيتين البارزتين: الأمير بشير الشهابي والأب بليبل الذي صار رئيساً عاماً على الرهبانية مدة إحدى وعشرين سنة ١٨١١ ــ ١٨٣٢، فكان من باعثي نهضتها وتعزيز جانبها وبناء أديرتها بروح الحكمة والمحبة.

٧ ــ دير مار يوحنا المعمدان ــ رشميا: أسس هذا الدير الشيخ الحاج صقر سعد سنة ١٦٥٦. وفي ١٧٠٦ تسلمته الرهبانية واشترت له املاكاً أتبعتها له.



□ ساحة كنيسة مار الياس ــ دير القمر

٨ ــ دير سيدة مشموشة: كان المطران سمعان عواد قد أخذ قطعة أرض هبة من أحد أعيان الدروز، الشيخ قبلان أبي هرموش، ومن قرينة الأمير أحمد المعني، في بلدة مشموشة قضاء جزين، وهو من أبناء المنطقة. فبدأ بتأسيس بناء له ثم عدل عن مواصلة البناء، وباعه للرهبانية اللبنانية المارونية وكان ذلك في ١٠ آب ١٧٣٦، ثم اشترت الرهبانية أملاكاً جديدة، وفتحت فيه مدرسة لتعليم أولاد المنطقة ما زالت تعمل في خدمة الثقافة والعلم. فكان أول دير للموارنة في إيالة صيدا وكان يسمى دير سيدة الشوف.

٩ ــ دير مار انطونيوس جزين: في سنة ١٧٧٤ طلب الراهب الانطوني توما مدلج الإجازة لبناء هذا الدير من البطريرك يوسف اسطفان ومن المطران ارميا نجيم المسؤول عن منطقة جزين والذي خصصه للراهبات الانطونيات المتعبدات. أما الكنيسة التي لم تزل قائمة فقد بناها الأب جناديوس جرمانوس حيطور سنة ١٨١٥ كما هو معروف من الكتابة المنقوشة فوق بابها.

١٠ ــ دير مار بطرس ــ القطين: بنى المطران جبرائيل عواد في قطين اقليم جزين ديرا على اسم مار بطرس وسلمه إلى الرهبان الإنطونيين سنة ١٧٦٠، وكان المطران المشار إليه ساكناً في هذا الدير يتبعه الرهبان فيه.

١١ ــ دير بحنين ــ جزين: قررت الرهبانية اللبنانية بعهد رئاسة الأب إفرام جعجع العامة (١٨٦٢ ــ ١٨٧٥) بناء دير في بحنين وتم بناؤه وسكنه الرهبان وقاموا بخدمة البلدة وجوارها.

ثالثاً: كنيسة الروم الملكيين

يقول المؤرخ الأب قسطنطين الباشا «ولما كثر عدد الروم الملكيين في الإمارة المعنية، ولا سيما في صيدا، والشوف، بمن هاجر من شمال لبنان وطرابلس وعكار وحوران ودمشق وغيرها،

وأكثرهم رجال تجارة وصناعة وزراعة وفيهم أصحاب كلام، التمسوا من الأمير فخر الدين الثاني الإذن لإقامة مطران لهم في صيدا أسوة بأهل طرابلس. وحببوا إليه ذلك وأغروه بانتداب كاتب يده السابق الراهب اغناطيوس عطية، ليكون مطرانا على الرسم القديم لصور وصيدا (الشوف يتبع أبرشية شرعا) حتى ينال بذلك حق التقدم على مطران طرابلس التابعة لإمارة يوسف ابن سيفا عدو فخر الدين ومنافسه. فكان ذلك غاية ما يحب الأمير». وكان اغناطيوس عطية قبلاً كاتباً عند الأمير وقد اختصه لأدبه ولباقته وحسن خطه ورجاحة عقله. ثم هجر العالم وترهب وتدرج بالكهنوت. وبعد سيامته الأسقفية أقام بجوار الأمير بين صيدا ودير القمر، إلى أن أنتخب بطريركاً على الروم الملكيين سنة ١٦١٩ وبقي في البطريركية بظل الأمير حتى مات قتلاً سنة ١٦٣٤ بيد أحد أصدقائه عن غير قصد إذ كان راكباً حصانه وحده ومارا في الطريق بين السعديات والدامور، عائدا من صيدا إلى بيروت بعد جناز مطران صيدا مرقص المتنيح. ودفن في بلدة الشويفات كما يليق بمقامه.[٦]

اساقفة صور وصيدا والشوف للروم الملكيين قبل الإتحاد مع روما:

اغنطايوس عطية ١٦٠٤ — ١٦١٩ (انتخب بطريركا)
مرقص ١٦١٩ — ١٦٣٤
سابا ١٦٣٥ — ١٦٤٧
ارميا ١٦٤٨ — ١٦٨٢
افتيموس الصيفي ١٦٨٢ — ١٧٢٣

اساقفة صيدا ودير القمر (الشوف) للروم الكاثوليك بعد الإتحاد مع كنيسة روما:

اغناطيوس البيروتي ١٧٢٤ — ١٧٥٨ (١٧٥٦ تم فصل ابرشية صور عن صيدا والشوف)
باسيليوس فينان ١٧٢٤ — ١٧٥٢ (سيم على اسم بانياس وكان يهتم بمنطقة الشوف ودير المخلص)
باسيليوس جلفاف ١٧٥٨ — ١٧٦٣
اثناسيس جوهر ١٧٦٣ — ١٧٨٨ (انتخب بطريركا)
اغابيوس مطر ١٦٥٩ — ١٧٩٦ (انتخب بطريركا)
اثناسيوس مطر ١٨٠٠ — ١٨١٣ (انتخب بطريركا)
باسيوس خليل ١٨٢١ — ١٨٣٦
ثيودوسيوس قيومجي ١٨٣٦ — ١٨٨٦
باسيليوس حجار ١٨٨٦ — ١٩١٦
اثناسيوس خرياطي ١٩٢١ — ١٩٣١ (مواليد جون الشوف)
نقولا نبعة ١٩٣١ — ١٩٤٦ (مواليد جون الشوف)
باسيليوس الخوري ١٩٤٦ — ١٩٧٧ (استقال وتوفي سنة ١٩٨٥)
ميشال حكيم ١٩٧٧ — ١٩٨٠ (نقل الى ابرشية كندا)
أغناطيوس رعد ١٩٨١ — ١٩٨٥ (استقال)
الأب سليم غزال ١٩٨٥ — ١٩٨٧ (عين مدبرا بطريركيا للابرشية)
جورج كويتر ١٩٨٧ وهو يعمل بكد لعودة المهجرين وبناء ما تهدم وإعادة اللحمة إلى النفوس.

ولا يسعنا في هذا المجال إلا ذكر البطريرك الإنطاكي كيرلس المغبغب ابن عين زحلتا وقد عرف بنشاطه والنهضة العمرانية التي تحققت في عهده ١٩٢٥ — ١٩٤٧. وهو الذي بنى كنيسة ومدرسة الراهبات في عين زحلتا.

أديرة الروم الملكيين الكاثوليك

— دير المخلص محطة لقاء درزي مسيحي:

يعد من أكبر الأديار الشرقية وهو أقدم دير في الشوف وجنوب لبنان، وقد بناه في أوائل القرن الثامن عشر الطيب الذكر المطران افتيموس الصيفي مطران صور وصيدا والشوف على أكمة في اقليم الخروب ليكون ملاذا له ولرهبانه الذين جمعهم فيه لعبادة الله وخدمة الناس. وفي ذلك الحين كان بناء الأديار والكنائس صعباً في مملكة آل عثمان. وموقع هذا الدير على أكمة جميلة تبرع بها على المطران المذكور الشيخ قبلان

القاضي كبير شيوخ الشوف يومئذ مقابل ثلاثين قرشاً أو بالأحرى مقابل صداقته للمطران وقد كمل بناؤه في عهد الشيخ علي جنبلاط وهو صهر الشيخ قبلان القاضي وكان له غرفة في الدير ينام فيها ويقال لها غرفة الشيخ. وكان رهبان هذا الدير من أول نشأته نخبة من ذوي النفوس الكريمة الذين تربوا على بذل النفس وهم من جميع مدن وقرى سوريا وفلسطين ولبنان، وعلى تلك الشيم جرى التقليد حتى تغلب على اسم دير المخلص لقب العامر.

ويعتبر دير المخلص مركز إشعاع روحي وثقافي وإجتماعي من خلال الروح التي أرادها المؤسس في رهبانه وقد عاش رهبان الدير في الصلاة والتأمل والتعليم والتأليف وخدمة المجتمع طيلة سنوات من الزمن، ورغم المحن والأحداث القاسية التي عصفت بالدير وآخرها محنة الأحداث الأخيرة التي هجرت رهبانه مع سكان المنطقة مدة خمس سنوات. وها هو اليوم يعود مجدداً، بالتعاون مع معالي الوزير وليد جنبلاط إلى خدمة أبناء المنطقة من خلال المدرسة بفرعيها الأكاديمي والمهني ونشاطات ثقافية وإجتماعية متنوعة عن طريق حلقة التنمية والحوار التي تأسست في صيدا[٧] وصار لها فرع في منطقة الإقليم.

أعطى دير المخلص ثمانية بطاركة وثمانية وخمسون مطرانا نذكر منهم:

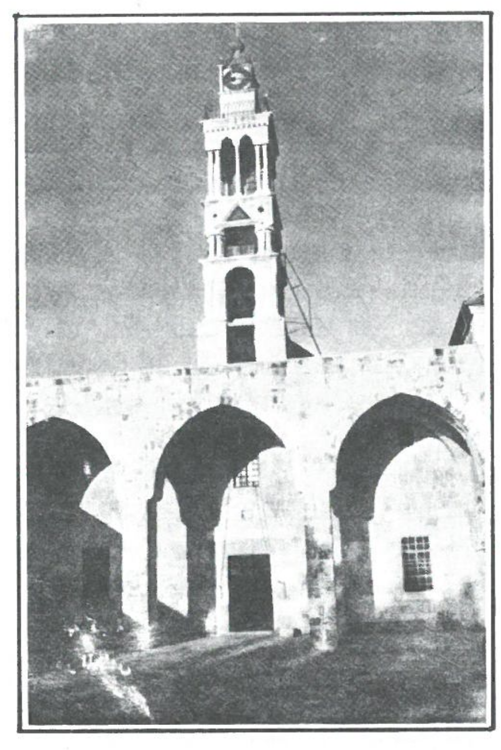
١ — البطريرك كيرلس طاناس ١٧٢٤ — ١٧٦٠ وهو أول بطريرك ملكي كاثوليكي.

٢ — البطريرك اكليمنضوس بحوث ١٨٥٦ — ١٨٦٤ وهو أدخل الحساب الغربي الغريغوري الجاري حالياً.

٣ — البطريرك غريغوريوس يوسف ١٨٦٤ — ١٨٦٧ وقد لفت الأنظار بموافقة في المجمع المسكوني الأول بخصوص امتيازات الكنيسة الشرقية.

٤ — المطران جرمانوس معقد ١٨٨٦ — ١٨٩٤ وهو مؤسس جمعية الأباء البولسيين في حريصا.

٥ — المطران باسيليوس حجار ١٨٨٧ — ١٩١٦ اشتهر ببناء كنيسة وجامع في مدينة صيدا لما كان له من مرتبة عند الباب العالي. أنشأ الكاتدرائية والمطرانية في صيدا والمدرسة الأسقفية في دير القمر وعشرات المدارس والكنائس في الجبل والساحل.



□ قبة كنيسة دير المخلص

٦ — المطران غريغورس حجار ١٩٠١ — ١٩٤٠ وقد لقب «مطران العرب» بسبب دفاعه عن حقوق العرب في فلسطين.

وأما أهم الإعلام فنذكر منهم:

١ — الأب سابا كاتب ١٧٥٠ — ١٨٢٧ وقد كان نديم الأمير بشير الخاص ألف عدة كتب في اللاهوت والفلسفة.

٢ — الأب نقولا أبو هنا ١٨٨٨ — ١٩٥٦ من مواليد بطمة الشوف من اللغويين البارزين في عصرنا وهو شاعر وأديب مسرحي.

٣ — الأب قسطنطين الباشا ١٨٧٠ — ١٩٤٨ من المؤرخين البارزين كتب تاريخ طائفة الروم الملكيين الكاثوليك مما جعله يستحق لقب مؤرخ الطائفة.

٤ ـ الأب بشارة أبو مراد ١٨٥٣ ـ ١٩٣٠

وهو كاهن قديس قضى حياته في الصلاة والخدمة والإحسان في دير القمر ووديانها، والرهبانية بصدد تقديم دعوى لتطويبه في وقت قريب.

وفي الدير مكتبة غنية تعد ١٨٦٠٠ مجلدا منها كتاب مطبوع سنة ١٤٩٦ أي ٢٨ عاما بعد موت غوتنبرغ، وبينها كتاب الأناجيل باللغة العربية ١٥٩١ وهو أول كتاب غربي صادر عن مطبعة. وهناك قاعة المخطوات التي تحتوي ٢٠٣٠ مخطوطا ويرجع أقدمها إلى القرن الثاني عشر.

ـ لقب «العامر»

جاء في وصية المطران افتيموس الصيفي مؤسس دير المخلص الأخيرة:

«وما رغبت قط في إعمار هذا الدير لراحتي ولا لراحتكم. ولا صيرتكم رهباناً متدرجين لكي تخدموا ديركم وذواتكم فقط. ولا قصدت ان اجعل سكان هذا الدير عقيمين من كل ثمرة نظراً للقريب. ولا اعتنيت في قيامه لكي اعتاش بمداخيل ارزاقه ويكون خاصتي وخاصة ورثائي في الأسقفية. معاذا الله... وما قصدي من إنشائه إلا لكي يتملكه الرهبان احراراً وان يغرسوا ويؤسسوا غيره وان يستغنوا به على معاشهم وقيامَ مدارسهم وزينة معابدهم وتوزيع كنائسهم على الفقراء ويكونوا قدوة صالحة للرعية «... وليكون هذا الدير ماوى لأبناء عابري السبيل وعابري الطريق من كل ملة...»

ـ في الحرب الكبري ١٩١٤ ـ ١٩١٨

طيلة مدة هذه الحرب القاسية الملقبة بالكبرى (الأولى)، والتي كان للجوع فيها صولات فتاكة اقوى من السلاح، بقي دير المخلص فاتحاً أبوابه للفقراء والجائعين والمعوزين. فكان يقدم يومياً ثلاث وقعات طعام لمئتي شخص، وكان يوزع الطحين والخبز على المعوزين في الجوار. وزاد عدد العاملين فيه من ٥٠ إلى ١٣٠، لمساعدتهم لا غير كل هذا بالرغم من المجاعة ومن الجراد الذي ذهب بكل المنتوجات.

ومن أجمل ما يذكر أن الطعام كاد ينفذ من أهراء الدير فتقدم الكاهن الوكيل إلى رئيسه العام، وكان الأب جبرائيل نبعة، يطلعه على الحال ويسأله إبعاد الناس، وإذا به يسمع هذا الجواب الرائع: «افتح الباب على مصراعيه ولنأكل الرغيف نحن والفقراء، فإما نحيا معاً أو نموت معاً».

ـ مأثرة يوسف بك الزين

ودبرت العناية الإلهية أن يحيا الرهبان والفقراء معاً، وذلك بالتفاتة نبيلة التي صدرت من الوجيه الكبير يوسف بك الزين. اذ قدم للدير من غلاله مئة قنطار حبوب متنوعة، بسعر واحد لكل الأصناف، ورضي بتأجيل قبض الثمن إلى ما بعد الحرب دون كمبيالة أو رهينة. فقدر له الدير هذه المبادرة، وبادله المأثرة، فتطورت عرى الصداقة بينهما، وقدر مجموع من أعاشهم الدير طيلة مدة الحرب بنحو الف شخص.

ـ في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥

قام دير المخلص بأعمال المساعدة والإحسان، وبوسائل متنوعة حصل على كمية كبيرة من القمح، وكان نادراً، جلب معظمها من حوران، وشرع يوزعها على الفقراء والمحتاجين وأهل الجوار.

ـ في نكبة فلسطين ١٩٤٨

فتح الدير أبوابه لفلول أبناء فلسطين الهاربين هلعاً من الإحتلال الإسرائيلي. فأسكن وأعال العديد منهم في دير المخلص وفي الأديرة التابعة له، لمدة سنتين ونيف، حتى تم لهم استقرار وعمل، وأمنوا عيشهم وحياتهم وسكنهم.

وفي الوقت الحاضر أصبحت التنمية عملية انسانية شاملة كاملة تطال الإنسان في كل أبعاده والمجتمع بكل مستوياته الثقافية والتربوية والإقتصادية والسياسية وهذا يتطلب مخططات تنمية مدروسة وإرادة للعمل. فالمساعدات والإحسان تخفف الآلام ولكنها لا تتعرض لجذور المشكلة في المجتمع لأنها لا تتناول البنى الإجتماعية التي وراء البؤس والفقر والتخلف. وقد وعت الرهبانية المخلصية أهمية هذا الأمر فأنشأت دار العناية في الصالحية (صيدا) ودار

الصداقة في زحلة وتضم كل منهما مدرسة مهنية ودار رعاية للأولاد من مختلف المناطق والعائلات الروحية (حالات اجتماعية وأيتام) ومركزا للنشاطات الروحية والثقافية والإجتماعية.

ـ دير الراهبات المخلصيات لسيدة البشارة:

على أثر خلافات مذهبية بين الروم الإرثوذكس والروم الكاثوليك في لبنان وسوريا وإنتخاب كل فريق بطريركاً خاصاً به سنة ١٧٢٤ تسربت الخلافات إلى دير صيدنايا الشهير الذي كانت تعيش فيه راهبات عابدات. وسنة ١٧٢٧ قررت بعض الراهبات في ذلك الدير مع رئيستهن الآم تقلا الإلتجاء إلى البطريرك كيرلس طاناس الكاثوليكي في دير المخلص وبعد أخذ رأي عمدة دير المخلص، تكلف المطران باسيليوس فنان الإعتناء بهن، فاختار أولا بلدة برتي في اقليم التفاح لسكناهن. إلا أنهن لم يقمن زمناً طويلاً في برتي بسبب الفتن والحروب في تلك المنطقة. فابتاع المطران فينان من الشيخ علي جنبلاط مزرعة غوايا لقربها من دير المخلص بالثمن المعين بالحجة التي يقول: «اشترى منا اعزازنا رهبان دير المخلص سنة ١٧٤٥. ثم دعا رهبان دير المخلص في سنة ١٧٤٨ البنائين وباشروا تحت مناظرة المطران باسيليوس فنان الذي كان يسكن في المحتقرة، واذ انتهى عمار الدير سنة ١٧٥٠ ادخلوا إليه الراهبات. وسنة ١٧٥٣ أمر البطريرك طاناس بناء كنيسة سيدة البشارة على نفقته.

وكان هذا الدير وهو الدير الأم للراهبات المخلصيات ينمو على صعيد الدعوات والخدمة. وبعد أن تحولت هذه الجمعية من راهبات متعبدات إلى مرسلات، انتشرت الراهبات في المناطق اللبنانية وفي العالم العربي لتأسيس مدارس والمياتم لتأمين الخدمات الروحية والتربوية والإجتماعية. وقد عادت الراهبات بعد الأحداث اللبنانية الأخيرة إلى ديرهن وفي وقت قصير انجزت أعمال الترميم وأعيد فتح المدرسة الإبتدائية والميتم ومشغل الخياطة.

ـ دير سيدة النياح المعروف بدير الإبتداء:

حوالي سنة ١٧٣٣ اشترى الاب استفانوس عطا الله مزرعة كشكايا من مالكها الشيخ علي جنبلاط الكبير شيخ مشايخ الدروز وبنى القبو القائم إلى اليوم ليكون مأوى للرهبان ومستودعا لآلات الفلاحة والغلال. وفي سنة ١٧٤٧ اشترى الاب افتيموس زكار الرئيس العام للرهبانية المخلصية مزرعة قريبة وهي كسارة الزعرورة وضمها إلى أملاك دير السيدة. ثم بنيت الكنيسة المعروفة بسيدة الوعرة سنة ١٧٣٩. ومنذ ذلك التاريخ أصبح دير السيدة ديراً قانونياً ورئيسه يحق له التقدم بعد رئيس دير المخلص. وسنة ١٧٥٥ باشر الرهبان بناء دير السيدة الجديد لأن القديم ضاق بهم ولأن موقعه غير صالح للسكن. أما الكنيسة الحالية فقد أخذ الرهبان ببنائها سنة ١٧٩٠ ولكن لم يتم تدشينها إلا سنة ١٨٢٣.

تعرض دير السيدة لنكبات عدة إلا انه كان دائماً يتجدد ويزدهر بجهود المسؤولين عنه. سنة ١٨٦٥ أصدر الكرسي البابوي أمراً بتخصيص دير السيدة للمبتدئين دون سواه. وقد استعمل بناء الدير بعد نكبة فلسطين كميتم وملجأ لأولاد اللاجئين الفلسطينيين م (من ١٩٤٨ ـ و ١٩٥١).

ـ دير مار الياس ـ رشميا: يقع على تلة في مدخل بلدة رشميا. عندما ترك المطران نيوفيطس نصري الحلبي اسقف صيدنايا ابرشيته واتى إلى لبنان سنة ١٧٢٨ اشترى قطعة أرض قرب رشميا وبنى فيها بعض الغرف. ولكنه ما لبث أن سافر إلى روما تاركاً الدير للرهبانية الحلبية الحناوية. إلا أن البطريرك طاناس وأبناء الطائفة في رشميا، عادوا فسلموا نواة هذا الدير إلى رهبان دير المخلص سنة ١٧٣٥، فوسعوا بناءه، وأرزاقه سنة ١٧٦٠. وبنى الأب ميخائيل أبو عراج ١٧٧٨ كنيسة مار الياس التي شهدت إنعقاد المجمع الطائفي للروم الكاثوليك ١٧٩٤ لإنتخاب البطريرك كيرلس سياج. فتحته الرهبانية المخلصية لسكن أبناء فلسطين الهاربين من بلادهم سنة ١٩٤٨، فآوى عشرات العائلات مدة سنوات.

ـ دير الملاك ميخائيل عميق الشوف: سنة ١٧٥١ اشترى الأب ميخائيل أبو عراج الرئيس العام للرهبانية المخلصية مزرعة من آل نكد في

عميق المناصف وبنى فيها ديراً على إسم شفيعه سنة ١٧٦٠. لجأت إليه الراهبات المخلصيات عقب نكبة سنة ١٧٧٧. ولقربه من مقر الحكام الشهابيين في دير القمر وبيت الدين إزدهر هذا الدير في القرن التاسع عشر وسكنه مدة الرئيس العام.

ـ دير المزيرعة: يعرف باسم القديس جاورجيوس، ويقع على سفح جبل تومات جزين قرب بلدة كفرحونة. اشترت أرضه الرهبانية المخلصية من سنة ١٧٣٩ من مشايخ بني هرموش وباشرت البناء سنة ١٧٥٨، وقامت كنيسته بهمة رئيس الدير الأب سليمان داود سنة ١٨٨٣. واستعمل في السنوات الأخيرة كمصيف لطلاب الرهبانية.

ـ دير القديس انطونيوس (القرقفة) كفرشيما: ابتاعت الرهبانية الباسيلية الحلبية الشويرية أرضاً من الأمير علي الشهابي سنة ١٧٥٩ ثم مزرعة القرقفة وابتنت سنة ١٧٦٣ ديراً على اسم القديس انطونيوس الكبير. يقع هذا الدير على قمة أكمة تنحدر جوانبها ببيوت كفرشيما. وفي كنيسته التأم السينودس الإنطاكي للروم الملكيين الكاثوليك في عهد ورئاسة البطريرك اغابيوس مطر ومشاركة فعلية للمطران جرمانوس ادم ١٨٠٦. وفي السنوات الأخيرة تأسست فيه مدرسة ثانوية بإدارة الرهبان الشويريين.

ـ دير القديس جاورجيوس ـ سوق الغرب المعروف بدير الشير: في حمى بني تلحوق ابتاعت الرهبنة الحلبية الملكية أرضاً معروفة باسم «بركة الشير» بثمن ألف غرش بموجب حجة مؤرخة في شهر رجب ١١٦٣ (أيار ١٧٥٠) وتقول الحجة «وضمنا لهم الحماية والرعاية، وأذنا لهم بالإشهاد على أنفسنا بما كتبنا، والله أكبر الشاهدين وكفى بالله شهيداً (علي تلحوق وشاهين وجنبلاط تلحوق) «ولا نقبل عليهم شكاية لا من بطرك ولا من مطران ولا من غيرهم أي من كان، ويكونوا عندنا بمقام أنفسنا وعيالنا».

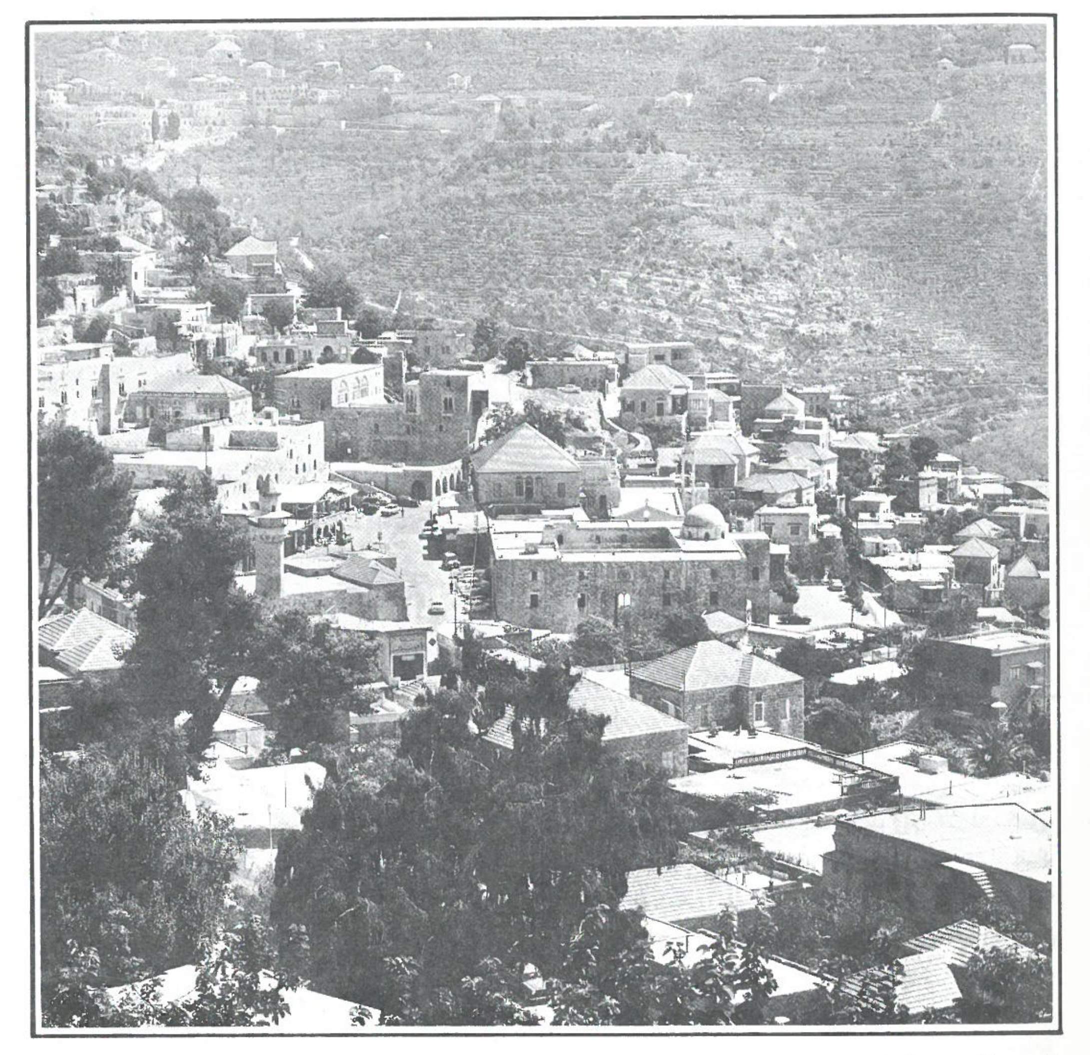
واستقدمت الرهبانية البنائين من الشام فأنجز البناء ١٧٥١ والكنيسة ١٧٥٧ وكان هذا الدير دائماً الدير الرئاسي للرهبانية الباسيلية الحلبية، حتى بدء الحرب اللبنانية الأهلية سنة ١٩٧٥. وقد جمع إلى الرئاسة العامة الإكليريكية والإبتداء والخدمة الرعائية لكل سوق الغرب وضواحيها ومنطقتها. وفيه حفظت الرهبانية مكتبة المخطوطات المشهورة، التي تعتبر من أهم المكتبات للمخطوطات العربية في الشرق. وفي جانب منه متحف الكردينال كوسا ابن الرهبانية الحلبية. أنشأت الرهبانية الحلبية بقرب الدير مدرستين، واحدة للصبيان «مدرسة النهضة الوطنية» (ثانوية، انكليزية، مختلطة) وأخرى للبنات سلمت ادارتها إلى راهبات القلبين الأقدسين.

ـ المقر البطريركي في عين تراز ـ قضاء عاليه: سنة ١٨١١ اشترى البطريرك اغابيوس مطر دار الشيخ حبيب غندور السعد في قرية عين تراز وجعلها مقرا له واكليريكية لتنشئة طلاب الكهنوت. وفيها مات ودفن سنة ١٨١٢. وسنة ١٨٩٨ اغلقت الاكليريكية وبقيت عين تراز المقر البطريركي الصيفي ومكان الإجتماعات الرسمية حتى سنة ١٩٨٤.

ملاحظة: لقد أتينا في معرض الحديث على الأديار على ذكر بعضها وهو خارج إطار منطقة الشوف الحالية، لأن الشوف في ذلك الزمان كان أوسع من الجغرافية الإدارية المعروفة في الوقت الحاضر.

رابعا: مكانة دير القمر في الشوف

نظراً لدور دير القمر التاريخي وخاصة في أيام المعنيين ومطلع العهد الشهابي، فإن هذه المدينة تتمتع بقدر كبير من الأهمية عند جميع الطوائف فهي المركز الاسقفي الصيفي، وفي خراجها مركز الخلوة لدى الموحدين الدروز، وفيها أيضاً جامع فخر الدين الأول وكنيس لليهود وآثار أخرى كأنها ملتقى حضارات أو متحف حي لإنصهار جميع المذاهب في عاصمة جبل لبنان القديمة عندما كانت مرجعا للإمارة.

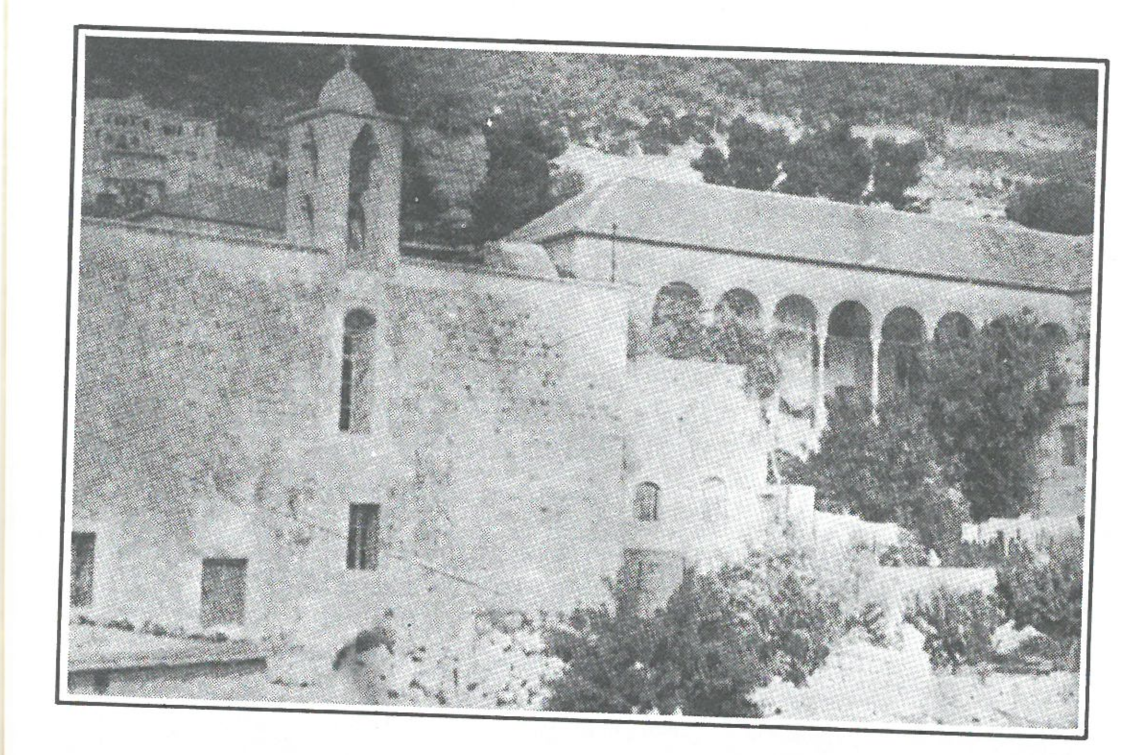


□ دير القمر ـ الجامع وسيدة التلة

الأماكن الدينية:

ـ معبد سيدة التلة: وهو أقدم بناء في دير القمر لأن تاريخ تشييده يعود إلى السنة ٦٠٠ م حيث كان معبداً صغيراً بناه أحد الرهبان نقولا سيمصاطي، وقد أعاد فخر الدين الأول بناءه وعلى عتبته نقش قمر بشكل هلال تحيط به الشمس فوقه صليب، لا يزال حتى الآن: هذه النقشة يقول المؤرخون بأن اسم دير القمر اشتق منها. وعمر هذه الكنيسة والبناء الحالي هذا يعود إلى أكثر من ثلاثة قرون، لا تزال تحتفظ بزهوتها لأنها رممت عدة مرات.

وسيدة التلة هذه تحظى بأهمية دينية كبيرة لأنها شفيعة البلدة والمنطقة ولها حظوة كبرى عند الأخوة الدروز يشاركون بها أخوتهم المسيحيين وخاصة في الأعياد.



□ كنيسة «سيدة الفقيرة»

ــ وللرعية المارونية كنيسة: **سيدة الوردية** وكنيسة أخرى على اسم **مار جرجس** هي خاصة لآل الكك.

ــ **كاتدرائية مار الياس للروم الكاثوليك**، بناها مع أنطشها الأب استيفانوس عطا الله المخلصي سنة ١٧٤١، رمّمت سنة ١٨٥١، وحالياً أبرز معالمها النائب الأسقفي الحالي الأب بولس نصورة ١٩٨٧، بتبرع من الأستاذ أدوار بدورة ابن دير القمر البار. أما باقي الأجنحة فعلى نفقة المرحوم حبيب خليل الحاج.

ــ **سيدة «الفقيرة»** كانت ملكاً خاصة آل عازار (الإرثوذكس)، نزحوا من الكورة هرباً من مضايقات بني سيفا. سنة ١٧٩٢ قتل أحد أبناء الشيخ نجم عازا شاباً من آل عطا الله والتجأ القاتل إلى البطريرك أثناسيوس جوهر في دير المخلص الذي أصلح بين العائلتين، فانضمت عائلة عازار إلى كنيسة الروم الكاثوليك، وأوقفوا ملكية كنيستهم الخاصة إلى طائفتهم الجديدة.

ــ **كنيسة سيدة النياح للروم الأرثوذكس**، مجهولة التاريخ نظراً لأقدميتها، وربما عاد تاريخ بنائها إلى العهد المعني. ولوحتها الباقية فوق بابها تشير إلى ترميمها سنة ١٨٦٥، ثم لوحة أخرى تدل على أن المتروبوليت أيليا كرم قد رمّمها سنة ١٩٥٠ على نفقة جورج جبران صاغيّة.

ــ **جامع الأمير فخر الدين الأول** بناه سنة ٨٩٩ هجرية، وتم ترميمه سنة ١٢٨٧ هـ كان يؤم المصلين فيه يوم الجمعة شيخ من شحيم ويتوافد على الصلاة وراءه كل موظفي الدولة العثمانية في المنطقة. ابتدأ ترميمه وتوسيع البهو المحيط به في عهد الرئيس سليمان فرنجية سنة ١٩٧٢، لكن أبرز الساحات حوله وتجميل ترميمه تم على يد معالي الوزير وليد بك جنبلاط.

ــ **كنيس اليهود** وهو تراث تاريخي يكوّن مع الدار التي تجاوره وهي ملك آل القبع، ضمنها أماكن محفورة بحجر النحيت لقطع معدنية، نقشت عليها وصايا الله العشر.

المدارس

ــ **مدرسة راهبات مار يوسف الظهور**، متوسطة للبنات تأسست سنة ١٨٦٦. وقد احتفل مؤخراً سنة ١٩٦٦ بذكرى المئوية الأولى، بعدها بنت الإرسالية مدرسة جديدة أما البناء القديم فقد تحول إلى مستشفى خاص.

ــ **ثانوية مار عبدا للرهبان المريميين**: بنيت في عهد الأب يوسف شلهوب سنة ١٩٦٧، إلى جانبها جناح تحوّل إلى كلية الفنون التابعة للجامعة اللبنانية.

ــ **دار المعلم بطرس كرامه** شارع الأمير بشير الكبير، اشتراها المطران باسيليوس حجار وحوّلها حوالي سنة ١٩٠٩ إلى مدرسة أسقفية، استلمها الإخوة المريميّون وأتبعوها إلى مدرستهم. وسنة ١٩٥٧ أصبحت مدرسة دير القمر الرسمية.

ــ **مدرسة المحبة في كفرنبرخ** قامت هذه المدرسة على أنقاض مدرسة تخص وقف الروم الكاثوليك في بلدة كفرنبرخ، بهمة وسعي الأب أنطون صبحية الراهب المخلصي سنة ١٩٧٠. وأتت المساعدة الأولى من تبرعات صغيرة من أهالي كفرنبرخ دروزاً ومسيحيين، ومن مال الوقف، ومن اشتراكات شهرية ومن ريع حفلات خيرية وثم من مساعدة أتت من المجمع الشرقي. استمر العمل واستمر العطاء لهذا الرجل الذي آمن بالمحبة، ولهذه المدرسة التي صممت على تعليم الناس المحبة.

تتسع لأكثر من خمسماية ولد من البلدة والقرى المجاورة من مسيحيين ودروز، وكان يديرها فريق من راهبات العائلة المقدسة الفرنسية. وفي حفلة تقليد وسام المعارف الفضي للأب صبحية قال السفير خليل تقي الدين ابن بعقلين: «إن رسالة الأب صبحية هي رسالة دير المخلص رسالة الإخوة والمحبة وجمع القلوب بين طوائف لبنان على عبادة الله والإيمان بلبنان. الأب صبحية خرج من دير المخلص دير المسيحيين والدروز على السواء، دير النصارى والمسلمين.»

ــ **دير الصليب**: اشترى دار آل مشاقة الأب يعقوب الكبوشي، وحوّلها إلى مأوى للعجزة وزاد عليها. جناحا للجراحة والتوليد. يحتوي اليوم على ٣٥٠ معاقاً تقوم راهبات الصليب على رعايتهم وخدمتهم.

خاتمة:

بعد هذه الوقفة القصيرة حول التسلسل التاريخي لنشأة الكنيسة وحضورها في منطقة الشوف، يمكننا القول أن العلاقات المسيحية الدرزية كانت منذ البدايات على أحسن ما يرام من الود والإلفة والتعاون. وما يحاول المغرضون تسويقه من خلال تشويه هذه الصورة وجعلها قاتمة ومليئة بالفتن والحروب، لا يعكس الحقيقة التاريخية ولا الواقع المعاش. والحقيقة هي أن الفتن والخلافات حصلت في مراحل لاحقة بفعل التدخلات الأجنبية التي أحدثت الوقيعة بين اللبنانيين للوصول إلى غاياتها ومآربها.

واليوم، وبالرغم من كل الجروح الماضية، لنتطلع إلى المستقبل، المستقبل الأفضل لنا ولأبنائنا جميعاً. لنعمل على محو هذه الآثار بالإرادة الطيبة والأيدي الممدودة والتعاون المثمر، حتى يمكننا أن نجسد صيغة العيش المشترك، الصورة الإنسانية والحضارية، على أسس العدالة والديموقراطية والمساواة.

●

الهوامش:

(١) بيت بمنازل كثيرة كمال الصليبي ص ١٨١
(٢) لبنان في التاريخ فيليب حتي ص ٤٩٥
(٣) بيت بمنازل كثيرة ص ٩٦
(٤) تاريخ سوريا للدبس جزء٧ ص ٢٩٨
(٥) دليل أديار لبنان للاباتي فهد ١٩٩٠
(٦) تاريخ كنيسة الروم الكاثوليك الباشا جزء ١ ص ٨٦
(٧) اسسها الأب سليم غزال مع مجموعة من العلمانيين.



الوطن والجبل في مواجهة المستقبل

مجيد جنبلاط

في هذا المنعطف التاريخي الهام الذي يشهد عملية عودة أهالي الجبل إلى قراهم وأرزاقهم، وبالتالي بدء عودة الحياة الطبيعية إلى مجراها، نتوقف أمام التحديات المستقبلية التي تترافق مع هذا الموضوع، بالنسبة إلى جميع الفئات التي يضمها الجبل، وأهمية أن تكون مواجهتها والتغلب عليها فرصة مهمة أيضا للوطن في تعزيز مسيرة نهوضه وتماسكه. إذ أن التحديات التي يواجهها الجبل وأهله، وبالرغم من كونها تتمتع ببعض الخصوصيات ذات الطابع الجغرافي التاريخي، إلا أنها تبقى تحديات على مستوى مساحة الوطن كله، والنجاح في الإنتصار عليها هو المحك الأساسي لإكمال مسيرة الإستقرار الوطني الشامل.

فالوطن كما الجبل على مفترق طرق هام، فإما أن تكون تجربة الجبل وعيش أبنائه معا، ناجحة بعمقها التاريخي، ومنطقها الشامل، وأبعادها المتكاملة، فينتصر الوطن حقيقة، وإما أن تظل ركيكة التركيب، هامشية المنحى، فتشكل عنصرا ضاغطا في اتجاه إضعاف البنية الوطنية المستقبلية. وهنا بالذات تكمن المسؤولية الكبرى في تحصين المسيرة التي هي بالنهاية مسؤولية مشتركة وإطار جدلي في تحديد رؤية مستقبلية واضحة المعالم بين الوطن والجبل، بحيث تكون النتائج متكاملة في تحقيق الأهداف وتطوير صيغة العيش الوطني بكل أبعاده وتفاعلاته.

وإذا كان الجبل في الواقع هو هذا المختبر الإنساني المتميز، وواجهة الوطن ووجدانه في تحقيق العيش المشترك الحر فيه، فإن هذه المسؤولية بالذات تحتم على الجبل رؤية مستقبلية متحفزة وناضجة، بعيدة عن تراكمات الماضي وسوء تفسير التاريخ. إنها تقتضي وقبل أي شيء آخر تأملا عميقا وناضجا يستلهم عبر الماضي ومآسيه، مع توجّه عقلي حاسم نحو خيارات العيش الحقيقية والمتطورة البعيدة كل البعد عن العقد المرضية التي كانت سببا أساسيا من أسباب الفتنة.

إن المجال رحب لأخذ العبر والإستفادة من أخطاء الماضي القاسية، كما وأن المجال رحب أيضاً لإعادة مسيرة الحياة الإقتصادية والإجتماعية في الجبل إلى مجراها الطبيعي. إن أولى التحديات بالإضافة إلى الموضوع الأساسي في إيجاد المساكن اللائقة لجميع سكان الجبل، هي وبشكل أساسي في إعادة تفعيل الدورة الإقتصادية فيه، التي تقتضي تنشيط مختلف القطاعات الإنتاجية تدريجيا وبشكل منسجم نسبيا مع نمو الإقتصاد الوطني. وهذا يتطلب بالطبع جهودا أهلية منظمة على أكثر من صعيد، كما يتطلب أيضا مبادرة سريعة ومدروسة من قبل أجهزة الدولة تهدف إلى توفير البنية التحتية الضرورية القادرة على استقطاب التوظيفات في القطاعات الإنتاجية إن من قبل الأفراد أو المجموعات الراغبة في ذلك. إن تنشيط الدورة الإقتصادية مسؤولية أساسية

يتحمل وزرها أهل الجبل والدولة معا، إنه المجال الضروري لاستجماع وصقل البنية الإجتماعية في الجبل. إذ أن دفع المسيرة الإقتصادية والإجتماعية في هذا الإتجاه التطويري، هو ضمان أكيد لإستمرار المجتمع وتماسكه ليس فقط بالجبل بل في جميع المناطق اللبنانية. فالشعب الذي يشعر بالدولة العادلة، والذي باستطاعته مواكبة التطور في مختلف جوانبه، يصبح أكثر قدرة على التخلي تدريجيا عن مكامن التخلف فيه، وتنقشع أمامه غيوم الضلال والعصبية، فينطلق بعزم وثقة نحو رحاب الحياة المنتجة التي تعكس عمق إنسانيته. إنها مسؤولية وطنية عامة يجب أن يكون الجميع واعين لأهميتها ولضرورة البدء بتنفيذها، فهي وإن كانت مهمة في الجبل في هذه المرحلة بالذات إلا أنها تضمن للوطن على المدى البعيد استقراره.

وهنا لا بد من التأكيد على مسؤولية الدولة في اتباع سياسة واضحة المعالم بالنسبة إلى التنمية في جميع المناطق اللبنانية. إن سياسة التركيز في التنمية غير المتوازنة قد أدت في الماضي إلى خلل أساسي لا زلنا نعاني من أثاره المدمرة حتى الآن. فاللامركزية الإدارية والإنمائية هي الحل الواقعي العلمي الأفضل للتسريع في عملية النهوض والتحديث ليس في الجبل فقط، بل في مختلف المناطق. إن اللامركزية مفهوم متطور ومنسجم مع واقع التقدم إن من حيث المشاركة أم من حيث القدرة على التغيير نحو الأفضل والأنسب.

وإذا كان التطور الإقتصادي ضروري في هذه الفترة من حياة الجبل فإن التطور الثقافي والإجتماعي مهم أيضا في تحصين المسيرة. ففي هذا السياق لا بد من الإشارة إلى أن المجال مفتوح أمام مؤسسات القطاع الأهلي والمدني للعب دور رئيسي وحاسم في توثيق العرى والروابط بين الأهالي وإعادة جمع الشمل ـ الشباب منهم بشكل خاص. إن القطاع الأهلي مؤهل إلى فهم طبيعة الأجيال الشابة وكيفية استقطابها وتوجيهها نحو الأعمال الثقافية والإجتماعية المفيدة، إنه النشاط الشعبي الديمقراطي المنظم الذي يمكن أن ينضوى تحت لواءه الألوف من الشباب القادرين والفاعلين في عملية التطوير الشاملة والضرورية في حياة الجبل. وهنا تبرز أيضاً أهمية مواكبة الدولة بكل إمكاناتها لإنجاح هذه المبادرات وتقوية هذه الإتجاهات التي تحصن مسيرة المجتمع بكامله، وتكون إحدى روافد الإستقرار الأساسية فيه. على الدولة أن تبادر إلى صرف الأموال اللازمة على الأنشطة الرياضية والثقافية التي تجمع الشباب في بوتقة وطنية متماسكة، وتوجه إمكاناتهم وطاقاتهم نحو الممارسات المترفعة في مضمونها عن الذي تعوده مجتمعنا في السنين الأخيرة.

وهنا أيضا لا بد من إبراز أهمية توجيه الأجيال نحو الأفاق العلمية الجديدة المتطورة إن على صعيد التعليم العادي أو التعليم المهني. إن الجبل يحتاج كما المناطق الأخرى من لبنان إلى عملية تأهيل إجتماعي أساسها التعليم المهني. إن تحويل المسار الإجتماعي نحو بناء الإنسان القادر على الإنتاج الحقيقي قد يكون الخلاص الوحيد لكثير من البلدان النامية مثل لبنان ولإقتصاد منهوك كالإقتصاد اللبناني. إن توجيه الأجيال الشابة نحو التأهيل المهني المتخصص والمتطور ـ عبر إنشاء معاهد التعليم المهني ـ قد يكون السبيل الأكيد لتفعيل عملية الإنتاج القادرة على رفع مستوى المعيشة بكل عام. إن التحديات الماثلة أمام الجبل في هذا المجال ليس صعبة التذليل إذا وجدت الإرادة الفعلية على التصدي لها وإذا أردنا أن نخص تجربة العيش الوطني بمفاهيم أكثر تطورا.

إن التجارب الماضية بآلامها قد علمتنا جميعا أن الوطن لا يستمر دون مقومات جوهرية تدعم كيانه. وأولى هذه المقومات شعورنا أن الوطن يكون بجميع أجزائه ولجميع أبنائه، فلا امتيازات لطائفة أو لفئة، ولا تنمية لمنطقة دون أخرى، ولا قراءة للتاريخ كل على هواه. إن الوطن الذي يصمد أمام أشد العواصف، هو الوطن المتطور والقادر على استيعاب المتغيرات وهضمها، والقادر أيضا على مواكبة طموحات مواطنيه. إنه الوطن الدولة الذي نطمح إليه جميعا. ●

التنوخيون ودورهم السياسي في الجبل من الفتح العربي إلى ١٥١٦ م.

د. سامي مكارم[*]

هؤلاء من غرس الملوك الأوائل
ابن فضل الله العمري

تنوخ هي في الأصل مجموعة من القبائل العربية اتحدت فيما بينها بحلفٍ عُرف بتنوخ، وذلك في عصر مبكر من الجاهلية يعود إلى القرن الثاني للميلاد وربما إلى ما قبل ذلك. وكان هذا الحلف يضم قبائل من قضاعة والأزد وكهلان ولخم، وهي من القبائل اليمنية، كما يضم قبائل من عرب الشمال كقيس بن عيلان وتيم اللاة بن ثعلبة[1]. وقد أقامت تنوخ في النصف الأول من القرن الثالث للميلاد دولة إستطاع عمرو بن عدي اللخمي بعد حين من تأسيسها أن يفوز بعرشها[2].

تبوأت تنوخ في عهد امرىء القيس بن عمرو بن عدي مكانة كبيرة. فامتد سلطانها من الحيرة شرقاً إلى بلاد الشام غرباً إلى نجران جنوباً. وسيطرت في وقت من الأوقات على معظم الجزيرة العربية كما تفيد الكتابة المنقوشة على قبر امرىء القيس بن عمرو المتوفى سنة ٣٢٨ م في النمارة (جبل الدروز حاليا) والتي تقول مترجمةً إلى اللهجة العربية الفصحى:

١ ــ هذا قبر أمرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي نال التاج

٢ ــ وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم وهزم مذحجاً بقوته وقاد

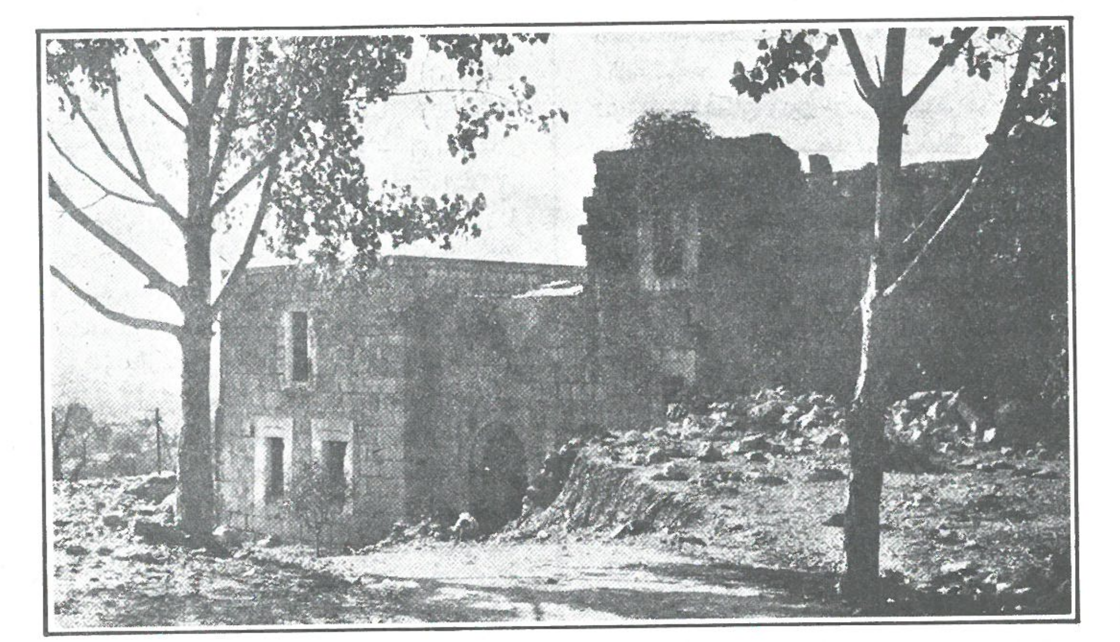
٣ ــ الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وملك معدّاً وقسّم ابناءه على.

٤ ــ القبائل ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ ــ في القوة...[3]

وقد بقيت هذه الدولة حتى القرن الخامس للميلاد على الأقل تتمتع بمركز مميَّز لدى كل من الدولتين الكبريين: دولة الفرس ودولة الروم، دون أن تكون خاضعة خضوعاً تاماً لأي منهما.

* رئيس دائرة الدراسات العربية ولغات الشرق الأدنى في الجامعة الأميركية في بيروت والأمين العام للمجلس الدرزي للبحوث والإنماء.



□ بقايا البيت التنوخي العريق الذي ولد فيه الأمير السيد في عبيه، وفيه عاش، وفيه لقي وجه ربه الكريم.

ولم يكن دورها السياسي والعسكري قائماً على مساعدة دولة من الدولتين على الأخرى أو على الدفاع عن دولة ضد الأخرى. وإنما كان لها شخصيتها المستقلة ودورها السياسي والعسكري الذي يتوخى مصلحتها الخاصة إلا في أوقات ضعفها السياسي[4] الذي كان له أسباب عديدة لا مجال لذكرها الآن.

قبيل الدعوة الإسلامية انتفضت مملكة التنوخيين في الحيرة ضد الفرس. ولكن إمبراطور الفرس استطاع أن يأخذ ملك الحيرة النعمان بن المنذر اسيرا ويقتله[5]. غير أن ذلك كان مدعاة لثورة العرب على الفرس فجرد كسرى جيشاً على قبيلة بكر ومن معها من العرب، وقد كانت إلى جانب ملوك لخم. وتلاقى الجمعان بأرض ذي قار. واستظهر الفرس في اليوم الأول من المعركة على العرب، فمالوا في اليوم التالي إلى بطحاء ذي قار طلباً للماء وتبعهم العرب أو أنهم التفّوا عليهم. واشتدت الحرب وانهزمت الفرس هزيمة هائلة وقُتل منهم عدد كبير. وكانت العرب تحت قيادة هانىء بن قبيصه بن مسعود[6]. والموحدون الدروز يتناقلون تبجيل هذا القائد ويضعونه في مقام سامٍ من التقدير. وقد استبسل هانىء ابن مسعود في هذه المعركة هو وبنو بكر أيما استبسال حتى قال الأعشى شاعر بكر في تلك المعركة الكبيرة:

لما رأونا كشفنا عن جماجمنا
ليعلموا أننا بكر فينصرفوا
صاحوا البقية والهندي يحصدهم
ولا بقية إلا السيف فانكشفوا
لو أن كل معد كان شاركنا
في يوم ذي قار ما اخطاهم الشرفُ

ثم ولي المنذر بن النعمان الملك في البحرين. ملكته ربيعة عليها. فلما حارب المسلمون أهل البحرين سقط المنذر في أيدي المسلمين ولكنه ما لبث أن اهتدى إلى الإسلام فاطلق سراحه بالطبع[7]. وقد يكون اشترك في فتوح الشام بقيادة خالد بن الوليد. ولكنه من المؤكد أن ابنه عوناً كان مع خالد بن الوليد عند قدومه إلى الشام وقد اشترك في موقعة أجنادين في سنة ١٣ هـ، ولكنه جرح واستشهد. غير أن التنوخيين واصلوا الجهاد. حضر مسعود بن عون بن المنذر

واقعة اليرموك في ألف وخمس مئة فارس من بني لخم وقاتل قتالاً شديدا، وشارك في فتح حلب وكان في مقدمة من صعد إلى قلعتها، كذلك حضر مع خالد بن الوليد موقعة مرج الديباج[٨]. وقد اسكن ابو عبيدة بن الجراح بني لخم في معرة النعمان[٩] القريبة من حلب.

وعندما تسلم العباسيون الخلافة وبعدت المسافة بين بغداد وسواحل الشام أكثر الروم من مهاجمة السواحل الشامية، فارسل ابو جعفر المنصور حوالى عام ١٤١ هـ/٧٥٨ م عشائر تنوخيةً من معرة النعمان إلى المناطق المحاذية لبيروت. وكانت هذه العشائر بقيادة الأمير منذر بن مالك الذي يعود بنسبه إلى عون بن المنذر. وكان برفقته أخوه أرسلان بن مالك وابناء اخوته حسان بن خالد وفوارس بن عبد الملك وعبد الله بن النعمان[١٠]. وقد أخذ هؤلاء وعشائرهم على عاتقهم محاربة الجراجمة الذين أخذوا يغيرون مع بعضٍ ممن يواليهم على أطراف الدولة الإسلامية وداخلها من قواعد اتخذوها في جبال لبنان الشمالية[١١]. ثم أن دفعة أخرى من تنوخ قدمت من الجبل الأعلى قرب حلب سنة ٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م فاستقر بعضهم في كسروان حيث عمّروا قلعة عرفت بقصر نبا على اسم أحد أمرائهم المسمّى نبا. وقد تبع نبا وعشيرته عشائر تنوخية أخرى بقيادة الأمير تنوخ بن قطحان الذي رحل فيما بعد من كسروان ليتوطن حصن سرحمول المشرف على بيروت مع رجاله. أما باقي العشيرة، وكانوا عشر طوائف، فتفرقوا في البلاد[١٢]. وهذه الطوائف هي بنو فوارس وبنو عزام وبنو عبد الله وبنو عطير وبنو خضر وبنو هلال وبنو كاسب وبنو شجاع وبنو نمر وبنو شرارة[١٣]. وهكذا نستطيع أن نكوّن صورة لمراكز إنتشار العشائر التنوخية في جبل لبنان. فقد كانت مراكز ساحلية كسن الفيل ومراكز مشرفة على الساحل ككسروان وعبيه وطردلا القريبة من عبيه وكفرا القريبة من بيصور. وهذه المراكز الثلاثة الأخيرة تكاد تكون على خط مستقيم يشرف على الساحل الممتد من جونيه إلى صيدا في حين أن كسروان تشرف على الساحل من جونيه إلى شماليها. وإذا تذكرنا أن حصن سرحمول كان مستقرا لمنذر بن مالك ثم بعد حوالي ستين سنة إستقر فيه تنوخ بن قحطان وبين الإثنين استقر فيه هانىء وعيسى ابنا الأمير مسعود بن ارسلان[١٤] الذي كان قد انتقل إلى الشويفات وهي أيضاً موقع على الساحل متقدم نعلم ما كان لسرحمول والشويفات من خطورة لموقعيهما المتقدمين المشرفين على بيروت. وهما بالنسبة للخط المؤلف من عبيه وطردلا وكفرا يكوّنان ثغرين متقدمين.

كان لموقع سن الفيل دور مهم في الدفاع عن ثغر بيروت لقرب هذا الموقع من مواقع المردة الموالين للروم. ويبدو أن إسم المردة هو اسم يقع في باب تسمية البعض باسم الكل. فالمردة، كما يقول الدكتور فيليب حتي، كانوا يؤلفون «نواة التفّ حولها عدد من الناقمين والمضطهدين ومنهم الموارنة[١٥]» فيما بعد. وبالفعل فقد دارت بين التنوخيين هؤلاء والمردة عدة معارك كمعركتي انطلياس ونهر الموت ـ وقد سمي هذا النهر بهذا الإسم لكثرة القتلى الذين سقطوا في تلك المعركة ـ وكان النصر إلى جانب التنوخيين فاجبروا المردة على الإنكفاء عن الساحل[١٦]. غير أن سفن الروم بعد انتصار التنوخيين اخذت تغير على الشاطىء قرب خلده لإحكام الطوق على التنوخيين واضعاف خط الدفاع ضد المردة فانتقل الأمير مسعود مع أخوين له هما مالك وعون إلى الشويفات، كما انتقل أخ له ثالث هو عمر إلى رأس التينة غربيّ الشويفات وشمالي نهر الغدير على مقربة من البحر، وانتقل اخ رابع هو محمود إلى خلده واخ خامس هو اسحق إلى الفيجانية[١٧] قرب كفرشيما. وهكذا أُمّنت الشواطىء وأُعدّت لصد هجمات الروم كما زوّدت التلال المشرفة على الثغور بالرجال. إلى ذلك انتشر تنوخيون آخرون في سهل البقاع وبلغوا زحله، كما أن قوماً من تنوخ هم بنو فوارس صعّدوا في الجبال المجاورة حتى بلغوا عين دارا فعمّروها وانطلقوا منها إلى المتن، وقوماً آخرين هم بنو شويزان بلغوا نهر الصفا ونهر الباروك وعمروا قرية عين زحلتا ثم ساروا منها إلى الكنيسة كما ساروا قوم منهم آخرون وهم بنو عبد الله وبنو هلال إلى الجبال المطلة على

الساحل حيث استقروا في قرى عديدة كالبنّيه وكفرمتى ورمطون وطردلا وعرامون وعين كسور وعبيه[١٨] كذلك تذكر المصادر الدرزية عن وجودٍ لبني تنوخ في قريتي المروج وعين عار. إلى ذلك نرى أن البيرة القريبة من مجدل معوش كانت أيضاً مركزاً للأمراء التنوخيين مهمّاً حيث كان يستوطن ثلاثة أمراء هم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله وأبو الفضائل عبد الخالق بن محمد وأبو الحسن يوسف بن مصبح وقد اثنت عليهم هذه المصادر وعلى أسلافهم لمنزلتهم الدينية والزمنية ولخدمة أسلافهم في دعوة النذر[١٩]. والأمير أبو اسحق ابرهيم بن عبد الله هو جد الأمير شرف الدولة علي بن الحسين والد الأمير أبي العشائر بحتر بن علي الذي ينتسب إليه الأمراء البحتريون أمراء الغرب.

كان الأمير اللخمي التنوخي النعمان بن عامر أحد قواد الخليفة العباسي المهتدي بالله. وقد كوفىء هذا الأمير لشجاعته فولّي على بيروت وصيدا وجبليهما ولقب بأمير الدولة، وثبّته الخليفة على الولايات المذكورة وأَمَره بالإقامة في بيروت لأجل محافظتها من الروم[٢٠]. وبعد أن هزم المردة في قتال آخر على نهر الموت دام أياماً كتب إليه الخليفة المعتمد على الله كتاباً بخطه يُقره فيه على أمارته هو وذريته من بعده[٢١]. وقد بقي النعمان بن عامر على ولائه للخليفة المعتمد ولخلفائه من بعده. وفي سنة ٣١٢ هـ/ ٩٢٤ م استضاف النعمان في بيته في بيروت أحمد بن أبي يعقوب بن هارون الرشيد ومعه زوجه وأولاده وبقي في ضيافة الأمير التنوخي زمنا غير قليل وخطب منه النعمان ابنته كلثوم لولده الأمير المنذر فازوجه منها. وهي والدة الأمير تميم بن المنذر بن النعمان[٢٢]. وكان هذا الأمير اللخمي التنوخي النعمان بن عامر قد رحل في شبابه إلى العراق حيث لازم الجاحظ وأخذ عنه، كما قرأ على المبّرد[٢٣]. وله من التآليف كتاب **تيسير المسالك في مذهب مالك** وكتاب **الأقوال الصحيحة في أصول مذهب الأوزاعي**، كما له ديوان شعر جامع[٢٤].

توفي أمير الدولة النعمان بن عامر سنة ٣٢٥ هـ/ ٩٣٧ م عن عمر بلغ الثمانية والتسعين. فخلفه على إمارة الجبل ابنه الأمير سيف الدولة المنذر بن النعمان وقد استطاع سيف الدولة المنذر أن يحافظ بسياسته الحكيمة على سيادة إمارته واستقلالها في ظل الصراع العنيف الذي شهدته البلاد بين القرامطة والإخشيديين عمال العباسيين. وبعد أن سقطت مصر بيد الفاطميين سنة ٣٥٨ / ٩٦٩ م سير الإمام المعز لدين الله الفاطمي حملة لفتح بلاد الشام بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي الذي كتب إلى الأمير التنوخي سيف الدولة المنذر يدعوه إلى بيعه الإمام المعز. وعندما فتح جعفر دمشق سار المنذر إليه مبايعاً الإمام الفاطمي فاقره جعفر على إمارته وخلع عليه[٢٥]. غير أن المنذر ما لبث أن توفي بعد ذلك بقليل وذلك سنة ٣٦٠ هـ/ ٩٧١ م[٢٦] ليخلفه ابنه الأمير عز الدولة تميم بن المنذر الذي بقي في الصراع القائم بين الفاطميين والقرامطة المنشقين عن الإمام الفاطمي على ولائه للإمام المعز. وقد ناصر القرامطة أميراً لخمياً آخر هو فخر الدولة درويش بن عمرو الأرسلاني، وبقى الأمر يراوح بين الأميرين المتنافسين إلى أن انتصر الإمام العزيز بالله الفاطمي على القرامطة فاعاد عز الدولة تميماً إلى إمارة الغرب وبيروت وقرره عليها. وكان عز الدولة تميم قد حظي قبل ذلك بمقابلة الإمام العزيز في القاهرة. وقد مني الأمير تميم بعد ذلك بكارثة أخرى عندما اجتاح امبراطور الروم يوحنا تسيمسكس (John Tzimisces) الساحل الشامي والداخل وذلك سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م فصمد عز الدولة تميم في وجه الروم ولكنه اضطر إلى الإنسحاب من بيروت التي سقطت بيد البيزنطيين وبقي على إمارة الغرب إلى أن عاد الروم إلى انطاكية ليعود الأمير تميم إلى إمارته حتى سنة ٣٨٣ هـ/ ٩٩٣ م حين نشب خلاف بينه وبين بنجوتكين والي العزيز بالله على بلاد الشام فعزله بنجوتكين عن إمارة الجبل ليفرّ إلى حلفائه بني حمدان في حلب ويبدو أن بنجوتكين هذا لم يكن يخلص للفاطميين إخلاص عز الدولة تميم إذ ما إن تسلم الإمام الحاكم بأمر الله الفاطمي الخلافة سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م حتى خرج بنجوتكين على والي الإمام الحاكم على الشام سليمان بن جعفر بن

فلاح الذي استطاع أن يهزم بنجوتكين ويستولي على بلاد الشام ويولي الأمير عز الدولة تميماً على طرابلس وابنه الأمير أبا الفضل مطوّع بن تميم على إمارة الغرب وبيروت، كما يولي الأمير غالب بن مسعود بن المنذر بن النعمان الارسلاني على صيدا والأمير هارون بن حمزة، وهو أرسلاني أيضاً على صور[٢٧]. وإذ كان الأمير تميم متزوجاً بابنة الأمير ابراهيم بن اسحق بن محمد بن ابراهيم التنوخي أمير اللاذقية[٢٨] فإن الفاطميين بذلك ضمنوا السواحل الشامية من اللاذقية إلى طرابلس إلى بيروت إلى صيدا إلى صور وذلك بإعطاء هذه المناطق لأمراء يربطهم رباط القربى والتحالف. غير أننا نرى أنه في السنة التالية يصرف والي الفاطميين سليمان بن جعفر بن فلاح الأمير هارون عن صور ليولي عليها فحلاً الكتامي كما يصرف الأمير تميماً عن طرابلس ويولي عليها ميسوراً الخادم[٢٩]. ولكنه يبقي الأمير مطوّع بن تميم على إمارة الغرب وبيروت والأمير غالب بن مسعود على إمارة صيدا. وربما يكون الفاطميون اتخذوا هذا التدبير بعد أن استتب لهم الأمر في بلاد الشام ففضلوا أن يضعوا على طرابلس وصور بعض خواصّهم المباشرين ويبقوا الأرسلانيين اللخميين التنوخيين في إمارتيهم التقليديتين، خصوصاً أن الأمير عز الدولة تميماً قد كوفىء على ولائه بتوليه ابنه مطوّع على بيروت والغرب. وقد توفي الأمير عز الدولة بعد هذا التدبير بقليل. وقد بقي الأمير أبو الفضل مطوّع بن تميم على ولاية الغرب وبيروت وعلى ولائه للإمامة الفاطمية معاصراً عهد الحاكم بأمر الله الذي قامت في عهده وبرعايته الدعوة التوحيدية (الدرزية) سنة ٤٠٨ هـ/١٠١٧ م. كما رعى هذا الأمير في إمارته «دعوة النذر» التي مهدت للدعوة التوحيدية (الدرزية) والتي قامت في القاهرة بعد حوالي ثلاثة أشهر من تسلّم الحاكم بأمر الله الخلافة. وقد خدم التنوخيون في هاتين الدعوتين واشتهر منهم عدة أعلام كأبي اسحق ابراهيم بن عبد الله وأبي الفضل عبد الخالق بن محمد وأبي الحسن يوسف بن مصبح من بلدة البيرة في الجبل اللبناني. ومع أن هؤلاء الأعلام كانوا من فرع لخمي آخر فلا بد أن يكون أمير الجبل أبو الفضل مطوّع ممن رعاهم ورعى دعوة التوحيد في إمارته.

بعد وفاة الأمير مطوّع بن تميم سنة ٤١٠ هـ/١٠٢٠ م نرى أن أهل إمارة الغرب انقسموا إلى قسمين: قسم يؤيد تولية إبنه عماد الدين موسى وقسم يؤيد تولية الأمير أبي الفوارس معضاد بن همام الفوارسي وهو من بني فوارس الذين ينتمون إلى فرع لخمي تنوخي آخر يعود بنسبه إلى فوارس بن عبد الملك الذي قدم سنة ١٤٣ هـ/٧٦٠ م إلى الجبل من معرة النعمان مع عمه الأمير أرسلان بن مالك الجد الأكبر للأمير مطوّع.

كان الأمير عماد الدين موسى بن مطوّع عند وفاة أبيه ما يزال حدثاً[٣٠]، فتولى إمارة الغرب سنة ٤١٠ هـ لينزل عنها بعد سنةٍ للأمير أبي الفوارس معضاد بن همام[٣١].

من هنا نستطيع القول إن الحاكم، إذ بقي على عرش الخلافة الفاطمية حتى سنة ٤١١ هـ/١٠٢١ م، أقر الأمير عماد الدين موسى على إمارة الغرب وبيروت. حتى إذا ما تولى الظاهر الخلافة الفاطمية بعد الحاكم سنة ٤١١ هـ نزل موسى عن إمارة الغرب للأمير معضاد بن همام الفوارسي. فهل يعني ذلك أنه عندما تسلم الظاهر الخلافة تخلى عن أنصار الحاكم وولى الأمير معضاداً لأنه من أنصاره هو. وهل يعني ذلك أن الظاهر الذي ناصب المستجيبين إلى دعوة التوحيد (الدرزية) العداء إنما ولى الأمير معضاد بن همام الفوارسي إمارة بيروت والغرب لأن هذا الأمير كان كالخليفة يناصب الموحدين الدروز العداء؟ لا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال بالإيجاب. ذلك أن نجيب عن هذا السؤال بالإيجاب. ذلك أن كون الأمير معضاد بن همام الفوارسي وهو من يوسف الفوارسي أحد كبار دعاة التوحيد في ذلك الوقت يجعلنا نقف عن الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب موقف الحذر لنجيب بأن الظاهر عند تسلمه الخلافة أخذ باضطهاد المستجيبين إلى دعوة التوحيد وبالتالي كان من الطبيعي أن يخذل الأمراء الذين ولّاهم العهد السابق ويولّي آخرين، بخاصة أن الموحدين (الدروز) حيال هدر الظاهر دماءهم بعد توليه الخلافة تحوّلوا إلى جماعة سرية لينخرط كثير من قادتهم في صفوف الظاهر بغية الدفاع من الداخل عن جماعتهم في وجه محنة الظاهر لهم، هذه المحنة التي دامت أكثر من ست سنوات[٣٢]. والأرجح أن يكون الأمير معضاد بن همام الفوارسي من هؤلاء القادة، فتولى منصب الإمارة ليذب عن الموحدين ويمنع عنهم اضطهاد الظاهر وأعوانه، تماماً كما فعل الأمير رافع بن أبي الليل أمير بني كلب الذي عمل الكثير لحقن دماء المستجيبين إلى دعوة التوحيد والذب بماله ونفسه عنهم من خلال كونه قائداً من قواد الظاهر العسكريين[٣٣]. ومما يعزز هذا الرأي أن المصادر التاريخية لا تذكر أية مواجهة عسكرية جرت بين معضاد بن همام الفوارسي وعماد الدين موسى. وقد توفي عماد الدين موسى بعد ذلك في منزله سنة ٤٢٨ هـ/١٠٣٦ م عن عمر لم يتجاوز الإثنتين والثلاثين[٣٤]. أما الأمير أبو الفوارس معضاد بن همام الفوارسي فقد بقي أميراً على الغرب إلى حين وفاته سنة ٤٣٢ هـ/١٠٤٠ أو ١٠٤١ م[٣٥] فَوُلِّي الإمارة الأمير أبو الفضائل معروف بن علي بن فخر الدولة درويش بن عمر منافس الأمير عز الدولة تميم بن المنذر. وفي أيامه أغلق باب الدعوة التوحيدية سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م[٣٦].

تولى إمارة الغرب وبيروت بعد الأمير أبي الفضائل معروف أرسلاني آخر هو شجاع الدولة عمر بن عيسى بن عماد الدين موسى. وبعد موته سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م[٣٧] تولى الإمارة ابنه علي وتلقب بعضد الدولة[٣٨].

في سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٥ م تولى الخلافة الفاطمية المستعلي بالله، وفي السنة ذاتها أعلن البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت بدء الحملة الصليبية[٣٩].

وصل الفرنجة إلى الساحل الشامي سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م في طريقهم إلى القدس ولكن الجيوش المسلمة لم تتعرض لهم. وفي سنة ٤٩٥ هـ/١١٠٢ م قدمت دفعة ثانية من الفرنجة، فتصدى لهم عند نهر الكلب حاكم دمشق الأتابكي شمس الملوك دقاق وأمير بيروت والغرب عضد الدولة علي مع أميري صيدا وصور. ولكن الفرنجة تمكنوا من خرق صفوف المسلمين وكان من أسباب ذلك أن صاحب طرابلس، وكان من أخصام دقاق، أعلم الفرنجة بكمين نهر الكلب[٤٠]. وقد اظهر عضد الدولة علي في تلك المعركة كثيراً من البسالة في قتاله الفرنجة مما جعل دقاق يكافئه على ذلك فيوليه على صيدا إلى جانب ولايته على بيروت والغرب. فأناب عنه على صيدا نسيبه الأمير مجد الدولة محمد بن عدي[٤١].

غير أن الفرنجة هاجموا في شوال سنة ٥٠٣ هـ/١١١٠ م الساحل اللبناني وحاصروا بيروت براً وبحراً واجتاحوا الغرب واحرقوه بعد أن اعملوا فيه القتل والأسر والنهب. ويصف الشدياق نقلاً عن مصدر لم يذكره سقوط بيروت والغرب فيقول:

> كان في المدينة [عضد الدولة ابن] شجاع الدولة وجماعة من أقاربه. ولما تعذّر عليه (أي على الأمير الفرنجي بلدوين) فتحها استنجد بإفرنج السواحل وأمراء المردة فأنجدوه. فنهض إفرنج الشمال وتجمعوا مع المردة في جبيل. ونهض إفرنج الجنوب وتجمعوا في مرج الغازية. ثم نهض الفريقان في يوم واحد: الشماليون على طريق الجرد والجنوبيون على طريق الساحل ودهموا الغرب صباحاً فنهبوه وأحرقوه وقتلوا وأسروا من وجدوه، فلم ينجُ من أهاليه سوى الغائبين والمنهزمين والمختبئين... ثم انحدرت الإفرنج إلى بيروت وشددوا عليها الحصار ففتحوها بالسيف، وذلك في ٢٣ نيسان. وكانت مدة محاصرتها شهرين... ولم يبق من الأمراء الموجودين في الغرب سوى الأمير بحتر بن الأمير عضد الدولة علي إذ أخفته أمه في عرمون حتى انجلت الإفرنج[٤٢].

وبمقتل الأمير عضد الدولة علي عند سقوط بيروت تولى إمارة الغرب الأمير مجد الدولة محمد بن عديّ وبقي فيها حتى قتله الفرنجة سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٧ م[٤٣].

تضاربت المصادر في من خلف الأمير مجد الدولة في إمارة الغرب. ويبدو أنه لم يولَ الإمارة في بادىء الأمر أحد بالذات. واكتفى الأتابكة بتثبيت الإبن الأوحد لعضد الدولة علي بن عمر، ناهض الدين بحتر، على أقطاع أبيه وبتثبيت أمير آخر من فرع لخمي تنوخي آخر هو ناهض الدولة بحتر بن شرف الدولة علي بن الحسين على أقطاع أبيه أيضاً[٤٤]. فناهض الدين بحتر بن عضد الدولة علي بن عمر، وهو

الأمير الأوحد من سلالة الأرسلانيين الذي نجا من مذبحة الفرنجة عند سقوط بيروت والغرب بيد الفرنجة، هو غير ناهض الدولة بحتر بن شرف الدولة علي بن الحسين سليل الفرع اللخمي التنوخي الآخر. وقد كان للتشابه في الأسماء بين الأميرين الأثر في خلط المؤرخين بينهما. ويبدو أن الأتابكه لإنحصار السلالة الأرسلانية بأمير واحد كان ما يزال صغير السن ولوجود سلالة لخمية تنوخية أخرى كانت قوية الجانب وربما لأسباب أخرى، فضلوا عدم حسم الإمارة بين الأميرين. (وقد كان من نتيجة تشابه الأسماء هذا أننا لا نعلم بالضبط مَن مِن البحترين كان بطل معركة رأس التينه أو عين التينه (قرب نهر الغدير القريب من بيروت) التي ادت إلى دحر الفرنجة إلى داخل أسوار بيروت سنة ٥٤٦ هـ/١١٥١ م). وقد بقي أمر الإمارة غير محسوم إلى حين قيام الأمير زهر الدولة كرامة بن بحتر الجميهري التنوخي الذي ولاه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٦١ هـ/١١٦٦ م[٤٥].

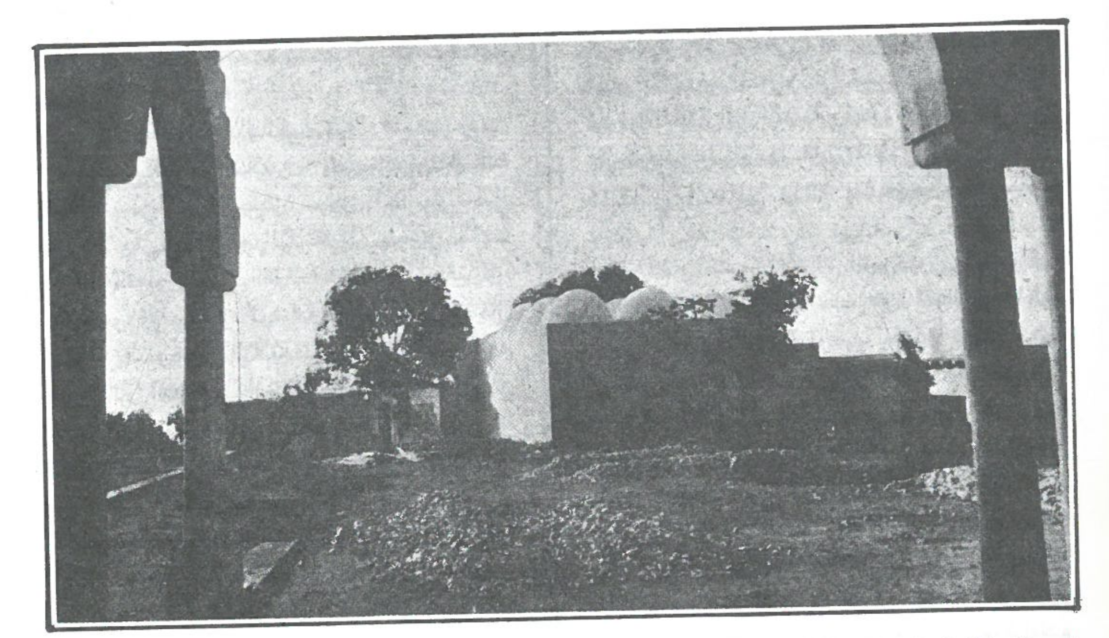
كان زهر الدولة كرامة عدواً لدوداً للفرنجة أخذ على عاتقه حماية الثغور مع قومه الدروز ومحاربة الغزاة. وما إن توفي سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢ م حتى حاك الفرنجة مؤامرة على أولاده الثلاثة الكبار. وقد كان نور الدين ابن زنكي قد عقد هدنة بينه وبين الفرنجة. وفي غضون هذه الهدنة أوقع صاحب بيروت اندرونيكوس كومنينوس بأولاد زهر الدولة كرامة وذلك في احتفال جرى في بيروت بمناسبة زواج ابنه. وإذ غدر صاحب بيروت بالأمراء التنوخيين الثلاثة حمل ومن معه على الغرب فاجتاحوه ودهموا حصن سرحمور فهدموه واعملوا في قرى الغرب الحرق والقتل والأسر والتدمير. ولكن أرملة زهر الدولة استطاعت أن تنجو بابنها الصغير حجي بن كرامة[٤٦].

تربى حجي بن كرامه في حجر امه وبلغ أشده. وفي سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م وصل السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى خلده في طريقه إلى فتح بيروت. فلاقاه جمال الدين حجي بن كرامه واشترك معه في فتح المدينة. وقد كافأ السلطان صلاح الدين حجياً على بلائه في الفتح فلمس بيده رأس حجي، كما يقول صالح بن يحيى، وأجزاه «على ما بيده من جبل بيروت من أعمال الدامور» وذلك «لمناصحته وخدمته ونهضته في العدو المثاغر له»[٤٧].

بدراستنا لمنشور صلاح الدين هذا دراسة دقيقة نجد أن المنشور يقر الأمير حجياً على إقطاعه ويجعله أميراً مميزاً ملقباً إياه بالأمير المقدم أو الأمير الكبير[٤٨] فقط. وهو تدبير يتفق مع سياسة صلاح الدين الإدارية التي اختطها لمصر والشام على السواء والتي كانت تقضي بربط المُقطَع بالإدارة المركزية.

ومع أن هذا التمييز الذي أعطاه صلاح الدين لحجي الجميهري أثار حفيظة علي بن بحتر الأرسلاني فإننا نرى أن جمال الدولة حجياً يبادر إلى تمتين جبهة إمارة الغرب الداخلية فيصالح الأمير الأرسلاني[٤٩] ويحرص على توخي وحدة الكلمة لتدارك الخطر الفرنجي خصوصاً أن الأيوبيين بعد صلاح الدين أخذوا يضعفون سياسيا وعسكريا نتيجةً لصراعاتهم الداخلية. وقد سار على سياسته تلك ابنه الأمير نجم الدين محمد[٥٠] كما سار على ذلك أيضاً ابن نجم الدين محمد الأمير جمال الدين حجي الثاني الذي شهد قيام دولة إسلامية أخرى هي دولة المماليك التي استولت على مصر سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م وأخذت تهدد بلاد الشام، وتنازع الأيوبيين «الشرعية».

وقد وقف التنوخيون حيال هاتين الدولتين الإسلاميتين الشرعيتين موقف الحكيم الذي كان همه ملاحظة الأمور وعدم التهور في متاهات الهوى لهذه الدولة أو لتلك وكان همهم أن يحفظوا وجودهم ويصونوا منطقتهم ويبقوا قادرين على المحافظة على الثغور من الخطر الإفرنجي وكأنهم علموا أن هذا العالم الإسلامي إنما يواجه خطراً واحداً هو الفرنجة. وكل خطر آخر يتمكن الإسلام من استيعابه ليس في النهاية خطراً ولا غرو بالتالي من «التعامل» معه. ومن هنا قرّر الأمير جمال الدين حجي الثاني وبقية الأمراء التنوخيين أن يقوموا باتصالات مع المماليك دون قطع الصلة بين الأيوبيين. وهكذا بقي الأمير جمال الدين حجي على وفاق مع



□ مدافن الأمراء التنوخيين في عبيه، ومن بابها الرئيسي يَدخل لزيارة مقام الأمير السيد.

السلطان الأيوبي الملك الناصر يوسف، في حين بادر شقيق حجي الأمير سعد الدين خضر إلى مد الجسور بين التنوخيين وسلطان المماليك في المصر الملك المعز أيبك.

ويبدو أن التنوخيين أوجسوا خيفة على مصير بلاد الشام وعلى أنفسهم حيال تنازع الملكتين، خصوصاً أن الفرنجة كانوا دائماً بالمرصاد مستعدين للإنقضاض عند أية سانحة، فبادر كل من جمال الدين حجي واخيه سعد الدين خضر إلى قطع الطريق أمام هذا الإحتمال فأقاما علاقات ودية مع الفرنجة[٥١] غير أن الأيوبيين ما لبثوا أن علموا بالتقارب المملوكي التنوخي فجرد الملك الناصر يوسف الأيوبي حملة للاقتصاص من التنوخيين سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٥ م غير أن التنوخيين أوقعوا في معركة عيتات هزيمة نكراء بالأيوبيين. وقد برز في هذه المعركة أمير تنوخي آخر من أنسباء حجي هو الأمير زين الدين صالح بن علي بن بحتر الجميهري[٥٢].

غير أن عنصراً آخر ما عتم أن ظهر على مسرح الأحداث. فالمغول، بقيادة هولاكو، ما لبثوا أن دحروا الجيوش الأيوبية بعد أن سقطت بغداد وما يليها من الحواضر الإسلامية في أيديهم. حيال هذا الأمر اضطر الأمير جمال الدين حجي إلى البقاء في دمشق عند المغول الذين ثبّتوه أميراً على الغرب. وكذلك فعل زين الدين صالح، أما سعد الدين خضر فبقي في الغرب يدير شؤون قومه عن كثب. غير أن المماليك، بقيادة المعز أيبك قرروا التصدي للخطر المغولي، فتقدموا نحو غزه واستطاعوا استردادها من المغول. حيال هذا الأمر قرّ رأي جمال الدين حجي وزين الدين صالح أن يتوجه الأخير إلى المماليك ويبقى جمال الدين حجي مع المغول في دمشق، حتى إذا ما انتصر أي من الفريقين شفع من كان من الأميرين في صفوفه بالآخر[٥٣]. وهكذا كان، فعندما انتصر المماليك في عين جالوت على المغول وذلك سنة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م كان زين الدين صالح يقاتل في صفوف المماليك ويُظهر من البطولة ما جعل السلطان المملوكي يقربه إليه، حتى إذا استتب الأمر للمماليك في الشام أقر السلطان الملك الظاهر بيبرس الأمراء التنوخيين وعهد إليهم

بالمثاغرة على صيدا علاوة على المثاغرة على بيروت[٥٤].

غير أن النزاع الداخلي بين الجمهيريين ومنافسيهم من الأرسلانيين، الذين عرفوا في ذلك الوقت ببني أبي الجيش، جعل أحد بني أبي الجيش يشي بالأمراء الثلاثة إلى بيبرس متهماً إياهم بالتعاون مع الفرنجة. ومع أن بيبرس، كما يبدو، لم يصدق الوشاية فإنه اكتفى بإعتقال الأمراء التنوخيين الثلاثة دون أن يقضي عليهم أو يصادر أملاكهم واقطاعاتهم. وآثر إبقاءهم في الإعتقال إلى أن يتم له فتح طرابلس وصيدا وبيروت من الفرنجة[٥٥]. وإذ لم يتم لبيبرس فتح هذه المدن فقد بقي الأمراء الثلاثة في الأسر إلى ان أفرج عنهم خليفة بيبرس السلطان بركة خان أوائل سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م[٥٦]. ولكن بركة خان ونائبه على دمشق كانا قد افتتحا عهدهما قبل الإفراج عن الأمراء الثلاثة بإجتياح الغرب على أثر إغتيال احد المماليك ويدعى قطب الدين السعدي في قرية كفر عميه التي كانت ضمن إقطاع اقطع أياه[٥٧] وقد عاون المماليك في هذا الإجتياح عشائر بعلبك والبقاعين ثأراً لما حدث لهذه العشائر من هزيمة في معركة عيتات قبل ذلك بحوالي ربع قرن. وقد أدى اجتياح المماليك والعشائر للغرب إلى دمار شامل للمنطقة لمدة سبعة أيام من الإحراق والتخريب والقتل والسلب والأسر والتشريد[٥٨].

ما أن استردت إمارة الغرب انفاسها حتى واجهت الأمراء التنوخيين مشكلة أخرى. فقد قرر السلطان المملوكي قلاوون إحداث تغييرات جذرية في نظام الإقطاع في مصر والشام بأن يجعل هذا النظام أكثر ارتباطاً بالسلطة المركزية. حيال ذلك عمد إلى إعادة توزيع المقطعين على اقطاعات الدولة. ولما رفض التنوخيون التخلي عن إمارتهم، أخرج أملاكهم واقطاعاتهم منهم وأعطاها إلى جند الحلقة الطرابلسية[٥٩]. غير أن هذا الإجراء برهن على عدم فعاليته إذ أن رجال الغرب تدنّى أداءهم العسكري تحت قيادة أمراء الحلقة الطرابلسية الغرباء عنهم، مظهرين في ذلك إصرارهم على رفضهم الإنقياد لأمراء عشيرتهم المبعدين عن قيادتهم. وقد اضطر ذلك خليفة قلاوون، وهو الملك الأشرف خليل، على تسوية المشكلة فأبعد أمراء الحلقة الطرابلسية وأعاد الأمراء التنوخيين إلى قيادة عشيرتهم مقابل انخراطهم في الجيش المملوكي النظامي وذلك بتأليفهم حلقةً خاصة بهم[٦٠].

وهكذا أصبح الأمراء التنوخيون بانضوائهم في الجيش النظامي، خاضعين لقوانينه، الأمر الذي جعل الأمير التنوخي ببلوغه سناً معيناً يتنازل عن امرته لمن يخلفه من الأمراء. وهذا ما حدث للأمير جمال الدين حجي الذي ما إن أشرف على الستين من عمره حتى تنازل عن تبعات الإمارة لينصرف إلى ما كان مجبولاً عليه من طاعة الله وعبادته[٦١]. أما زين الدين صالح فقد أدركته الوفاة. ليبقى سعد الدين خضر الأخير من هذا المثلث التنوخي، ولكنه بعد بلوغه ستاً وستين سنة من العمر تنازل عن الأمرة لولده ناصر الدين الحسين الذي أصبح الأمير المقدم الوحيد بعد وفاة الأمير ناهض الدين بحتر بن زين الدين صالح ووفاة شمس الدين كرامه بن ناهض الدين بحتر.

فعّلت «المصالحة» التي حدثت بين السلطان المملوكي والأمراء التنوخيين مجابهة التنوخيين للفرنجة على ساحل بيروت. وبعد أن خسر الفرنجة بيروت وصيدا، وجلوا نهائياً عن الساحل الشامي أخذوا يغزون الساحل باستمرار. وكانت غزواتهم تلك تبلغ في بعض الأحيان مبلغ الحملة العسكرية الكبيرة. وكان الأمراء التنوخيون وأبناء عشيرتهم يصدون هذه الغزوات والحملات بمقدرة وشجاعة.

غير أن المماليك أدركوا ما كان عليه وجود المسيحيين المناصرين للفرنجة في كسروان من خطر على الساحل الشامي إذا ما تضافر وخطر الغزو الفرنجي، كما أدركوا أن وجود الشيعة في كسروان أيضاً، وهم المعادون للمماليك السنّة تقليداً، سيمنعهم في حال تفاقم الخطر الفرنجي والمسيحي من التحرك بحرية. فقر رأي السلطان المملوكي على ضرب الكسروانيين كافةً ضربة قاضية. لذلك كان لا بد لهم من استصدار فتوى شرعية تبيح لهم هذا الإجراء. فاستصدر

السلطان الناصر محمد بن قلاوون لذلك من الإمام تقي الدين ابن تيمية فتوى يكفر فيها الفرق الشيعية هادراً بها دماءهم[٦٢]. أما المسيحيون فبحكم اثبات عصيانهم على الدولة يكونون قد خرجوا من ذمتها وحل قتالهم.

ما أن صدرت فتوى ابن تيميه حتى تحركت حملة الناصر محمد بن قلاوون نحو كسروان وذلك سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥ م[٦٣]. وكان من نتائج هذه الحملة إجلاء جميع الكسروانيين نصارى وشيعة وإسماعيلية ودروزاً عن منطقتهم وإحلال التركمان بقيادة بني عساف محلهم[٦٤].

هنا تجدر الإشارة إلى أن الأمير التنوخي ناصر الدين الحسين، مع أنه شارك في هذه الحملة بصفته منضوياً في الجيش المملوكي النظامي، وقف ضد هذا الاقتلاع الجماعي[٦٥]. وقد سمح لعدد من الكسروانيين باللجوء إلى إمارته مفتتحاً بذلك الهجرة المسيحية إلى المناطق الدرزية في الأشواف والغرب.

لم يرق لناصر الدين الحسين نزوح الكسروانيين من نصارى واثني عشرية وإسماعيلية وعلوية ودروز ذلك أن هذا النزوح من شأنه أن يقلب الأوضاع الإجتماعية والسياسية رأساً على عقب. فكسروان موطن لعشائر تنوخية نزحت إليه منذ زمن قديم فاستجاب بعضها إلى الدعوة التوحيدية (الدرزية) وبقي الآخرون على مذاهب شيعية أخرى. لذلك فإن نزوح هذه العشائر يعد انحساراً للوجود التنوخي في جبل لبنان وساحله، كما أن نزوح النصارى من شأنه أن يؤدي إلى توطين اقوام آخرين يكونون حلفاء للدولة المملوكية، مما يجعل المماليك يُحكِمون الطوق على منطقتهم فيؤدي ذلك إلى إضعاف التنوخين وربما إلى محاولة المماليك اقتلاعهم هم ايضاً، خصوصاً أن مثل هذه المحاولة تعرض لها التنوخيون ولو جزئياً منذ أقل من ثلاثين سنة إثر إجتياح المماليك وأعوانهم لمنطقة الغرب بعد إغتيال قطب الدين السعدي.

بعد استتباب أمر كسروان للسلطان الناصر محمد بن قلاوون اخذت تراوده فكرة ابيه بتنظيم الإقطاع. فقرر القيام بمسح جديد للأراضي عرف بنظام الرّوك تراعى فيه موارد الأراضي كما يراعى فيه توزيع جديد للأراضي على أهل الأقطاع. وكما في السابق فإن هذه المحاولة لم ترق للأمراء التنوخيين. فهم ليسوا طارئين على منطقتهم كغيرهم من أمراء الإقطاع. وقد استطاع الأمير ناصر الدين الحسين، بما أوتي من حنكة سياسية أن يجعل السلطان يستثني التنوخيين من نظامه هذا ويقرهم على اقطاعاتهم يتوارثونها أباً عن جد[٦٦]. بموجب النظام الجديد تم توزيع الفرسان والجنود على الثغور أبدالاً على مر السنة[٦٧] وقد استطاع التنوخيون بسبب دربتهم وشجاعتهم وإخلاصهم أن يتدركوا الساحل أي يحافظوا عليه بجدارة. واشتهروا وأبناء عشيرتهم من الدروز، كما يقول الدكتور كمال الصليبي، بتدربهم على القتال وبخاصةٍ برمي السهام، فكانوا من خيرة المقاتلة في أيامهم في ذلك. وكثيراً ما كانت الدولة تدعوهم إلى الاشتراك في معارك خارج نطاق المثاغرة[٦٨].

وقد بقي الأمير ناصر الدين الحسين على رأس الأمراء التنوخيين إلى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م حين تنازل عن الإمرية الكبيرة لولده الأمير زين الدين صالح. وقد كان ناصر الدين الحسين إلى جانب أعماله العسكرية وفروسيته وشجاعته وحكمته وتدبره الأمور بروية ودراية واسع الثقافة محباً للأدب وسماع الشعر حافظاً له. قيل انه كان يحفظ أغلب ديوان المتنبي. وكان في مكتبته الغنية أربع من أقدم نسخ ديوان هذا الشاعر. وكان إلى ذلك ينظم الشعر[٦٩]. وقد اهتم هذا الأمير إلى ذلك بالعمران ليس في بيروت وفي بلدته عبيه وحسب وإنما في منطقة الغرب عامة[٧٠] وكان إلى ذلك من أهل الجودة والتدين. كذلك اشتهر بشدة البأس ومضاء العزيمة، حتى أنه كان إذا ركب من بيروت إلى بلدته عبيه لا يلتفت وراءه إلا مرتين: الأولى عند الجميزة قبل خروجه من بيروت والثانية عند الشاغور قبل دخوله عبيه، وذلك ليرى من تخلف من رجاله وغلمانه[٧١]. وكان إلى ذلك ساعياً إلى وحدة الصف فقرب آل علم الدين، وهم فرع آخر من التنوخيين كما قرب آل فارس الدين أمراء الشوف وهم على الأرجح من بني فوارس، كذلك حاول التقرب من بني أبي الجيش[٧٢].

أما الأمير زين الدين صالح فقد وقع عهده في عصر سادت فيه الفوضى والاضطرابات بين الأمراء المماليك. وكان في هذه الإضطرابات يناصر دوماً صاحب الدولة الشرعية. كما أن هذه الإضطرابات شجعت الفرنجة في قبرص على شن الهجمات المتتالية على الساحل الشامي فزاد الأمير زين الدين صالح من تدرّك المثاغرين وأخذ التنوخيون بالركوب ليلاً ونهاراً يجوبون شواطىء بيروت ويحرسونها[٧٣].

وقد تعرض الأمير زين الدين صالح إلى مضايقات التركمان ومؤامراتهم التي أدت إلى تجريد نائب دمشق التنوخيين من اقطاعاتهم وإعطائها إلى أمراء التركمان فأوفد الأمير التنوخي إلى يلبغا وصي السلطان. وقابل الوفد القاضي ابن فضل الله العمري كاتب السر الذي أدخل الوفد إلى يلبغا. فرسم يلبغا بإعادة الاقطاعات إلى التنوخيين. ومما قاله ابن فضل الله العمري ليلبغا في التنوخيين:

«هؤلاء من غرس الملوك الأوائل. إن كان فيهم نفع فقد استحقوا به اقطاعهم، وإن لم يكن فيهم نفع فحاشا الله أن يكون معروف أسداه الملوك الأوائل يبطل في أيام الأمير الكبير»[٧٤].

وقد اشتهر الأمير زين الدين صالح بحكمته ودبلوماسيته وجديته في القيام بمهماته وابتعاده عن التورط بمؤامرات المماليك فاستطاع أن يحافظ على مقامه ومكانته وأن يحمي منطقة الغرب من أطماع المنافسين وأن يحوز على احترام الأمراء المماليك وثقتهم ودعمهم ضد منافسيه المحليين. وكان مع اشغاله الكثيرة يجد وقتاً لممارسته هوايته وهي فن النجارة الدقيقة. يروي حفيده صالح بن يحيى أنه رأى من صناعته أقفالاً صغيرة لطيفة الحجم من خشب النارنج والعناب أنزل فيها تطاعيم طريفه. كذلك يروي أنه كان عنده بعض معرفة بالطب ويقوم بتحضير الأدوية والأكحال والمراهم يفرقها على المحتاجين بغية الثواب[٧٥]. وقد توفي سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م.[٧٦] وكان قبل وفاته بثلاث سنوات قد خلفه في الإمرة ابناه الأمير شهاب الدين أحمد والأمير سيف الدين يحيى[٧٧]. أما شهاب الدين أحمد فلم يعمر طويلاً وبوفاته سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١ م[٧٨] صار الأمر إلى أخيه سيف الدين يحيى وحده. وقد اشتهر سيف الدين يحيى بشجاعته وفروسيته. ففي حملة الجنويين على بيروت سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢ م استطاع الأمير سيف الدين يحيى بما كان لديه من شجاعة أن يقلب انتصار الجنويين بعد أخذهم بيروت إلى هزيمة شنعاء. فبعد أن نزل الجنويون إلى بيروت بجموعهم الغفيرة ونصبوا سنجقهم على مرتفع في المدينة انقضّ الأمير سيف الدين على الجنويين برجاله من الدروز «أصحاب النخوات» كما يسميهم المؤرخ صالح بن يحيى، وحمل على حامل السنجق. واشتد الطعان وأصابت رماح الفرنجة فرس الأمير فبرك، وكاد الفرنجة أن يقضوا على الفارس التنوخي ولكنه نهض وكرّ راجلاً حتى اقترب من حامل السنجق ورماه فأرداه قتيلاً ويقع السنجق على الأرض. ويتقدم أحد المقاتلين ويحز رأسه. ولما رأى الجنويون ما حل بقائدهم أصابهم الاضطراب فتضعضعوا وأخذوا يتراجعون منهزمين إلى مراكبهم. ورجال الأمير وراءهم يحملون عليهم طعناً وضرباً. فلما وصل المنهزمون إلى السقالات المنصوبة إزدحموا عليها فانقلب بعضها ووقع من كانوا عليها في البحر ولم يقدروا على السباحة لثقل لبوسهم فغرقوا، وانهزم الباقون وعادوا ادراجهم. وقد نسبت هذه المعركة إلى الأمير سيف الدين يحيى وعرفت به[٧٩]

في سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨ م توفي الأمير سيف الدين يحيى[٨٠] فخلّفاً ديوناً كثيرة نتيجةً لتبذيره. إذ علاوة على تشييده المباني المختلفة في كل من بيروت وعبيه فقد اشتهر بسخائه فعندما حج إلى بيت الله الحرام رافقته حاشية تضم عدا ابنه فخر الدين عثمان سبعةً آخرين. وقد ارهقته تكاليف الرحلة وثمن الهدايا التي أهداها عند رجوعه من الحج.[٨١].

وقد تولى الإمرة بعده ابنه الأمير فخر الدين عثمان[٨٢]. وقد عاصر انتقال السلطة إلى المماليك الجراكسة البرجية. وكان من نتيجة صراع المماليك بعضهم ببعض أن أشكل الأمر على الأمير الفتى مما أدى إلى إغتنام تركمان كسروان وجود التنوخيين إلى جانب السلطان الظاهر برقوق فهاجموا بيروت والغرب مع رجال منطاش منافس السلطان برقوق. فاوقعوا بأهل الغرب هزيمة نكراء ذهب ضحيتها الكثير. يذكر **السجل الإرسلاني** أنه قتل في هذا الهجوم أربعة من بني أبي الجيش وجرح وأسر أربعة آخرون ليقتلوا جميعاً بعد ذلك. أما الشدياق فيجعل الذين قتلوا من بني أبي الجيش أحد عشر أميراً. ويبدو أن هذه المعركة قد أودت بحياة جميع بني أبي الجيش إلا واحداً هو الأمير سيف الدين أبو المكارم يحيى بن نور الدين صالح الذي سقط جريحاً ولكنه تحامل وفرّ إلى مغر كانت فيه أمه مختبئةً فضمدت جراحة[٨٣]. ثُم إن الأمراء التنوخيين الذين اشتركوا مع برقوق في محاربة خصمه منطاش لحقوا ببرقوق إلى مصر لقطف ثمار اشتراكهم معه. غير أن تركمان كسروان اغتنموا فرصة ذهاب التنوخيين إلى مصر فاجتاحوا منطقة الغرب ثانية وقتلوا أربعين نفراً آخرين ونهبوا جملة من القرى[٨٤].

ما أن استتب الأمر للظاهر برقوق حتى جرد حملة على تركمان كسروان. وقد اشترك في هذه الحملة الأمير سيف الدين أبو المكارم يحيى الإرسلاني فأوقع في التركمان، كما يقول **السجل الإرسلاني** الدمار وقتل امراءهم بني الأعمى وخرّب قراهم[٨٥]. وقد اجتاحت هذه الحملة كسروان وأنزلت بالتركمان خسائر مادية وبشرية كبيرة وقتل في هذه الحملة التأديبية علي بن الأعمى وأسر أخوه عمر وأذيق أنواعاً من العذاب[٨٦].

وقد بقيت الفتن تعيث بالبلاد فساداً إلى أن تولّى نيابة دمشق الأمير سيف الدين تَنم الحسني الظاهري. غير أن الأمير فخر الدين عثمان لم ينعم بالاستقرار الذي جلبه نائب دمشق فما لبث الأمير التنوخي أن توفي عن عمر بلغ نحو أربع وعشرين سنة فقط. وكان ذلك سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣ م[٨٧].

لا نعلم ماذا حل بمنصب الأمير المقدّم أو الأمير الكبير عند التنوخيين بعد وفاة الأمير فخر الدين عثمان. فصالح بن يحيى في تاريخه لا يلقب أحداً من الأمراء بعد أخيه الأمير فخر الدين عثمان بلقب يميزه عن غيره من الأمراء ولا يذكر أن أحداً من الأمراء بعد الأمير فخر الدين تسلم مرسوماً سلطانياً يمنحه لقباً مميزاً عن اترابه. ويبدو أن السلطان الظاهر برقوق أبطل هذا اللقب بعد موت الأمير فخر الدين عثمان واكتفى بأنه كان يقرر الأمراء كافة على اقطاعاتهم. وقد يكون مؤسس دولة الأمراء البرجية أتخذ هذا الإجراء ليحد من تلاحم التنوخيين فتصبح علاقته بكل مُقَطَّع على حده. غير أن هذا الإجراء لم يمنع التنوخيين من تقديم بعض أمرائهم حسب التقاليد المتبعة في العشائر العربية فبقي منهم أمير بارز تقليدياً وإن لم يكن رسمياً. وهذا ما يفسّر تلقيب المؤرخ ابن سباط الذي جاء بعد الظاهر برقوق بعض الأمراء التنوخيين كشرف الدين عيسى وغيره ممن خلفه بلقب أمير الغرب أو أمير الأمراء أو الأمير الكبير[٨٨].

تسنم هذا المنصب «الفخري» بعد وفاة الأمير فخر الدين عثمان الأمير شرف الدين عيسى، وهو ابن الأمير شهاب الدين أحمد. ثم تسنّمه من بعده الأمير صالح بن يحيى صاحب **تاريخ بيروت**، وهو أخو الأمير فخر الدين عثمان. ولم يكن ابن سباط المؤرخ الوحيد الذي ذكر هذا اللقب بل نرى غيره من المؤرخين يذكره أيضاً كسليمان ابن نصر الذي ترجم للولي العلامة السيد الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي في كتابه **درة التاج وسلّم المعراج**[٨٩].

كان الأمير شرف الدين عيسى، كما يحدثنا صالح بن يحيى سيداً جليلاً عالي المنزلة ذا عقل وحسن سياسة وتدبير. وكان إلى جانب ذلك يجمع بين نظم الشعر وجمال الخط[٩٠] ويقول الشيخ محمد مالك الأشرفاني في مخطوط أرخ فيه لإعلام الموحدين الدروز أن السيد الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي كبير علماء الموحدين وأوليائهم بعد الدعوة التوحيدية أعتمد في شروحه للآثار التوحيدية على تلك الآثار التي ضبطها ونسخها الأمير شرف الدين عيسى.

باستثناء وبأ الطاعون الذي ضرب منطقة الغرب وجرف عدداً كبيراً من الأطفال والأحداث بخاصة، فقد بقيت البلاد بعد مبايعة التنوخيين للأمير شرف الدين عيسى تنعم في أمن نسبي في ظل السلطان برقوق ونائبه على دمشق سيف الدين تنم حتى أواخر سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩ م حين توفي برقوق واعتلى العرش ابنه السلطان

الناصر فرج. الذي نشب الخلاف بينه وبين تنم واستطاع السلطان أن يقضي على خصمه سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠ م. ويبدو أن التنوخيين بقوا على الحياد في هذا الصراع بين المماليك. ولكن ما أن استتب الأمر للسلطان الجديد حتى اجتاح تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠ م المناطق الشمالية من بلاد الشام فتوجه السلطان الناصر فرج من مصر إلى الشام لمحاربته وبعث إلى نائبه على بعلبك والكاشف على صيدا وبيروت يأمره بأن يجهز عشائر البقاع ومعاملتي صيدا وبيروت ويلاقيه إلى دمشق[٩١]. غير أن السلطان ما لبث أن ولى هارباً تاركاً دمشق تسقط في يد تيمورلنك[٩٢]. وما إن غادر تيمورلنك الشام حتى اجتاح الجراد البلاد فاضطر الأمير شرف الدين عيسى إلى التوجه إلى مصر لإبتياع القمح وإحضاره لإنقاذ أهل الغرب من الجوع[٩٣].

قتل الناصر فرج في أوائل سنة ٨١٥ هـ/١٤١٢ م نتيجة للمنازعات المعقدة التي قامت بين مختلف الأمراء المماليك. وقد بقيت الاضطرابات على أشدها حتى تولى السلطنة الأمير شيخ أتابك الجيش في مصر وتلقب بالملك المؤيد وكان ذلك في ٣ شعبان، سنة ٨١٥/تشرين الثاني، ١٤١٢ م. وقد استغل الفرنجة هذه الاضطرابات فاستطاعوا في السنة التالية الاستيلاء على الدامور وأخذوا يغيرون منها على السواحل المجاورة[٩٤]. ويبدو أن التنوخيين لم يتسنّ له التصدي للفرنجة بسبب خلاف بينهم وبين الكاشفين[٩٥] على صيدا وبيروت من البعلبكيين. غير أن الأمير سيف الدين أبا المكارم يحيى الإرسلاني كفاهم مؤونة ذلك فقام بهذا التصدي بانتظار قدوم السلطان المؤيد شيخ.

وقد استطاع الأمير الارسلاني والسلطان المؤيد أن ينتصرا على الفرنجة ويستعيدا الدامور فقرّر السلطان الأمير الارسلاني على اقطاعه وزاد عليه[٩٦].

توفي المؤيد شيخ في أوائل سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م فعادت القلاقل إلى دولة المماليك إلى أن تربع الملك الأشرف برسباي على العرش سنة ٨٢٥ هـ/١٤٢٢[٩٧].

في السنة التالية توفي الأمير شرف الدين عيسى[٩٨]. وبرز بعد وفاته على المسرح السياسي الأمير عز الدين صدقة بن شرف الدين عيسى والأمير زين الدين صالح بن الأمير سيف الدين يحيى صاحب **تاريخ بيروت**.

عين السلطان برسباي الأمير عز الدين صدقة متولياً على بيروت. وكانت ولاية بيروت تابعة لنيابة دمشق. فاصبح هذا الأمير التنوخي بتوليه هذا المنصب كما يقول ابن سباط، «له الميزة على جميع الأمراء... يحكم من حدود طرابلس إلى حدود صفد، بالسواحل البحرية وجبالها بجهات عديدة. ومسك درك بيروت وأمنَها من الفرنج وغيرها. وكانت تقصده الأكابر من الأعيان من أقصى مكان. وكان لنائب دمشق به العناية البالغة.»[٩٩]

أما الأمير زين الدين صالح فيبدو أنه عني بالأمور الداخلية لمنطقة الغرب كما عني أيضا بالأعمال العسكرية التي كلفه بها السلطان برسباي قائداً لرجال منطقة الغرب بخاصة في الحملتين اللتين وجههما برسباي إلى قبرص وانتهتا باسر ملك قبرص واخضاع الفرنجة نهائياً[١٠٠].

وقد استمرّ في زمن عز الدين صدقة وزين الدين صالح الصراع بينهما وبين بني الحمراء وانتهى هذا الصراع بالقضاء على بني الحمراء[١٠١].

كان الأميران عز الدين صدقة وزين الدين صالح يتبعان سياسة التنوخيين التقليدية وهي نصرة الدولة الجامعة ودعم السلطان الشرعي. من هذا المنطلق كان دعم زين الدين صالح لبرسباي ومحاربته بني الحمراء الذين حاولوا الخروج على السلطان أو نائبه ومن هذا المنطلق كان دعم عز الدين صدقة لبرسباي أيضاً ولخليفته السلطان الظاهر جقمق في قتاله لإينال الجكمي نائب دمشق الذي خرج على السلطان. وقد استطاع عز الدين صدقة بصفة كونه متولي بيروت أن يوحد كلمة امراء بلاد الشام ومقدميها وكان قد جمعهم نائب دمشق لمحاربة السلطان فما إن التحم العسكران حتى تخلى امراء الشام ومقدموها عن اينال وانضموا إلى السلطان. وكان ذلك بمسعى من عز الدين صدقة الذي كان الأمراء والمقدمون يصدرون من تحت أمره بصفته متولياً من حدود طرابلس الى حدود صفد. ويمكننا القول إن عز الدين صدقة وحدّ بين امراء الشام وجمع كلمتهم لأول مرة في تاريخ تلك الحقبة وجعلهم يناصرون الدولة الجامعة على من خرج عليها. فكان له أن يقرر نتيجة القتال لصالح السلطان الظاهر جقمق[١٠٢]. وقد بقي الأمير عز الدين صدقة متولياً على بيروت إلى أن توفي سنة ٨٤٨ هـ/١٤٤٤ م[١٠٣].

لا نعلم بالضبط هل بويع أحد من الأمراء التنوخيين بعد موت الأمير عز الدين صدقة بالإمرة الكبيرة. غير أن ابن سباط في معرض حديثه حول الأمير شرف الدين موسى الأخ الأصغر للأمير عز الدين صدقة يذكر أنه «ساس البلاد وكان يتعاطى الأحكام الشرعية في حكمه.» ويشير هذا القول إلى أن شرف الدين موسى كان يعد بعد موت أخيه الأمير الكبير وقد بقي الأمير شرف الدين موسى حياً، كما يواصل ابن سباط حتى سنة ٨٩٢ هـ/١٤٨٧ م[١٠٤].

كذلك يأتي ابن سباط على ذكر أمير تنوخي آخر هو بدر الدين حسين بن عز الدين صدقة. ويبدو من كلام ابن سباط أن هذا الأمير كان أيضاً قد بويع أميراً على الأمراء بدليل نزول نائب دمشق جلبان بين ظهرانيه في عبيه عندما توجه لبناء جسر الدامور.

ويذكر ابن سباط أنه عندما نزل جلبان في عبيه أذّن مؤذن نائب دمشق ذات يوم أذان الظهر قبيل موعده، فتحيّر مؤذن مسجد عبيه (وهو أحمد بن سباط والد المؤرخ المعروف بابن سباط) هل يؤذن في الوقت الصحيح أم لا تهيُّباً. فأصر الأمير بدر الدين حسين عليه بالأذان عند حلول الظهر فأذّن. فقال جلبان للأمير: «إما فقيهنا وأما فقيهك قد كذب.» وخرج ينظر إلى الشمس وقال: «مع فقيهكم الصواب.»[١٠٥] وقد بلغ الأمير بدر الدين حسين إلى ذلك منزلة عالية في مجال الخط، وتوفي سنة ٨٦٣ هـ/١٤٥٨ أو ١٤٥٩ م[١٠٦].

كذلك برز أمير آخر هو الأمير سيف الدين يحيى ابن الأمير فخر الدين عثمان، يقول فيه ابن سباط أنه ساد قومه وأنه «بلغ أجل المراتب بالعلم والحلم والبلاغة والبراعة والسياسة وحسن الاخلاق والورع.» وانه اشتغل بالعلوم كما اشتغل بالعربية ونظم الشعر[١٠٧]. وله ديوان ما زال مخطوطاً ويملك كاتب هذه السطور نسخةً منه. وكان الأمير سيف الذين إلى ذلك خطاطاً بارعاً. وقد شاهد كاتب هذه السطور عند نسيب له في رأس المتن مصحفاً من خط الأمير لا يزيد حجمه عن الكف وهو مكتوب بقلم النسخ الجميل. وبرع الأمير سيف الدين إلى ذلك بصناعة الرسم والخيط العجمي وتزميكه (ويقصد بالخط العجمي تنزيل خيط الفضة في حفر الرسوم على الخشب)، كما برع بفن الصياغة إلى جانب قيامه على التقوى ودراسة الكتاب العزيز.[١٠٨]

توفي الأمير سيف الدين يحيى سنة ٨٦٤هـ/١٤٥٩ أو ١٤٦٠ م دون عقب فأوقف الوقوفات على الصدقات وأكابر رجال العلم وخص القول بجهاته السيد الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي كبير علماء الموحدين وحكمائهم[١٠٩].

ولد الأمير جمال الدين في عبيه في ١٢ ربيع الأول سنة ٢٧/٨٢٠ نيسان، ١٤١٧ أما والده فهو الأمير علم الدين سليمان بن بدر الدين محمد بن صلاح الدين يوسف الأبن الأصغر للأمير سعد الدين خضر. وقد نشأ يتيماً وختم القرآن الكريم ثم جرده ثانيةً ودرسه حتى كان يقرأه مقلوباً سرداً كما يقول ابن سباط[١١٠]. ويواصل ابن سباط حديثه في السيد الأمير جمال الدين فيقول إنه أمر بعمارة المساجد في القرى وجدد الجوامع وشدّد على القراءة الصحيحة للقرآن الكريم وجلب الفقهاء إلى النواحي. ويقول فيه أيضاً إنه أقام الخطب في الجوامع يوم الجمعة في كل قرية تكمل العدة. وإنه كان يعطي أجرة التعليم عن جميع الأيتام في جميع البلاد. وقد تابت الناس على يده واستجابت إلى أوامره وكان يكره بيع الزبيب إلى مصر احتساباً أنهم يعصرونه خمراً. وقد كثر تلاميذه من مختلف النواحي يأمرون وينهون بأمره ونهيه في الأمور الشرعية والحقوق والواجبات[١١١].

والجدير بالذكر أن الأمير جمال الدين عبد الله قرب إليه العامة من الناس وجعل لهم من بينهم

آمراً وناهياً. وجعل في كل ناحية رجلاً ديناً عالماً مفيداً.[١١٢].

وهكذا أدخل الأمير جمال الدين نظاماً شعبياً قائماً على العدالة يفرضها أفراد الشعب بعضهم على بعض. ولتمكين الشعب من ذلك أقام في بيته مدرسة لمريديه. فاستخار من الأخيار، كما يقول تلميذه الشيخ علم الدين سليمان ابن نصر؛ قوماً من التلاميذ أوقفهم بين يديه[١١٣] يعلمهم العلوم الشرعية وسياسة الناس ويطلقهم في النواحي يتولون أمور الرعية على الحق والعدل. وقد ازداد عداء الأمراء المتحكمون له لأفكاره «الثورية» فاضطر إلى الرحيل إلى دمشق يرافقه ابنه الأمير سيف الدين عبد الخالق. وربما كان السعي في طلب العلم عاملاً آخر أدى إلى رحيلهما. وقد أقام في دمشق نحو اثنتي عشرة سنة عاد بعدها إلى عبيه حيث توفي ابنه الوحيد الأمير سيف الدين عبد الخالق بعد مدة قصيرة برمحة فرس يوم زفافه. فتلقى ابوه وفاته بالرضا والتسليم والقبول حتى أنه لم يتغير قلبه ولم تصبه ذرة من كدر. وبقي يعظ ويعلّم ويقضي بين الناس إلى أن وافته المنية في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٨٨٤/ ٤ أيلول ١٤٧٩[١١٤].

بايع تلاميذ السيد الأمير جمال الدين بعد وفاته الأمير سيف الدين أبا بكر بن الأمير سيف الدين زنكي من الأمير عز الدين صدقة مشيراً وشيخاً عليهم يعاونه في ذلك تلميذان من تلاميذ الأمير جمال الدين هما الشيخ شرف الدين علي بن أبي ريدان من قرية الفساقين والشيخ زين الدين جبرائيل بن علم الدين سليمان ابن نصر من قرية المعاصر الفوقى[١١٥]. يروي ابن سباط أن أحكام الأمير سيف الدين أبي بكر كانت تبلغ مبلغ الفتوى[١١٦].

مما تقدم نستخلص أن منطقة الغرب في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، أي منذ بروز السيد الأمير جمال الدين عبد الله، كان يتنازعها خطان في سياسة الرعية: خط تقليدي يقوم على «سطوة الملوك الدنيوية» على حد تعبير ابن سباط، وكان يمثله الأمير شرف الدين موسى بن شرف الدين عيسى الذي امتدت أيامه إلى حوالي سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧ م[١١٧]، وخط إصلاحي يقوم على إصلاح الشعب برعاة له منه ويقوده السيد الأمير جمال الدين عبد الله ومن بعده تلاميذه وفي مقدمتهم سيف الدين أبو بكر. غير أن هذا الخط ما لبث أن ضعف بعد وفاة تلاميذ السيد الأمير جمال الدين.

وقد تسلم زعامة الخط الأول بعد وفاة الأمير شرف الدين موسى ابنه الأمير جمال الدين حجي. كان مهاباً من الأمراء وقد مهّد السواحل البحرية ووطّأ أهلها على حد تعبير ابن سباط[١١٨]. ويقصد باهل السواحل البحرية بني الحنش بقيادة ناصر الدين بن الحنش[١١٩]. وكان على قسط من التدين: قام بفريضة الحج في أول عمره ولكنه كان معتداً بنفسه لا يستشير في أموره أحداً موقع في مشكلات عسيرة إلى أن سجنه جان بردي الغزالي نائب دمشق من قبل السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري[١٢٠]. وعندما زحف السلطان سليم خان العثماني على بلاد الشام فرّ جان بردي الغزالي إلى معسكر السلطان العثماني قبيل معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦ م. فلما استولى السلطان سليم على بلاد الشام أُبقي الأمير التنوخي في السجن وكان ذلك آخر العهد به[١٢١].

وبإنهاء السلطان سليم العثماني حكم المماليك أفل نجم التنوخيين في منطقة الغرب أمام أسرة درزية عربية أخرى هي أسرة بني معن.

مما تقدم نستطيع أن نتبيّن الخط الذي انتهجه التنوخيون مدة حكمهم على هذا الجبل وساحله. فقد قدموا لهذه المنطقة منذ أن قدموا بغية الدفاع عن ثغورها والذبّ عن دار الإسلام. وقد كانوا في ذلك يؤلفون الخط الأول ضد هجمات الروم البيزنطيين ثم ضد هجمات الفرنجة.

ويمكننا أن نقول إن من أسباب نجاحهم في مهمتهم تلك أن عقيدتهم التوحيدية الإسلامية تعلّم أن توحيد الله لا يتم إلا بالعمل على توحيد كلمة الإسلام لقوله تعالى: «واعتصموا بحبل الله جمعياً ولا تفرّقوا»[١٢٢]، ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يد الله مع الجماعة». من هنا نراهم ينتهجون عبر تاريخهم نهجاً لم ينتهجه غيرهم في التاريخ العربي والإسلامي على مر العصور، وهو نصرة دولة الإسلام الجامعة بصرف النظر عن المذهب الذي يعتنقه أولو الأمر في هذه الدولة. وقد كان التنوخيون في ذلك ولذلك يطبّقون على أنفسهم الأحكام الشرعية لتلك الدولة شأنهم في ذلك شأن سائر الموحدين الدروز وذلك حرصاً على وحدة الكلمة وسيادة الدولة الجامعة، فلم يخلطوا عقيدتهم الإسلامية التي بها يتقربون إلى الله بالمصلحة الإسلامية التي تمثلها الدولة الجامعة. من هنا لم نرَ في تاريخ التنوخيين أيةَ محاولةٍ للخروج على الدولة الإسلامية السائدة إلاّ في سبيل نصرة دولة إسلامية أخرى أجدر بأن تكون الدولة الجامعة في رأيهم. ذلك ما فعلوه عند الصراع الذي نشب بين الأيوبيين والمماليك. كما أن مهادنتهم لأية قوة غير اسلامية لم تكن إلا وسيلةً «تكتيكية» يضطرهم إليها واقع الحال دون أن تتحول هذه المهادنة إلى غاية بحد ذاتها. من هنا كانت مهادنتهم بعض الأحيان للروم أو للفرنجة أو للمغول. غير أنهم في تاريخهم السياسي الطويل لم يحاولو مرة واحدةً التخلي عن مهمتهم الرئيسية وهي المرابطة في سبيل الدفاع عن دار الاسلام.

علاوة على ذلك يرى الباحث أن قدوم التنوخيين إلى هذا الجبل وساحله، وهم العشائر العربية، طبع هذه البلاد بالطابع العربي وقد ساهمت هذه العشائر العربية في تعريب الجبل اللبناني لما كانت عليه من مكانة إجتماعية وسياسية وبسبب الدور المهم الذي قامت به في علاقاتها مع بقية السكان على اختلاف اعراقهم وأديانهم.

وهكذا يمكننا أن نقول أن قدوم هذه العشائر العربية إلى لبنان لم يحافظ على دار الاسلام وحسب وإنما ساهم أيضاً في تركيز الاسلام في هذه المنطقة وطبعها بالطابع العربي.

الهوامش

(١) راجع علي بن أحمد بن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧)، ج١، ص ١٩٦؛ محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك** (بيروت: مكتبة خياط، نسخة مصورة عن طبعة المطبعة الحسينية المصرية في القاهرة، ١٣٣٦ هـ)، ج ١، ق ٢، ص ٢٧؛ شهاب الدين ياقوت الحموي، **معجم البلدان** (بيروت: دار صادر، ١٩٧٧)، ج ١، ص ٣٢٩؛ جواد علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام** (بغداد: المجمع العلمي العراقي وشركة الرابطة للطبع والنشر، ١٣٧٢ هـ/١٩٥٣ م.)، ج ٣، ص ٤١١.

(٢) ابن الأثير، ج ١، ص ٢٠٢، المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق يوسف أسعد داغر (بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٥)، ج ٢، ص ٦٥ ــ ٧٤؛ جواد علي، ج ٤، ص ٢٨ (معتمداً على الطبري، ج ٢، ص ٣٠ وما بعدها).

(٣) راجع رينيه ديسو، **العرب في سوريا قبل الإسلام**، ترجمة محمد زياده (القاهرة: ١٩٥٩)، ص ٣٤، قابل جواد علي، **تاريخ**، ج ١، ص ١٨٩؛ ج ٣، ص ٤٣٧ ــ ٤٣٨.

(٤) رينيه ديسو، ص ٣٦، وقابل جواد علي، **تاريخ**، ج ٤، ص ٣٣.

(٥) جواد علي، **تاريخ**، ج ٤، ص ٨٨ ــ ٨٩.

(٦) المرجع ذاته، ص ١٠٣.

(٧) المرجع ذاته، ص ١٠٤.

(٨) الأمير شكيب ارسلان، **بنو معروف اهل العروبة والإسلام**، إعداد سعود المولى (بيروت: المجلس الدرزي للبحوث والإنماء ودار العودة، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م.)، ص ٥١ ــ ٥٢ نقلاً عن السجل الأرسلاني.

(٩) نديم نايف حمزه، **التنوخيون اجداد الموحدين (الدروز) ودورهم في جبل لبنان** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م.)، ص ٤٣ من حاشية رقم ٤٨.

(١٠) شكيب أرسلان، «سلسلة نسب العائلة الأرسلانية»، في الأمير نسيب أرسلان، **روض الشقيق في الجزل الرقيق**. (دمشق: مطبعة ابن زيدون: ١٢٥٢ هـ/١٩٢٥ م.)، ٢٤١.

(١١) أسد رستم، **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب** (بيروت: دار المكشوف، ١٩٥٦)، ج ١، ص ٢٦٠ ــ ٢٦١.

(١٢) طنوس الشدياق، **اخبار الأعيان في جبل لبنان**، تحقيق فؤاد أفرام البستاني (بيروت: الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠)، ج ٢، ص ٤٩٧.
(١٣) يوسف إبراهيم يزبك، **ولي من لبنان** (بيروت: منشورات أوراق لبنانية، ١٩٦٠)، ص ٢٢ ــ ٢٣. راجــع أيضاً ما قاله الأمير شكيب من المصدر السابق، ص ٢٢٩.
(١٤) «سلسلة نسب العائلة الإرسلانية»، ص ٢٣٥.
(١٥) فيليب حتي وغيره، **تاريخ العرب (مطول)** (بيروت: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٤٩)، ج ١، ص ٢٦٩.
(١٦) الشدياق، ج ٢، ص ٤٩٦؛ سلسلة النسب، ص ٢٣٨.
(١٧) سلسلة النسب، ص ٢٣٨.
(١٨) الشدياق، ج ٢، ص ٤٩٥.
(١٩) مالك الأشرفاني، **عمدة العارفين** (مخطوط)، ج ٣، الورقة ١١٧.
(٢٠) الشدياق، ج ٢، ص ٤٩٨ ــ ٤٩٩.
(٢١) «سلسلة النسب»، ص ٢٢٣. راجــع أيضاً الشدياق، ج ٢، ص ٤٩٩. غير أن الشدياق يذكر أن الخليفة كان المتوكل، وهذا خطأ واضح إذ أن عهد المتوكل انتهى سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١ م.
(٢٢) «سلسلة إلنسب»، ص ٢١٤.
(٢٣) المصدر ذاته، ص ٢٢٧.
(٢٤) المصدر ذاته، ص ٢١٤.
(٢٥) المصدر ذاته، ص ٢١٦.
(٢٦) المصدر ذاته.
(٢٧) المصدر ذاته، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣.
(٢٨) المصدر ذاته، ص ٢٠٨.
(٢٩) الشدياق، ج ٢، ص ٥٠٣. قابل سلسلة النسب ص ٢٠٣.
(٣٠) الشدياق، ج ٢، ص ٥٠٤. **السجل الأرسلاني**. (مخطوط). نسخة الأميرة حياة أرسلان، ص ٤٢.
(٣١) **السجل الأرسلاني**، ص ٤٠؛ الشدياق، ج ٢، ص ٥٠٤. والجدير بالذكر أن الأمير شكيب أرسلان في الذيل على ديوان **روض الشقيق** الذي نقل أحداثه عن **السجل الأرسلاني** اغفل ذكر هذا الأمر. راجــع «سلسلة النسب» في الديوان المذكور، ص ٢٠٤.
(٣٢) راجــع عباس أبو صالح وسامي مكارم، **تاريخ الموحدين الدروز السياسي** (بيروت: المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، دون تاريخ)، ص ٦٧.
(٣٣) المرجــع ذاته. كذلك راجــع سامي مكارم، «رافــع بن أبي الليل أمير بني كلب في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر وأوائل عهد المستنصر»، **دراسات عربية وإسلامية**، تحرير وداد القاضي (بيروت: الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٨١) ص ٢٣٩ وما يتبــع.
(٣٤) **السجل الأرسلاني**، ص ٤٢؛ الشدياق، ج ٢، ص ٥٠٤.
(٣٥) سلسلة النسب الأرسلاني، ص ٢٠٤؛ الشدياق، ج ٢، ص ٥٠٤.
(٣٦) Samir Makarem, **The Druze Faith** (Delmar, N.Y.: Caravan Broks, 1974), p. 38.
(٣٧) «سلسلة النسب الأرسلاني»، ص ١٩٨ ــ ١٩٩.
(٣٨) الشدياق، ج ٢، ص ٥٠٦.
(٣٩) Frederic Duncalf, «The Councils of Piacenza and Clermont». in **A History of the Crusades,** editor-in-chief K.M. Stetton, Vol. 1, The **First Hundred Years,** ed. M.W. Baldwin (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1958), pp. 220 ff.
(٤٠) Steven Runciman, **A History of the Crusades** (Cambridge: Cambridge University Press, 1954), Vol. 1, pp. 323 — 324.

(٤١) «سلسلة النسب الأرسلاني»، ص ١٩٩.
(٤٢) الشدياق، ج ٢، ص ٥٠٦ ــ ٥٠٧.
(٤٣) سلسلة النسب الأرسلاني، ص ١٨٦ ــ ١٨٧.
(٤٤) هذا الفرع بالذات عرف بالتنوخي نسبة إلى أحد الأجداد وهو تنــوخ بن قحطان الذي قــدم إلى لبنان سنــة ٢٠٥ هـ/٨٢٠ م. واستوطن حصن سرحمور (راجــع الشدياق، ج ٢، ص ٤٩٧). كذلك عرف هذا الفرع بالجميهري نسبة إلى جميهر بن تنوخ بن قحطان (صالح بن يحيى، **تاريخ بيروت**، تحقيق فرسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي وغيرهما (بيروت: دار المشرق، ١٩٦٩)، ص٣٩). وقد عرف هذا الفرع فيما بعد بالبحتري أيضاً نسبة إلى ناهض الدولة بحتر بن علي بن الحسين.

(٤٥) صالح بن يحيى، ص ٤٣؛ راجــع أيضاً سلسلة النسب الأرسلاني، ص ١٨٧ ــ ١٨٨.
(٤٦) صالح بن يحيى، ص ٤٥.

(٤٧) المصدر ذاته. قابل ذلك بما ورد في كتاب **قواعد الآداب وحفظ الانساب** لمؤلف مجهول، تحقيق إلياس القطار (بيروت: الجامعة اللبنانية، ١٩٨٦)، ص ٤٣ ــ ٤٤.
(٤٨) صالح بن يحيى، ص ٤٩، ٥١.
(٤٩) راجــع الشدياق، ج ٢، ص ٥٠٨.
(٥٠) صالح بن يحيى، ص ٥٠.
(٥١) المصدر ذاته، ص ٤٧ ــ ٤٨، ٥٦.
(٥٢) المصدر ذاته، ص ٥٨ ــ ٥٩.
(٥٣) المصدر ذاته، ص ٦٠.
(٥٤) المصدر ذاته، ص ٦٣.
(٥٥) المصدر ذاته، ص ٦٤.
(٥٦) المصدر ذاته، ص ٦٣ ــ ٦٥.
(٥٧) المصدر ذاته، ص ٦٧.
(٥٨) المصدر ذاته، ص ٦٨.

(٥٩) المصدر ذاته، ص ٧٠ ــ ٧١. أما مصطلح جند الحلقة فيعني الجنود الذين يؤلفون إحدى الفرق الرئيسية في الجيش المملوكي. وكانت الحلقة فرقة من الفرسان الأحرار من غير المماليك.
(٦٠) المصدر ذاته، ص ٧١ ــ ٧٢.
(٦١) المصدر ذاته، ص ٥٥.
(٦٢) مرعي بن يوسف الكرمي، **الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية** (القاهرة: ١٣٢٩ هـ)، ص ١٦٥.
(٦٣) صالح بن يحيى، ص ٩٦.
(٦٤) المصدر ذاته، ص ٢٨ ــ ٢٩؛ الشدياق، ج ١، ص ٣٠١.
(٦٥) صالح بن يحيى، ص ٩٦.
(٦٦) المصدر ذاته، ص ٨٤ ــ ٨٧.
(٦٧) المصدر ذاته، ص ٨٧ ــ ٨٩.
(٦٨) Kamal S. Salibi, «The Buhturids of the Garb, mediaeval Lords of Beirut and Southern Lebanon», **Arabica,** Tome VIII (Janvier, 1961), pp. 92-93.
(٦٩) صالح بن يحيى، ص ٨٢.
(٧٠) المصدر ذاته، ص ١٠٣ ــ ١٠٦.
(٧١) المصدر ذاته، ص ١٣٢.
(٧٢) المصدر ذاته، ص ١٥٨ ــ ١٥٩، ١٦٨ ــ ١٨٥؛ راجــع سلسلة النسب الأرسلاني، ص ١٧٥.
(٧٣) صالح بن يحيى، ص ٢٩، ٣٤، ١٧٨ ــ ١٧٩.
(٧٤) المصدر ذاته ص ١٧٩.
(٧٥) المصدر ذاته ص ١٨٤.
(٧٦) المصدر ذاته ص ١٨٥ ــ ١٨٦.
(٧٧) المصدر ذاته، ص ١٧٧.
(٧٨) المصدر ذاته، ص ١٩٠ ــ ١٩١.
(٧٩) المصدر ذاته، ص ٣٠ ــ ٣٢، ١٩٤ ــ ١٩٥.
(٨٠) المصدر ذاته، ص ٢١٢.
(٨١) المصدر ذاته، ص ١٩٤.
(٨٢) المصدر ذاته، ص ٢١٢.
(٨٣) سلسلة النسب الأرسلاني، ص ١٦٨، الشدياق، ج ٢، ص ٥١٠ ــ ٥١١.
(٨٤) صالح بن يحيى، ص ٢١٥.
(٨٥) سلسلة النسب الأرسلاني، ص ١٦٨.
(٨٦) صالح بن يحيى، ص ٢١٥.
(٨٧) المصدر ذاته، ص ٢١٦.

(٨٨) حمزه بن أحمد بن سباط، **صدق الاخبار**. الفصل العاشر والحادي عشر (Appendix A)، تحقيق نائلة تقي الدين قائد بيه، من رسالة الماجستير في التاريخ في دائرة التاريخ وعلم الآثار في الجامعة الاميركية في بيروت سنة ١٩٨٠ (مخطوط)، ص ٥٩، ٦٣.

(٨٩) سليمان بن حسين بن نصر، **درة التاج وسلم المعراج في ذكر تاريخ الامير جمال الدين عبد الله التنوخي**، تحقيق اللجنة الثقافية في مؤسسة العرفان التوحيدية (السمقانية: مؤسسة العرفان التوحيدية، دون تاريخ)، ص ٢٥.

(٩٠) صالح بن يحيى، ص ٢٠٥.

(٩١) المصدر ذاته، ص ٢١٨ ــ ٢١٩.

(٩٢) راجـع ابن سباط (appendix A)، ص ٢٨، ــ ٣٠.

(٩٣) صالـح بن يحيى، ص ٢٠٨.

(٩٤) سلسلة النسب الأرسلاني، ص ١٧٠ ــ ١٧١.

(٩٥) الكاشف مصطلح كان يستعمل في عصر المماليك بمعنى جابي الضرائب وهو كحاكم من قبل المماليك.

(٩٦) المصدر ذاته. راجـع أيضاً الشدياق، ج ٢، ص ٥١٢ وقارن مـع ابن سباط، appendix A.

(٩٧) صالح بن يحيى، ص ٢٣٥ ــ ٢٤١، ابن سباط، appendix A، ص ٥١ ــ ٥٤.

(٩٨) صالح بن يحيى، ص ٢٠٩، ابن سباط appendix A، ص ٥٩، ٦٣.

(٩٩) ابن سباط، Appendix A، ص ٨٧.

(١٠٠) صالح بن يحيى، ص ٢٥١ ــ ٢٥٢.

(١٠١) المصدر ذاته، ص ٢٤٨ ــ ٢٤٩، ابن سباط، Appendix A، ص ٨٩ ــ ٩٠.

(١٠٢) ابن سباط، Appendix A، ص ٨٤.

(١٠٣) المصدر ذاته، ص ٨٦ ــ ٨٧.

(١٠٤) ابن سباط، **تاريخ الدروز**، تحقيق نائلة تقي الدين قائد بيه، ص ٤٣.

(١٠٥) المصدر ذاته، ص ٢٣ ــ ٢٤.

(١٠٦) المصدر ذاته، ص ٢٤.

(١٠٧) المصدر ذاته، ص ٢١.

(١٠٨) المصدر ذاته، ص ٢٣.

(١٠٩) المصدر ذاته، ص ٢٣، ٤١.

(١١٠) المصدر ذاته، ص ٦٩ ــ ٧٠.

(١١١) المصدر ذاته، ص ٧١ ــ ٧٢.

(١١٢) المصدر ذاته، ص ٧٢ ــ ٧٣.

(١١٣) ابن نصر، ص ١٦ ــ ١٧.

(١١٤) ابن سباط، ص ٨٣، ابن نصر، ص ٥٠.

(١١٥) ابن سباط، ص ٨٢.

(١١٦) حول الأمير سيف الدين أبي بكر راجـع المصدر ذاته ص ٤٧ ــ ٤٨.

(١١٧) المصدر ذاته، ص ٤٣.

(١١٨) المصدر ذاته، ص ٤٥.

(١١٩) راجـع كمال الصليبي، **منطلق تاريخ لبنان** (بيروت: نوفل، ١٩٩٢)، ص ١٥٣.

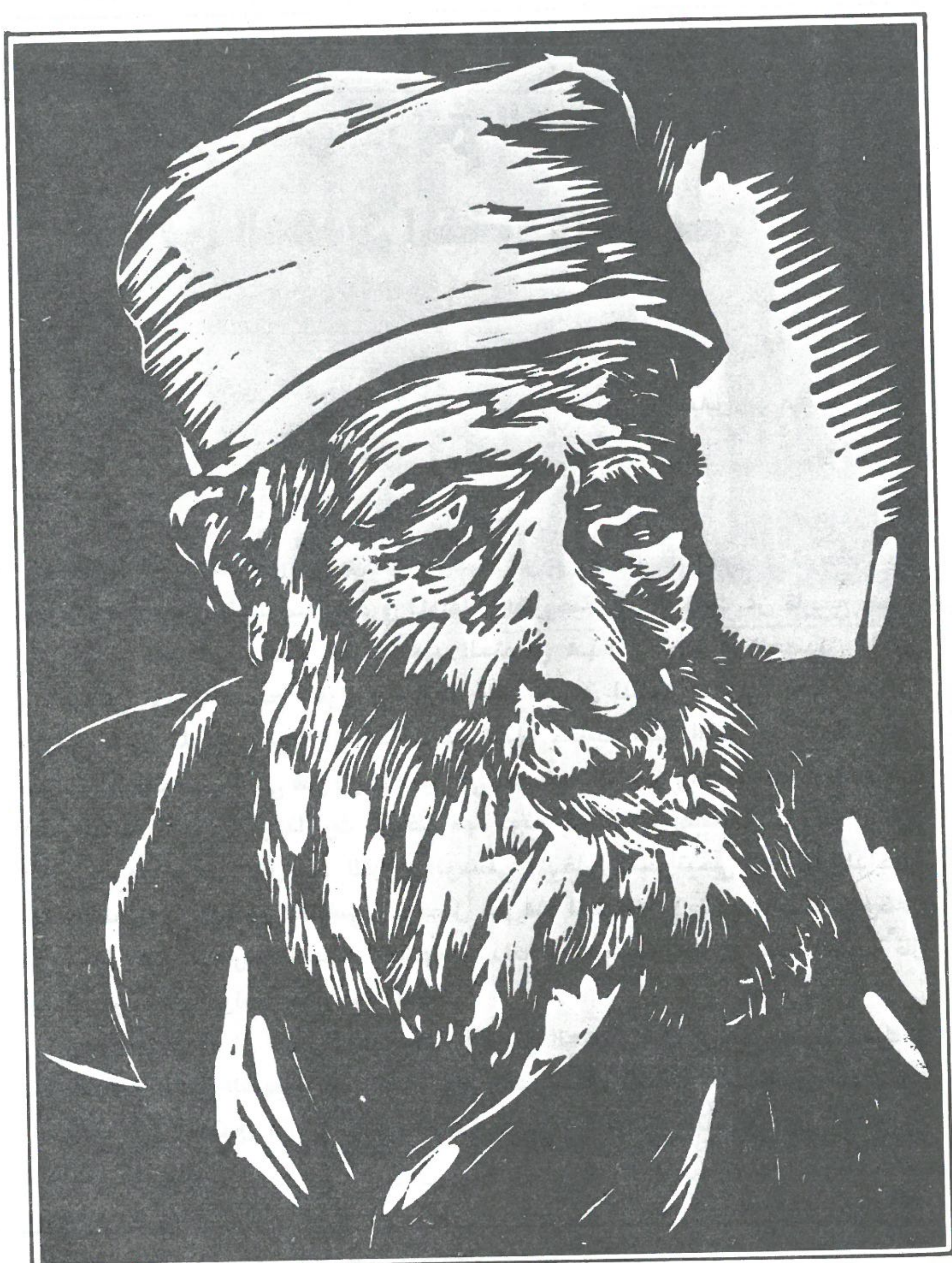
(١٢٠) ابن سباط، ص ٤٥ ــ ٤٦.

(١٢١) أبو صالح ومكارم، **تاريخ الموحدين الدروز السياسي**، ص ١٣١ نقلاً عن أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد، **واقعة السلطان سليم خان في فتوح مصر مـع السلطان الغوري وطومان باي** (مخطوط، مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت).

(١٢٢) سورة آل عمران (٣): ١٠٣.



○ صورة من التاريخ



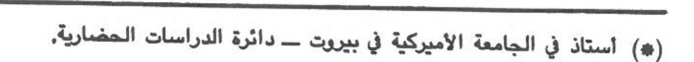
□ شيـخ درزي بريشة الفنان Pino Stampini.

أضواء على تاريخ الجبل السياسي في العهدين المعني والشهابي

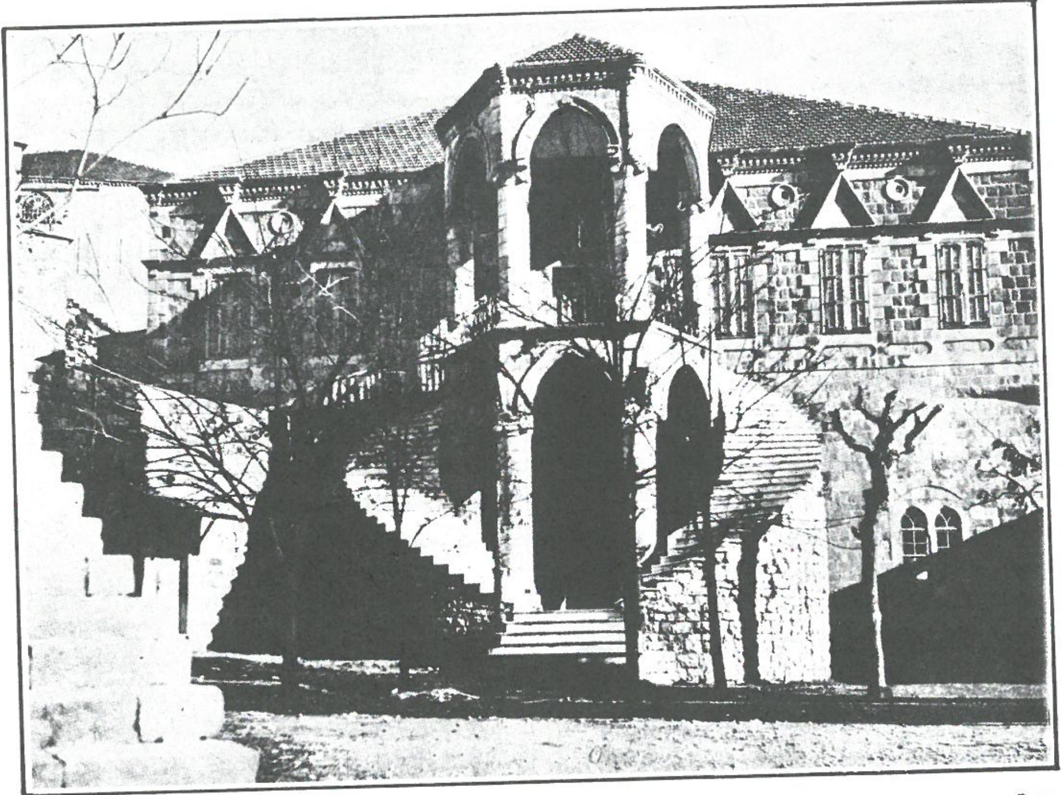
د. عباس ابو صالح(*)

لا بدّ من الإشارة في مستهل هذا البحث الموجز إلى انه قلما نجد في تاريخ لبنان عموماً وجبل لبنان خصوصاً وفرة في المؤلفات التاريخية التي تتحدث عن تاريخ الجبل بإسهاب في مختلف مراحله كفترة العهد العثماني هـذه لا سيما في العهدين المعني والشهابي. وربما يصح القول ايضاً انه قلّما نجد في المشرق العربي كله رقعة من الأرض فقيرة الموارد ضيقة المساحة كجبل لبنان حظيت بهذا القدر من الاهتمام بين المؤرخين ومثلت دوراً على قدر من الأهمية على الصعيد الإقليمي واحياناً الدولي في تاريخ هذه المنطقة. فللجبل برأينا ارث تاريخي مهم كونه يمر بمراحل هامة من تاريخ المشرق العربي. وكان على الأقل منذ القرون الوسطى المدخل الاستراتيجي للمنطقة الداخلية لبلاد الشام وإن تاريخه السياسي لا ينفصل عن هذا المحيط في العهد العثماني وخلال ما يسمى بعهد الإمارتين المعنية والشهابية. ذلك أن تاريخ الجبل في هذه المرحلة ظل شديد الارتباط والتواصل مع هذا المحيط.

ومن المعروف أن الجبل دخل مرحلة التاريخ العثماني بعد هزيمة جيش المماليك في معركة مرج دابق الشهيرة ١٥١٦م. ورافق ذلك انتقال السلطة المحلية في الجبل من التنوخيين إلى المعنيين اي أن الإمارة المعنية هي وريثة الإمارة التنوخية على الصعيدين السياسي والإقطاعي.



(*) استاذ في الجامعة الاميركية في بيروت ــ دائرة الدراسات الحضارية.



□ قصر المختارة

وهنا يصح القول بأن البنية السياسية في الإمارة المعنية لم تختلف بشكل جذري عنها في الإمارة التنوخية. فكلتا الإمارتين نشأتا في ظل نظام إقطاعي يحدد علاقة عامة الناس بالطبقة الحاكمة وكذلك علاقة الأمير الحاكم بالوالي ومن ثم بالسلطان. ففي عهد الإمارة التنوخية وخلال العهد المملوكي بالذات كان النظام الإقطاعي قد أصبح عسكرياً بمعنى أن الجيش المملوكي كان في أساس النظام الإقطاعي. على أن دولة المماليك كانت قد ورثت بعض خصائص النظام الإقطاعي هذا عن دول إسلامية سابقة لا سيما دولة البويهيين ثم دولة السلاجقة فالدولة الزنكية فالأيوبية. لقد كانت الطبقة الحاكمة في عهد المماليك عبارة عن طبقة من العسكريين الاقطاعيين. وفضلاً عن ذلك فقد منح المماليك أمراء العشائر في بلاد الشام إقطاعات محددة مقابل مهمات عسكرية محددة. فقد كلف العسافيون مقابل إقطاعهم على كسروان بالدرك على المنطقة الممتدة من نهر الكلب شمالاً إلى مغارة الأسد بالشام كما كلف التنوخيون مقابل إقطاعهم في الغرب بالدرك على جبل بيروت أو الغرب والمثاغرة في المنطقة الساحلية الممتدة من نهر الكلب حتى صيدا.

بيد أن نظام الإقطاع هذا لم يعط صاحب الإقطاع سوى حق الاستغلال أو الانتفاع من إقطاعه. وكان يحق للسلطان أن ينقل الإقطاع من شخص إلى آخر دون التقيد بمبدأ الوراثة. فالأرض ملك السلطان وليست بأي حال ملك المقاطعجي. ولهذا كان سلاطين المماليك يلجأون من حين إلى آخر لإعادة مسح الأراضي(الروك) تدليلاً على حق السلطان في إقطاع هذه الأراضي كما يشاء.

بيد أن الحكم العثماني في بلاد الشام لم يلغِ الإقطاع العسكري ولكنه أبقى على التقسيم الإداري الذي كان معمولاً به زمن المماليك في بلاد الشام. وجل ما استحدثه العثمانيون على الصعيد الإداري أنهم استبدلوا النيابة المملوكية بالولاية وأقروا من والاهم من الأمراء المحليين في بلاد الشام على إقطاعاتهم السابقة[1]. وقسمت الولاية إلى سناجق وتولى شؤون كل ولاية عامل اطلق عليه بك البكوات أو باشا فيما كان يتولى شؤون السنجق حاكم برتبة بيك أو لواء أو أمير.

كان الوالي يجبي الضرائب المترتبة على ولايته للباب العالي ويقوم بتجهيز عدد من الجنود خيّالة ومشاة يتناسب مع دخله وعليه أن يساهم في القتال إلى جانب جيش السلطان أثناء الحرب. ولم يكن الوالي موظفاً إدارياً بمعنى أنه كان يتقاضى راتبه من خزينة الدولة بل كان يخصص لنفسه حصة معينة من الضرائب التي كانت تجبى من ولايته وكان الوالي بدوره يعين أميراً من الأسرة المعنية حاكماً على الإمارة.

كان الأمير الحاكم يستمد سلطته من الوالي إلا أن بعض الأمراء كثيراً ما تجاوزوا سلطة الوالي ليستمدوا سلطتهم من الباب العالي مباشرة. وكان على الأمير الحاكم أن يطلب تجديد ولايته كل عام فيجدد له إن كان لا يزال يحظى برضى الوالي والسلطان. وقد يُعزل عن الولاية في حال عدم رضى الوالي أو كليهما معاً أي الوالي والسلطان. وكان الأمير الحاكم بدوره يوزع إقطاعه على صغار المقاطعجيين داخل إمارته فإذا بنظام الحكم في الإمارة المعنية ومن بعدها الشهابية يقوم على شكل هرم إقطاعي قاعدته العامة وعلى رأسه الأمير الحاكم. وبين القاعدة ورأس الهرم يتوزع المقاطعجيون الصغار الذين غالباً ما كانت المقاطعة تبقى في عهدتهم على أساس وراثي. وقضى العرف بأن يكون للأمير الحاكم في الإمارة الحق في عزل أو تولية إحدى المقاطعجيين داخل إمارته شرط أن يبقى الإقطاع داخل العائلة نفسها[2].

ومع أن مبدأ الوراثة في الحكم قد طبق على نطاق واسع في العهدين المعني والشهابي فإن الصراع على السلطة بين أعضاء العائلة الواحدة كان قائماً. ثم إن ذلك الصراع السياسي كان يمتد إلى سائر العائلات على أساس حزبي أو غرضي كما كان الحال بين الحزبين القيسي واليمني في العهد المعني ومطلع العهد الشهابي ثم اليزبكي والجنبلاطي في العهد الشهابي. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الصراع القيسي اليمني كثيراً ما تعدى حدود الجبل فإذا بالتحالف بين زعماء سائر المناطق المجاورة يقوم على أساس هذا الائتلاف الحزبي ويمكن من هذا القبيل ذكر تحالف البحتريين التنوخيين مع المعنيين ثم تحالف المعنيين مع الشهابيين. ويبدو أن مثل هذه التحالفات الحزبية كانت مشروعة طالما لا تتعدى الإطار المحلي ولا تشكل بالتالي خطراً على سلامة الدولة العثمانية وأمنها.

في هذا الإطار التنظيمي يجب فهم علاقة أمراء الجبل في العهدين المعني والشهابي بزعماء المناطق المجاورة من جهة وبالسلطان أو الباب العالي من جهة ثانية. وفي هذا الإطار أيضاً يمكن فهم موقع أمراء الجبل أو تاريخ الإمارة في الجبل خلال العهد العثماني وهو تاريخ رغم خصوصيته يبقى شديد الصلة بالعهد التنوخي. ذلك أن العهد التنوخي تميز على الصعيد السياسي بذلك الدور التاريخي الذي مثلته الإمارة التنوخية في مهمة المثاغرة أو الدفاع عن سلامة ذلك المدخل الاستراتيجي للمشرق العربي الإسلامي طيلة القرون الوسطى. وشكلت المعارك التي خاضوها منفردين أو متحالفين مع سائر القوى الإسلامية ضد البيزنطيين والمردة ومن ثم الفرنجة الصليبيين أروع صفحات تاريخ تلك الإمارة. وتاريخ الإمارة المعنية وحتى الشهابية وثيق الصلة في هذه المرحلة بالإمارة التنوخية هذه. فالإمارة المعنية بدأت مسيرتها السياسية في الجبل من خلال تحالفها مع الإمارة التنوخية في مرحلة التصدي للغزو الصليبي منذ مطلع القرن الثاني عشر للميلاد. وتروي المصادر التاريخية أن المعنيين قدموا إلى الجبل وإلى منطقة الشوف بالذات لمساندة حلفائهم وأقربائهم التنوخيين أي لتعزيز قوى هؤلاء الأخيرين في وجه الصليبيين الفرنجة. وقد قدم في هذه المرحلة إلى الجبل عشائر عربية حليفة للمعنيين كآل نكد وآل تلحوق وآل شويزان وغيرهم ليشكلوا مع الشهابيين في وادي التيم

والأمراء الحرافشة في البقاع حلفاً مقدساً ضد الصليبيين[3].

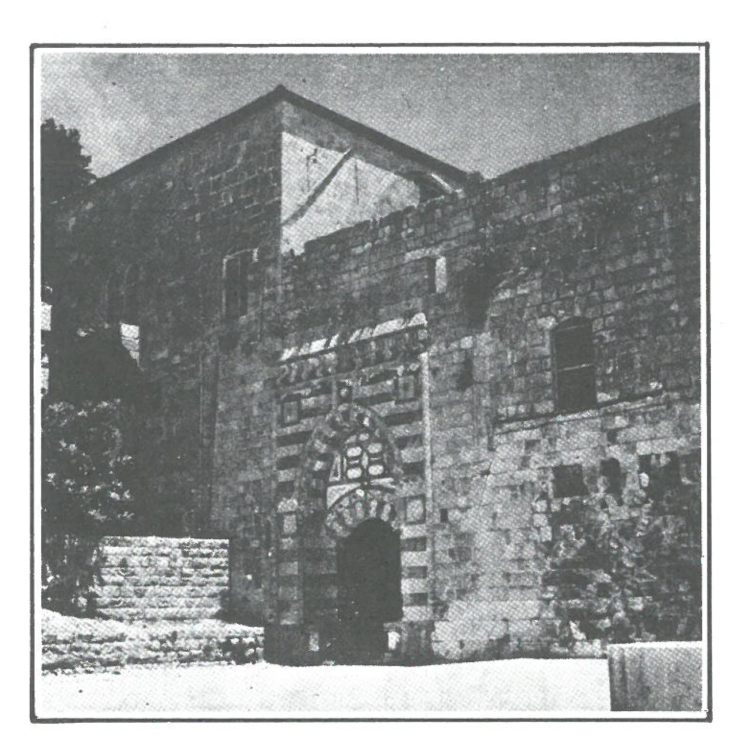
لقد ساهمت الإمارة المعنية إذن قبل الفتح العثماني بقسطها في مهمة الدفاع عن الثغور الشامية أسوة بالإمارة التنوخية، ولكن زعامة الجبل ظلت بيد التنوخيين حتى نهاية عهد المماليك. ذلك أن نصر العثمانيين في معركة مرج دابق رافقه انحياز من جانب بعض الزعامات المحلية في بلاد الشام إلى جانب العثمانيين ومن بين هؤلاء الأمراء المعنيون. وفيما ظل التنوخيون موالون لسلطة دولة المماليك إبان القتال، فإن اندحار المماليك أوقع هزيمة سياسية بالإمارة التنوخية وأدى إلى بروز الإمارة المعنية[4]. ولكن ظهور الإمارة المعنية في الجبل لم يؤدي إلى تغيير أساسي في موقف زعامة الجبل الجديدة من الدولة الإسلامية الجديدة. أي أن الأمراء المعنيين لم يخرجوا على الأقل في مرحلة ما قبل فخر الدين المعني الثاني عن الخط السياسي العام الذي اتبعه الأمراء التنوخيون في العهود السابقة والذي تمثل بالولاء الثابت للدولة الإسلامية الحاكمة في بلاد الشام. غير أن ولاء الأمراء المعنيين هذا للعثمانيين تعرض لهزة عنيفة إثر الحملة (التأديبية) التي شنها العثمانيون بقيادة إبراهيم باشا على الجبل والتي أودت بحياة نحو ستماية رجل من عقال الدروز غدر به القائد المذكور قرب عين صوفر[5]. ومهما كانت الأسباب التي دفعت العثمانيين للقيام بهذه الحملة، فإن مقتل هذا العدد الكبير من أبناء الجبل غدراً لا بدّ وأنه ترك استياءاً شديداً في نفوس أبناء الجبل إن لم نقل خلق حالة من العداء ولو مرحلياً بين هؤلاء والأتراك العثمانيين. وربما كانت هذه الحادثة إحدى الدوافع الأساسية لسعي الأمير فخر الدين المعني الثاني لرفع السيف العثماني المسلط عن رعاياه بكل الوسائل الممكنة ولكن من غير أن تصل إلى حدود الاستقلال أو الانفصال التام عن السلطة.

من هذا المنطلق تبدو لنا أن سياسة فخر الدين الثاني هذه بدأت تسلك خطاً مغايراً لسياسة أسلافه المعنيين وكذلك لسياسة حلفائه وأنسبائه التنوخيين. ذلك أن سياسة التنوخيين لم تتخذ طيلة فترة حكمها موقفاً عدائياً أو سلبياً من الحكم الإسلامي القائم في بلاد الشام. بيد أن الإمارة التنوخية في الجبل لم تتعرض طيلة حكمها لمثل تلك التجربة القاسية التي تعرض لها أبناء الجبل في العهد المعني. ذلك أن التقلبات السياسية في العهد المملوكي مثلاً أو حتى الحملات التأديبية التي شنها المماليك على جرود كسروان مثلاً لم تكن موجهة ضد الإمارة التنوخية. ومن هنا قد يصح الاعتقاد بأن سياسة فخر الدين المناهضة للأتراك العثمانيين كان مردها هذا الاستياء العام لدى أبناء الجبل إزاء ما أوقعته تلك الحملة العثمانية من ظلم وعدوان وبشكل لم تعرفه تلك الإمارة من قبل. ولا بدّ من إلقاء بعض الضوء على سياسة الإمارة المعنية في عهد فخر الدين المعني الثاني. وهي سياسة كانت ولا تزال مثار جدل واسع بين المؤرخين على اختلاف مذاهبهم بحيث أن الدارس لهذه الظاهرة يشهد ثلاث مدارس مختلفة في حكمها على هذه السياسة وموقع الجبل منها.

المدرسة الأولى تجعل من فخر الدين المعني الثاني بطلاً قومياً لبنانياً. أي أنه واضع ما يُسمى نواة الكيان اللبناني الحالي المستقل المتميز عن محيطه العربي والإسلامي. وتعتمد هذه المدرسة في حكمها هذا على تحالف فخر الدين مع ما يمكن تسميته «بالمارونية السياسية» ومحاولته جمع سكان المقاطعات اللبنانية المتعددة المذاهب تحت لوائه وحملها على اتباع سياسة لبنانية موحدة ترمي إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية وذلك عن طريق الدعم المادي والسياسي الذي حاول الحصول عليه من الدول الأوروبية. أما المدرسة الثانية فهي التي رأت في سياسة فخر الدين صورة تتناقض ما تراه المدرسة الأولى. أي أن سياسة فخر الدين كانت سياسة تآمر على سلامة الدولة العثمانية. وتتهم الأمير فخر الدين بالعمالة والتآمر مع بعض الدول الأوروبية التي كانت تحلم بشن حرب صليبية جديدة لاحتلال الأراضي المقدسة أو ديار الإسلام وإقامة مملكة مسيحية جديدة على غرار ممالك الصليبيين الفرنجة. وما تحالف فخر الدين مع الموارنة وتشجيعه للإرساليات الأجنبية وصلاته بروما وتوسكانا إلا

الدليل الواضح على هذه السياسة وفق ما تراه هذه المدرسة.

وبخلاف هاتين المدرستين فإن مدرسة واقعية أخذت تتبلور مع الزمن وترى في سياسة فخر الدين المناهضة للعثمانية أنها لم تكن سياسة عمالة للدول الأوروبية. واعتبرت الأمير المعني ذلك الحاكم الطموح أو الجسور الذي استطاع عن طريق الدهاء السياسي والقوة أحياناً أن يبسط سلطانه ونفوذه على مناطق واسعة من بلاد الشام. وربما سعى هذا الأمير في مرحلة انشغال الدولة العثمانية في حروبها الخارجية في البلاد الأوروبية وكذلك مع الفرس لإقامة إمارة أو مملكة واسعة في بلاد الشام تتوارثها أسرته وتتمتع بقوة عسكرية مرهوبة الجانب من أعدائه في الداخل والخارج وأن تكون دولة عصرية من حيث بنائها الإداري والاقتصادي والسياسي. ويبدو لنا أن نظرة هذه المدرسة إلى تاريخ فخر الدين جاءت أكثر موضوعية من المدرستين السابقتين. إذ حاولت فهم سياسة الأمير فخر الدين هذا من خلال دراستها للظروف المحلية والإقليمية والدولية التي أحاطت بهذا الأمير. وهي ظروف أدت في حالات مشابهة إلى ظهور حركات تمرد وانشقاق عن السلطنة في انحاء أخرى من أرجائها. ويمكن في هذا السياق ذكر ما قام به بعض الولاة في بلاد الأناضول. كما أن تمرد علي باشا جانبلاط جد الأسرة الجنبلاطية في منطقة حلب هو مثال آخر لسياسة أسرة طموحة في بلاد الشام خلال ذلك العصر. وإذا بالأسرة الجنبلاطية تصبح حليفة الإمارة المعنية في مسيرتها السياسية ولكنها اضطرت أمام الضغط للانكفاء ولجأ أحد زعمائها إلى الشوف(٦). من هنا إذا ما نظرنا إلى فخر الدين من خلال عصره لتبين لنا أن طموح فخر الدين في السيطرة والتوسع لم يكن أمراً مستغرباً في البيئة السياسية التي نشأ فيها ذلك أن التنافس السياسي والصراع الدموي بين مختلف حكام المقاطعات الشامية من الحكم العثماني كان أمراً مألوفاً. ولم يكن هم السلطنة آنذاك أن تحاصر سلطة فخر الدين في منطقة الجبل مثلاً دون أن تمتد إلى أنحاء أخرى من بلاد الشام،فالسلطنة على ما يبدو لم تأبه لهذا كله لا بل أنها لم تستنكف عن الإقرار بتوسعه وامتداد سلطانه إلى مناطق أخرى طالما أن الأمير لم يظهر أية نية للاستقلال عن السلطنة وظل يؤدي الضرائب الأميرية لخزينة الباب العالي بانتظام كدليل على ولائه المستمر للسلطان العثماني، على أن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هو لماذا سعى الأمير فخر الدين لإقامة علاقات تحالفية سياسية واقتصادية وبالتالي للحصول على مساعدة عسكرية من توسكانا وما هي مصلحة هذه الدولة بمساعدة فخر الدين لإقامة مملكة صليبية كما تدّعيه المدرسة العثمانية وهل كان بمقدور هذه الدولة أن تحقق هذا الهدف؟ ويبدو أن هذا الهدف لم يكن واقعياً على الإطلاق إذ لم تكن الإمارة المعنية في أوج ازدهارها بمستوى تحدي الدولة العثمانية التي كانت ما تزال أقوى دول زمانها وكانت تدق أبواب فينا في أوروبا نفسها مع كونها مشغولة في الوقت عينه في صراعها مع الفرس. على أن طموح فخر الدين للسيطرة والتوسع كان يصطدم بعدوات داخلية وخارجية كما أثار طموحه وتوسعه هذا شكوك الباب العالي نفسه في نهاية عهده. ولعل محاولة فخر الدين إقامة علاقات مع دول أوروبية صغيرة كتوسكانا بدلاً من دول كبيرة وقوية كفرنسا او اسبانيا كان مرده خشية الأمير أن يصبح مرتهناً لدول أوروبية كبرى فيقع أسير مخططاتها الاستعمارية في الشرق. ومن هنا يرى بعض المحققين أن القول بأن فخر الدين كان في سياسته الخارجية يساهم في دعم مشروع بابوي لإقامة دولة صليبية جديدة في الشرق هو افتئات وتجريح لشخصية الأمير وتشويه لسياسيته. وإن ما ذكره مرافقه وكاتبه أحمد الخالدي الصفدي عن فشل ملك إسبانيا في إقناع الأمير لتغير دينه لقاء إعطائه بلداً يحكمه «توازي مساحته ما كان له في بلاد المسلمين» وكذلك إهمال التوسكانيين للأمير واضطراره لبيع حلى زوجته ليعيش بثمنها في الغربة، ثم إن تخلي الأوروبيين عن دعم فخر الدين في اللحظة الأخيرة ، كل هذا يخالف عملياً ما ورد في بعض المؤلفات من أن الأمير فخر الدين تعاون مع دول الغرب لإقامة دولة مسيحية في الشرق(٧).



□ سراي دير القمر

وتجدر الملاحظة إلى أن ماذكره الأب بولس قرألي عن مشروع المعاهدة التجارية العسكرية بين فخر الدين ودولة توسكانا عام ١٦٠٧م قد ولدت ميتة بسبب الشروط التي وضعها فخر الدين، ثم أن مشروع المعاهدة الثاني الذي تقدم به الأمير عام ١٦٢٤م بواسطة المطران جرجس بن مارون رئيس أساقفة قبرص الماروني والقاضي باحتلال الأراضي المقدسة والذي كان في أساس مشروع معاهدة ١٦٣٣م لم يعرف عنه شيئاً في المصادر الأخرى والمصدر الوحيد الذي جاء على ذكره تقرير كتبه المطران المذكور عام ١٦٣٤م أي بعد مضي عدة أشهر على وقوع الأمير فخر الدين الثاني في الأسر إثر حملة الكجك الشهيرة.(٨) إن التقرير المذكور لا يعطي دليلاً قاطعاً على صحة وجود مثل تلك المعاهدة خصوصاً وأن نص المعاهدة العتيدة لم يرد في أي مصدر حتى الآن. ومما يعزز هذا الاعتقاد أي عدم وجود مثل تلك المعاهدة إغفال ذكرها في المصادر الإيطالية، فالمؤرخ جيوفاني مارتي الإيطالي الذي قام بدراسة لعلاقة فخر الدين بتوسكانا لم يأت على ذكرها مثلاً، بل رأى أن دوق توسكانا استغل فرصة وجود فخر الدين في ضيافته كي يتوسل للبابا وكذلك لملك إسبانيا بشأن دعم مشروع لاحتلال القدس. وقد توخى دوق توسكانا من ذلك تعزيز مصالح بلاده التجارية مع الشرق. ويرى ماريتي أن دول أوروبا لا سيما توسكانا وإسبانيا كانت تدرك استحالة تحقيق هذا المشروع. ولهذا ربما كان خبر المعاهدة التي تضمنت مشروع إقامة دولة مسيحية في الشرق غير صحيح.وإن كان ثمة مشروع معاهدة فقد تضمنت مساعدة فنية من قبل توسكانا للأمير مقابل تعزيز مصالح هذه الأخيرة لا سيما التجارية منها في الشرق. ومن هنا فإن تهمة فخر الدين بأنه تآمر مع دول أوروبا لتحقيق هذا المشروع لا تظهره لا نص معاهدة مكتوب ولا حتى يمكن الافتراض بوجوده كما برهنت الأحداث في الفترة الأخيرة من عهد الأمير. إذ تخلى الحلفاء الأوروبيين عن دعمه

عسكرياً إبان الحملة العثمانية التي قادها الكجك تظهر أيضاً عدم وجود مثل تلك المعاهدة.

يبقى أن فخر الدين مهما قيل فيه لا سيما من وجهة نظر المدرسة العثمانية، أميراً طموحاً برز على المسرح السياسي في بلاد الشام خلال القرن السابع عشر وبز في حنكته ودهائه وقوته سائر أقرانه من مختلف المقاطعات الشامية. وكان من الطبيعي أن يثير ذلك حسد أقرانه وخصومه وبالتالي شكوك الباب العالي. إذ لم يكن من مصلحة الدولة العثمانية أن تبلغ سلطة الأمير مرحلة تحدي ولاة السلطنة في دمشق. فكانت نهاية الأمير على يد أحمد باشا الكجك. واضطر الأمير لتسليم نفسه لقائد الحملة بعد أن تبين له أن حلفائه المحليين كانوا أعجز من أن يتصدوا لقوة السلطان العثماني. ولكن إرث فخر الدين العمراني ظل ماثلاً في بلاده لا سيما منطقة الجبل. ومنها الآثار اللبنانية التي رممها أو شيدها وتنشيط مرافق التجارة والزراعة مستعيناً بالخبرات الأوروبية الحديثة آنذاك. ورافق هذا التحديث الاقتصادي والنهضة العمرانية في الجبل خطوة على الصعيد السياسي والاجتماعي قضت بإزالة سياسة التمييز بين رعاياه على أساس مذهبي أو طائفي. فبعد أن أطلق شعار حرية المعتقد والممارسة الدينية فإن معاملته للنصارى على قدم المساواة مع المسلمين تعتبر خطوة جريئة لم يسبقه إليها أي حاكم مسلم من قبل. وبفضل هذا التسامح أخذت الهجرة المسيحية لا سيما المارونية منها طريقها إلى المناطق الدرزية في الجبل. وإنه ليصح القول عندئذ بأن هذه الهجرة ما لبثت أن أعطت الجبل وضعاً خاصاً ربما لم يعرفه من قبل أي الاختلاط والتعايش بين الطوائف على أساس المواطنية وهذا ما يمكن اعتباره اللبنة الأولى في كيان لبنان الوطني بالمعنى الذي يتغنى به الوطنيون اللبنانيون اليوم، تعايش ووئام وتحالف سياسي وتعاضد اجتماعي بين مختلف الفئات والمذاهب. ربما كانت وراء نظرة فخر الدين الصائبة هذه رؤية وطنية صائبة لمواجهة كافة التحديات التي واجهته على مختلف الصعد فجعل من قلب إمارته في الجبل مثلاً للوحدة الوطنية هذه[٩].

على أن فخر الدين الثاني ورغم مواجهته للعثمانيين لم يعلن عن هدف ما يقضي بالإستقلال عن الدولة العثمانية وهذا قد يعني أنه سار على خطى أسلافه في الولاء للحكم الإسلامي القائم في بلاد الشام. على أن ولاءه هذا كان يعني مزيداً من الإستقلال المحلي في إطار الدولة العثمانية وبالتالي يبقى تاريخه في رأينا تاريخ أمير طموح وقدير استطاع أن يبلغ منزلة في السياسة والقوة ربما لم يبلغها أحد غيره من الأمراء المحليين في بلاد الشام خلال العهد العثماني.

بيد أن موت فخر الدين الثاني لم يكن نهاية الإمارة المعنية في الجبل بل استمرت تبسط سلطانها حتى انقراض سلالة حكامها وانتقل الحكم بسبب الصراع القيسي اليمني من جهة وبحكم مصاهرة الشهابين للمعنيين من جهة ثانية إلى الأمراء الشهابيين فكان ذلك فصل جديد من فصول تاريخ الجبل في العهد العثماني.

الجبل في عهد الحكم الشهابي:

لقد ذكرنا في مستهل هذا البحث أن الإمارة المعنية بدأت سيرتها السياسة على خطى الإمارة التنوخية. أي أن حكم هذه العشائر في الجبل تميز بالولاء الثابت للحكم الإسلامي القائم في بلاد الشام. على أن وصول الإمارة المعنية كما أشرنا إلى زعامة الجبل كان مرده تحول خارجي إن صح التعبير جاء أثر تغلب دولة إسلامية جديدة أي العثمانيين آنذاك على دولة إسلامية أخرى هي دولة المماليك. وقضى هذا التغير بأحداث إنقلاب داخلي إن صح التعبير أي بتسلم الأمراء المعنيين زمام الزعامة في الجبل بدل من أسلافهم التنوخيين. أما وصول الشهابين إلى هذه الزعامة في الجبل لم تكن وليدة تغيير خارجي أي قيام دولة إسلامية جديدة بل بسبب إنقراض الأمراء المعنيين من جهة وتغير داخلي محلي بسبب حدة الصراع الحزبي بين القيسية واليمنية الذي استغله الشهابيون. من هنا فإن الإمارة الشهابية ورثت السلطة في الجبل نتيجة لذلك. وفضلاً عن هذا فإن الأمراء الشهابين كان

قد جمعتهم مع المعنيين مسيرة جهاد ضد الصليبيين وبالتالي فإن تحالف هذه العشائر إن صح التعبير كان يرمي إلى تعزيز دور الجبل في مسيرة الدفاع عن هذا الجزء من المشرق العربي الإسلامي في وجه الفرنجة[١٠]. وبهذا المعنى فإن الإمارة الشهابية حملت في المرحلة الأولى من تاريخها رسالة الإمارة التنوخية ومن بعدها الإمارة المعنية. ولكن الإمارة الشهابية لم تبرز على مسرح الأحداث في بلاد الشام إلا في النصف الأول من القرن التاسع عشر وفي مرحلة بلغت فيها الدولة العثمانية ذروة إنحطاطها السياسي والعسكري. ولم يكن للجبل في هذا العهد من إنجازات سياسية أو حتى عمرانية يمكن مقارنتها بإنجازات فخر الدين الثاني. على أن الصراع السياسي الداخلي استمر خلال القرن الأول من الحكم الشهابي على أساس حزبي قيسي ويمني أولاً ثم على أساس غرضي أي يزبكي وجنبلاطي في المرحلة اللاحقة. على أن الصراع القيسي اليمني حسم في موقعة عين داره لصالح الحزب القيسي وبالتالي أدى إلى تركيز السلطة السياسية في أيدي الأمراء الشهابيين. وما لبث الحزب القيسي أن انقسم على نفسه وتوزع بين الأسرة الجنبلاطية والأسرة العمادية وهما من كبار الأسر الإقطاعية في العهد الشهابي. على أن القيسية واليمنية لم تكن يوماً على أساس طائفي ومثلها كان الصراع اليزبكي الجنبلاطي. وقد أعطى هذا الإنقسام شكلاً من أشكال التنافس والصراع السياسي الشبه ديمقراطي وأحياناً دموي بين هذه الغرضيات في الجبل. وفي الوقت الذي شهد فيه الجبل ذلك الصراع الغرضي فإن التواصل والتعايش بين مختلف الطوائف في الجبل كان يسير قدماً بإتجاه نوع من التحالف الوطني والتعاضد الإجتماعي على مختلف الصعد. على أن الجبل في هذه المرحلة من التاريخ العثماني كان عرضة للتدخل المباشر من قبل ولاة صيدا وأحياناً دمشق. والمصادر التي بين أيدينا تشير بشكل مستمر إلى المظالم التي احيقت بسكان الجبل من جراء ذلك التدخل وأحيانا الصراع بين ولاة الشام العثمانيين من جهة وولاة صيدا من جهة ثانية. وكان من نتائج ذلك وبسبب ضعف الحكام الشهابيين قد أصبح الجبل ساحة لصراع هؤلاء الولاة من خلال دعم هذا الأمير الشهابي ضد الآخر أو تحريض هذه الفئة السياسية ضد الأمير الحاكم. وغدا الجبل ساحة للإبتزاز السياسي وبالتالي المالي لا سيما خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر أي عهد الأمير يوسف الشهابي ومطلع عهد نسيبه الأمير بشير الثاني[١١]. وقد رافق هذه المرحلة حكم أحد أعتى الولاة العثمانيين أي أحمد باشا الجزار على ولاية صيدا أو عكا وأحياناً الشام. ولقد أعطى الجزار هذا صورة نموذجية للوالي الإنتهازي الذي لا يعرف إلا مصلحته الخاصة والتي تقضي بإبتزاز الأموال بأية صورة كانت لشراء منصب الولاية من الباب العالي. لقد فتح آنذاك باب الرشوة في الآستانة على مصراعيه وكان على الجزار أن يجبي المال الوفير من ضرائب ومظالم من الشعب لإرضاء اسياده لدى الباب العالي. ومرض الرشوة لدى الولاة غدا مرض الحكام الشهابيين في هذه المرحلة. مزيد من الرشوة لوالي صيدا وبالتالي مزيد من الضرائب على سكان الجبل التعساء. على أن الصراع بين الولاة العثمانيين رافقه صراع بين الأمير الشهابي الحاكم وزعماء الإقطاع في كثير من الأحيان. وكثيراً ما نجح الأمير الحاكم لا سيما في عهد الأمير ملحم الشهابي (١٧٢٩ ــ ١٧٥٤ م) في أحداث الإنقسام والتنافس بين أولئك المقاطعجيين من أجل إبقاء السلطة العليا في الإمارة بين يديه. ولهذا يعزى للأمير المذكور إذكاء الصراع اليزبكي الجنبلاطي بين زعماء الدروز من أصحاب الإقطاع. ذلك أن الأمير ملحم الشهابي وعلى حد قول نسيبه المؤرخ الأمير حيدر الشهابي «أرسى الفتن بين مشايخ البلاد وتملك بهم لأجل الخلف بينهم... ومن جراء ذلك قويت يده عليهم والكل احتاجوا إليه».[١٢]

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الإنقسام اليزبكي الجنبلاطي لم يشمل جميع الأسر المقاطعجية في المرحلة الأولى على الأقل ومن هؤلاء الإرسلانيون واللمعيون والنكديون إذ شكل هؤلاء فئة سياسية مستقلة في بادىء الأمر. إلا أنه باستثناء النكدية لم يكن لهذه الأسر

المقاطعجية آنذاك دور سياسي في الأمر يوازي دور الحزبين اليزبكي والجنبلاطي. على أن الإنقسام اليزبكي الجنبلاطي الذي شمل مختلف الطوائف في الجبل أضعف بشكل عام موقف هؤلاء المقاطعجين تجاه الأمير الشهابي الحاكم، لقد كان بمقدور الأخير أن يستغل الخلافات القائمة بين الفريقين فيحول دون توحدهما ضده. ولكن في هذه المرحلة أي خلال القرن الثامن عشر ظل زعماء الأقطاع في الجبل لا سيما الدروز منهم أقوياء واضطر الأمير الحاكم في معظم الأحيان لكسب تأييد إحدى الغرضيتين لدعم موقفه في الحكم. وكان يكفي عادة أن يتفق الحزبان الرئيسيان الجنبلاطي واليزبكي ضد الأمير الحاكم لإجباره على الرضوخ لمطالبيهما أو يجبر على التخلي عن السلطة. وهذا ما أشار إليه أحد القناصل الأوربيين آنذاك معتبراً أن مشايخ الدروز (المقاطعجيون) كانوا يحكمون الإمارة فعلاً وفي مقدمة هؤلاء المشايخ علي جنبلاط وعبد السلام عماد وكليب النكدي[١٣].

وخلال فترة حكم الأميرين أحمد ومنصور الشهابيين (١٧٥٤ ــ ١٧٧٠ م) استظهر رجال الإقطاع على الأميرين واضطرا لمجارتهم في أغلب الأحيان وكان لتأييد الحزب الجنبلاطي للأمير يوسف الدور الأساسي في وصوله إلى سدة الحكم. ولكن سرعان ما وقع الخلاف بين الأمير والشيخ علي جنبلاط وكذلك بين الأمير يوسف والحزب اليزبكي واضطر الأمير في هذه المرحلة للإعتماد على النكدية. وشهد الجبل في هذه المرحلة فترة من الإضطراب السياسي نتيجة لأحتدام الصراع بين الأمير ومختلف الفئات السياسية أو (الحزبية) من جهة ولتدخل الجزار السافر في شؤون الجبل الداخلية من جهة ثانية. وكان جشع الجزار إلى المال كما سبق وأسلفنا يدفعه لطلب المزيد من المال من حكام الإمارة الشهابية، فإذا توانى الأول عن الدفع يستقطب أميراً شهابياً آخر مقابل مبلغ أكبر من المال حتى إذا ما عجز الأخير بدوره عن دفع المال المطلوب بادر إلى خلعه وتعيين طامح آخر مقابل مبلغ جديد وأكبر من السابق، وهكذا دواليك حتى عم الإضطراب وأحاق الظلم بالرعية التي كان عليها أن تؤدي هذا المبلغ ضرائب للأمير الحاكم.

ضرائب وإحتجاج

وتجدر الإشارة هنا إلى أن فرض الضرائب الباهظة من قبل الأمير يوسف الشهابي على رعاياه في الجبل أدى ربما لأول مرة في تاريخ الجبل العثماني إلى إحتجاج عامة الناس وتظاهرهم معلنين عن رفضهم لسياسة الأمير الضرائبية. وهذا ما حدث عام ١٧٧٩ م عندما فرض الأمير يوسف ضريبة جديدة على بذر دود الحرير فأثار هذا التدبير عامة الناس في الشوف فتجمعوا في عين السمقانية محتجين حتى أن بعضهم أعلن عن تصميمه للزحف إلى دير القمر لخلع الأمير يوسف إذا لم يتراجع عن هذا التدبير، فاضطر الأمير يوسف للتراجع ولم يهدأ غضب المتظاهرين أو المحتجين إلا بعد أن قطع الأمير وعداً بالغاء تلك الضريبة.[١٤]

ولكن هذه الحادثة لم تكن الأخيرة في عهد الأمير يوسف. ذلك أن نهم احمد باشا الجزار إلى المال دفع بالأمير يوسف إلى تحصيل ضريبة جديدة من رعاياه سماها ضريبة الشاشية بغية تحصيل مزيد من المال لدفع ما يطلبه منه الجزار. وبموجب هذه الضريبة كان على كل فرد ذكر بالغ يلبس عمامة أن يؤدي الضريبة المذكورة. ولما كانت تلك الضريبة تطال عقال الدروز بالدرجة الأولى فقد إعتبرها هؤلاء بمثابة تحد لهم وقرروا التصدي لسياسة الأمير فامتنعوا أولاً عن دفع الضريبة وطردوا مبعوثه الذي أرسل لجمعها. ولم يتراجع الأمير يوسف كالمرة السابقة بل سارع إلى تغريم الشيخ عبد السلام العماد زعيم الحزب اليزبكي متهماً إياه بتحريض أولئك الناقمين على سياسة الأمير الضرائبية[١٥]. على أن سياسة التحدي هذه التي طبقها الأمير يوسف الشهابي ضد رعاياه انقلبت وبالاً عليه إذ تخلى عن دعمه االفئتان الرئيسيتان اليزبكية والجنبلاطية فيما لم تكن النكدية كافية لأستمراره في الحكم. واضطر الأمير يوسف نتيجة لهذه السياسة أن يتخلى عن كرسي الحكم لنسيبه الأمير بشير الثاني ١٧٨٩ م.

عهد بشير الثاني

تسلم بشير الثاني الحكم في الإمارة الشهابية بعد أن حظي بدعم الحزب الجنبلاطي في الداخل ورضا الجزار في الخارج. على أن المرحلة الأولى من حكم بشير الثاني في الجبل لم تكن أفضل من عهد سلفه الأمير يوسف. ذلك أن تدخل الجزار السافر في شؤون إمارة الجبل ظل على حاله. وكان الجزار قد أثقل بدوره كاهل الأمير بشير هذا بالضرائب وألّب عليه خصومه أولاد الأمير يوسف. وعمد إلى إرضاء الجزار بالمال على أن يجمع المبلغ من رعاياه بشكل تعسفي وهذا أدى إلى مصادرة أملاك بعض سكان الجبل وإلى هجرة البعض الآخر إلى حوران. غير أن البعض الآخر تمرد على سياسة الأمير بشير وطرد حواليته ومن هؤلاء آل حاطوم في كفر سلوان المتن الذين تصدوا أيضاً لقوات المغاربة التي أرسلها الجزار لمساعدة الأمير بشير لجمع تلك الضرائب ووقع بعض القتلى بين الجانبين. وفي الوقت عينه عقد إجتماع في عبيه على مستوى الأعيان وقد حضره مشايخ النكدية وبعض العمادية بغرض مجابهة الأمير بشير، إلا أن الأخير سارع إلى التراجع في وجه التكتل السياسي الجديد ومنع مصادرة أملاك هؤلاء الأعيان وتفرقوا[١٦]. غير أن بشير الثاني رأى في موقف رجال الإقطاع تحدياً لسلطته فعمل على زرع بذور الشقاق فيما بينهم. وقام بتدبير مؤامرة بالإشتراك مع الجنبلاطيين واليزبكية ضد زعماء النكدية لكون هؤلاء الأخيرين من أشد خصومه ومن حلفاء أولاد الأمير يوسف الشهابي. ولكن القضاء على النكدية لم ينه مشكلة النزاع على السلطة بين الأمير بشير وأولاد الأمير يوسف حيث ظل الجزار يستغل ذلك التنافس حتى موته ١٨٠٤ م كما لم يستطع الأمير الشهابي توحيد زعماء الإقطاع ولا جمع رعاياه للوقوف في وجه الجزار. وظل الإنشقاق قائماً بين مختلف القوى السياسية سيد الموقف أثناء قدوم نابليون بونابرت لحصار عكا ١٧٩٨ م.

كان نابليون بونابرت قبيل حصار عكا قد بعث برسائل ودية لبشير الثاني أعرب من خلالها عن نواياه في تحقيق استغلال بلاد الدروز وخفض الجزية المفروضة وإعادة المدن الساحلية وتحسين مرافئها بغية تنشيط الحركة التجارية فيها. لقد كانت وعود بونابرت ترمي إلى حشد القوى السياسية في الجبل لقتال الجزار. وقد أعرب المقاطعجيون الدروز وكذلك العقال عن خشيتهم من سيطرة الفرنسيين على بلاد الشام. ويذكر الشدياق في تاريخه أن الدروز عقدوا إجتماعاً في مقام السيد عبد الله التنوخي في عبيه وقرّ رأيهم على «مقاومة الفرنسيين والأمير بشير فاعترضهم الشيخ عبد الله القاضي[١٧]». إن هذه الرواية تثبت إن الدروز في الجبل كانوا يميلون إلى معسكر الدولة العثمانية وكأنهم في هذا السياق أعادوا إلى الذاكرة مواقفهم السياسية والنضالية إلى جانب الدول الإسلامية ضد الصليبين الفرنجة.

إن مصادر هذه الحقبة تدعم هذا الإستنتاج وتذكر إضافة إلى ذلك أن زعماء الحزب اليزبكي من آل عماد وتلحوق كانوا يميلون إلى معسكر الجزار. على أن موقف أعيان الدروز في الجبل قابله موقف مؤيد للفرنسيين وتمثل بموقف البطريرك الماروني يوسف التيان الذي أكد فيه ولاء الموارنة للفرنسيين وكلف يوسف حبيش بجمع المتطوعين لنجدة الجيش الفرنسي. وربما كان هذا الإنقسام بين الدروز والموارنة إزاء الحملة الفرنسية سبباً لإتخاذ الأمير بشير الشهابي موقفاً محايداً أثناء حصار نابليون لعكا.

تحدي الجزار معركة الشويفات

لم يغفر الجزار ممثل السلطان العثماني تلكؤ الأمير بشير هذا فعمل على خلعه من منصبه بعد أن حرض خصومه اليزبكيين ضده. غير أن الأمير بشير ما لبث أن استرضى الجزار بالمال بعد أن فشل خصومه أولاد الأمير يوسف في جمع مبلغ مماثل للجزار أيضاً. ولكن نجاح الأمير بشير

جاء بعد مواجهة قوات خصومه في الداخل مدعومة بقوات الجزار. وتجدر الإشارة هنا إلى المعارك التي خاضها أبناء الجبل ضد قوات الجزار التي جاءت لدعم ولدي الأمير يوسف الشهابي في محاولتهم لتحصيل ما تعهدا به للجزار بالقوة. ويبدو أن هذه المظالم التي ألحقتها قوات الجزار بسكان الجبل دفعتهم للتوحد في دعم الأمير بشير ومواجهة قوات الجزار هذه. وكان الجزار قد جهز قوة من نحو ألفي مقاتل من الأرناؤوط وألف من الفرسان لإخضاع سكان الجبل الرافضين لهذه المظالم. وكان الشيخ بشير جنبلاط أول من تصدى لهذه القوةعند نهر الحمام قرب غريفة الشوف فأوقع بقوات الجزار هزيمة نكراء وغنم خيلهم وأسلحتهم والتف الناس حول بشير الثاني حتى أمسى أولاد الأمير يوسف بلا صديق(١٨). ومع ذلك فقد التمس أولاد الأمير يوسف قوة إضافية من الجزار لإرغام أبناء الجبل على الرضوخ لمظالم الجزار. وقد وصلت تلك القوة الإضافية إلى منطقة الغرب فحاصرت الشويفات أولًا إلا أن أعيان الجبل ومعهم بعض مشايخ العمادية تمكنوا من ايقاع الهزيمة بقوات الجزار هناك وصرعوا قائدها مع مئة من المقاتلين الأرناؤوط. وانسحب ما تبقى من قوة الجزار نحو بعبدا فواجهها الأمير بشير دون أن يوفق. إلا أن حلفاء الأمير وعلى رأسهم الشيخ بشير جنبلاط تقدم لنجدة الأمير ومعه النكدية والتلاحقة فأوقعوا هزيمة أخرى بتلك القوة في أرض القفل قرب بعبدا. وهكذا كسب بشير الثاني المعركة العسكرية بعد توحد أبناء الجبل لرفع مظالم الجزار. ولكن القوات العسكرية لم تكن لتقرر وحدها مصير الولاية فقد رفض الجزار تجديد ولاية بشير الثاني لو لم يبادر إلى دفع مبلغ من المال زاد على المبلغ الذي تعهد به خصومه أولاد الأمير يوسف. ومع ذلك لم يتورع بشير الثاني عن تغريم خصومه التقليدين من زعماء الحزب اليزبكي مع كونهم سبق أن قاتلوا إلى جانبه في معركة أرض القفل كما أسلفنا. لقد أصبح الأمير بشير ومنافسوه من الأمراء الشهابيين أداة للإبتزاز السياسي بيد الجزار وكان سكان الجبل هم الذين عليهم أن يؤدوا الضريبة المفروضة سواء بالرضى أم بالقهر. وظل وضع الأمير مهدد بتدخل الجزار إلى أن كان موت الأخير المفاجىء مما جعل بشير الثاني وأبناء الجبل يتنفسون الصعداء(١٩).

الاستئثار بالسلطة:

بموت والي عكا أحمد باشا الجزار ١٨٠٤ م دخل الجبل عهداً جديداً في ظل الإمارة الشهابية، وأصبح بإمكان بشير الثاني تعزيز موقعه وحتى تضييق الخناق على خصومه من غير أن يلقوا الدعم الذي كانوا يلقونه سابقاً من والي عكا. ولهذا عمد إلى الاستئثار بالسلطة وأخذ بتصفية معارضيه ومنافسيه وبينهم من كانوا سنده الأساسي في مختلف الظروف الصعبة التي واجهها إبان حكم الجزار. وصحيح أن بشير الثاني كان قد تمكن في هذه المرحلة من القيام بدور على جانب من الأهمية على صعيد الولايات المجاورة. ولكن تحالفات الأمير بشير الخارجية مع ضعف البنية الداخلية للإمارة بعد تصفية جميع القوى المعارضة في الداخل جعلته أسير تلك التحالفات الخارجية وألقت بإمارته في مهب الرياح الدولية وساهمت في القضاء عليها، لقد توثقت علاقة بشير الثاني في هذه المرحلة بسليمان باشا والي صيدا (١٨٠٥-١٨١٩)فأمن بذلك تجديد ولايته باستمرار. أما في الداخل فقد كان سنده الأساسي الشيخ بشير جنبلاط الذي بسبب غناه ونفوذه بز الأمير بشير سطوة وقوة في الجبل ومع ذلك فقد واجه الأمير بشير بعض الصعوبات في تعامله مع الصراع القائم بين والي الشام ووالي صيدا. وكان لوقوفه إلى جانب والي صيدا عبد الله باشا في ذلك الصراع أن اضطر للتخلي عن منصبه والسفر إلى مصر لاجئاً عام ١٨٢٢ م.

عامية انطلياس:

وكان عبدالله باشا قد أجبر الأمير بشير على دفع مزيد من المال بغية تجديد ولايته فزاد الأمير بشير بدوره المال الإضافي على رعاياه. وأدى بذلك إلى إنتفاضة إنطلياس أو عامية إنطلياس عام ١٨٢٠ حيث قام معارضوا الأمير من أنسبائه الشهابيين بتحريض هؤلاء ضد سياسة الأمير وساعدهم في ذلك المطران يوسف اسطفان بسبب خلاف سابق بين الأكليروس الماروني والأمير بشير. على أن أعيان الدروز في الجبل انقسموا بين مؤيد ومعارض للعامية المذكورة. ولكن رغم هذا الإنقسام تعتبر العامية أول تحرك شعبي في الجبل ضد سياسة الأمير بشير الضرائبية وهي شبيهة بذلك التحرك الشعبي الذي سبق أن واجه الأمير يوسف الشهابي سنة ١٧٨٣ عندما فرض ضريبة الشاشية. وأعقب عامية إنطلياس عامية لحفد في منطقة جبيل تعبيراً عن رفض سكان تلك المنطقة دفع ضرائب إضافية فاستغلها معارضوا الأمير بشير لعزله من منصبه. ولكن علاقة الأمير الحسنة هذه المرة بمناصب الدروز ساعدته على إخضاع العامة دون أن يجبر على التخلي عن منصبه(٢٠). غير أن تورط بشير الثاني في الصراع القائم بين درويش باشا والي الشام وعبد الله باشا والي صيدا كشف النقاب عن صراع داخلي بينه وبين الشيخ بشير جنبلاط. لقد كان الشيخ بشير كما أشرنا في حينه أقوى زعماء الإمارة الشهابية. ويشهد على صحة هذا الرأي ما جاء في تقرير للقنصل الفرنسي في صيدا ١٨٢١ م من أن الشيخ بشير جنبلاط كان أغنى من الأمير ولديه عدد أكبر من الرجال. وفي تقرير للقنصل الفرنسي في طرابلس أن الشيخ بشير يلي الأمير الحاكم من حيث السلطة والنفوذ ولا ينقصه سوى أن يكون من سلالة الأمراء حتى يهيمن على كل البلاد... وهو منافس للأمير ويعتبر ندّه من حيث غناه المادي وقوته العسكرية(٢١).

إن نفوذ الشيخ بشير وغناه كان على ما يبدو باعث قلق للأمير بشير. ولا شك أن رغبة الأمير الجامحة للإستئثار بالسلطة جعلته يمضي قدماً في سياسة تصفية المنافسين والمعارضين حتى النهاية. وتذكر بعض المصادر المعاصرة أن الأمير بشير كان يخشى طموح الشيخ بشير السياسي فلما بنى الأخير جامع المختارة على حد قول طنوس الشدياق «اغتاظ الأمير... واستصوب تقوية الحزب اليزبكي»(٢٢).

على أن الصراع الخفي بين البشيرين ظهر إلى العلن بعد رجوع الأمير بشير من مصر فاتهم الشيخ بشير بدعم الأمير عباس الشهابي أحد خصوم الأمير وقرر بإبتزاز الشيخ بشير مالياً كتمهيد للقضاء عليه سياسياً وهكذا كان، بعد أن وفق الأمير بشير إلى تأليب بعض المقاطعجين الدروز من خصوم الزعيم الجنبلاطي لا سيما التلاحقة والنكديين للوقوف إلى جانبه في المعركة الفاصلة. وكان موقف النكديين حاسماً في جعل الأمير بشير يصمد في موقعه إلى أن جاءته النجدة من حليفه عبد الله باشا والي عكا، فأجبر الشيخ بشير وحلفاؤه على الإنكفاء واللجوء إلى حوران. غير أن عبد الله وبطلب من الأمير بشير التمس من والي الشام القاء القبض على الشيخ بشير وإعدامه فكان له ما أراد وذلك عام ١٨٢٥ م.

ولكن القضاء على الشيخ بشير جنبلاط خلف استياءً عاماً لدى أتباعه وحلفائه من أبناء الجبل لا سيما الدروز منهم. وقضت سياسة الأمير بشير الإنتقامية بإجلاء جميع أفراد الأسرة الجنبلاطية من الشوف ومصادرة أملاكهم. كما أمر بهدم منازلهم وكذلك الجامع الذي شيده الشيخ بشير في المختارة. ووضع الأمير يده على جميع المقاطعات التي كانت بحوزة الجنبلاطيين ووزعها على أولاده والمقربين منه من النصارى باستثناء إقليم الخروب الذي سلمه للشيخ حسين حمادة بسبب موقف الأخير المؤيد للأمير بشير.

بيد أن معركة البشيرين بدت أسوأ ما شهده الجبل في التاريخ العثماني ذلك أن المعركة جرت بعد انقسام سياسي حاد وبشكل اختلف عما كان يعرفه سكان الجبل من صراع تقليدي بين اليزبكية والجنبلاطية. ذلك أن الأمير بشير في هذا الصراع بدا وكأنه أمير الموارنة حيث تألب حوله وبتحريض من البطريرك الماروني يوسف حبيش آنذاك العدد الأكبر من المقاتلين النصارى فيما كان لدى الشيخ بشير أغلبية درزية من المقاتلين مما أعطى الصراع طابعاً طائفياً لم يشهده الجبل من قبل.

وما أصاب البيت الجنبلاطي إثر هذه المعركة أصاب حلفاء الجنبلاطيين ومؤيديهم من مناصب وأعيان. فبالإضافة إلى سمل عيون الأمراء الشهابيين الذين وقعوا في قبضة الأمير، فقد ضيق الخناق على الأمراء الإرسلانيين وبعض الأمراء اللمعيين وغرمهم بمبالغ كبيرة من المال. كما غرّم أتباع الشيخ بشير من وجهاء وأعيان ومن لم يستطع الدفع كان الأمير يجبره على التخلي عن عقاراته لأحد أتباعه ــ أتباع الأمير ــ حتى ضاقت الحال بعدد كبير من هؤلاء الدروز واضطروا للنزوح إلى جبل حوران(٢٣).

هكذا استطاع بشير الثاني أن يقضي على جميع معارضيه ومنافسيه داخل إمارة الجبل عن طريق التفرقة والدسائس أحياناً وعن طريق الإستعانة بقوى خارجية أحياناً أخرى. وإذ أصبح الأمير بشير صاحب الكلمة المطلقة في الجبل فإنه غدا اسير حلفائه في الخارج لا سيما عبد الله باشا والي عكا ومحمد علي باشا والي مصر وأدخل من خلال هذه السياسة الجبل في مرحلة جديدة تميزت بمزيد من الفرز الطائفي وانتهت بتخليه عن الحكم. وشهد الجبل أولاً إنقساماً حول حملة إبراهيم باشا إلى بلاد الشام فأيد البعض وهم من حلفاء الأمير بشير الحكم المصري فيما عارضه آخرون وهم من أعيان الدروز المعارضين لحكم الأمير بشير وآثروا الوقوف إلى جانب السلطان. على أن إصلاحات محمد علي في مطلع حكمه في بلاد الشام والتي تمثلت بإصلاح الإدارة الفاسدة وتطبيق مبدأ المساواة بين رعاياه أضعف موقف المعارضين لحكمه. ولكن هذه الإصلاحات أعقبتها إجراءات تعسفيه لا سيما على الصعيد الضرائبي والسخرة والخدمة العسكرية الأمر الذي أدى إلى عدة ثورات ضد محمد علي باشا وأسهمت في جلاء قواته عن بلاد الشام(٢٤). غير أن قانون التجنيد الإجباري الذي طبقه إبراهيم باشا على الدروز في جبل لبنان خلف استياء عاماً في صفوف هؤلاء ولا سيما بين أولئك الذين حاربوا إلى جانبه ضد السلطان. لقد تعود هؤلاء التطوع إختيارياً أثناء الحرب وليس إجبارياً. وكان المقاتل لا يغيب إلا لأيام معدودة عن أهله وبيته. أما قانون التجنيد الذي عمل على تطبيقه إبراهيم باشا فكان خالياً من هذه المزايا. وعمل إبراهيم باشا على نزع السلاح من الأهالي معتمداً أسلوب التحريض الطائفي فأسر للمسيحيين في الجبل أنه سينزع سلاح الدروز ويبقي سلاحهم. «وكان محمد علي يخشى بقاء السلاح في أيدي أبناء الجبل لئلا يثوروا عليه. فاتخذ من ترددهم في أمر التجنيد حجة لنزع سلاحهم بالقوة. ثم أبلغ الأمير بشيراً أنه إذا لم يمتثل الدروز لأوامره فسيضربهم أينما كانوا. ثم حُلت مسألة التجنيد بالتوصل إلى حل وسط يقضي بتطوع نصف العدد المطلوب من الدروز. وقبل إبراهيم باشا الحل الوسط ليواجه مشكلة مماثلة مع دروز جبل حوران الذين رفضوا تسليم سلاحهم الفردي بحجة أنهم مهددين دوماً من غزوات البدو القادمين من الصحراء وعليهم أن يدافعوا عن انفسهم طالما ان ابراهيم باشا لم يعطهم الحماية الكافية ضد خطر ذلك الغزو(٢٥).

الثورة ضد ابراهيم

وأمام إصرار إبراهيم باشا على نزع سلاح دروز جبل حوران وتجنيدهم بالقوة نشبت الثورة هناك ضد الحكم المصري. وسرعان ما امتدت نيران الثورة إلى وادي التيم. فأوكل ابراهيم باشا أمر إخضاع تلك المنطقة لبعض الأمراء الشهابيين. أما الثورة في حوران فقد كلفت إبراهيم باشا العديد من الحملات العسكرية النظامية دون أن يظفر بالثوار. غير أن إبراهيم باشا لجأ إلى ما يسمى حرب المياه في جبل حوران خلال فصل الصيف. وقرر السيطرة على موارد المياه خلال فترة الحر والقيظ. وطمر برك المياه أو تسميمها عن طريق تلويثها وذلك بغية القضاء على الثورة هناك. والمهم في هذا السياق أن ثورة في وادي التيم نشبت ضد إبراهيم باشا دعماً لثورة جبل حوران. والأهم من ذلك كله أن إبراهيم باشا طلب من الأمير بشير تجنيد أربعة آلاف مقاتل من نصارى لبنان بعد تسليمهم

أسلحة مؤيدة لهم ولذريتهم «وأرسالهم إلى حاصبيا من أجل المساهمة في إخضاع ثورة الدروز هناك(٢٦).

لبّى الأمير بشير طلب حليفه إبراهيم باشا على النحو الذي طلبه منه أي جند عدة آلاف من نصارى جبل لبنان دون أن يفطن لما ستؤديه هذه السياسة من خطر على وحدة رعاياه في الجبل اي إنقسامهم إلى فريقين متقاتلين على اساس طائفي. وهذا ما أشار إليه القنصل الفرنسي في تقريره آنذاك حيث كتب يقول ما مؤداه: لقد تأكد لنا أن الأمير بشيراً سيعمل للوقوف في وجه الدروز بدعم من الموارنة(٢٧). لقد كان الأمير بشير على علم بأن عدداً من الدروز في الإمارة قد التحق بالثورة في وادي التيم فأمر بتهديم كل بيت أو قرية التحق أهله بالثورة هناك. وكإجراء إحترازي للتدخل على هذا النحو ضد ثورة الدروز في وادي التيم طرد الأمير بشير جميع الدروز العاملين في قصره وجرد المجندين هناك من سلاحهم.

وهكذا فإن قبول الأمير بشير الشهابي الثاني طلب إبراهيم باشا تجنيد النصارى في جبل لبنان لأول مرة ضد الدروز، وبالتالي اشتراك أولئك المجندين في القتال ضد الثورة الدرزية بقيادة ابنه الأمير خليل أعتبر برأي العديد من المؤرخين خطأ فادحاً في سياسة الأمير بشير لما كان لتلك السياسة من وقع سيء على وحدة سكان الجبل فإذا به أي الأمير يكرس لأول مرة إنقساماً سياسياً وعسكرياً بين رعاياه على أساس طائفي زارعاً بذلك بذور الفتن الأهلية الطائفية التي وقعت في الجبل في مرحلة (١٨٤٠ ــ ١٨٦٠)(٢٨).

وكانت الثورة في جبل حوران قد وصلت إلى نهاية سعيدة بعد أن عمل إبراهيم باشا على إتباع سياسة اللين والتفاهم معهم وسمح للدروز هناك بحمل السلاح للدفاع عن أنفسهم ضد البدو مما ساعد بإنهاء ثورة الدروز في وادي التيم. ولكن وقع قتال نصارى الجبل ضد الدروز هناك ترك أثراً سيئاً في النفوس لم ينته بإنتهاء الثورة دون أن تظهر نتائجه الخطيرة على وحدة ابناء الجبل في نهاية حكم محمد علي باشا مباشرة. ذلك أن الرياح الدولية التي هبت على المنطقة لاقتلاع ابراهيم باشا من بلاد الشام كانت قد طغت على كل شيء. فالدولة العثمانية وسائر الدول الأوروبية باستثناء فرنسا كانت قد عقدت العزم على إنهاء حكم إبراهيم باشا. وشاعت الأخبار في الجبل أن إبراهيم باشا عاقد العزم على المواجهة وأنه سيعمل هذه المرة لا على تجنيد الدروز المسلمين وحسب في جيشه بل سيجند المسيحيين أيضاً مما أدى إلى تفاهم بين دروز ونصارى الجبل لمقاومة هذا الإجراء. وإذ بلغ إبراهيم باشا خبر تفاهم الدروز والنصارى إزاء ذلك طلب من الأمير بشير تجريد النصارى من الأسلحة التي سبق أن وزعها عليهم لمحاربة الدروز إبان الثورة. على أن هذا التحالف المستجد بين رعايا الأمير بشير في الجبل لم يؤد إلى تصفية ذيول الخلافات السابقة بين الدروز والنصارى كما هو مطلوب. بل إن إتفاق مصالح الدروز والموارنة جاء نتيجة لضغط الأحداث الخارجية. ذلك أن بريطانيا الحليفة الأقوى للدولة العثمانية كانت قد اتصلت سراً ببطريرك الموارنة لدعم التحالف الأوربي ضد إبراهيم باشا. ونجحت تلك الإتصالات بجعل قسم من الأكليروس الماروني على الأقل يدعم التحالف الأوروبي ضد سياسة الأمير بشير وحليفه إبراهيم باشا. وسارع أولئك الموارنة لتسلم كمية من الأسلحة من القوات الحليفة لإستخدامها في الحرب لاجلاء إبراهيم باشا عام ١٨٤٠ م. وكان بين الثوار قادة من آل الخازن وأمراء شهابيين ناقمين على الأمير بشير. وساعدت سياسة إبراهيم باشا على قيام تحالف بين الثوار في إجتماع إنطلياس الذي جمع بين اللبنانيين على إختلاف طوائفهم ضد سياسة إبراهيم باشا التعسفية(٢٩).

وهكذا نشبت الثورة في جبل لبنان وأنحاء أخرى ضد إبراهيم باشا بتأليب من البريطانيين وانتقاماً لسياسة إبراهيم باشا السابقة وساهمت بحرب الجلاء التي قامت على أكتاف الدولة البريطانية والدولة العثمانية وانتهت بإقصاء محمد علي عن بلاد الشام والإكتفاء بحكم مصر فيما اضطر الأمير بشير الثاني

للتنازل عن الحكم ووقع الإختيار على بشير الثالث ليكون أميراً على الجبل.

ومع نهاية الحكم المصري في بلاد الشام بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الجبل إذ انتهى عندها عهد الأمير بشير الثاني الذي أمتد نحواً من نصف قرن. ولم يكن ذلك العهد كما يحلو لبعض المؤرخين كله عهد عمران وإزدهار، بل أن نزعة بشير الثاني نحو التسلط المطلق كانت سبباً للعديد من المشاحنات والنزاعات الداخلية وتصفيات جميع القوى المناهضة لسياسته. ولم ينجح بشير الثاني في حصر السلطة في يده لولا تحالفه مع قوى خارجية جعلته في نهاية المطاف أسير تلك القوى وعرّض الجبل لتدخلات سياسية ادت إلى زعزعة ما يمكن تسميته وحدة أبناء الجبل الوطنية التي ظهرت في أبرز صورها في العهد المعني. ولعل أسوأ تلك التدخلات في عهد بشير الثاني ما صدرت في عهد إبراهيم باشا المصري حيث كما رأينا بدأ التفريق على أساس طائفي بين الدروز والنصارى في الجبل دون أن يتصدى الأمير بشير لتلك السياسة الخرقاء. ومن هنا يصح القول بأن سياسة بشير الثاني الداخلية والخارجية لم تكن سياسة ناجحة على الصعيد الوطني كسياسة فخر الدين المعني الثاني. ذلك أن سياسة فخر الدين كانت ترتكز على قاعدة توحيد مختلف القوى السياسية في الداخل فتمكن من بناء وحدة وطنية في الجبل على اساس غير طائفي الأمر الذي جعل من فخر الدين رمزاً لتلاقي وحدة اللبنانيين في مرحلة من تاريخهم الحديث. أما سياسة بشير الثاني الشهابي فقد حفلت بشتى أنواع التفرقة السياسية مما أفسح في المجال أمام التدخل الخارجي الأمر الذي مزق الوحدة الوطنية وغرس بذور التفرقة الطائفية في عهد الحكم المصري ممهداً بذلك لتلك الحرب الأهلية التي وقعت في عهد بشير الثالث اي في آخر الحكم الشهابي بين الدروز والنصارى.

ان تبني بشير الثاني في أواخر عهده ثم بشير الثالث لسياسة التفرقة هذه على أساس طائفي كانت تواكب تحولات أخرى إجتماعية وسياسية وإقتصادية في وضع الجبل. وتجدر الإشارة هنا إلى ذلك التحول الذي أدى إلى إضعاف النظام المقاطعجي الذي كان قوامه مقاطعجيون من الدروز والنصارى في الجبل. وقد لعبت الكنيسة المارونية بتحالفها مع بشير الثاني للقضاء على امتيازات النظام المقاطعجي مع ما رافق ذلك من إصلاحات عثمانية دوراً أساسياً في هذا التحول. ولكن المفارقة تبقى بأن تغيير النظام المقاطعجي هذا لم يساهم في تعزيز سياسة الإنصهار الوطني بين أبناء الجبل في العهد الشهابي. ذلك أن تغيير النظام المقاطعجي هذا لم يأت كله لصالح الطبقة العامة من الدروز والنصارى من أبناء الجبل. أي بكلام آخر أن تلك التحولات السياسية والإجتماعية التي طرأت على الجبل خلال النصف القرن الأخير من العهد الشهابي كان يمكن توجهها نحو نظام سياسي جديد وطني غير طائفي وأكثر تطوراً وعدالة من النظام المقاطعجي السابق. إلا أن طغيان سياسة الكنيسة المارونية الطائفية من جهة وسياسة بشير الثاني القصيرة النظر أدت إلى ولادة نظام طائفي أكثر تخلفاً من النظام المقاطعجي السابق، وهو النظام الذي ولد حروباً أهلية وطائفية عانى منها اللبنانيون على مختلف مذاهبهم ولا يزالون.

●

الحواشي

(١) محمد بن طولون. مفاكهة النحلات في حوادث الزمان (القاهرة: ١٩٦٤) ج ٢، ص ٧٧ ـ ٧٩.
(٢) راجع محمد عزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا (القاهرة، ١٩٦٩) ص ٣٢٣.
(٣) راجع، طنوس الشدياق، اخبار الأعيان في جبل لبنان (بيروت ١٩٥٦) ج ١، ص ١٨٦ ـ ١٩٥.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

(٥) اسطفانوس الدويهي، تاريخ الأزمنة (بيروت، المشرق م ٤٤، ١٩٥٠) ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٦) راجع بولس قرالي، علي باشا جنبلاط والي حلب ١٦٠٥ ـ ١٦١١ (بيروت ١٩٣٩) ص ١٩ ـ ٢٤ كذلك ٥٥ ـ ٨٥.
(٧) عيسى إسكندر المعلوف، تاريخ فخر الدين المعني الثاني (جونية ١٩٣٤) ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.
(٨) راجع، بولس قرالي، فخر الدين الثاني المعني أمير لبنان إدارته وسياسته ١٥٩٠ ـ ١٦٣٥ (حريصا: ١٩٣٧) الجزء الأول.
(٩) قرالي، المرجع السابق، ص ٣٥ ـ ٣٦.
(١٠) تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم (بيروت، ١٩٧١) تحقيق سليم هشي، ص ٣٠.
(١١) راجع كتابنا، التاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل لبنان (بيروت: ١٩٨٤) ص ١٠٩ ـ ١٨٨.
(١٢) حيدر الشهابي، القرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان (المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٣) ج ١، ص ٣٨ وص ٤١.
(١٣) راجع: Clairambault au Dude praslin; (23 Avril, 1767) Documents Diplomatioques et Consulaires (Beyrouth, 1975) V. 2, PP. 149-153.
(١٤) الشهابي، الفرر، ج ١، ص ١٢٧.
(١٥) المصدر نفسه، من ج ١٣٠ ـ ١٣٥.
(١٦) الشدياق، مصدر سابق. ج ٢، ص ٧٨.
(١٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨.
(١٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٩.
(١٩) تاريخ الإمارة الشهابية، مرجع مذكور، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.
(٢٠) راجع يوسف خطار الحلو العاميات الشعبية في لبنان (بيروت: دار الفارابي ط ٢، ١٩٧٩) ص ٥٣ ـ ٥٦.
(٢١) راجع Documents Diplomatiques, V.3m P 142 كذلك المصدر نفسه V.5, P 24.
(٢٢) الشدياق، مصدر سابق، ص ١٣٩.
(٢٣) راجع: يوسف أبو شقرا، الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية (بيروت، ١٩٥٧) ص ١٥ ـ ١٦.
(٢٤) سليمان أبو عز الدين، إبراهيم باشا في سوريا (بيروت، ١٩٢٩، ص ١٦٨).
(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٩٧ ـ ١٩٩.
(٢٦) راجع الشدياق، المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٤١ كذلك تقرير للقنصل البريطاني. Avril 7, 1938.
(٢٧) راجع: Alex, Deval (23 Juin 1833) Doc. Dsp. V.5 p. 387.
(٢٨) راجع فيليب حتي مثلاً، لبنان في التاريخ ص ٥٢٥.
(٢٩) راجع: أسد رستم الأموال العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي (بيروت ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤) ج ٥، ص ١٠٠. كذلك:
Moore 10 Palmerston (June 10, 1840) F. O. 406 1774.



● لا يفوتنكم أن تحتجوا على كل أمر ترون فيه مخالفة للقانون مهما كان صغيرا في نظركم، فربما كان لهذا الأمر الصغير علاقة في المستقبل بأمر كبير، فيتخذ سكوتكم في هذا حجة عليكم.

(سعد زغلول)

● ليعلم الوالي أن الناس يصفون الولاة بسوء العهد. ونسيان الود: فليُكابر نقض قولهم، وليبطل عن نفسه وعن الولاة صفات السوء التي يوصفون بها.

(ابن المقفع)

تاريخ المرأة الدرزية في الجبل

اديل حليم تقي الدين*

تمتلكني الرهبة امام موضوع في التاريخ فاشعر وكانني في مدى شاسـع لا حدود له، تمتد أبعاده في الزمان والمكان، حيث تتشابك الأحداث وتتداخل العوامل والمؤثرات التي لا حصر لها، تاركة بصماتها في كل ما خلّفته. وقد يكون من اهم أسباب هذا الشعور بالرهبة هو أن موضوع التاريخ ليس مجال إختصاصي، لكنه يدخل في قراءاتي واهتماماتي الخاصة. ولا شكّ في أن موضوع التاريخ يدخل في جميـع ميادين العلم والمعرفة، فلكل علم تاريخه ولكل جانب من جوانب الحياة تاريخه، ومعرفتي في التاريخ تتركز حول مجال اختصاصي. أما موضوع المراة بالذات فهو أمر يهمني ويستهويني بصورة خـاصة. ومما يسهّل البحث، حصره في بيئة معينة، الا وهي الجبل، وفي مجتمـع محدد هو مجتمـع الموحدين الدروز، وهذا ما يجعل البحث ممكناً في مقال.

تستوجب معالجة موضوع تاريخ المراة في الجبـل دراسـة شـاملة ومعمّقـة، متعدّدة الجوانب قد تصل إلى عشرات بل مئات الصفحات، إذا أردنا أن نفي الدراسة حقّها. فلكل امرأة ممن اشتهرن، تاريخها، وهذا بدوره يؤلّف جزءاً من التاريـخ العام. لكنني في هذا المجال لا يسعني إلّا أن أُمسك بخيط من هذا النسيـج المحبوك حبكاً دقيقاً متشابكاً لألقي بعض الضوء على مسيرة المرأة في الجبل، لعلّه يفي بالغرض. فآتي على ذكر عيّنة فقط من النساء اللواتي سجّلهن التاريـخ في صفحاته المشرقة، وهذه العينة تمثّل قافلة طويلة ممن لم يـأت التاريـخ على ذكرهن وقد كان لهنّ الأثر العميق في تكوين الأجيال المتتالية وصيرورتها.

لموضوع تاريـخ المرأة وجهان هامان، الأول يعطي صورة متعددة الجوانب للبيئة التي نشأت وترعرت فيها، والتي كان لها الأثر العميق في تكوين شخصيتها وبروزها. والوجه الآخر يبحث في تاريـخ كل امرأة على حده فيأتي على ذكر مآثرها والمجال الذي تألقت فيه، والأعمال المميزة التي قامت بها في مجتمعها ووطنها، فجلعتها تتفوّق على اقرانها لتأخذ مركز القيادة وتصبـح قدوة ومثالاً يُحتذى به.

وفي الكلام عن البيئة لا بد من الكلام عن العوامل المؤثرة كل على حـدة، وذلك لتسهيل البحث ليس إلّا. لأن العوامل لا يمكن سلخها بعضهـا عن البعض الآخـر فهي في تفـاعـل ديناميكي دائم تعظم وتضعف آثـارها بحسب الزمان والمكان.

الحياة في قرى الجبل تلتصق التصاقاً مباشراً بالطبيعة في شتّى مظاهرها وتقلبات فصولها، من قساوة وجمال وهدوء ورتابة، تطبـع حياة الأفراد فيه. كما تبدو الحياة في هذه القرى وكأنها حياة بسيطة غير معقّدة. لكنها تتبـع نظاماً متماسكاً حدّده المجتمع وطبـع حياة أفراده ومؤسساته بدقة يصعب عندها أي تغيير جذري. فالأدوار التي يقوم بها كل فرد أو شريحة من الأفراد، إن من حيث الجنس أو العمر أو نوع العمل فهي محدّدة بدقة، وإذا حصل أي تغيير أثّر ذلك في بنيته وهيكليته، مما يزعزع ذلك الكيان المتراص ويهدد بعدم الإستقرار الإجتماعي والإقتصادي والنفسي.

وللمـراة في الجبل دور لعبتـه لقرون خلت واستمرت بالقيام به مما حافظ على استقـرار وتماسك هذا المجتمع في حياة أفراده ومؤسساته، واخصّ بالذكر مؤسسة العائلة التي يعتبرهـا مجتمع الجبل كياناً مقدّساً، يحافظ جميـع أفراده على هنائها واستمرارها وتقدّمها نحو الأفضل، فيعمل كل فرد على ترسيـخ بنيانها وتماسكها.

تتمتع المراة في الجبل ومنذ أقدم العصور بالإحترام وبمكانة مميزة في العائلة وفي المجتمع. فقد خصّتها التعاليم الدينية منذ عدة قـرون وتحـديداً منـذ بدء الدعـوة لمذهب التـوحيد، بالإحترام والمساواة مع الرجل. وقد خُصصت بعض الرسائل، التي كان يحملها دعاة الإمام حمزة لقبول مذهب التوحيد بالمراة مؤكدة على احترامها ومساواتها بالرجل تقول: «عندما يتزوّج الموحّد موحّدة عليـه أن يعاملهـا كشريكـة له تقاسمه جميـع ما يملك. إذا أصبـح التفريق بينهما ضرورة وكانت الزوجة هي طالبة التفريق، وكان معلوماً لدى الجميـع أنه يقوم بواجباته تجاهها، ففي هذه الحال يحق له أخذ نصف ما تملك. وإذا كان الرجل هو المقصّر في القيام بواجباته تجاه زوجته وتختار هي تركه لا يحق لها أي شيء مما تملك. وإذا اراد الزوج أن يحلّ الزواج دون سبب أو خطأ قامت به الزوجة فيحق لها نصف كل مـا يملك.» وقد حُـددت عبارة «ما يملك» فيما بعد «بالفضة والذهب والثياب والبيت والعفش والماشية والأملاك والبساتـين والكروم، وبمحلات، والتجارة وكتب وأوراق... الخ. [(١) ص ٦٧٠].

كما كان يوصي الإمام حمـزة بتعليم المرأة ومعاملتها معاملة حسنة وكان الدعاة يحثـون النساء على تعلّم القراة والكتابة كي تستطعن أن تعلمن أولادهن بمقتضى التعاليم الدينية وتوجههن اخلاقياً وإجتمـاعياً. كتب الشيـخ نجيب علم الدين في هذا المجال في كتابه الذي صدر حديثاً «Turmoil, The Druzes, Lebanon and The Arab-Israeli War» يقول على لسان أحد



□ اديل تقي الدين

* استاذة (متقاعدة) في كلية التربية في الجامعة اللبنانية. حائزة على شهادة بكالوريوس علوم «بامتياز» في علم النفس سنة ١٩٥٣ وشهادة الماجستير في علم النفس التربوي' من الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٥٩. وقد تابعت دراستها لنيل شهادة الدكتوراه في معهد الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف. انتخبت رئيسة لقسم التربية في كلية التربية وشغلت هذا المنصب من سنة ١٩٧٢ حتى سنة ١٩٧٨.

المؤرخين اللبنانيين في القرن التاسع عشر «قليلات هنّ النساء الدرزيات اللواتي لا يستطعن القراءة والكتابة». كما يقول Col. Churchill في كتابه «١٨٥٣» بأن القراءة والكتابة أصبحت عامة حتى بين النساء الدرزيات».. ويقول Puget de Saint Pierr في كتابه «Histoire des Druzes, Peuple du Liban» في أواسط القرن الثامن عشر «إن النساء الدرزيات أكثر علماً في الدين من الرجال. وعلى عاتقهن يقع تعليم النساء الأخريات محتويات ومعنى كتبهم المقدّسة» وكان بامكانه، يقول الشيخ نجيب علم الدين، أن يزيد على هذا القول بأن على النساء كانت تقع أيضاً مسؤولية تعلم الأولاد الأسس الإجتماعية والأخلاقية المستمدة من تعاليم دينهم: ففي البيت يتعلم الأولاد من أمهاتهم وجدّاتهم الفرق بين الخير والشر وفيه تتكوّن توجيهاتهم الخلقية والمسلكية، وتتبلور شخصياتهم وأخلاقهم مدى الحياة [(١) ص ٦٦٠)]

وهكذا نجد أن المجتمع القى مسؤوليات جسام على عاتق المرأة مما يعكس القيمة والمكانة التي أعطيت لها كشريكة لا غنى عنها في تدعيم أسس المجتمع وترسيخ القيم الإخلاقية فيه. وهذا بدوره زاد في احترامها لذاتها وفي احترام الآخرين لها كما أعطاها دفعاً معنوياً وثقة للعب دور مميز في المجتمع.

كتب عبد الله النجّار في كتابه «الدروز» حول مكانة المرأة في التعاليم الدينية قال: «إن المرأة هي عرض الرجل، أي أنها نفسه، وتمثل كرامته وشرفه. وصيانتها عنده أعزّ من صيانة النفس. يستميت الرجال في الدفاع عنها ويفاخرون بها الشعوب. كل عشيرة منهم في زمن الفروسية، وعهدهم بها قريب، كانت تستهل النخوات، عند خوض المعارك باسم «اخت» لها اشتهرت بالشجاعة والعفّة والذكاء، تختارها مباهية معتزّة في استثارات «النشامى» للنزال فيصيح خائض الغمرات منهم مسمياً، أنا أخو «فلانة» ثم يبيع النفس ولا يهمه أن يعود. وأكبر إهانة في نظرهم التعريض بالعرض، تستوي في ذلك نساؤهم ونساء غيرهم، حتى الأعداء. ويوجبون لهن الصون والإحترام حتى أن قاطع الطريق منهم، كالسلّابة الذي ثار على الفرنسيين في عهد انتدابهم على لبنان، واطلق الناس عليه لقب «روبن هود»، كان يرفع يده عن المرأة الفرنسية باحترام ويعفّ عما معها وهو يعلم أن رفقاء السفر حين رأوه خبّأوا محافظ نقودهم في مطاوي ثوبها ((٤) ص. ٢١٩)

ومما قاله سلطان باشا الأطرش يوم كان قائداً للدروز في ثورتهم على الإنتداب عندما طلب إليه المفوّض السامي الفرنسي بواسطة عبد الله النجّار وقد كان آنذاك مديراً للمعارف في سوريا، لإخراج النساء الفرنسيات من قلعة «السويداء» المحاصرة، الجائعة: «نحن لا نحارب الفرنسيين ومعهم نساءهم، أخرجهن لنريهم كيف يكون شرف القتال. فهم لم يعفّوا عن نساءنا.. ملمحاً بذلك إلى قصفهم بالطائرات المنازل على النساء والأطفال حين كان الرجال خارجها في ساحات القتال.

ويقول المؤرخون الأجانب ومنهم دانيال بلسّ، رئيس الجامعة الأميركية في بيروت عن الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠ «ان المرأة من خصوم الدروز كانت تمرّ في معسكراتهم آمنة، لا يُرفع إليها طرف ولا يقع في آذانها كلام. وهذا ما لا تستطيع أن تتدعيه جيوش أمم غربية تتبجّح بمدنيتها، ثم تتنكّر في الحروب لحضارتها. انها الشهامة العربية في ذروتها عند بني معروف» ((٤) ص: ٢٢٠)

ويقول المرحوم القاضي الشيخ أمين طليع في مخطوطة له عن المرأة الدرزية لم تُنشر بعد أن «محافظة الدروز على أعراضهم ساقتهم إلى حروب طاحنة أريقت فيها دماء زكية. ومن شرف القتال عندهم عدم التعرض للنساء أثناء الحروب ولو كن من المقاتلات. وقد برهنوا عن ذلك عملياً في ثورة سنة ١٩٢٥. وقد شهد لهم بذلك المبشّر الإنكليزي «برانت» الذي كان في زحلة عندما دخلها الدروز في حوادث مشؤومة فقال: «الدروز احترموا النساء والأولاد ولم يقتلوا امرأة إلا صدفة ونادراً، وعندما كانت تدافع عن الرجال (تاريخ لبنان العام، مزهر ص. ٦٤٥).

لقد شدّدت التعاليم المذهبية على عفّة المرأة، وهذا شرط أساسي لسلامة الزواج، والبعد عن المنكرات والشهوات «فالحذر الحذر معاشر المؤمنين والمؤمنات من ارتكاب الأهواء والفواحش والشهوات البهيمية وإتباع المنكرات، فمن نهى نفسه عن الشهوات كان أفضل من الملائكة المقرّبين».

يقول عبد الله النجّار في كتابه «الدروز» يتشدّد المذهب في الحفاظ عن الأعراض. وفي الحذر والتحوّط لكل ما له علاقة بالمرأة. ولا يعرف التاريخ جماعة أحرص من الدروز على الآداب والتهذيب الجنسي». (٤) ص ٢٢٠).

والرادع في مسلك المرأة كما في مسلك الرجل هو ذاتي داخلي، وليس نتيجة رقابة خارجية من قبل الآخرين. فاحتكام الضمير والتعاليم الإخلاقية الدينية هما المرجعين في مسلك الموحّد ولهما الأثر الأقوى في تصرّف كل منهما. يقول الكاتب The Earl of Carnarvon سنة ١٨٦٠ في كتابه «Recollections of the Druzes of the Lebanon» «وأكثر ما فاجأني هو الانضباط، الشخصي والتقدير الدقيق للمشاعر والرغبات، واللياقة الإجتماعية، وإلى حد بعيد الرقي والدماثة والتهذيب الذي يميّز حديثهم عن غيرهم والأداب الإجتماعية التي لا يمكن لأي «صالون» في لندن أو باريز أن يفوقهم في ذلك. لقد اجتمعت مع الكثير من الشرقيين ولكنني لم أجد مثل هذه المزايا الإجتماعية مجموعة».((١) ص: ٥٧).

يقول الشيخ نجيب علم الدين أيضاً «اشتهر المجتمع الدرزي بالأخلاق واللياقة الإجتماعية. وأهم ما يتميزون به هو الصدق وعلى الإنسان أن يحيا من أجل الحق. «قل الحق ولا تخف شيئاً سوى خطاياك» يقول المثل الدرزي. فالدروز لا يخلفون في قولهم ولا في وعودهم لأن في ذلك كرامتهم وكيانهم.

ومما زاد في احترام المرأة وشعورها بالعزّة والكرامة والإستقرار النفسي عدم تعدد الزوجات. وقد نهى عنه المعزّ لدين الله، جدّ الحاكم، وحرّمه المذهب لإستحالة العدل معه وفقاً للآية الكريمة «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم». «فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة.»

كذلك، بالرغم من أن الزواج يتم مبدئياً بعد موافقة أهل العروسين، لكن لا تجبر الأبنة على الزواج رغم إرادتها من أي كان ،ونادراً جداً ما أُجبرت الأبنة على الزواج. فالكلمة الأخيرة كانت دائماً لها في الموافقة. كما حدّد قانون الأحوال الشخصية سن الزواج بـ ١٥ سنة للأبنة و ١٦ سنة للشاب آخذاً بعين الإعتبار النضج الجسدي والعقلي والعاطفي لدى الجنسين.

وقد سمح المذهب الدرزي بالطلاق في حالات معينة وللزوجة الحق في طلب فسخ العقد إذا تعذّر استمرار الحياة الزوجية لأسباب حدّدها قانون الأحوال الشخصية. فلا ينفرد الزوج بالطلاق إعتباطاً بل بعد أن يصدر الحكم بالطلاق من القاضي. وهذا يتطلّب وقتاً قد يعود الزوجان خلاله عن الطلاق ويتوصلا إلى مصالحة تكون لخير العائلة والأولاد.

إذا فالمرأة سيدة بيتها تتمتع بالإحترام والكرامة لا ينازعها منازع بل تحظى باحترام زوجها وأولادها وعائلتها.

والأبنة في مجتمع الموحّدين كانت تربّى منذ نعومة أظفارها لتكون زوجة صالحة، وأن الزواج والعائلة مؤسسة مقدّسة. فعليها أن تعيش في وئام مع زوجها ومن أجل أولادها. وهكذا نعمت العائلة بالإستقرار والثقة والأمان. فالمسؤوليات والأدوار محدّدة لكل من الزوج والزوجة والأولاد والعمل تعاوني مشترك بين الجميع.

أما في الوقت الحاضر فقد لحق كل ذلك بعض التغيير والتحوّل، جراء التطوّر العلمي والإجتماعي والإقتصادي. وتفاعل المجتمعات كافة وبشكل مباشر وتأثير المجتمع الغربي بوجه خاص على الأجيال الشابة من خلال التربية والتعليم وعن طريق شتى أنواع وسائل الإعلام والمواصلات.

فالزواج أصبح إلى حد بعيد إختياراً فردياً بين الفتاة والشاب وموافقتهما المتبادلة، تكون موافقة الأهل لاحقة لا سبباً في معظم الحالات. أما الطلاق فبالرغم من أنه زاد عن السابق، إلّا أنه يبقى أقل بكثير في المجتمع الدرزي منه في المجتمعات الأخرى، وذلك لما للتقاليد المتوارثة والقيم الإخلاقية المتجذّرة في الحياة العائلية من تأثير. وتبقى قوانين الأحوال الشخصية المستمدّة من روح التعاليم الدينية الأرث والوسيلة التي تحكم كيان العائلة كمؤسسة وتحافظ على

استمرارها. مع الأخذ بعين الإعتبار التطوّر الإجتماعي وما طرأ من تغيير في العلاقات الإجتماعية بسبب العوامل المتعددة التي تحكم المجتمعات عامة.

نساء برزن في التاريخ في الجبل

ومما يتبادر إلى الأذهان أن مجتمعاً محافظاً، شديد الحرص على العرض، خاض المعارك حفاظاً على نسائه، لا يمكن أن تلعب فيه المرأة دوراً بارزاً، تكون فيه في موقع القيادة بين الرجال. «يحار المرء كيف أن شعباً يعيش في محيط محكوم بالعادات والتقاليد المحافظة يكون في مقدوره أن يُنبت متفوّقات شهيرات. لا شك أن التفوّق في المجتمع يستلزم توفّر عناصر وشروط ومقوّمات عديدة من أهمها المؤهّلات الشخصية. أي الإستعداد الذاتي والموهبة. ولكي تتمكن المواهب من البروز يجب أن تكون متمتعة بالحرية التي تؤمن لها الإنطلاق. وإن تسنح لها الفرص وتتهيأ الأجواء... والمعروف أن الزمن الذي اشتهرت في غضونه جمهرة من نساء بني معروف لم يكن زمن انفتاح وحريّة وإنعتاق، والفرص للنبوغ كانت قليلة بل نادرة. فكيف اتيح لبعض النساء ممن اشتهرن تخطّي الحواجز الإجتماعية والدينية والسياسية. فقد دخل عدد من النساء في الجبل التاريخ من بابه الواسع وفي احلك العصور نذكر منهن المميزات المتفوّقات اللواتي لا خلاف على اختيارهن وقد اجمع المؤرخون على ذكرهنّ.

لم يتقاعس المجتمع الدرزي الأول عن ابراز المرأة في ميدان الدعوة، فكانت السفيرة الممتازة والداعية المقنعة، والمفاوضة الشجاعة. وقد برزت في هذا المجال **الست سارة بنت الأستاذ أبي الحسن تقي بن أحمد شقيق المقتنى بهاء الدين**. «وكان والدها الأستاذ أبو الحسن الساعد الأيمن للمقتنى بهاء الدين، لكنه بقي دائماً في الظل، لأنه لم يكن هو المختار للمهمة الصعبة، ولأن علمه، مهما كان وافراً، وذكاؤه متوقّداً، فإنهما تضاءلا أمام غزارة علم المقتنى وتألق ذكائه وعلوّ مقدرته، فبقي مغموراً إلّا عند القلّة من المطلعين.

اشتهرت الست سارة بالورع والتقوى والطهارة وقد كانت في المجتمع سيدة محترمة موقّرة، رفيعة المكانة، مسموعة الكلمة يقصدها الناس لاستشارتها في معضلات أمورهم والوقوف على آرائها الحكيمة الرشيدة. أرسلها المقتنى بهاء الدين إلى وادي التيم على رأس وفد من الرجال. دليل واضح على أن الدعوة التوحيدية وضعت المرأة في المكان اللائق بها وساوتها بالرجل في أمور إجتماعية كثيرة.

وبعد عودتها إلى مصر، ازمع المقتنى بهاء الدين إرسالها في مهمة أخرى إلى الإحساء، إلا أن الحاجة إلى سفرها بطلت لأن امراء الإحساء بعثوا برسالة يعلنون فيها استجابتهم إلى الدعوة، واكتفى بإرسال من كانوا معينين معها وهم دونها في المنزلة والمقدرة وبعضهم من محارمها.

كان المقتنى يكلف الأستاذ مهمات كثيرة صعبة، إلا أن مهمة وادي التيم اختار لها الست ساره، وجعل الأستاذ عضواً في الوفد الذي يرافقها، فكانت على خير كفاية لهذه المهمة. علماً ومقدرة وخير مثال يُقتدى به ويُحتذى» ((٢) ص ٩٨٠ المجلد الثاني).

وقصة الست سارة ومواقفها والمهمات التي كانت تقوم بها ما تزال تروى للأولاد والشباب و البنات من قبل الأمهات والجدّات والآباء ليقتدي بها الجميع وخاصة النساء.

ويقول فيها القاضي أمين طليع في مخطوطته «وكانت الست سارة أول امرأة تظهر على مسرح الدعوة التوحيدية وهي في مقتبل العمر لتثبت أنها تقيّة إلى درجة التفاني ونكران الذات والمخاطرة بحياتها وانها أهل لتحمل المكاره والصعوبات وتجشّم عناء السفر من الإسكندرية إلى وادي التيم قاطعة الصحراء متحدية العوامل الطبيعية القاسية وقد اثبتت انها كانت متعمقة بفلسفة الدعوة وقادرة على الإقناع بصوابية رأيها وحسبها في كل ذلك إرضاء ضميرها وخالقها. لم تقف نشاطات الست سارة عند هذا الحد بل بقيت مجنّدة للعمل في سبيل الدعوة التوحيدية حتى غاب آخر دعاتها واقفل الباب»(٣)

الأميرة نسب التنوخية، زوجة الأمير قرقماز المعني ووالدة فخر الدين الثاني. (١٥٤٦ ـ ١٦٣٣ م).

«ولدت في عبيه في بيت زعامة وعزّ وجاه ونشأت على تربية عالية وخلق نبيل، فصارت سيدة زمانها، حكيمة عاقلة شجاعة اسهمت مع زوجها في كثير من الشؤون العامة. وامدته بكثير من الآراء الصائبة وكانت معروفة بالست الكبيرة، يلقبها المؤرخون الأجانب بالسلطانة. وفي عهد ابنها فخر الدين كانت له الراعي الصالح والمرشد الأمين، فأحبها حباً جمّاً وشاورها في جميع شؤونه، ولم يخالف لها أمراً. وعندما ترك البلاد في عهدة أخيه يونس وولده علي وذهب إلى تسكانة، كانت هي من ورائهما الموجّه الحكيم العاقل. ولما عظم تنكيل الجيش العثماني بالسكان، عقد الأمير يونس، بأمر من والدته، إجتماعاً لأعيان قومه فقرّروا فيه إرضاء الحافظ بدلاً من محاربته، فذهبت الست نسب وهي في نحو السبعين من عمرها مع ثلاثين من وجوه البلاد وقابلت أحمد باشا الحافظ والي الشام الذي كان على رأس الحملة على بلاد معن، وقدّمت له بعض الهدايا وطلبت إليه بلباقة وجرأة وقف التنكيل بالشعب وسحب الجيوش من البلاد ومنع آل سيفا من إحراق دير القمر. فأكبرها الحافظ كل الأكبار وأجابها فوراً إلى طلبها...

وكانت الأميرة نسب إلى جانب تعقّلها وحسن إدارتها وحكمتها ذات ثقافة ومعرفة. فقد قال الأب روجيه الفرنسيسكاني: أن الأمير كان متضلّعاً من معرفة النجوم والفلسفة الخفيّة (الروحانية والتوحيدية) التي أخذها عن والدته» ((٢) المجلد الثاني ص: ٤٠٥).

الأميرة حبوس ١٧٦٨ ـ ١٨٢٤

«ولدت في الشويفات وكانت ذكية سديدة الرأي، ثابتة الجنان، عالية الهمّة، كريمة اليد والنفس. تزوجت الأمير عباس بن فخر الدين، وبعد وفاته تولّت الحكم بعده وكانت تجالس الرجال وتقودهم بفصاحة خطابها، شديدة الخصومة في وجه من يخاصمها، بطاشة، شديدة النصرة لمن يلجأ إليها، وكانت ذات نفوذ وسطوة عند الحكّام.

حكمت مقاطعة الغرب وسهل بيروت فساست الحكم بفطنة وشجاعة ودراية وصار بيتها في الشويفات ملتقى كبار الزعماء في البلاد وكانوا يستعينون بآرائها في كل مواضيع الساعة الخطيرة. وكانت المحاكمات المدنية والجزائية تخضع لقرارها الفوري والمباشر، كما أن طالبي العدالة من كل طبقة ومكان كان يسمح لهم بالمثول امامها بحرية ضمن الحدود التي تقضي بها شريعة الأخلاق الدرزية والتقاليد في تحدّث الرجال إلى النساء [(٢) المجلّد الأول ص: ١٣٢)]. وهكذا لعبت الأميرة حبوس دوراً سياسياً كبيراً في عهد الأمير بشير الشهابي والشيخ بشير جنبلاط يطول البحث فيه في هذا المجال.

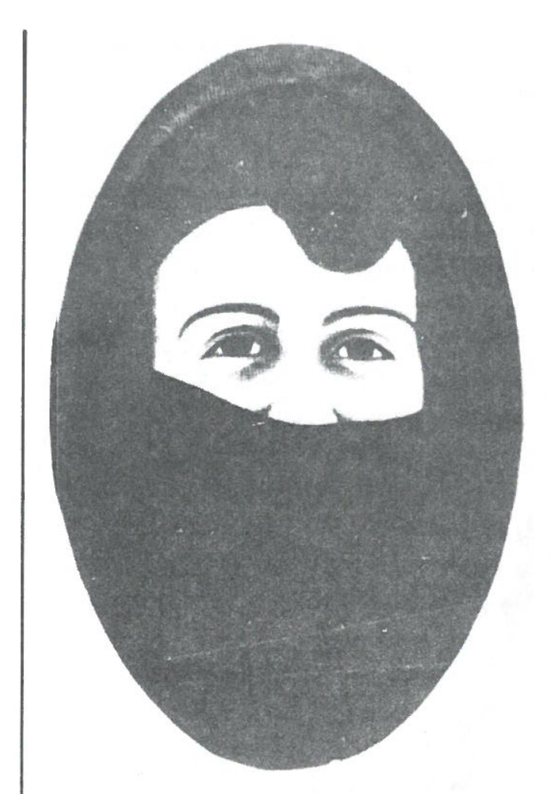
الشيخة نايفة جنبلاط (١٨١٠ ـ ١٨٨٠ م)

لقّبوها بزعيمة حاصبيا، عاصمة وادي التيم في جنوبي لبنان. كانت كما يروي معاصروها، شخصية ذات جلال ووقار، بارعة في ركوب الخيل، فارسة شجاعة، تقدس الحرّية وتحارب الطغيان. قال فيها أمير البيان الأمير شكيب إرسلان وهو من كبار رجالات العرب الذين زاروها وقصدوا بيتها «لقد زرت كثيراً من الحكّام والأمراء فلم اتأثر تأثري كشخصية هذه السيدة». وقد استطاعت بحكمتها ومحبتها الصادقة أن تبني جسوراً من التفاهم بين أبناء الوطن. وسعت لخدمة الإنسان اللبناني دون الإلتفات إلى إنتماءاته الدينية. وقد احتلّت قلوب اللبنانيين وكسبت ثقتهم ومحبّتهم. ((٥) ص: ٧٠).

الست نظيرة جنبلاط (١٨٩٠ ـ ١٩٥١ م)

نشأت في بيت الوجاهة والسؤدد، فشبّت على وفرة من الصفات النبيلة المميزة، وعلى ذكاء وفطنة وهيبة وجمال، وأصابها من محن الحياة بعدئذ ما أكسبها الحنكة والدهاء والأصالة في الرأي والقدرة على احتلال مركز القيادة.

تزوجت زعيم الشوف يومئذ فؤاد بك جنبلاط، لكنها ما لبثت أن فقدته وكان ابنها كمال لم يبلغ



□ الست نظيرة جنبلاط

بعد الرابعة من العمر. لم يكن أمامها غير خيار واحد هو الإضطلاع بالأعباء التي كان يحملها زوجها، وفاء بعهده، وحفاظاً لإبنها على مركز الزعامة التاريخي المنوط ببيت المختارة. فوقفت بعزيمة وقوّة تواجه قدرها ولم يكن لها من العمر يومئذ غير ٣٢ سنة. فكانت زعيمة الشوف قرابة ربع قرن كان مملوءاً بالأحداث الجسام. عرفت كيف تسوس الناس محلياً فعلقت بها قلوب الشوفيين من جميع الطوائف، فكانت تحسن استقبالهم وتساعد محتاجيهم وتصلح ما شجر بينهم من خلاف، وتبذل قصارى جهدها لتكون محط آمال كل قاصد، وعرفت كيف تقيم العلاقات الحكيمة المتوازنة مع الدولة اللبنانية ومع السلطة المنتدبة، فكانت موضع احترام كليهما وذات الكلمة النافذة التي لا ترد، فاستطاعت بذلك أن تحافظ على الشوف وعلى أهل الشوف في أحرج الأوقات وخصوصاً في ثورة سنة ١٩٢٥.

وكانت معروفة بالمحافظة على تراث عشيرتها، وعلى آدابهم وتقاليدهم فلم تنزع الحجاب في جميع المقابلات التي كانت تجريها، الخاصة والعامة ولم تقابل أحداً من كبار الشخصيات الوطنية أو الأجنبية إلّا ومعها شيوخ الطائفة الأجلاّء.

وعرفت في جميع الأوساط بمقدرتها السياسية وقوّة شخصيتها، وبراعتها في معالجة القضايا وجرأتها في الإعراب عن أفكارها، من غير ان تتخلّى عن الكلمة الطيبة والأسلوب المهذّب اللبق الأخّاذ... وعندما دخل ابنها كمال بك معترك السياسة سلّمت إليه مقاليدها وكانت تمدّه برأيها. وقفت إلى جانبه في كل مناسبة.

نظيرة جنبلاط دخلت التاريخ في قومها زعيمة وفي السياسة عبقرية وفي العالم اسطورة. توفيت في سنة ١٩٥١ ودفنت في المختارة في مأتم وطني حافل. ((٢) المجلّد الأول ص: ٤٠٥ ــ ٤٠٦)

نظيرة زين الدين بنت سعيد بن زين الدين بن حسن بن ابراهيم (١٩٠٧ ــ ١٩٧٦ م)

ولدت في الآستانة حيث كان والدها يشغل مركزاً رفيعاً في القضاء، نقل بعدها إلى حلب ثم إلى القدس ثم إلى بيروت، وما لبث أن ترك الوظيفة ولزم بلدته عين قنيه في الشوف، واحضر هناك لأولاده مربية ومعلّمة لبثتا معهم طوال مدّة الحرب العالمية الأولى وحتى سنة ١٩١٨ حين دعي والدها لكي يشغل وظيفة المدعي العام في بيروت فادخل نظيرة مدرسة دير الراهبات الناصرة سنة ١٩٢٠ فانهت دراستها الثانوية وحاولت الإلتحاق بالجامعة اليسوعية للتخصص في الطب فلم توفق لأن القانون في ذلك الوقت لم يكن يسمح للفتيات بأن يدرسن مع الشباب فأثار هذا الحادث عند نظيرة ثورة عارمة، وخصوصاً انها كانت ترمي من وراء تخصصها في الطب إلى نصرة المرأة وإنقاذ حياتها لأن حياتها في ذلك الحين كانت في خطر بسبب عدم السماح للفتاة بأن تخضع لكشف الطبيب لأنه رجل، فكانت تخضع إذا للآلام وللموت والمشكلة تصبح كارثة اجتماعية إذا ماتت المريضة وكانت أماً.

انصرفت إلى أداء مهمتها في العمل على تحرير المرأة عن طريق الكلمة، فاسهمت في تأسيس عدّة جمعيات نسائية. فمن جمعية النهضية النسائية التي كانت أمينة سرّها إلى جامعة السيدات التي كانت مستشارة فيها، إلى جمعية المجتمع العربي التي كانت أمينة سرّها، إلى جمعية الإتحاد السوري اللبناني الذي كان يضم ٢٩ جمعية نسائية في سوريا ولبنان. ثم اتسع الإتحاد فصار الإتحاد النسائي العربي الذي أصبح في الإتحاد النسائي الدولي وكانت فيه السيدة نظيرة أمينة السرّ.

وكانت أول من دعت إلى السفور فأصدرت كتاب «السفور والحجاب» سنة ١٩٢٨ فكان له صدى هائل في العالم الإسلامي ونهض للتعليق عليه عدد كبير من أصحاب الفكر ما بين مؤيد وشاذب. فاصدرت كتابها الثاني «الفتاة والشيوخ» سنة ١٩٢٩ وأخذت هذه الثورة تتفاعل إلى أن أدركت غايتها في تحرير المرأة من شتى القيود التقليدية وخصوصاً الحجاب ((٢) المجلّد الثاني ص ١٧٠)

يطول الحديث عمن برزن من النساء في مجتمع الموحّدين الدروز، وجميعهن تميّزن بالمقدرة والحنكة والشجاعة وقوّة الشخصية والجرأة الأدبية واللباقة الإجتماعية، فأجمع معاصروهم والمؤرخون من لبنانيين وعرب وأجانب على أنهن أهل لأن يسجّل التاريخ أسماءهن في صفحاته الذهبية.

ومما يلفت الإنتباه أن جميعهن خرجن من بيوت الوجاهة ومن بيئات مميّزة اجتماعياً وسياسياً. فكان لهذه البيئات الأثر الفاعل في بروزهن وتبوئهن مراكز السلطة والقيادة في المجتمع. وقد اجتمعت فيهن المؤهلات الشخصية والعبقرية مدعومة بعوامل البيئة التي ساعدتهن على الإنطلاق في ميدان السياسة وفي العمل الإجتماعي. وفي تحمّل المهمات الصعبة والتغلّب على العقبات بشجاعة وثقة.

أما في التاريخ الحديث فاننا نرى تحوّلاً نوعياً لمقوّمات البروز لدى النساء. فانطلاقهن أصبح من نوع جديد يرتكز على مؤهلاتهن العلمية وعلى تخصصهن في شتى ميادين العلم والمعرفة والآداب والفنون والتقنيات الحديثة. وقد



□ نظيرة زين الدين الحلبي

انخرطت المرأة الدرزية في جميع هذه الميادين فتألقت وبرزت وعندنا منهن في جميع هذه الميادين أعداد غفيرة يصعب حصرها كما يستحيل ذكر أسمائهن.

أما في الميدان السياسي فقد أفل نجم نبوغهن ليأخذ منحى آخر من العبقرية، وأصبح من مقومات النبوغ المقدرة على متابعة التعليم العالي والتخصص المهني والتأليف والأبحاث.

وقد عم التعليم ليشمل جميع طبقات الشعب ولم يقتصر بعدها على بيوت الوجاهة السياسية والإجتماعية. كما أن الدعم المعنوي من قبل البيئة خاصة من قبل الرجال قد تضاءل في منح الفرص لبروز المرأة الدرزية في ميدان السياسة.

ففضّلوا أن تبقى الزعامة السياسية في يد الرجل وقد انحصرت المنافسة على الزعامة بين الرجال.



□ خميا عبد الله تلحوق بين زميلاتها في الصف المتخرّج من مدرسة التمريض في الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩١٩.

يمكننا أن نذكر باختصار بعض الرائدات اللواتي برزن في ميادين جديدة من ميادين الحياة لم تكن لتظهر في السابق.

ففي حقل التمريض مثلاً عرفت السيدة خميا عبد الله تلحوق وكانت رائدة في زمانها في هذا المجال. فقد تخرّجت من مدرسة التمريض في الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩١٩، ونورد صورة عن شهادتها وصورة لها مع زميلاتها عند التخرّج. ولا يخفى على أحد أن المجتمع اللبناني بصورة عامة والمجتمع الدرزي بصورة خاصة لم يكن ينظر إلى هذا العمل نظرة تقدير واحترام، ولكن خميا تلحوق بمسلكها الخلقي الأمثل ومقدرتها المهنية ووقارها فرضت تقدير الناس واحترامهم لها وكانت حقاً ملاك الرحمة وخير معين للمرأة في آلامها، خاصة في مجال التوليد والمرض. وقد عملت أيضاً في مهنة التمريض في فلسطين كما في لبنان، وحازت على تقدير ومحبة الناس من نساء ورجال.

وفي حقل التمريض في الوقت الحاضر هناك الكثيرات ممن برزن وشغلن مراكز مسؤولة في الإعداد الجامعي للممرضات. فقد احرزن شهادات جامعية عالية وتسلّمن مسؤوليات رفيعة، نذكر منهن السيدة وداد حمدان شيّا التي نذرت نفسها طيلة ما يقارب الأربعين سنة في كلية التمريض في الجامعة الأميركية كانت خلالها الأستاذة الكفوءة والموجّهة الحكيمة والإدارية القديرة والنشيطة فشغلت بالإضافة إلى التعليم منصب رئيسة كلية التمريض بالوكالة طيلة سنوات الحرب الأهلية في لبنان. كما انتخبت بالإجماع لتكون الرئيسة الفخرية لإتحاد جمعيات التمريض في لبنان ويشمل جميع مدارس التمريض في لبنان بما في ذلك الصليب الأحمر اللبناني. وقد منحت من قبل مجلس الوزراء وسام الإستحقاق اللبناني سنة ١٩٨٦ تقديراً لخدماتها في هذا الحقل، كما مثّلت لبنان في مؤتمرات دولية عدّة لإتحاد الممرضات العالمي.

وفي ميدان التأليف الرصين نذكر الدكتورة نجلا أبو عزّ الدين ولها مؤلفات عدّة في التاريخ العربي أهمها: ١) **«العالم العربي»** بالإنكليزية وتُرجم إلى العربية وإلى الأوردو، وقد قدّم له إستاذ الفلسفة في جامعة هارفرد في الولايات المتحدة الأميركية وهو من كبار رجال الفكر في أميركا، كما اختير «كتاب الشهر» من قبل «The History Book Club».

٢) **عبد الناصر** بالإنكليزية.

٣) **تاريخ الدروز** بالإنكليزية وترجم إلى العربية.

اما في حقل القضاء، وكلنا يعلم انه لم يُفتح هذا الباب للمرأة اللبنانية بصورة عامة إلّا حديثاً، فقد دخلته الآنسة نجيبة حمدان فكانت أول قاضية مسلمة تدخل هذا السلك في لبنان وكان ذلك سنة ١٩٥٦ وهي ما تزال تمارس مهنة القضاء في ديوان المحاسبة حتى الآن. وقد اثبتت جدارة عالية استحقت إعجاب زملائها وجميع من عرفها.

وفي ميدان الموسيقى لا يسعنا إلّا أن نذكر الرائدة ديانا سعيد تقي الدين التي أحرزت شهادة عالية في هذا المضمار، وكان لها وما تزال جولات موسيقية عديدة تعزف فيها على البيانو في عواصم أوروبا وفي الولايات المتحدة الأميركية. وقد حازت على أوسمه التقدير لنبوغها في هذا المجال.

أما اللواتي برزن في ميدان الأدب والشعر فيصعب ذكر أسمائهن في هذا المجال وهن كثيرات.

وهناك العديد من النساء الدرزيات اللواتي دخلن ميدان الطب والصيدلة والهندسة والمحاماة وعلم الكمبيوتر والصحافة والتجارة والتوثيق والفنون الجميلة على أنواعها والتعليم الجامعي فانخرطن في ميدان العمل على أعلى المستويات وهي في كل ذلك تحظى على تشجيع ذويها وثقتهم وإعجابهم.

وفي حقل العمل الإجتماعي برز عدد كبير من سيدات المجتمع الراقيات اللواتي عملن بإخلاص وتفان من أجل رفع شأن المرأة اللبنانية كذلك رفع الضيم عن مواطنيهم من جميع طبقات



□ القاضية نجيبة حمدان

الشعب من محرومين ومحتاجين ومرضى نذكر منهن السيدة نجلا زين الدين صعب من عين قني في الشوف وقد لعبت دوراً بارزاً على الصعيد الوطني والدولي. وقد كانت رئيسة الإتحاد السوري العربي وأول امرأة عربية خطبت في الأمم المتحدة عن القضية العربية.

وفي سنة ١٩٤٣ عندما أُعتُقل بأمر من المفوض السامي الفرنسي، رجال الحكم اللبناني في راشيا وكانت نجلا صعب يومئذ رئيسة الإتحاد النسائي اللبناني، سارت على رأس مسيرة نسائية عارمة تندّد بالتصرّف الأرعن الذي قام به المفوّض السامي وتطالب مع الوفود النسائية بخروج الافرنسيين من لبنان.

وقد شاركت نجلا صعب في تأسيس الصليب الأحمر اللبناني وانتخبت أمينة للسرّ فيه. وقد كانت رئيسة للمجلس النسائي اللبناني من سنة ١٩٦٦ حتى ١٩٧١ أي حتى سنة وفاتها.



□ نجلا زين الدين صعب

ومن النساء الدرزيات اللواتي أحرزن شهرة عالمية وشغلن منصباً رفيعاً في البيت الأبيض في الولايات المتحدة الأميركية السيدة سلوى شقير روزفلت من أرصـون المتن. وكـانت مـديـرة البروتوكول في البيت الأبيض في عهد الرئيس رونالد ريغن وقد حظيت باحترام وإعجاب ومحبّة الجميـع.

إن الحريّة التي تتمتع بها المرأة الدرزية اليوم والمستوى العلمي العالي الذي أحرزته في جميـع ميادين المعرفة، والمهن الحرّة والمراكز الإجتماعية والسياسية، ستكون حافزاً لتفوّق الكثيرات منهن في المستقبل ليؤلفن جيلاً من نوع حديث.

ويبقى على المرأة الدرزيّة أن تحافظ في مسلكها عـلى التوازن بـين التطوّر ومـتطلبات الحيـاة المعاصرة من جهة وبين تراثها الأخلاقي الذي نهلت من ينابيعه الصـافية والقيم الأخـلاقية العالية من جهة أخرى، فتكمل مسيرة التقدّم المرتكزة على العلم والمعرفة ونبل الأخلاق.

●

مراجع

(١) Alamuddin, najib. C.B.E. Turmoil The Druzes, Lebanon The Arab-Israeli Conflict. Quartet Books Ltd. 1993

(٢) الباشا، محمد خليل، معجم أعلام الدروز، مجلّدين الدار التقدمية ١٩٩٠.

(٣) طليـع، أمـين، المرأة الدرزيـة، واقعها، مشـاغلها، شهيرات من حرائر بني معروف. مخطوطة.

(٤) نجّار، عبد الله، مذهب الموحّدين الدروز.

(٥) نويهض، ناديا. نساء من بلادي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ١٩٨٦.



● لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل.

(محمد)

● سأل معاوية الحسن بن علي عن المروءة. فأجابه: حفظ الرجل دينه، وإحرازه نفسه من الدنس، وقيامه لضيفه، وأداء الحقوق، وإفشاء السلام.

● المثل العليا لن تستطيـع أن تلمسها بيديك، ولكنك كالمقاديم من البحارة، تتخذها مرشداً لك وتتبعها فتبلـغ غايتك.

(شورتز)

□ إمرأة درزية.



الصناعات الحرفية في الجبل

جمال تقي الدين

بلاد بدون تقاليد ولا حِرَف هي بلاد بدون تاريخ تعيش على الهامش. فالدول تبنى على ما تركته الأجيال الماضية فيها. ومن أعمالها تاخذ تاريخها.

كانت الحِرَف وإبداعها، ولا تزال، قسمٌ مهمٌ من الحضارة في جميع انحاء العالم. ونحن في لبنان كان لنا قسمٌ مهمٌ من هذه الثروة في تاريخنا.

إنني أتوخى بما سأسرده من المعلومات القليلة عن الحِرَف في الجبل، وأعني الشوف من القديم وحتى يومنا هذا، سيساعد على التعرف إلى المقدرة والذكاء والفن الذي كان لأجدادنا. علّنا نشعر بالفخر بتاريخِنا.

انا لست كاتبة ولا مؤرخة، إنما محبتي للحِرَف والأشغال اليدوية وتقديري لقيمتها المعنوية والمادية دفعتني إلى الكتابة عنها لانني وجدت هذا الموضوع مهملاً جداً من حكوماتنا ومن إعلامنا ومن ثقافتنا.

الحِرَف بالجبل لم تكن وافرة في جميع الأطوار لكثرة المشاكل السياسية فيها واقتصرت على الحاجات المعيشية والبيتية.

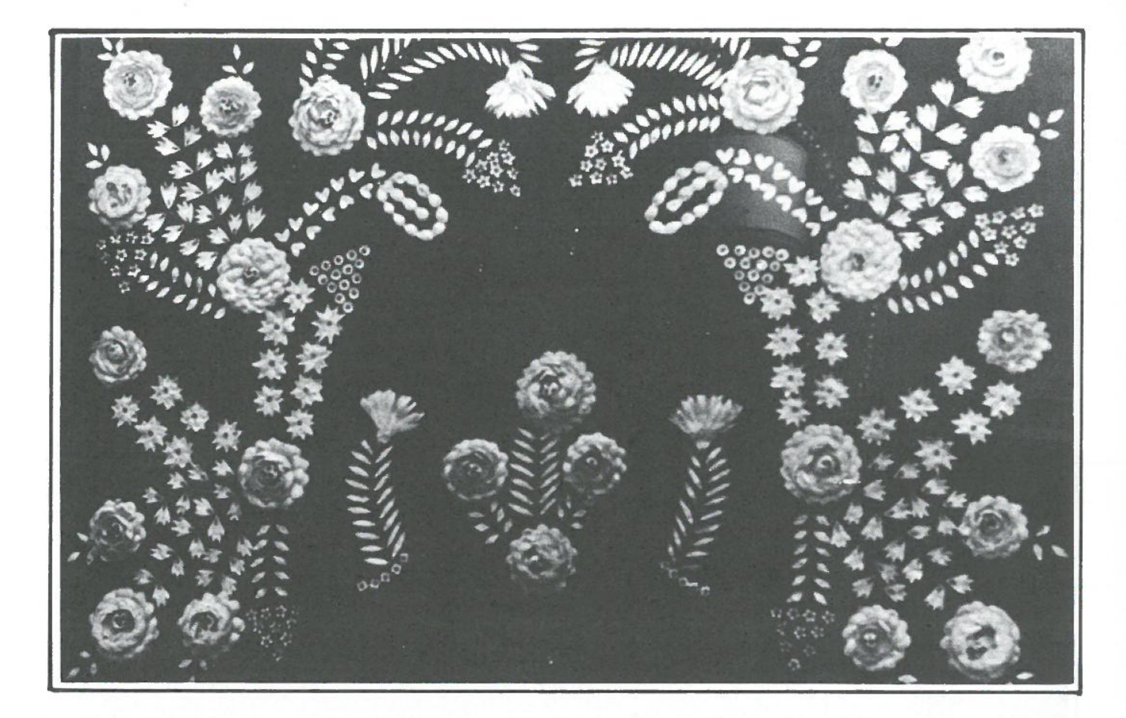
سأبتدىء أولاً بالحرف التي كانت قديماً. منها ما توقف ومنها لا يزال موجوداً حتى يومنا هذا.

أولاً وكان الأهم **هو الحرير**. تربية دودة الحرير وحلّه وحياكته.

كان الحرير قديماً ومن أيام الفينيقيين يستورد من الصين. يحاك ويصبغ بمهارة.

وفي سنة ٥٥٣ ميلادية وفي عهد البيزنطيين أقدم إثنان من الرهبان وبذكاء خارق على تهريب بزر دودة الحرير في جوف عصيبيهما. وتسلم لبنان بعدها وهو المشهور بحياكة الحرير وصياغته قليلاً من هذا البزر من إيطاليا.

وقدم من إيطاليا خبير بهذه المهنة وكان إسم عائلته AZZI واكتسبت دودة الحرير إسم دودة القز لأن اللفظ اللغوي كان عندنا للسيد AZZ المعلم «قزي».



□ الحرير ــ الشرانق

إن تربة لبنان ومناخه ساعدا على انتشار تربية الحرير وجودته وكان للجبل قسم وافر من ذلك.

كانت تربية دودة الحرير وقطاف شرانقها وحلّها تأخذ مجهوداً كبيراً ووقتاً كبيراً يشغل بالأخص نساء الجبل. وكما يقال إن عدو المرأة هي البطالة.

تسلق شرانق الحرير بـ «خلاقين» كبيرة بالمعامل. وكان في معاصر بيت الدين معملاً كبيراً يسمونه كرخانة الحرير ويحل خيط الشرانق وتصنع منها شلل.

ثم تنسج هذه الشلل على أنوال خشبية. وفي عام ١٢٨٩ عندما هدم قلاوون مدينة طرابلس كان فيها أربعة آلاف نول حياكة وفي دير القمر ٤٠٠ نول.

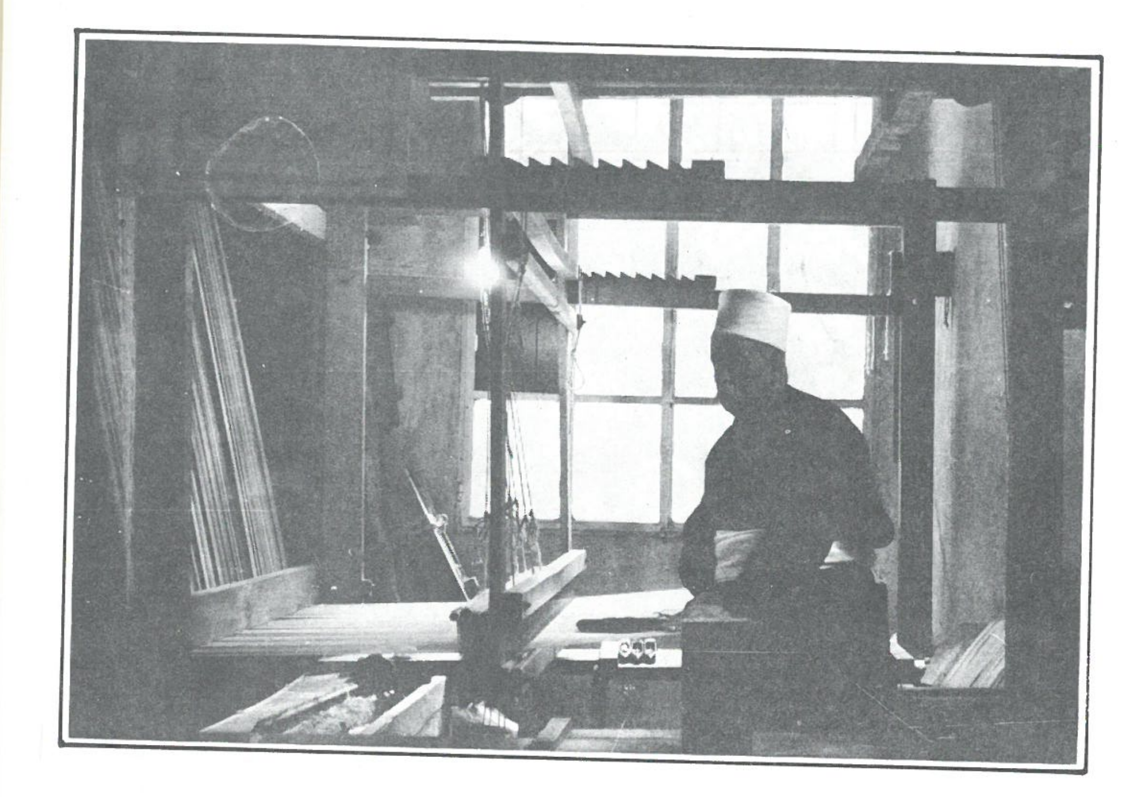
كان حرير الشوف أخشن قليلاً من حرير طرابلس، لهذا كانوا يستعملونه في النسيج المخملي.

ووجه الأمير فخر الدين اهتماماً كبيراً للحرير فشجع صناعته وفاخر بها. وكانت أهم هداياه للأمراء والملوك من شلل الحرير أو نسيجه. وكان دخل الأمير، سنة ١٦١٤، يقدر بـ ٨٠ ألف غرش وهذا مبلغ ضخم في تلك الأيام.

ومن شرانق الحرير صنعت سيداتنا قطعاً جميلة من الأزهار والأوراق بعد قصّها وترتيبها وتركيزها على قطع من الحرير مع اللؤلؤ والخرز والقصب ثم جعلتها براويز لصور أحبائها.

حياكة السجاد

وأراد فرنقو باشا، المتصرف التركي الذي حكم لبنان من عام ١٨٦٨ إلى عام ١٨٧٢، أن يشجع الصناعة المحلية فأنشأ معملاً للسجاد في



□ حياكة النسيج

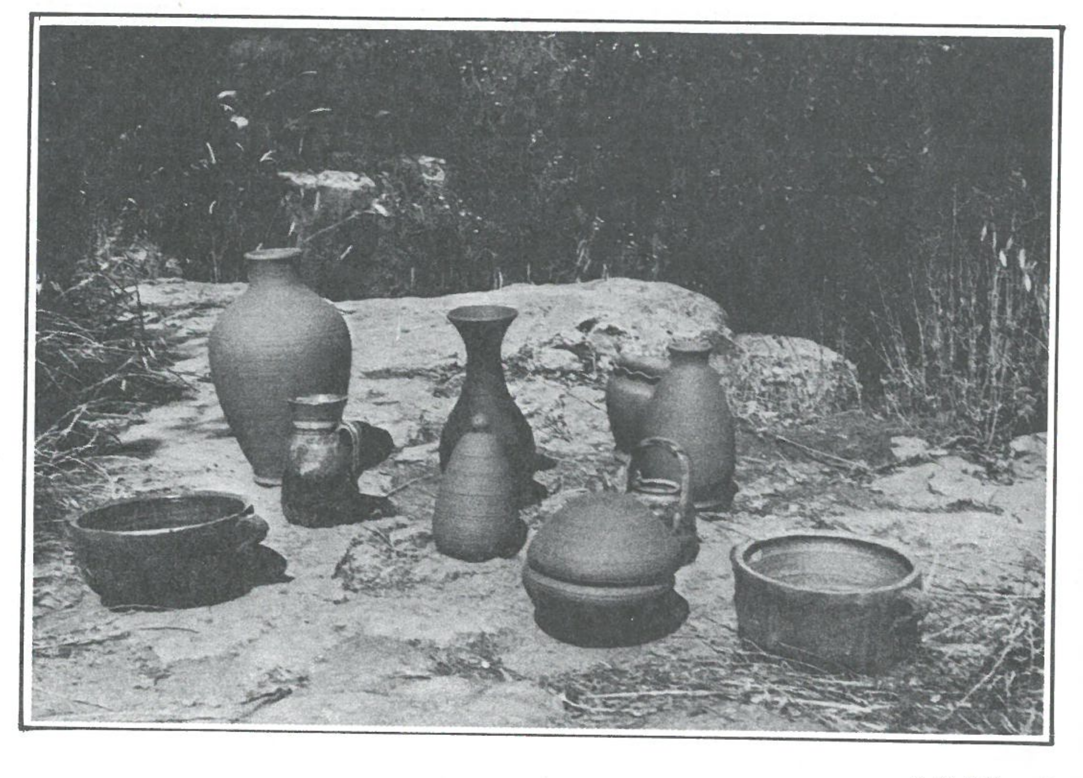
بندر دير القمر واستقدم الشيـخ قعدان الدحداح الذي اشتهر بهذه الصناعة. وقد أخذ عنه هذه الصناعة كثيرون من أبناء الشوف منهم حنا البعقليني من دير القمر ومحمود أبو كامل من بعقلين. ولا يزال في بعض بيوت بعقلين قطع سجاد من شغل البلدة وتعرف بالألوان التالية: الأحمر والأسود والأبيض، أو الكحلي والأبيض والأحمر. ثم توقفت هذه الحرفة.

الفخـــار

رافقت صناعة الفخار تاريخنا قديماً جداً واشتهرنا به. إن تربة لبنان ممتازة لهذه الحرفة التي نهملها اليوم بدلاً من أن نعطيها اهتماماً كبيراً وبذلك نستغني عن استيراد أدوات منزلية وحياتية. منهـا مثلاً فناجين وأباريق الشاي وأدوات كالـ Pyrex التي نتمكن من صنعها وهي أجمل من ما نستورد. منذ أربعين سنة قدم إلى عين زحلتا شخص ألماني قام بصنـع فناجين وأباريق الشاي وغيرها من الأدوات وكانت جميلة جداً. فلماذا لم نتعلم منه قبل أن رجع إلى بلاده. لماذا لا تطور الحكومة هذه الحرفة التي لا تزال بدائية؟

يرجـع تاريـخ هذه الحرفة إلى العهد التركي حين قدم في ذلك الوقت شخص إسمه المعلم خشادور الذي بنى أول فاخورة في مكان إسمه البديدر. أخذت عنه ديركوشة هذه الحرفة التي قام بها في ذلك الوقت الشيـخ أبو أنيس ضو سنة ١٨٩٣ ثم تسلم بعده أولاده ومن أشهرهم كان نايف هاني ضو ثم خالد نايف ضو.

والمصانـع اليوم قليلة لعدم تشجيـع حكومتنا، كما سبق وقلت، ولهذا اقتصرت على معمل كميل



□ صناعة الفخار

محمد ضو (جسر القاضي) ومعمل توفيق فريد جعفر (محل المراح)، معمل كمال الدبس (جسر القاضي) وشفيق محمد ضـو (محل المحـوطة) ومعمل أكرم وبدري (جسر القاضي).

أواني الفخار كثيرة منها القدور والأباريق والخـوابي والصحـون والخـوابي الصغيـرة (الزلـع) والمعـاجن... إلـخ. لقـد تحسنت عن الماضي القريب إنما هذا لا يعني أن التقصير بحق هذه الحرفة ليس كبيراً ولا مبرّر له.

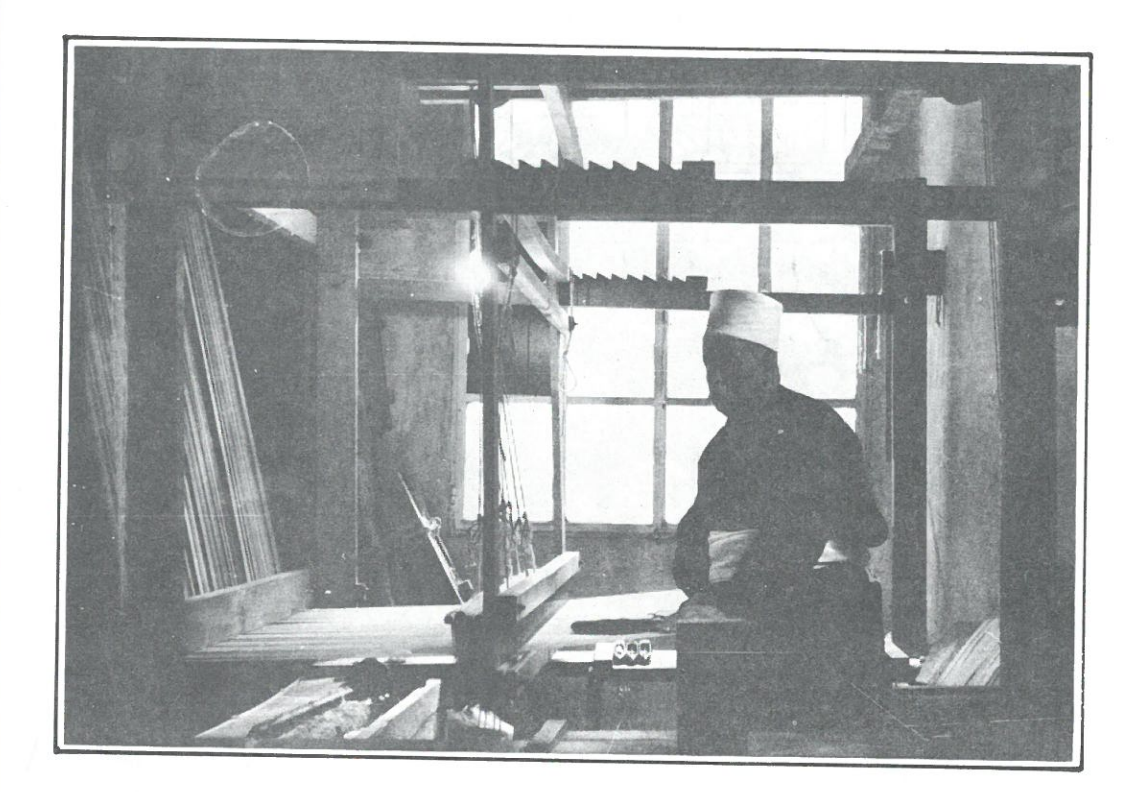
الصياغة في الشوف
صياغة الفضة

أحب هذه الصياغة وأتقنها عن كتب وموهبة الشيـخ حسن بشير العقيلي سنة ١٨٩٩: ولد في السمقانية من عائلة معروفة دينياً وأدبياً. تميز من طفولته بدقة الملاحظة فأخذ عن أبيه هذه المهنة وزادها إتقاناً، كما سبق وقلت، مما أخذه عن الكتب.

تميـزت صناعتـه بالإتقـان والذوق الرفيـع ولا يـزال بعض من أهالي المنـطقة يحتفـظون ببعض قطـع من شغله المتقن.

وأعتقـد أنه لا يـزال في بعض الأديرة من صياغته التي تسمى «كسـرشنت». ومن بينها صليب ذهبـي كبير. وقد قام بصنعه بناءً على طلب من المطران أوغسطين البستاني الذي بدوره أهداه إلى البطريرك الماروني في بكركي في ذلك الوقت.

وأشهد أنا على مهارته أنه في أحد الأيام زرت ووالدي المطران البستاني في بيت الدين وقـد أخبرنا أنه قد أوصى الشيـخ حسن على صليب وأرانا إياه مـع صليب من شغل فرنسا وأشاد بدقة الصليب المصنوع بيد الشيـخ حسن من السمامتية.



□ حياكة النسيج

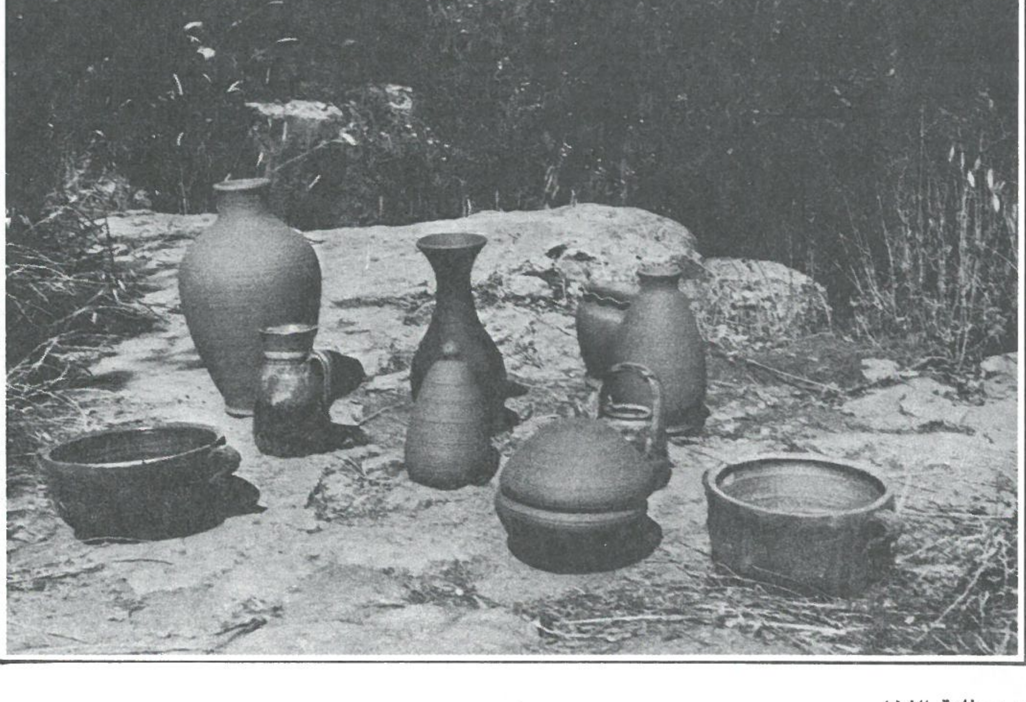
بندر دير القمر واستقدم الشيخ قعدان الدحداح الذي اشتهر بهذه الصناعة. وقد أخذ عنه هذه الصناعة كثيرون من أبناء الشوف منهم حنا البعقليني من دير القمر ومحمود أبو كامل من بعقلين. ولا يزال في بعض بيوت بعقلين قطع سجاد من شغل البلدة وتعرف بالألوان التالية: الأحمر والأسود والأبيض، أو الكحلي والأبيض والأحمر. ثم توقفت هذه الحرفة.

الفخـــار

رافقت صناعة الفخار تاريخنا قديماً جداً واشتهرنا به. إن تربة لبنان ممتازة لهذه الحرفة التي نهملها اليوم بدلاً من أن نعطيها اهتماماً كبيراً وبذلك نستغني عن استيراد أدوات منزلية وحياتية. منها مثلاً فناجين وأباريق الشاي وأدوات كـالـ Pyrex التي نتمكن من صنعها وهي أجمل من ما نستورد. منذ أربعين سنة قدم إلى عين زحلتا شخص ألماني قام بصنع فناجين وأباريق الشاي وغيرها من الأدوات وكانت جميلة جداً. فلماذا لم نتعلم منه قبل أن رجع إلى بلاده. لماذا لا تطور الحكومة هذه الحرفة التي لا تزال بدائية؟

يرجع تاريخ هذه الحرفة إلى العهد التركي حين قدم في ذلك الوقت شخص إسمه المعلم خشادور الذي بنى أول فاخورة في مكان إسمه البديدر. أخذت عنه ديركوشة هذه الحرفة التي قام بها في ذلك الوقت الشيخ أبو أنيس ضو سنة ١٨٩٣ ثم تسلم بعده أولاده ومن أشهرهم كان نايف هاني ضو ثم خالد نايف ضو.

والمصانع اليوم قليلة لعدم تشجيع حكومتنا، كما سبق وقلت، ولهذا اقتصرت على معمل كميل



□ صناعة الفخار

محمد ضو (جسر القاضي) ومعمل توفيق فريد جعفر (محل المراح)، معمل كمال الدبس (جسر القاضي) وشفيق محمد ضو (محل المحوطة) ومعمل أكرم وبدري (جسر القاضي).

أواني الفخار كثيرة منها القدور والأباريق والخوابي والصحون والخوابي الصغيرة (الزلع) والمعاجن... إلخ. لقد تحسنت عن الماضي القريب إنما هذا لا يعني أن التقصير بحق هذه الحرفة ليس كبيراً ولا مبرّر له.

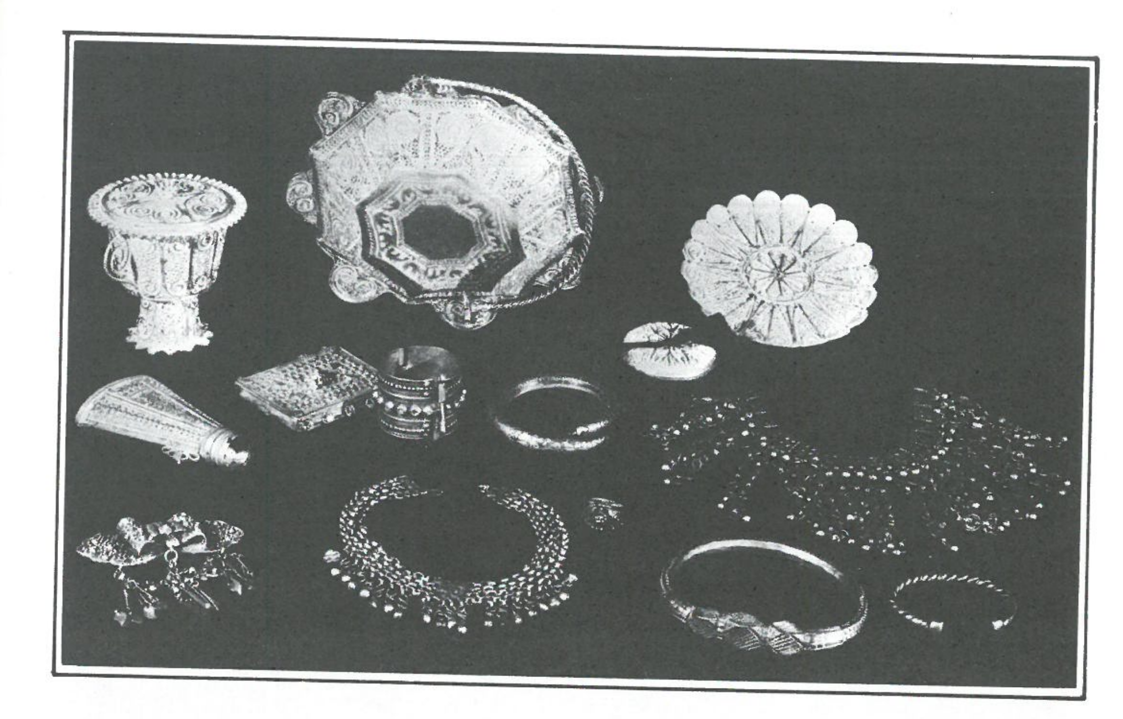
الصياغة في الشوف
صياغة الفضة

أحب هذه الصياغة وأتقنها عن كثب وموهبة الشيخ حسن بشير العقيلي سنة ١٨٩٩: ولد في السمقانية من عائلة معروفة ديناً وأدبياً. تميز من طفولته بدقة الملاحظة فأخذ عن أبيه هذه المهنة وزادها إتقاناً، كما سبق وقلت، مما أخذه عن الكتب.

تميزت صناعته بالإتقان والذوق الرفيع ولا يزال بعض من أهالي المنطقة يحتفظون ببعض قطع من شغله المتقن.

وأعتقد أنه لا يزال في بعض الأديرة من صياغته التي تسمى «كسرشنت». ومن بينها صليب ذهبي كبير. وقد قام بصنعه بناءً على طلب من المطران أوغسطين البستاني الذي بدوره أهداه إلى البطريرك الماروني في بكركي في ذلك الوقت.

وأشهد أنا على مهارته أنه في أحد الأيام زرت ووالدي المطران البستاني في بيت الدين وقد أخبرنا أنه قد أوصى الشيخ حسن على صليب وأرانا إياه مع صليب من شغل فرنسا وأشاد بدقة الصليب المصنوع بيد الشيخ حسن من السماماتية.



□ الصياغة ــ شغل الفضة

هذه الحرفة قد انقرضت بالشوف وللأسف وبقيت في لبنان في بلدة راشيا وعين عنوب.

حياكة العبايات

وهي صناعة قديمة جداً في تاريخنا وكان في كل بلدة تقريباً عدة أنوال لهذه الحرفة. وهي غالباً ما كانت لباس الكبار بالسن ومشايخ الدين عند الدروز.

وأغلب من مارسها هم رجال الدين وكانت صناعة وحياكة جميلة ومتقنة.

واليوم أشهر من يقوم بهذه الحياكة ثلاثة هم: الشيخ ريدان أحمد باز الذي ابتدأ ممارسة هذه المهنة سنة ١٩١٦ وكان له من العمر عشر سنوات. تعلمها في بلدة جرمانا ــ سوريا ثم انتقل إلى بلدته بعذران الشوف ومارس هذه المهنة لمدة ٨٨ سنة واليوم أخذها عنه حفيده نزيه باز. يقوم السيد نزيه بهذه المهنة بمهارة تحفظ لنا تراثنا.

والشيخ أبو حسن محمد فياض أخذ هذه المهنة عن الشيخ سعيد فياض الذي تعلم المهنة عن مشايخ آل الدمشقي في بعقلين، واشتهر الشيخ حسن وقد شارك بمعارض عدة بعباياته المتقنة الجميلة.

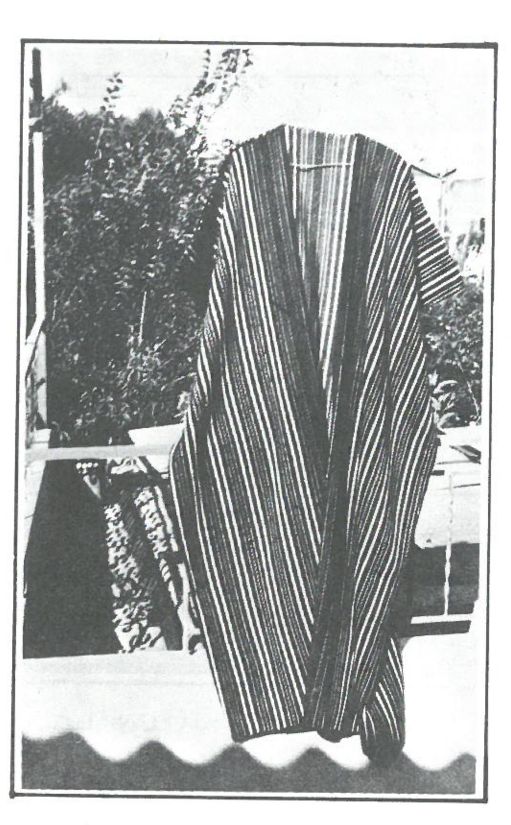
هاجر الشيخ محمد علي ناصر الدين من كفر قطره في هذه الحرب إلى جرمانا ــ سوريا. مهارته في حياكة الحرير البلدي أشهد أنا لها. وعباياته من الحرير وتصميم إدارة مشغل الشوف متقنة وجميلة ومرغوبة جداً. انقطع عن الحياكة بسبب ضعف عينيه وهكذا خسرنا فناناً كبيراً لهذه المهنة.

هنالك في لبنان لا يزال من يزاول هذه المهنة الجميلة إنما أنا ذكرت من يمارسها بالجبل.

اما في يومنا هذا فقد ابتدأت الحِرَف تظهر من جديد بجمالها وإتقانها. وأهمها بنظري هي الأشغال اليدوية.

الشغل اليدوي هو فن جميل. هو حب الإنسان للأفضل والأجمل، فنراه يزيد به جمال محيطه ومظهره.





□ حياكة العبايات

الإنسان تجمل بالثياب وتحلّى بها ليرضي ذوقه النابع من نفسه. والثوب للإنسان كان من أجل تغطية جسده ولوقايته من البرد. فمن العصر القديم تمكن من جعل الجلود ثياباً له وتطورت مع الزمن إلى أقمشة بدائية من الخيوط التي غزلها باليد ثم اخترع النول حتى أصبح اليوم يرتدي ما يحلو له.

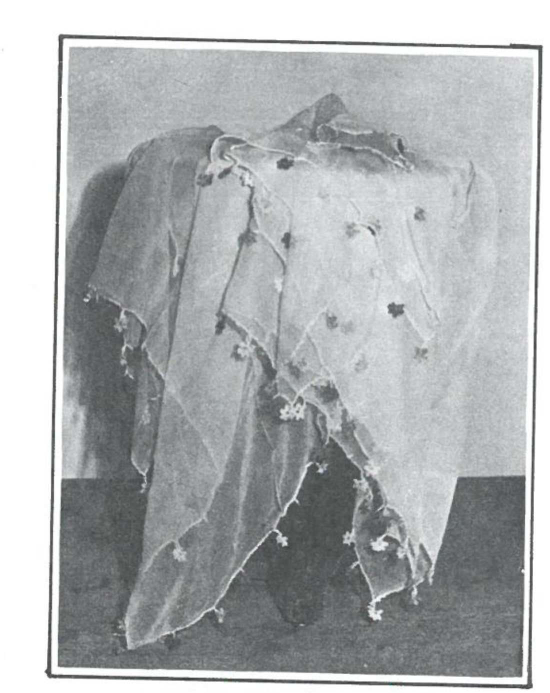
وكما ذكرت، إن الأشغال اليدوية هي فن اختاره الإنسان لزيادة مظهره ومحيطه إبداعاً وجمالاً. تجمّل بالثياب وتحلّى بها ليرضي نفسيته. ويجعل من بيته بيتاً جميلاً يرتاح إليه. فتعدّدت الأشغال اليدوية لذلك علينا نحن حمايتها وتشجيعها.

كانت صاحبة فكرة إرجاع الأشغال اليدوية إلى الظهور السيدة الأولى قرينة الرئيس الراحل إميل إده، ففتحت مشغل الأرتيزانا اللبنانية في بيروت في عهد الاستقلال. وقد اشتغلت سيداتنا أشغالاً جميلة لهذا المشغل وشاركت بهذه النهضة.

لدى نساء الجبل مهارة فائقة بالأشغال اليدوية، وقد شاركت السيدة مي جنبلاط بإحياء تراثه القديم بالأشغال التي كان بيت الجبل يتزين بها. ومعرضها الذي أقامته في القاعة الزجاجية في وزارة السياحة كان أجمل شاهد على ذلك.

واليوم، يسعى مشغل الشوف بكل جهد ليرجع بعضاً من أشغال الجبل الجميلة ويطورها حسب ذوق الأجيال الحاضرة، حرصاً منه على المحافظة على التراث اللبناني أولاً، وثانياً مساعدة أهل الشوف ومنع النزوح إلى المدينة. والاعتماد على النفس وعدم الاتكالية.

الأشغال عندنا نوعان: المستوردة من الخارج والأصلية. سأبتدىء بالمستوردة:



□ مناديل الاويا




□ التطريز القديم

الفيله: في القرن التاسع عشر أخذنا هذا الفن من الغرب بعد أن تطور عندهم من صناعة أشباك الصيد إلى قطع بيتية جميلة من شراشف طاولات إلى برادايات.

المكوك: أصله فرنسي واسمه frivolité. إستعملوه للبياض والمناديل.

الدانتل برتون: حرفة اشتهرت بها سيدات وآنسات دير القمر أتقنوها وكانت من الأشغال التي نفاخر فيها بالجبل ولا نزال. تاريخها يرجع إلى سنة ١٩٢٠ حين سافر الكثير من عائلات دير القمر إلى مصر ومنهم عائلة سعد التي تعلمت هذا الفن هناك واشتهرت به ثم دعت أختها من الدير وشاركتها هذا الفن. ثم عادت لتعيش في دير القمر وجمعت حولها من سيدات البلدة وعلمتهن هذا الفن. وصل الخبر عن هذا الشغل الجميل إلى السيدة الأولى قرينة الرئيس الراحل إميل إده فساعدتهن بعرض هذه الأشغال في قاعة الأرتيزانا اللبنانية. ولا تزال سيدات وآنسات الدير تشتغلن هذا الشغل الدقيق الرائع: من أغطية صواني إلى قطع للطاولات وأغطية طاولات سفرة حسب القياسات المطلوبة.

شغل المكوك: كان لهذا الشغل الجميل الدقيق أكبر منزلة في تزيين ثياب العروس بالجبل. شغله صعب ودقيق وله مكوك صغير مصنوع من العظم، يلف عليه الخيط ويحاك بدقة على الأصابع اليدوية. ويصنع بذلك شغلاً ناعماً جميلًا جداً أصبح بالجبل نادراً وقليلاً.

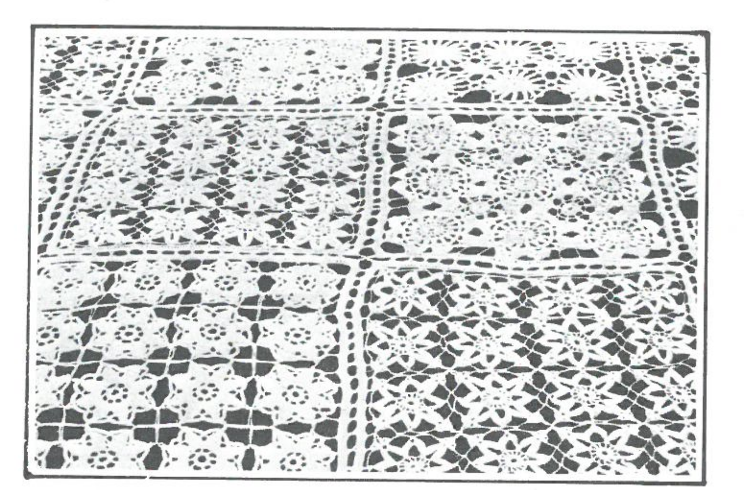
شغل القصب والطرق: هذا شغل قد انقرض بالجبل إنما أخيراً تجدد شغل هذه الحرفة بالبقاع. قطعه جميلة وثمينة. أصله تركي وشغله على قماش الحرير أو المخمل.

حياكة القش: كانت هذه الحرفة بالجبل مشهورة في بلدة عنبال وعثرين. يصنع منها أطباق وسلل و «قشاوي»، أي قطع حجمها وسط، مُدوّرة وعميقة. تستعمل في البيوت كالعلب اليوم.

وعدم زراعة القمح بالجبل كان السبب لانقراض هذا الفن لأنه كان يعتمد على قش القمح.

شغل على السنارتين: اخترع هذه الحرفة العرب الذين كانوا يجدلون الخيط ويحيكونه على قضيبين من الشجر وهم على ظهر الحمير عندما

□ شغل السنارة



كانوا يرافقون الخيل والجمال في سفراتهم إلى الصين ومصر.

شغل الكنفا: واسمه قديماً عندنا شغل الجوز، أي جوز من الخيطان يضما معاً. أدخلته الإرساليات إلى لبنان في القرن الثامن عشر. وأتقنته سيداتنا بالماضي واشتغلته على المناديل التي تغطي الرأس بها وللمناشف والبراويز.

ثم في العهد القريب انتقل إلى لبنان قطع جميلة وصور على قماش الكنفا ويشتغل عليها قطبة Petit Point و Gros Point. فكانت سيدات وآنسات الجبل من اشتهرن بإتقانها.

شغل السنارة «كروشيه»: قدمت إلينا إرساليات من إرلندا إلى الجبل وعلّمت سيداتنا هذه الحرفة وسميت قديماً شغل إرلندي.

شغل الإبرة: أخذناه عن اليونان واسمه Bibilia وعندنا قديماً سمي أويا. وأجمل قطع، كبيرة أو صغيرة، من هذه الحرفة تدهش الناظر إليها عندما يعلم أنها صنعت من إبرة وخيط فقط.

التطريز: هذا فن يضاهي فن التصوير. وكان من مدة ألف سنة. كان الرجال يتباهون باللباس المطرز بالقصب والحرير، والأمراء والملوك كانوا يهتمون كثيراً بزخرفة ملابسهم اهتماماً كبيراً. ولهذا كان للتطريز بالجبل أهمية في لباس السيدات. وكان، في عهد العثمانيين، للتطريز على قماش الحرير المنسوج في بلدنا شأن كبير وكانت سيدات الجبل من أشهر من اشتغل بالتطريز.

وهذه الحرف الجميلة(شغل السنارة وشغل الإبرة والتطريز) هي التي دفعتني إلى إنشاء مشغل الشوف لإعادة انتشار هذا الفن والمحافظة عليه.

إن مشغل الشوف ينتج عدداً كبيراً من الأشغال اليدوية وهدفه، كما ذكرت، المحافظة على تاريخ الحرف وزيادة الدخل القومي وحفظ الكرامة بعدم الاتكال على الغير وعدم النزوح إلى المدينة.

فعندنا بالجبل سيدات ماهرات جداً بهذه الأشغال وأتمنى على السلطات في هذه المنطقة أن يكون اهتمامها بالمحافظة على هذه الحرف جدّيّاً ومفيداً حتى لا تنسى الأجيال القادمة تاريخها وفخرها.

إن جمال هذه الأشغال ورونقها كان هو السبب الذي دفعني لإنشاء مشغل الشوف للأشغال اليدوية وهدفه المحافظة على هذا التراث الجميل الذي يدل على المهارة والذوق، والهدف الثاني هو منع النزوح إلى المدينة حتى تبقى قرانا جميلة بسكانها. والهدف الأهم هو أن نتّكل على أنفسنا وأن لا نهدر وقتنا وأن نشعر بالسعادة لنتيجة عملنا، إن كان لجماله أو لفائدته المادية.

عسى أن يوفقنا الله لما فيه خير الجميع ويحفظ سيداتنا وآنساتنا الماهرات بالأشغال اليدوية. وعسى أن تنعش ثانية الحرف اللبنانية والشرقية حتى نفاخر بها. ●

□ قصر بيت الدين ــ تصوير ناجي.

تاريخ الجمعيات الأهلية في جبل لبنان

أنيسة نجار
رئيسة اللجنة اللبنانية للسلام والحرية

يبدو أن السيدات اللبنانيات، بدافع ديني أو وطني أو ترفيهي رغبن في تأسيس الجمعيات الأهلية أكثر من الرجال في القرن التاسع عشر. كان همُّ النساء عمل الخير العام ــ حسب الحاجة الملحّة: إيواء الأيتام، محو الأمية، رعاية الأطفال، شفاء المرضى الفقراء، الخ..

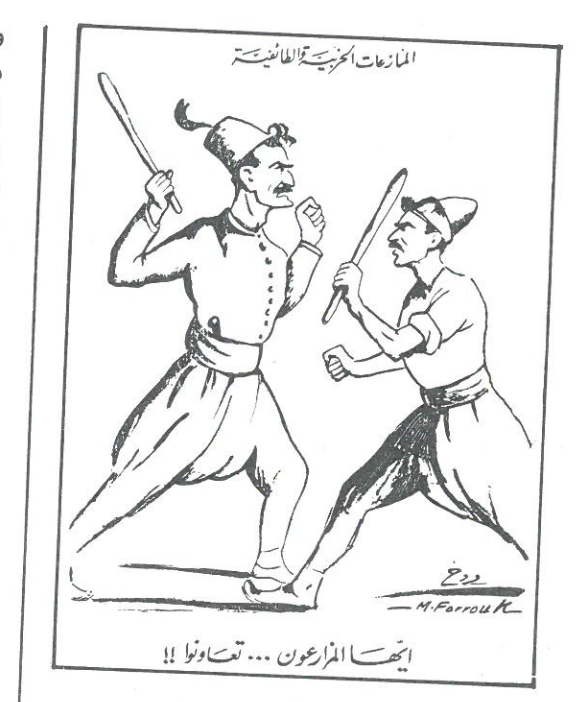
جمعيتان كبيرتان للرجال ظهرتا في أواخر القرن التاسع عشر مع جمعيات أخرى صغيرة دينية، الأولى جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية والثانية الجمعية المسيحية للشبان.

كثرت الجمعيات الأهلية في المدن وقلت في الجبال بنسبة ١٤٢ في بيروت إلى ٩٢ في جبل لبنان[١] ربما لكثرة السكان في المدن ووجود «النقد» مكان البضاعة.

أدّى العمل الاجتماعي إلى تحسس فريق من الناس بحاجات محيطهم وتجمعهم عمليا وتطوعيا لسد هذه الحاجات. أتت هذه الفكرة من الشعور الديني الذي ينصح بالحسنة إلى الفقراء والأيتام: «أما اليتيم فلا تقهر». انبرت الجمعيات إلى تقديم العطاء المادي أو الرعاية الصحية أو التربوية إلى الفقراء ــ مما يجعل المعطى إليه أسير المحسن إليه.

تغيرت فكرة الحسنة اليوم فمنهم من يقدم تبرعه رافضا ذكر اسمه ومنهم من يأخذ على عاتقه محتاجا يؤمن له جميع متطلباته وهو في بيته أو في مؤسسة ما ــ حنان مثلاً ــ يتعلّم ويلبس ويأكل ويتخصّص حتى يخرج إلى الحياة ويبدأ العمل. مؤسسة حنان للقرى العربية ومؤسسة إسعادة الطفولة سنة ١٩٨٠ في سوق الغرب.

ها هي الحسنة ترتدي ثوبها الجديد. نشاط مدروس بناء. فأنت كنت في الماضي تعطي الألف ليرة لعائلة تستفيد منها يوم العيد بمشترى مشتهاها من الحلويات والألعاب ولكنك اليوم تعطي هذا المبلغ لمؤسسة تتعاطى مع عدد من المحتاجين فتبني بعطائك وتبرع غيرك مدرسة أو تؤثث مستوصفا وتشتري أدوية لاعداد وفيرة من المرضى. ولا يقضي جميلك على عزة نفوسهم.



في سنة ١٩٥٤ أجرت جمعية إنعاش القرية استقصاء حول رغبة المرأة فيما فوق محو الأمية فكان الجواب «بكلا» ولكنها في استقصاء سنة ١٩٧٠ و ١٩٩١ كان الجواب «بنعم» وبنسبة مئة بالمئة. ورافق هذا التطور رغبة المرأة القروية بالعمل خارج البيت، لسد ثغرة في ميزانية عائلتها أو لتثبت أهليتها تجاه الرجل وكذلك لإشباع رغباتها المتكاثرة بعد اطلاعها على المدنية الحديثة.

خف العمل التطوعي منذ الستينات وقل عدد الجمعيات وتوقف عدد لا يستهان به منها. انطلقت الفتيات في المناصف إلى العمل في الفبارك والشركات في بعقلين وبقعاتا والعبادية باشرت النساء بفتح محلات تجارية.

قلت إن العمل الاجتماعي في جبل لبنان كان أقل منه في بيروت والمدن. وكانت معظم الجمعيات فروعاً لمؤسسات دينية. في مطلع القرن التاسع عشر سنة ١٩١٠ تأسست جمعية المعارف الدرزية برئاسة المرحوم محمد أبو عز الدين وأمانة المرحوم المؤرخ سليمان بك أبو عز الدين وعضوية أمين بك خضر ويوسف بك النجار والدكتور مصطفى أبو عز الدين وغيرهم. خدمت هذه الجمعية عددا كبيرا من الطلاب المحتاجين إلى المعونة المادية وكانت تطلب ممن تساعد أن يساعد طالبا آخرا محتاجا مثله عندما يتخرج ويعمل.

واليوم هناك جمعية «مؤسسة عبد الله ونبيهة النجار» تكمل المشوار لمتفوقي الأولاد الدروز في التعليم الثانوي. تأسست للتعليم العالي ١٩٧٩ برئاسة المرحوم فؤاد نجار وعضوية عشرة من اقرباء الفقيدين. وتمكنت حتى تاريخه من تخريج مئتي طالب جامعي. لا شك أن هذا العدد إذا ما رد الخير بمثله سيجعله تصاعدا هندسيا عظيما.

في عاليه اسست المرحومة عقيلة الياس شبل الخوري جمعية «اليد البيضاء» وذلك لملء وقت فراغ سيدات عاليه ولبيع الأشغال اليدوية لمساعدة فقراء الطائفة. بعدها استلمت المرحومة اديبه معاصري الحاج الرئاسة ونشطت في تشغيل العضوات الأشغال اليدوية وإقامة المعارض لبيعها ومساعدة المحتاجين بثمنها. انتهت الجمعية بموت رئيستها سنة ١٩٨٠.

جمعية الرسالة الإجتماعية: ترأسها اليوم السيدة وحيدة شرف الدين كان من عضواتها الفاعلات الخورية الس حداد والمرحومة سلوى الريس. هدفها جمع شمل المرأة في عاليه على اختلاف مذاهبها من أجل مساعدة المحتاجين وتحسين شأن البلدة. أما العمل البارز الذي قدمته هذه الجمعية لمدينة عاليه فهو بناء مركز اجتماعي كبير يستعمل للأفراح والأحزان والاجتماع سد ثغرة كبيرة في بلدة عاليه. ولم تزل السيدة شرف الدين ورفيقاتها يسعين لتوسيع وتعميم فائدة رسالتها الاجتماعية.

اسست في بعقلين السيدة نبيهة علم الدين المصفي جمعية «بعقلين النسائية الخيرية» سنة ١٩٦٢. مئة وثلاثون عضوا من النساء التففن حول رئيستهن لمساعدة الطلاب المحتاجين في بلدتهم. هناك حوالي ٦٠ عائلة تستفيد من هذه الجمعية. فهي تجمع كل سنة حوالي ثلاثة إلى أربعة ملايين ليرة لبنانية وتسلمها إلى المدرسة الرسمية لتوزعها بدورها على مستحقي المساعدة. نشطت الجمعية أثناء الحرب في الاسعاف

الطبي واليوم تقوم بتوعية المرأة دينيا وصحيا وتقدم سيارتها لدفن الموتى، وتؤمن العمل اليدوي لعضواتها عن طريق مشغل بعقلين.

كان في بعقلين جمعية خاصة بالرجال اسسها المرحوم خليل علم الدين واسماها «الزهرة» انتهت منذ ٣٠ سنة ولكنها منذ ثلاث سنوات استعادت نشاطها وعندها اليوم مستوصف على أبواب العمل.

ومن الجمعيات اللاطائفية واللاسياسية التي تركت بصماتها على الاقتصاد اللبناني الجمعية التعاونية الزراعية في العبادية. تأسست سنة ١٩٣٧ على يد المهندسين الزراعيين حليم نجار والمرحوم فواد نجار وتمكنت من هدم الانفرادية وفوضى الاستهلاك والسياسة الضيقة ومن خلق مثيلاتها في كل لبنان.

أن أهم ما يشكو منه المجتمع القروي من الجهة الاقتصادية هو قلة الانتاج ورداءة المحصول، سوء التصريف، النقص في رأس المال، الوقوع تحت اعباء الديون واستغلال المزارعين من قبل مستثمريهم الكثيرين(٢).

لذلك باشرت التعاونية برفع مستوى المنضمين اليها اقتصادياً واجتماعياً تدربهم على الديمقراطية والإعتماد على النفس والطموح نحو الأحسن وخدمة المجموع عن طريق: «الفرد للمجموع والمجموع للفرد»...

تولت التعاونية أمر تصريف محصول الفلاح بتوضيب جديد وأمنت له المال عن طريق التسليف واشتراكات الأعضاء فاصبحت المصلحة الاقتصادية رابطة منفعة ومحبة والفه. كما أنها أمنت له مؤونته عن طريق الإستيراد بالجملة وكذلك تطبيبه فنسي طائفيته وعنصريته واشترك في منفعة المجموع.

نجحت تعاونية العباديه وأمنت لها مركزا مرموقا في عالم الانتاج الزراعي كما أمنت للمرأة القروية بيع أشغالها اليدوية. لا شك أن مستوى العبادية الذي لا أمية فيه، كان أحد أهم أسباب نجاحها.

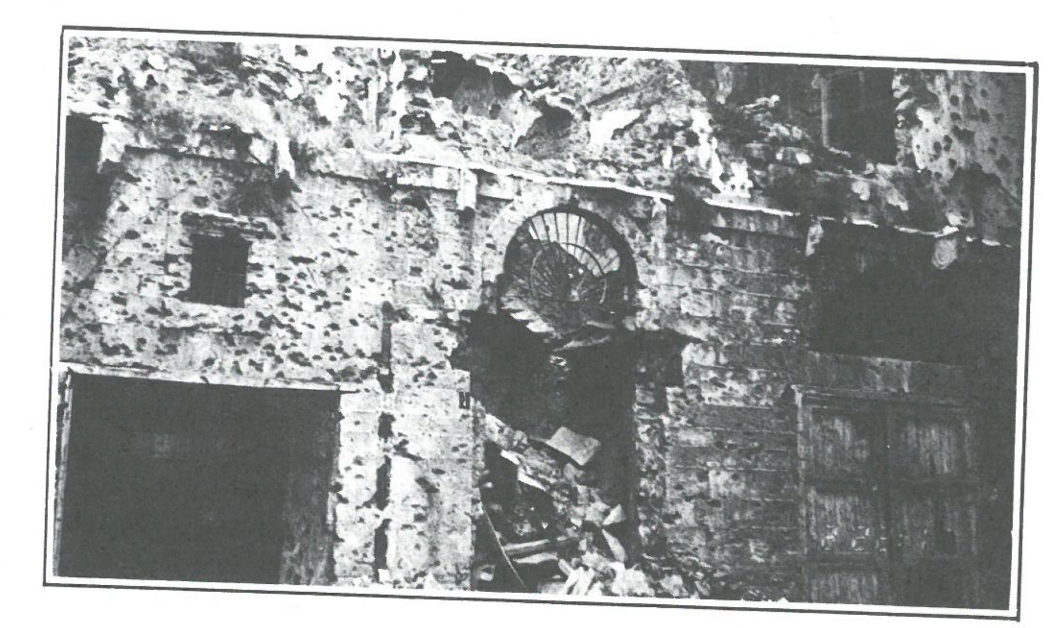
سنة ١٩٤٩ صدر أول قانون تنظم فيه الدولة التعاونيات وفي ١٩٦٥ اتبعته بقانون التعاون الجديد وحذفت بعض التعاونيات التي كثرت سنة ١٩٦٥ ونظمت المساعدات المالية لما بقي منها والذي تولت أمره فيما بعد وزارة خاصة بالتعاونيات.

تفخر عبيه بمؤسستين خيريتين للأيتام مؤسسة عبيه للآباء الكبوشيين وبيت اليتيم في الأولى يراعى الأيتام ويدربون مدنيا. يضم الميتم الذكور فقط. توقف أثناء الحرب ولكن مجددا سيستعيد نشاطه بعودة المهجرين.

بيت اليتيم تأسس سنة ١٩٤٠ برعاية المرحوم عارف النكدي واللجنة النسائية التي كانت تراسها المرحومة نجلا سليم صعب. ترأسها اليوم الأميرة خولا ارسلان وترعى الميتم السيدة حياة النكدي وتشرف على مدرسته التي تبدأ بالتعليم الابتدائي فالمتوسط فالمهني. يسر زائر الميتم رؤية السعادة على وجوه الأطفال والجو الصحي الذي يعيشون فيه.

كان في الشوف جميعات كثر كجمعية الأعمال الخيرية الأرثوذكسية وحاملات الطيب في سوق الغرب وجمعية السيدات الإنجيلية وكذلك الجمعية الخيرية للسيدات في بحمدون والجمعية الخيرية المارونية في عبيه. توقفت كل هذه الجمعيات أثناء الحرب. أما الجمعية اللبنانية لإغاثة الضرير فلم تتوقف. تأسست سنة ١٩٥٧ عن يد المرحوم الدكتور فيليب توما. تعاونه ولم تزل السيدة وداد بارودي لحود. إن المؤسسة تساعد العميان والصم والبكم وتوفر لهم غدا طبيعيا عقليا وجسديا. الجمعية بتقدم مستمر ونتائجها مفخرة لبنانية.

جمعية الهدى الخيرية: تأسست في العباديه سنة ١٩٣٧ من أجل جمع شمل الشبيبة الذكور ولكن سنة ١٩٨٣ انضمت إليها الفتيات حتى أصبحن الأكثرية الفاعلة. رغبن في تعلم مهن متعددة فأمنت لهن الإدارة ذلك وأتت بمتخصصات في التطريز والنقش على المرايا والدهان على القماش وصنع الزهور. مشكلتهن التصريف. قريباً ستفتح تعاونية المتن الأعلى متجرها في حمانا بمعرض عام ستعرض فيه سيدات العباديه انتاجها الوفير. يشرف على ذلك معالي الدكتور نجيب أبو حيدر وقرينة المقدم نبيل المقدم.من أهم منجزات جمعية الهدى مستوصف خيري ترعاه مصلحة الإنعاش الإجتماعي.



□ مركز جمعية إنعاش القرية المدمر اثناء الحرب

جمعية رعاية الطفل اللبناني: أسستها السيدة زاهية سلمان سنة ١٩٣٦ وساعدتها السيدات نبيهة البعيني، جمال مزبودة، نجاح ناصر والمرحومة وداد عانوتي وغيرهن. هدفها إقامة دور حضانة ومراكز إرشاد للأمهات. مركزها بيروت إنما لها فروع منتشرة في جبل لبنان. تشرف على الجمعية اليوم الدكتورة نور سلمان وزميلاتها.

جمعية رأس المتن للأشغال اليدوية تأسست ١٩٨٦ من سيدات رأس المتن من أجل تعليم الخياطة والتطريز وشك الخرز فعلمت حوالي خمسمائة فتاة وامرأة وكذلك علمت ما يقارب الخمسين شابا مهنة البلاط والكهرباء والأدوات الصحية. وافتتحت مستوصفا يخدم أربعمائة مريض شهرياً فيه خمسة أطباء.

تساعد الجمعية ماليا الأولاد المحتاجين للأقساط المدرسية. وتقيم حفلات للأطفال تقدم فيها لهم الهدايا. كما تقوم بحملات نظافة. أما العمل الأبرز اليوم فهو ان الجمعية تشيد بناءً كبيراً لمستوصف ومكتبة عامة وقاعة للحفلات والمحاضرات ترأسها اليوم السيدة منى غزال.

جمعية انعاش القرية تأسست سنة ١٩٥١ على يد المرحومة الأديبة أفلين بسترس والسيدة انيسة نجار. هدفها الأساسي جعل المرأة القروية مواطنة مسؤولة وحائلا دون الهجرة إلى المدن.

بناء على طلب أهالي بشتفين (المناصف) توجهت الجمعية إلى هذه المنطقة سنة ١٩٥٤ لتمحو الأمية وتجعل المرأة مسهمة في الدخل العائلي. ولكن الزلزال سنة ١٩٥٦ قضى على بيوت المنطقة فاتجه العمل نحو الإغاثة في البناء والمأكل والملبس وتعلمت النساء فن التعليب والخياطة. وسرعان ما تحسس رجال المنطقة بفائدة المشروع فقدموا الأرض في بشتفين وكذلك في الكنيسة وديركوشة وشرع في بناء ثلاث مدارس ابتدائية ومتوسطة. قدم الأرض في ديركوشة الأستاذ رؤوف ضو كما أشرف المرحوم المختار امين سعيد ضو على البناء. في مدرسة ديركوشة مستوصف خاص باسمه ذكرى لتفانيه في خدمة قريته.

كان الحد الأعلى لإنتاج الفرد سنة ١٩٥٤ مئتا دولارا سنويا لـ ٩٥ ٪ من السكان ولكنه سنة ١٩٧٠ جاور ٤٥ ٪ من السكان وسنة ١٩٩١ وصل إلى ٥٦ ٪ وارتفع بالباقي[٣] الأمر الذي يؤكد أن إشراك المرأة في الدخل العائلي

ضرورة حتمية وأن جمعية انعاش القرية تقوم بتنمية اجتماعية مدروسة[٤].

للجمعية مراكز في ديركوشة لتعليم الحياكة والسيراميك وتربية النحل والدجاج ودودة الحرير والبستنة والتعليب. يعاد اليوم تأهيلها بعدما سببت لها الحرب من دمار. وستكون صالة عرض مصنوعات المنطقة في المدرسة في ديركوشة مجلبة للسواح ولزيادة الدخل. لم تتوقف الجمعية أثناء الحرب عن الإتصال بالمهجرين وإقامة الحلقات الدراسية لهم في بيروت وكذلك عن طريق ارسال المعونات العينية من أدوية وحرامات والعاب وقرطاسية وحليب شملت هذه المعونات قرى كثيرة غير مراكز الجمعية المعروفة. أبرز ما تتركه جمعية إنعاش القرية في مدرستها للتعليم الريفي في دير كوشه هو نهجها المسمى «محو أمية العقل» الذي يقترح طريقة وموادا خاصة بالمرأة يعيد تأهيلها ويقيها جمود منهج التعليم الرسمي. كتاب «محو أمية العقل» تحت الطبع ليكون مرشد المعلمة في القرية العربية. ومجلة الأسرة القروية هي الفكرة المستقبلية التي تعمل الجمعية على إيجادها.

في جبل لبنان كثير من النوادي الثقافية والرياضية تضم الشباب والشابات لغايات إجتماعية كالمحاضرات والأمسيات الشعرية منها نادي البنية الثقافي الذي شيّد مركزاً كبيراً للإجتماعات بجهد وعناد كبيرين سيغني القرى المجاورة عن بناء مثله.

وقبل أن أنهي حديثي عن جمعيات الجبل لا بد وأن أذكر ثلاث جمعيات ساعدت الجبل بكل قواها أثناء المحنة الكبرى سنة ١٩٨٣. جمعية التعاضد الخيري الدرزي التي استقبلت ودبرت أمر مهجري كفرمتى بسرعة واتقان عجيبين ورابطة العمل الإجتماعي والمؤسسة الدرزية للرعاية الإجتماعية.

احتضنت المؤسسة الدرزية للرعاية الإجتماعية أولاد الشهداء والعائلات المهجرة منذ حوادث أرصون وكفرمتى ولم تزل ترعى تعليم وتموين أولاد الشهداء وتؤمن المستوصف لهم ولغيرهم بإشراف السيد مجيد جنبلاط والسيد عصام مكارم والسيدة منى ابراهيم وبقية الأعضاء الكرام. للجمعية الفضل في تحقيق التواصل بين الوطن وبلاد الإغتراب الأمر الذي أمن استمرار التعاون المالي بين لبنان والمهجر. في بيان المؤسسة أن ٥٤,٦ ٪ تصرف على عائلات الشهداء و١٨,٨ ٪ على الأطراف الاصطناعية ١٨,٢ ٪ على الدعم التربوي.

وأخيرا رابطة العمل الإجتماعي تأسست سنة ١٩٥٨ لجمع شمل الطلاب الجامعيين الدروز ومن أجل إنشاء دائرة تسهر على مصلحة الطلاب الجامعيين الذين لا قدرة لهم على أنهاء دراستهم الجامعية ـ رئيسها اليوم الأستاذ فؤاد الريس. عندها أربع لجان تبين مدى عملها: لجنة التوجيه التربوي ٢ ـ هيئة تشجيع التعليم العالي ٣ ـ اللجنة الطلابية ٤ ـ اللجنة الإجتماعية.

أمنت الرابطة مساعدة المحتاج أثناء الحرب ولما تزل وجمعت الأهالي بلقاءات ودية إجتماعية وثقافية[٥].

قد يكون هناك جمعيات صغيرة تقوم بأعمال كبيرة فاتني ذكرها. وإذ اعتذر للقائمين عليها ارجو أن يوافوني بإنجازاتها.

وفي الختام الفت الجمعيات الحالية إلى ضرورة الحفاظ على تقارير الجلسات في ملف خاص مع الصور التاريخية للأحداث. كما أرجو أن تكون القوانين البرلمانية القنديل الذي يضيء سبيل الاجتماعات ليؤمن المحبة والوفاق بين الأعضاء.

هذه لمحة موجزة عن جمعيات جبل لبنان العاملة أو التي عملت وانتهت.

●

الهوامش

(١) إحصاء سنة ١٩٦٥ ـ وزارة التصميم ص: ١٢

(٢) الثقافة العربية ـ محاضرة فؤاد نجار ص: ٣٠٨.

(٣) احصاءات الجمعية لسنتي ٥٤، ٧٠، ٩١ كتابها سنة ١٩٩٢ ص: ٥٩.

(٤) تقرير الاكوا ـ الأمم المتحدة سنة ١٩٧٧ ص: ٢٩.

(٥) الضحى، حوار نجيب البعيني مع الرئيس فؤاد الريس، آذار ١٩٩٣.

تاريخ الأزياء الشعبية في الجبل

سامية صعب*

يكتفي معظم الناس بنظرة خارجية للأزياء، فيتعاطون معها على أنها عملية روتينية تقتضيها الحياة العملية أو ينظرون إليها كوسيلة إغراء وجذب، جزء من لعبة التَحَبُب.

لكن العين الخبيرة، تلك التي تقع في مجال الرؤية لا في مجال النظر، ترى في اللباس لغةً يعبر الناس من خلالها عن طريقة عيشهم. وهكذا تَكْشِفُ تفاصيلُ غنى هذا الزي أو بساطة ذاك، للمُتَمَعِنِ في الرؤية، تقاليد وقيم وعادات حضارة ما. وتقوم المادة البسيطة بألوانها وأشكالها المختلفة، المتميزة، بسرد تفاصيل الحياة في زمن معين وكيفية تطورها وتأثرها بالأحداث السياسية والإجتماعية المحيطة بها.

ويكتسي الحديث عن الأزياء اللبنانية طابعاً خاصاً لما تأثرت به هذه الأزياء من أحداث إبان الحكم العثمانيَ وبعده. لذلك لا بد لنا من مدخلٍ تاريخي يعيدنا إلى عهد الإمارة المعنية التي تشكل الزي اللبناني خلالها وبرز بشخصية متميزة.

لمحة تاريخية

لقد كان للأمراء المعنيين (١٥١٦ ـ ١٦٩٦) ومن بعدهم الأمراء الشهابين (١٦٩٧ ـ ١٨٤١) الفضل في تحقيق وحدة البلاد. وقد امتدت سلطتهم حيناً من النهر الكبير حتى بحيرات الأردن وانحسرت أحياناً أخرى فتركزت بين نهري الكلب والأولي. آنذاك وحتى آخر أيام الحكم الإقطاعي عرف لبنان باسم جبل الدروز وكان جزيرةً صغيرة للحريات وملجأ للجماعات المختلفة التي دفعتها ظروف سياسية للهجرة من أرضها. فكان أن استقر المسلمون السنة في شمال البلاد والمدن الساحلية وعملوا على حمايتها من الغزو الصليبي، فيما سكن الموارنة الأودية والجبال الممتدة من طرابلس حتى الأرز وتكاثروا حتى احتلوا تدريجياً مكان الشيعة

* خبيرة في شؤون التراث. وبخاصة في الأزياء التقليدية، لا سيما الزي اللبناني. عملت مستشارة في اليونسكو ولها نشاطات فنية متعددة تهدف للحفاظ على التراث. تملك مجموعة خاصة من الثياب التقليدية الأصلية، اللبنانية والعربية.

□ عرس في الجبل

(المتاولة) الذين كانوا يسكنون السواحل حتى نهر الكلب. وفي القرن الثامن عشر قام الأمير يوسف الشهابي بدفع الموارنة للسكن في المناطق الشرقية من الجبال حيث كان قد سبقهم في ذلك إخوان لهم، خصوصاً في المنطقة الممتدة من سهل البقاع حتى جنوبي نهر الأولي.

أما الدروز، فقد تملكوا وسط البلاد ومنطقة وادي التيم، أي سلسلة الجبال الشرقية التي يحدها جبل حرمون وسهل البقاع وبلاد الشام ومنابع نهر الأردن.

لقد كان الدروز بمجملهم يخضعون لحكم زعمائهم الإقطاعيين الذين كانوا بدورهم يأتمرون بسلطة الحكام العثمانيين. وكان العثمانيون آنذاك ينظرون إلى لبنان بعين التبعية ويخضعونه لسلطة الباشا الحاكم، وهو ممثل السلطان، الذي انتقل من مركز إقامته في صيدا إلى عكا.

لقد تميز حكم المعنيين بالإعتدال والتسامح الدينيين، فشجعوا قدوم الجماعات المسيحية المختلفة، لا سيما الموارنة الذين شاركوا بشكل رئيسي في الأعمال الزراعية. وقد تعايشت معظم هذه الجماعات وتجاورت تجمعها مثلٌ عليا مشتركة تتلخص باحترام الحريات في ظل عادات مشتركة.



□ الأميرة زوجة الأمير فخر الدين المعني ـــ اواخر القرن السادس عشر

وفي تلك الفترة بالذات، كان لكل جماعة دينية زي خاص بها أصبح فيما بعد زياً محلياً أي زيا يميز المنطقة حيث تقطن تلك الجماعة. وهكذا حمل الزي الطابع المحلي الخاص بكل جماعة من الجماعات الدينية. غير أن التحولات الإقتصادية والإجتماعية يضاف إليها عامل الزمن حثت الأقليات على التخلي عن زيها الخاص وإتباع الأكثرية. ولم يعد يميز الزي طابعه المناطقي ولكن غلبت عليه السمات الطبقية السائدة، فأصبح الزي يميز الجماعات المختلفة وفقاً لمكانتها الإقتصادية والإجتماعية.

وإذا بالأثرياء والنبلاء يتأثرون بأزياء أصحاب السلطة لا سيما الباشا الحاكم وما يرتديه هو أو مرافقوه أو يرسله إلى الأمراء من هدايا. فكان أن تعدت بعض الأزياء النماذج المحلية لتتأثر بالزي المغربي والزي الألباني وغيرها من الأزياء، وذلك مع نهاية القرن الثامن عشر.

ومع سقوط الإقطاع، وفي ظل نظام الحكم الجديد الذي فرضته أحداث عام ١٨٦٠، ابتدأت هجمة الأزياء الأوروبية فتأثر بها الزي اللبناني إلى حدٍ بعيد حتى أصبح مقلداً لها.

صعوبة التأريخ

إن الدخول في تفاصيل تاريخ الزي اللبناني بغية متابعة تطوره عبر العصور بشكل علمي ودقيق يواجه عقبات وصعوبات عدة. فالمراجع والمصادر المحلية تكاد تكون غائبة تماماً. ويبدو أن المؤلفين الشرقيين من كتاب وشعراء ومؤرخين، لم يهتموا بملاحظة أو تدوين تفاصيل الأزياء التي درج على ارتدائها أهل بلادهم. والجدير بالذكر هنا أن المذاهب الإسلامية والمسيحية المختلفة كان لها تأثير كبير، قبيل القرن التاسع عشر، على تغييب النماذج والصور التي عادة ما يحفظ من خلالها تاريخ الأزياء.

أما الملابس التي يفترض أن تملكها وتحفظها عائلات الطبقات الحاكمة والميسورة فقد تعاقبت الأجيال المتلاحقة على ارتدائها كما ارتداها بعد ذلك خدم أولئك العائلات. وفيما بعد بيع الكثير من هذه الملابس، خاصة الثمينة منها، لما تحمله من لآلىء وما يزينها من خيوط ذهبية وفضية، وغالباً ما كانت بعض هذه العائلات تعطي هذه النماذج للعمال والخدم بدل دفع أجورهم.

وهكذا لا يبقى لنا أن نعتمد في مهمتنا إلا على ما كتبه الرحالة الغربيون والأجانب. غير أن هذه الوسيلة، لا تخلو بدورها من الصعوبات. فرحالة القرن السادس عشر، كانوا بمعظمهم حجاجاً يحضّهم في الدرجة الأولى الشأن الديني في

الشرق. هؤلاء حطوا رحالهم في طرابلس وصيدا ونادراً ما دخلوا المناطق الجبلية. وتركزت إهتماماتهم على المناظر الطبيعية والمواقع الأثرية ولم يعيروا للناس وأزيائهم إهتماماً كبيراً.

أما في القرن السابع عشر، ومع سياسة الإنفتاح على أوروبا التي مارسها الأمير فخر الدين المعني الثاني، تدفق التجار والفنانون والكتّاب. لكن هؤلاء كانوا شديدي التأثر بإنجازات الأمير في الحقلين السياسي والإجتماعي فخصصوا معظم أعمالهم لوصف حياة الأمير وروعة قصوره هاملين مظاهر الحياة اليومية في عصره ومن أبرزها الثياب والأزياء.

لقد كان لهذه الكتابات، ولتأثير الفلاسفة، وخاصة صدور «الرسائل الفارسية» للكاتب الفرنسي فولتير «Voltaire»، أن تجذب المسافرين الغربيين نحو الشرق منذ مطلع القرن الثامن عشر. ولم تعد صورة الشرق حينها محصورة في إطار كونه مهد الديانات وأرض التوراة المقدسة، بل تعدى ذلك ليثير فضول الغربيين بعاداته وتقاليد شعوبه.



□ «الطنطور» في اواخر القرن التاسع عشر.

وكان أمراء لبنان آنذاك معتدلين، متسامحين مسالمين، يحبذون أعمال البحث والتفتيش والتدوين التي كان الكتاب والفنانون والزائرون الغربيون يقومون بها. هؤلاء كان لهم الفضل الأكبر في تدوين تفاصيل دقيقة تتعلق بالأزياء المعتمدة في المناطق الساحلية والجبلية من البلاد.

ومن الملاحظ أنه منذ بداية عهد الأمير بشير الثاني في العصر الرومنطيقي الأوروبي، وترافق ذلك مع أحداث سياسية ومتغيرات كبيرة، توجهت الأنظار، لا سيما أنظار الأوروبيين، أكثر فأكثر نحو لبنان، فكثرت في تلك الفترة المستندات والكتب التي تصف وتصور وترسم أوجه الحياة المختلفة. أما ما دونوه الكتاب المحليون في تلك الفترة فقد اقتصر على تدوين تواريخ تغير الملابس كما يأمر بها الحاكم أو على ما دونوه رغبةً منهم بتقليد المؤرخين الغربيين.

سنعتمد إذاً في عرضنا لخصائص الزي اللبناني الرجالي ومن ثم النسائي على ما توفر من مراجع مختصة يعود معظمها للقرن التاسع عشر وعلى مشاهدات ومعاينات لنماذج أصلية استطعت بجهد كبير وعلى مدى سنوات طوال تجميعها من الصناديق العتيقة المنسية في الأقبية ومن حكايات زمان.



□ سامية صعب ــ لباس الاميرات في أواخر القرن السادس عشر

اللباس الرجالي

كان اللباس الرجالي في القرن السادس عشر يتألف من سروال وقميص من القطن الأزرق أو الأبيض، ذي أكمام واسعة تكشف الزند. يغطي القميص والسروال فستان واسع من الحرير أو القطن أو الكتان أو الصوف يُعرف «بـالجبة» ويفتح من الجهة الأمامية. ترد جهتا الجبة على بعضهمـا البعض وتثبتا «بـزنار» حـريري أو مصنوع من القماش الثمين المزخرف. والزنار هذا عبارة عن قطعة قماش طويلة قليلة العرض تلف حول الخصر مراتٍ عدة. كما ويمكن أن يصنع الزنار من الجلد فيحتوي عندئذٍ على جيوب تستعمل كمخبأ للنقود ويطلق على هذا الزنار اسم «الكَمَـر». والجديـر بالذكـر أن بعض الرجال لا يزالون يلبسون الكمر حتى يومنا هذا.

لم يحمل القميص أو الجبة أية ياقة «قَبة» وإنما كان يميز الجبة طولها. فكانت جبة الأمراء تصل حتى وسط الساق فيما جبـة الفلاحـين لا تتعدى حدود «الرُّكبَة».

ولا يكتمل الزي عند هذا الحد، فـالرجال درجوا على ارتداء معطف يعرف «بالسبابـي» Spabi فوق هذا اللباس. وهذا المعطف مفتوح عن الجانبين، أكمامه تنفتح عند حدود الكوع لتنحـدر إلى الأرض، مصنوع من الحـرير أو الصوف الناعم المخرّج من الداخل بالفراء أو بجلد الخراف أو الماعز.

ويفضل الكثيرون استعمال العبأ المصنوعة من الوبـر أو الصوف المنسـوج عـلى النـول (Brocard)، أو تلك المطرزة بالذهب، عوضاً عن ارتداء المعطف.

أما الحذاء فيتألف من شرائح جلدية تلف حـول القدمـين بشكـل كلسـات (Mest) ومن «بابوج» جلدي رفيـع الرأس لكن حذاء السفر والفروسية يختلف عما وصفناه وهو عبارة عن بردع (guêtres) مصنوع من الكتـان والجلد تغطي القدم حتى الساق. من المفيد الإشارة هنا إلى أهمية الألوان في الزي اللبناني التقليدي في تلك الفترة، إذ كانت تميز الطبقات الإجتماعية والجماعات الدينية المختلفة. فعامة القوم كانوا يلبسون الأبيض فيما ملابس العسكر كانت تميل إلى الأزرق. أما اللون الأخضر فكان حكراً على الإشـراف. من ناحيـة أخرى كـان النصارى واليهود يرتدون بشكـل عـام الثياب السـوداء والرمادية.



□ سروال وفستان العامة ــ القرنين السابـع والثامن عشر

وفي هذا الإطار يكتسي لباس الرأس أهمية رئيسية لأنه عنصر التمييز الإجتماعي الأهم، ان من ناحية شكل اللفة أو لونها، والذي فرضته قوانين الحكم في ذلك الزمان.

فالوجهاء مثـلاً ملزمون بـوضـع «القلوسـة» المصنوعة من الحرير الأحمر، وبِلَفّ «الشاشة»، وهي عبارة عن قطعة من القماش الأبيض، بشكل مستطيل أو مستدير وفقاً لمكانتهم الإجتماعية. أما حجم اللفة فيتناسب لزاماً مع درجة الثراء والمقدرة الإجتماعية. ونُذكِّر هنا كيف أن لفـة الأمير فخر الدين تفوق بحجمها أية لفة أخرى.

أما الأقل شأناً فيرتدون «قلوسة» مصنوعة من وبر الجمل وذات لون رمادي و مصنوعة من الصوف الأحمر وتحيطها اللفة البيضاء. وحتى أواخر القرن السابـع عشر كان المـوارنة من سكان جبل لبنان يضعون القلوسة المصنوعة من القماش المقلم إلا أن الأمير فخر الدين سمح لهم بعد ذلك التاريـخ بوضع اللفة حول القلوسة فيما تميزت قلوسة الجالية اليهودية فكانت حمراء، مستديرة وتميل إلى الجانب.

من ناحية أخرى كان لزاماً على الفـلاحين وضع اللبادة وهي أبسط قلوسة لا تزال معروفة حتى يومنا هـذا فيما تميـز الأجنبي بقبعته السوداء.

وفي جميـع الأحـوال، كانت قصـة الشعـر تقتصر على حلاقة الشعر من الجانبين فقط على ان لا يمس أعـلى الرأس ويُعَفّ عن اللحيـة والشاربين.

الزي النسائي

لم يكن الزي النسـائي يختلف عن الزي الرجالي من ناحية التكوين لكن سروال النساء كان يحمل تكسيرات كثيرة ويمسك بالقدم على مستـوى الكاحـل. وغالبـاً ما تغطي التنورة السروال وتكون فضفاضةً يغلب عليها الطول. أما القميص فمصنوع من الحرير الناعم المقلم أو المطرز وذو أكمام طويلة.

ترتدي النساء فوق هذا اللباس جبةً مصنوعةً من الحرير أو الكتان الناعم غالباً ما تكون مطرزة بخيوط ذهبية أو فضيـة وتدخـل في تطريـزها

الأحجار الكريمة. ويطلق على هذه الجبة الطويلة إسم «الكبران».

كانت نساء ذلك الزمان ترتدي «البابوج» أو «القبقاب» داخل المنزل. أما في الخارج، فكانت الأقدام والسيقان تُلَفّ بالبردع (guêtres).

إلى جانب الأناقة والغنى الذي ميز زي النساء في تلك الفترة، كان للحلى دور رئيسي وأهمية خاصة كذلك الأمر بالنسبة للكحل يزين العيون وللحنة التي تزيد من حمرة اليدين. أما الجبين فكان يزين بقطع من «البراغيت» التي تحتوي الضفائر وتنساب على كتفي النساء.

المرأة في جبل الإمارة كان لها كيانها القوي المستقل، فقد كانت سيدة وملكة في منزلها، تجالس الرجال، تركب الخيل وتذهب إلى الحرب، وتعبر عن رأيها بقوة. وكان لباسها في تلك الفترة قائماً على نظام روحي ونفسي يقترب من التصوف والتحكم بالمسلك والتصرف والحركة (وهذا ينطبق أيضاً على زي الرجل).

لذا نرى أن الرأس كان دوماً مرفوعاً، مشرئباً في ثباته أو قلة حركته، كما ونرى الكتفين مرتفعتين. ويدل تنوع لباس الرأس عند النساء كما هو الحال عند الرجال على حالتهن الإجتماعية. فالريفيات لهن القرص والأميرات والشريفات لهن الطاسة الفضية أو الذهبية والطنطور (وطوله ٤٥ سم). ولنساء الطبقات الوسطى والغنية الطنطور المائل. ويتدلى من كل هذا اللباس منديل طويل وهو عبارة عن شاشة بيضاء مصنوعة من قطن أو كتان تغطي جسم المرأة حتى اليدين. ونشير هنا إلى أن وظيفة الطنطور لم تكن لزيادة طول النساء كما أعتبر بعض المستشرقين بل كانت وظيفته رمزية كعربون للزواج تلبسه الأميرات يوم عرسهن وتستمرن في إعتماره حتى أثناء النوم وفقاً لما نقله أحد الرحالة.

وقد كان مفروضاً على الأميرة، ومنذ يوم زفافها، ألا يغادر الطنطور رأسها وقد خصص متكأ له من الخشب كي يسنده أثناء نوم الأميرة. وقد يبلغ وزن الطنطور أحياناً حوالي ٤٠ كلغ من الذهب والفضة وقد يصنع من النحاس أو التنك أيضاً.

وإلى رمزيته كمهر للعروس، فللطنطور وظيفة أخرى هي حمله والهرب به أوقات الحروب والهجرات وهو في ذلك يشبه الأساور أو الحلي التي تستخدمها المرأة المتزوجة في أيامنا هذه إحتياطاً من أيام العوز وبالتالي فإن للطنطور دوراً في حماية المرأة ورفع العوز عنها أكثر من وظيفته الجمالية التي ربما تأتي لاحقاً.

وفي معرض حديثنا عن لباس الرأس عند النساء نشير إلى أن النساء اليهوديات اقتبسن الطاقيات المدورة من فضة أو نحاس واستعملنها في لباسهن.

أما بالنسبة للألوان التي طغت على أزياء النساء في ذلك العصر فكانت الأسود والليلكي والأخضر والزهر والأبيض. لكن لم يلبث أن ظهر التأثير العثماني على اللباس بألوانه النبيذية والنيلية وبأشكال الزخرفة والتطريز. فدخلت من القرن الثامن عشر الكبرانات القصيرة كما دخل المخمل المطرز بالخيط الذهبي (السرما). من ناحية أخرى تأثر الزي النسائي بالفستان الحوراني وهو عبارة عن تنورة طويلة وصدرية. وفيما يغطي الصدر الحرير الأبيض يغطي الرأس قرص يتدلى منه المنديل الطويل. ومن الملاحظ أن هذا الزي لا زال موجوداً حتى اليوم في المناطق الجبلية.

لقد تحدثنا طويلاً عن مقومات زينا وتطوره وكيف كانت الألوان وأغطية الرأس إشارات انتماء شخص إلى جماعة أو منطقة أو طبقة معينة. وقد يبدو زينا للوهلة الأولى وكأنه ثقيل الملامح، صعب المراس، لكنه في الحقيقة لين، قصاته كلها عريضة وفي إتجاه حركات الجسد، فلا يضغطه ولا يقسو عليه كما هي الحال في البلدان الأخرى. وفي الحقيقة أن زينا بسيط بتكوينة وأنيق، يضفي على من يرتديه قامةً وكثيراً من الرفاهية والكبرياء وليس غريباً أن يستوحي الغرب السروال والعباءة والعمامة والقرص. ومن الأهمية بمكان أن نهتم بهذا التراث الثمين، وما يحتويه من معلومات وإشارات تدل على تاريخنا وحضارتنا، وأن نعيد بعثه بكل رونقه في كل المواعيد الوطنية وحتى في حياتنا العادية.

●

بعض السمات الأساسية لحركة التطور الاقتصادي والاجتماعي في جبل لبنان

د. مسعود ضاهر *

مدخل:

لا شك أن الأبحاث العلمية والوثائق والمصادر المتوفرة لدراسة التطور الاقتصادي والاجتماعي في جبل لبنان هي من السعة والشمولية لدرجة أن عناوينها فقط تحتاج إلى مجلد كامل. وهذه المصادر منشورة باللغات العربية والفرنسية والانكليزية والروسية والألمانية بالإضافة إلى العثمانية التي تشكل المصدر الأساسي في مجال التوثيق لحركة التطور التاريخي للمشرق العربي بكامله.

وقد سبق لنا أن قدمنا عدداً كبيراً من الكتب والمقالات المنشورة في مجلات علمية متخصصة في هذا الحقل بالذات، وهي مذيَّلة جميعها بأسماء الوثائق والمصادر والمراجع التي استندنا إليها. لذلك لا نجد فائدة هنا بإستعادة تلك المصادر بل نكتفي بالإشارة فقط إلى بعضها لمن يرغب في التعمق. كما أن عناوين حركة التطور الاقتصادي والاجتماعي في جبل لبنان كثيرة ومتشعبة ولا يمكن حصرها في مقالة واحدة.

مع ذلك، لا بد من تحديد المكان والزمان كشرط لا غنى عنه لأي بحث تاريخي يتسم بالحد الأدنى من الدقة العلمية.

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في الجامعة اللبنانية. الأمين العام المساعد لشؤون البحث العلمي في اتحاد المؤرخين العرب.

بداية، ودون الغرق في مشكلة التحديد الجغرافي لمصطلح «جبل لبنان» عبر التاريخ نحرص على القول إن المقصود، في هذه المقالة، هو جبل لبنان الذي تشكل كوحدة إدارية ذات طابع خاص في ظل السلطنة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى. وذلك يساهم في تحديد ملامح حركة التطور الاقتصادي والاجتماعي في هذه الرقعة الجغرافية التي عرفت باسم متصرفية جبل لبنان والتي أطلق عليها بعض كتبة التاريخ في تلك المرحلة إسم «لبنان الصغير» الذي شكل منطلقاً لدولة «لبنان الكبير» التي أعلنها الجنرال غورو Gauraud عام ١٩٢٠ وتم الاعتراف بها كدولة مستقلة وذات حدود معترف بها إقليمياً ودولياً عام ٤٣. بعبارة موجزة، هنالك أكثر من رابط يجمع بين جبل لبنان المتصرفية وبين المراحل السابقة على ولادتها أي الإمارتين المعنية والشهابية ومرحلة القائمقاميتين من جهة، ومرحلة لبنان الكبير في ظل الانتداب الفرنسي ولبنان المستقل من جهة أخرى. وهذه الروابط جميعاً تساعد على فهم حركة التطور التاريخي لجبل لبنان الحديث والمعاصر.

يضاف إلى ذلك أن حركة التطور الاقتصادي والاجتماعي لهذه المنطقة قد اكتسبت ملامحها الأساسية عبر سلسلة متغيرات هامة شهدتها منطقة المشرق العربي بكاملها إبان القرن التاسع عشر. أبرز تلك المتغيرات، المحلية والإقليمية والدولية، التي تأثر بها جبل لبنان آنذاك هي التالية:

أ ــ التبدل الهام في البنية السكانية الطوائفية وأثر ذلك التبدل على سكن الجماعات الطائفية وانتشارها في مناطق الجبل ودورها في المجالين الاقتصادي والاجتماعي.

ب ــ الآثار الهامة التي نتجت عن توسع محمد علي باشا، والي مصر، باتجاه بلاد الشام في العقد الرابع من القرن التاسع عشر والإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية والعسكرية والثقافية التي قام بها لربط بلاد الشام بمصر لدرجة أن هجرة الشوام إلى مصر توسعت كثيراً منذ ذلك الحين ولعب الشوام، خاصة اللبنانيون منهم، دوراً بارزاً ومعترفاً به في تاريخ مصر الحديث ونهضتها.

ج ــ الصراع الدولي بين القوى الاستعمارية الأوروبية، خاصة بريطانيا وفرنسا، للسيطرة على السلطنة العثمانية واقتسام ولاياتها البلقانية والعربية. وقد نتج عن ذلك الصراع أن جبل لبنان وغيره من بقايا الولايات العثمانية قد دخل، ومنذ وقت مبكر، في دوامة حروب أهلية لم تنته حتى الآن ولم تستفد منها سوى الدول الإستعمارية من جهة، والمشروع الصهيوني لبناء إسرائيل الكبرى الذي بدأت ملامحه بالتبلور إثر سقوط محمد علي وزوال حكمه عن البلاد عام ١٨٤٠ من جهة أخرى.

في إطار هذه اللوحة الشمولية والبالغة الغنى والتعقيد يمكن للباحث تقديم صورة مكثفة جداً لحركة التطور الاقتصادي ــ الاجتماعي لجبل لبنان فالحرص على إظهار خصوصية هذه الحركة لا يمكن أن ينسينا شمولية هذه الحركة على صعيد المشرق العربي بكامله لأن تاريخ جبل لبنان جزء لا يتجزأ من تاريخ هذه المنطقة التي كانت تعرف آنذاك باسم بلاد الشام. وإذا كان المجال لا يتسع لإبراز حركة التطور بجميع جوانبها في هذه المنطقة فإن البحث العلمي الدقيق يتطلب رؤية خصوصية تلك الحركة في جبل لبنان بارتباطها الوثيق مع شمولية التطور في المشرق العربي بكامل مقاطعاته.

بعض التبدلات الاقتصادية في جبل لبنان

بدأت ملامح تلك التبدلات بالظهور تدريجياً قبل القرن التاسع عشر، وبشكل أكثر تحديداً في القرن الثامن عشر. لكن تلك التبدلات لم تظهر بشكل واضح وجلي إلا بعد الإصلاحات الجذرية التي أدخلها محمد علي في البنى الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الشام والتي تعززت أكثر في مرحلة المتصرفية.

ودون الدخول في تفاصيل تلك الإصلاحات المعروفة جيداً التي كتبت عنها دراسات كثيرة



□ محمد علي باشا

منشورة بلغات عدة يمكن تكثيف حركة الإصلاح التي قام بها محمد علي في بلاد الشام في المجال الاقتصادي على الشكل التالي: لقد اعتمد محمد علي نظام الاحتكار المركزي لزيادة مداخيل الدولة، والتحكم بحركة التصدير والإستيراد، وإقامة الرقابة الجمركية، والحد من الاستيراد إلا بإذن مسبق من الدولة، وفرض الضرائب على مختلف السلع ومصادر الانتاج وقوى الانتاج، وحماية التجارة من قطاع الطرق واللصوص لأن المستفيد الأكبر منها هي الدولة. وقد قيل في وصف نظامه الاقتصادي الذي طبقه في مصر ومن ثم نقله إلى بلاد الشام: «أن محمد علي أصبح الزارع الوحيد، والصانع الوحيد، والتاجر الوحيد. فشكل بذلك نظام حكم مركزي يقوم بالدرجة الأولى على الاحتكار والسخرة والضرائب؛ وتطبيق هكذا نظام يحتاج إلى جيش قوي يحمي الأمن في جميع المقاطعات. وإلى إدارة مركزية تستطيع جباية الضرائب وتنظيم الإنتاج وتطوير جميع مرافق البلاد وتمنع مختلف أشكال الصدامات الدموية بين الجماعات المحلية، وهي السمة الأساسية لتاريخ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أي مرحلة ضعف السلطة المركزية العثمانية وكثرة الحروب الداخلية بين ولاتها وفي داخل كل ولاية أو منطقة. بالإضافة إلى كثرة الصدامات بين السلطة المركزية في الولايات والقبائل البدوية التي كانت تغير على المناطق المجاورة لها وتدمر أو تنهب جانباً أساسياً من اقتصادها. وكان لإدارة محمد علي الفضل الأساسي في منع تعديات البدو على المدن والأرياف المجاورة لهم وإجبار أعداد كبيرة من البدو على الإستقرار بدل الترحل الدائم وعلى الإنخراط في حركة الاقتصاد وتضخيم الإنتاج بدل تدميره. لكن تطبيق نظام الاحتكار في المجال الاقتصادي قد اقترن بزيادة الضرائب، وفرض نظام السخرة، والتجنيد الإجباري، ومصادرة الرجال وحيوانات العمل والإنتاج لزيادة واردات الدولة.

وهكذا تدابير تقود بالضرورة إلى تذمر شعبي واسع وحركة إحتجاج عنيفة خاصة في مناطق جبلية وعرة المسالك مثل جبال لبنان وجبال حوران وجبال فلسطين وغيرها. ولما كان الحرير بمثابة السلعة الأساسية في الإنتاج فإن احتكار

هذه السلعة قاد إلى تذمر شعبي في جبل لبنان ساعد في إذكاء حركة التمرد والعصيان ضد الدولة المركزية. وقد استفادت منها السلطنة العثمانية من جهة، وقناصل الدول الأوروبية من جهة أخرى بهدف إشعال الثورات والفتن وحركات التمرد ضد الحكم المصري تمهيداً لإخراجه من بلاد الشام وإرجاع محمد علي إلى حدود مصر بالقوة العسكرية الأوروبية التي تحالفت ضده رغم الخلافات الحادة فيما بين الدول الأوروبية.

لذلك، ورغم الإيجابيات التي كانت تسعى إلى تحقيقها إصلاحات محمد علي، فإن خروج جيشه مهزوماً من بلاد الشام أطلق صراعاً حاداً بين الدول الأوروبية والسلطنة العثمانية من جهة، وبين الدول الأوروبية نفسها من جهة أخرى في محاولة للتفرد بالسيطرة على هذه المنطقة التي شكلت الشريان الرئيسي للتجارة الدولية خاصة بعد فتح قناة السويس. ونتج عن ذلك سلسلة من الصدامات الدموية والحركات والانتفاضات الفلاحية لمنع السلطة المركزية من العودة إلى إحتكار الإنتاج، ولمنع القوى المقاطعجية المحلية من استغلال الفلاحين وصغار الحرفيين والشرائح الجديدة من التجار، خاصة تجار الحرير.

بعد الصدامات الدموية التي شهدتها سنوات ١٨٤٠ ــ ١٨٦٠ شكل نظام متصرفية جبل لبنان مدخلاً هاماً لإستقرار الجبل طوال فترة جاوزت الستين سنة عرف فيها الإقتصاد المحلي تطوراً ملحوظاً في مختلف المجالات وتعزز فيها دور جبل لبنان في السوق الرأسمالية العالمية كمصدر للحرير، في حين عرفت مصر بانتاج القطن وموقعها المميز في انتاجه على الصعيد العالمي. أما فلسطين فتخصصت بإنتاج الحمضيات والليمون في حين تخصصت حوران بإنتاج القمح والحبوب.

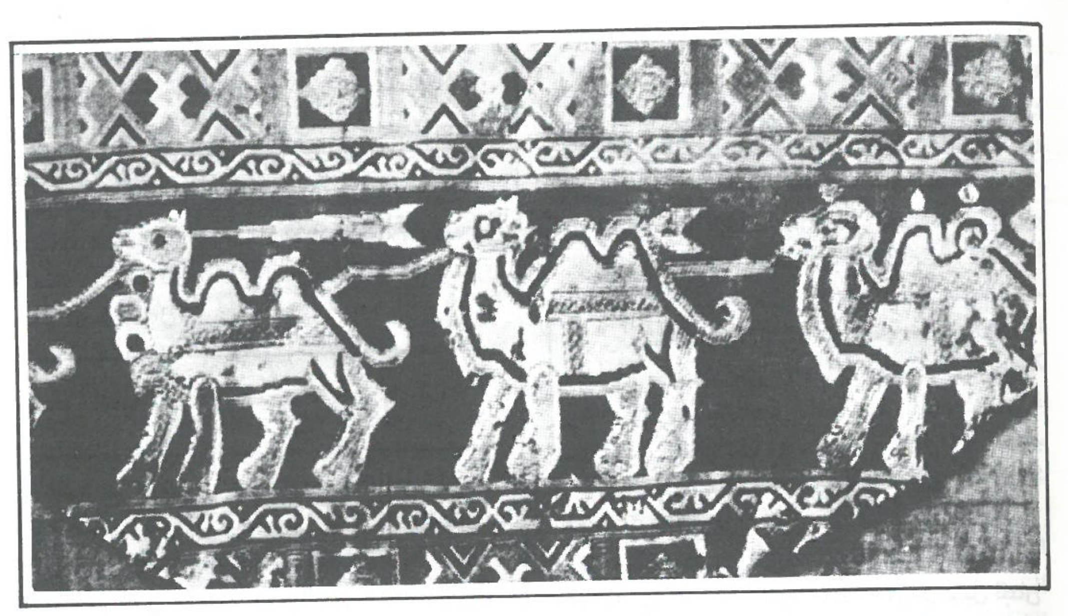
لا يتسع المجال لدراسة هذه الظواهر مجتمعة لذلك نكتفي بنموذج تخصص جبل لبنان بإنتاج سلعة واحدة هي الحرير إلى جانب تخصص مناطق أخرى بسلع معينة عند ربطها بالإقتصاد العالمي من موقع التبعية.

لقد حلل بطرس لبكي هذه الظاهرة بكثير من الدقة العلمية في كتابه «مدخل إلى تاريخ لبنان الإقتصادي ــ الحرير والتجارة الخارجية في آخر العهد العثماني ١٨٤٠ ــ ١٩١٤». فتبين له أن الطلب على الحرير اللبناني قد ازداد بعد فترة حكم محمد علي لبلاد الشام خاصة من مدينة ليون الفرنسية التي كانت تسمى عاصمة الحرير في فرنسا. لذلك اتسعت حركة بناء معامل الحرير في جبل لبنان حتى وصلت إلى عكار والبقاع بعد أن عمت جميع مناطق جبل لبنان.

وبلغ عدد المغازل التي بناها فرنسيون وانكليز ولبنانيون قرابة ١٩٥ مغزلاً يعمل فيها ١٤ الف عامل، معظمهم من النساء وذلك في السنوات التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى. وارتفع إنتاج الشرانق من قرابة مليون كلغ عام ١٨٦١ إلى حوالي ستة ملايين، وارتفع انتاج الحرير من ١١٧ الف كلغ من الخيط الحريري عام ١٨٧٦ إلى ٥٢٥ الف كلغ عام ١٩١١.

هكذا، وقبيل الحرب العالمية الأولى كانت ٤٠ ٪ من أراضي جبل لبنان المزروعة منصوبة بأشجار التوت، وكان نصف سكان المتصرفية تقريباً يعتاشون من إنتاج الحرير اللبناني. وشكلت صادرات الحرير ٦٢ ٪ من صادرات المتصرفية و ٣٦ ٪ من المداخيل الخارجية لسكانها. وفي حين كانت مصر تستورد قرابة نصف إنتاج الحرير في جبل لبنان حتى عام ١٨٤٥ فإن فرنسا أصبحت تستورد قرابة ٩٥ ٪ من الحرير اللبناني في مطالع القرن العشرين. أي أن هذه السلعة التجارية المعدة للتصدير الخارجي بدأت بالإرتباط مع حركة الإحتكار القسري التي أطلقها محمد علي أثناء حكمه لبلاد الشام لتتحول إلى إحتكار طوعي بعد ربط إنتاج الحرير اللبناني بالسوق الرأسمالية العالمية، وتحديداً بسوق مدينة ليون.

لقد عمل اللبنانيون طوال عقد واحد من الزمن لدعم مالية محمد علي، لكنهم عملوا طوال عقود عدة لدعم مالية الإحتكارات الدولية، خاصة الفرنسية والبريطانية منها، وذلك عبر ربط الإقتصاد اللبناني، منذ وقت مبكر، بالسوق



□ قطعة من القماش الحريري

الرأسمالية العالمية. وقد تشعبت تلك الإحتكارات لتطول مختلف مرافق الحياة الإقتصادية في جبل لبنان كإحتكار الحرير، والتبغ، والملح، والصابون، وغيرها.

مع ذلك، فإن النتائج الاقتصادية لتوسع الإنتاج الزراعي اللبناني في قطاعات الحرير والتبغ والحبوب والزيتون والأشجار المثمرة كانت إيجابية بشكل عام فقد إتسعت رقعة الأراضي المزروعة بشكل متزايد، وتعززت الملكيات العقارية الخاصة على حساب ملكيات المشاع والأراضي البور والمتروكة وأراضي الدولة. ونشطت حركة البناء في مختلف مناطق جبل لبنان بعد أن عملت إدارة المتصرفية على شق الطرقات وتعبيدها، وربط جبل لبنان، ببيروت ودمشق وطرابلس بحركة مواصلات منتظمة. وبدأت حركة الإصطياف منذ وقت مبكر في جبل لبنان خاصة المصطافين من أغنياء الدول العربية المجاورة وأغنياء اللبنانيين في مصر التي شهدت هجرة لبنانية واسعة إليها من جبل لبنان والمناطق السورية والفلسطينية. واتسعت أيضاً حركة النزوح الداخلي من جبل لبنان باتجاه بيروت ومنها نشطت حركة كثيفة إلى الخارج خاصة إلى الأميركيتين وأوروبا.

لكن تلك الإيجابيات تزامنت مع سلبيات كثيرة أبرزها المأساة الكبيرة التي حلت بجبل لبنان المتصرفية في الحرب العالمية الأولى بعد أن تشارك العثمانيون والدول الإستعمارية الأوروبية في فرض حصار إقتصادي على سكان المتصرفية قاد إلى موت قرابة ثلث اللبنانيين جوعاً إبان سنوات الحرب.

فالإقتصاد السلعي المعد للتصدير التبعي للسوق الرأسمالية لا يمكن أن يجنب البلد كارثة حقيقية في الأزمات الحادة. كما أن التخصص بإنتاج سلعة واحدة أو سلعتين كالحرير والتبغ، تحتكرهما شركات رأسمالية خارجية يحول آلاف العمال اللبنانيين إلى شبه أرقاء لمصالح تلك الشركات وإلى عاطلين عن العمل إبان أزمات تسويق الإنتاج على الصعيد العالمي. ورغم النجاح الكبير الذي أصابه قطاع إنتاج الحرير في جبل لبنان إبان القرن التاسع عشر وولادة البورجوازية اللبنانية في أوساط عائلات تجار الحرير فإن هذه السلعة الإنتاجية تعرضت

للإنهيار الشديد في المرحلة اللاحقة ولم تنفع تدابير إدارة الإنتداب الفرنسي لتنشيطها في مرحلة الثلاثينات من القرن العشرين. كما أن إنتاج التبغ ما زال يخضع لإحتكار إدارة حصر التبغ والتنباك التي استغلت، لعقود طويلة، عشرات الآلاف من المزارعين وعمال التبغ في مختلف مناطق لبنان، خاصة في جبل لبنان وجبل عامل.

بعض التبدلات الاجتماعية في جبل لبنان

غني عن التوكيد أن النهضة العمرانية والإقتصادية التي شهدها جبل لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ترتبط وثيقاً بالتبدلات التي طرأت على البنى الإقتصادية والإجتماعية فيه.

فمجتمع جبل لبنان في أواسط القرن التاسع عشر، كما دلت دراسات دومنيك شفاليه الهامة حول تلك الحقبة، كان ما يزال مجتمعاً ريفياً تسوده التقاليد العائلية المنتشرة في المشرق العربي بالإضافة إلى التقاليد والعادات ذات الخصوصية الطائفية المتوارثة عبر نظام الملل العثماني.

لكن مرحلة المتصرفية شهدت تبدلاً نوعياً في مجالات التعلم، الإرسالي والخاص والرسمي، وفي تطور بناء المساكن، والصحة العامة، والمواصلات، والبريد وغيرها.

ورغم أن التقاليد الإقطاعية لم تلغ بالكامل بروتوكول ١٨٦١ وتعديلاته لعام ١٨٦٤ لكن تلك التقاليد بدأت تضعف تدريجياً على أرض الواقع بعد أن قام الفلاحون بانتفاضاتهم المتكررة منذ عام ١٨٢٠ وكانت آخرها إنتفاضة فلاحي كسروان لسنوات ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠.

نتيجة لذلك برزت شريحة الفلاحين الأحرار التي كانت تتسع باستمرار مع توسع الهجرة إلى الخارج والنزوح إلى المدن، خاصة إلى بيروت، وحاجة القوى الإقطاعية المسيطرة إلى فلاحين مشاركين في زراعة أراضيها. يضاف إلى ذلك أن التوسع في إنتاج الحرير والإتجار به أوجد كتلة نقدية كبيرة في أيدي السكان وتقلصت تجارة التبادل العيني أو المقايضة، وبات العمل المأجور سائداً في مختلف مناطق جبل لبنان.

اللافت للنظر أن عدداً من المتصرفين قد ساهم في تنشيط الحياة الاجتماعية وتأمين الأمن والإستقرار بواسطة قوى الضبطية المحلية المدعومة، عند الحاجة بالعسكر العثماني.

وقد دل كتاب «لبنان: مباحث علمية واجتماعية» الذي صدر أثناء الحرب العالمية الأولى بهمة الوالي اسماعيل حقي، على سلسلة متعددة الأشكال من الأعمال العمرانية والثقافية والإدارية والإجتماعية والصحية التي شهدها جبل لبنان إبان تلك المرحلة.

وإذا كان المجال لا يتسع لتعداد تلك الإنجازات، وهي معروفة جيداً لدى جميع الباحثين، فمن المفيد التركيز على السمات الأساسية لحركة التطور الإجتماعي في جبل لبنان وأبرزها:

أ ـ تنشيط المدارس العامة إلى جانب المدارس الخاصة، ومدارس الإرساليات بحيث اتسعت رقعة التعلم لتطول شرائح واسعة من الطبقات الغنية والوسطى والفقيرة في جبل لبنان. وساهمت تلك السياسة في تطوير الحياة الإجتماعية إلى جانب توسع شرائح الفئات الوسطى من السكان، وباتت نسبة المتعلمين في المتصرفية من أعلى النسب في مختلف مناطق السلطنة العثمانية.

ب ـ ساهمت حركة التجارة الناجمة عن ربط جبل لبنان بالرأسمال الأجنبي وبالسوق الرأسمالية الدولية في توليد حركة نزوح واسعة بإتجاه بيروت التي تضاعف عدد سكانها عدة مرات منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى. لكن فرص العمل في بيروت وباقي المدن الكبرى كطرابلس وصيدا لم تكن كافية فاتسعت حركة الهجرة إلى الخارج خاصة بعد أن عادت أعداد كبيرة من المهاجرين اللبنانيين وقد جمعوا ثروات كبيرة واستخدموا قسماً منها في بناء المنازل والمؤسسات التجارية والمالية والحرفية والفنادق بالإضافة إلى شراء الأراضي على نطاق واسع.

ج ـ لقد تضافرت عوامل الإستقرار الداخلي، ونشاط بعض المتصرفين في مجال شق الطرقات والعمران والخدمات الصحية والإدارية والإجتماعية والثقافية، وإنتشار البحبوحة المالية عبر بيع إنتاج الحرير وأموال الإغتراب، وتوظيف الرأسمال الأجنبي في بعض قطاعات الإنتاج، ساهمت تلك العوامل مجتمعة في تطوير جبل لبنان على مختلف الصعد. وتحولت بعض القرى إلى قصبات سكانية تضم عدة آلاف، كما تحولت بعض المناطق الجبلية إلى جنائن غناء، و زالت مخاطر قطاع الطرق واللصوص بشكل عام، وخفت حدة التناقضات الطائفية التي شهدها جبل لبنان خلال سنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠، ونشط العمل السياسي عبر مجلس الإدارة الكبير الذي ضم ممثلين عن الطوائف الست الكبرى في الجبل. باختصار شديد يمكن القول أن تلك المرحلة تشكل نقلة نوعية في تاريخ النظام السياسي والمجتمع في جبل لبنان. فقد ولد نظام سياسي، يقوم على تدامج الزعامة العائلية بالزعامة المناطقية والزعامة الطائفية إلى جانب الغنى الموروث أي وفرة الأراضي بالدرجة الأولى.

وهناك أمثلة عديدة على أن بعض أعضاء مجلس الإدارة كانوا مجرد موظفين يرتبطون مباشرة بالمتصرف. في حين أن أبناء الأسر الإقطاعية العريقة كانوا قادرين على مواجهة المتصرف وحشد أنصارهم وراءهم ومنع قرارات المتصرف من أن تطبق في مناطق نفوذهم ما لم يوافقوا عليها مسبقاً من جهة، وما لم يشاركوا في تنفيذها من جهة أخرى.

نتيجة لذلك تحول الزعيم العائلي السابق إلى زعيم لمنطقة وأحياناً إلى زعيم للطائفة بأسرها. وهذا التقليد ما زال ساري المفعول حتى الآن رغم مرور أكثر من قرن وثلث القرن على ولادة مجلس الإدارة الكبير لمتصرفية جبل لبنان، ورغم تعاقب البرلمانات في لبنان عبر حقب المتصرفية ولبنان الكبير ولبنان المستقل.

نشير كذلك إلى أن نظام الضرائب لم يكن يطبق بالتساوي بين اللبنانيين بل كان الفقراء يدفعون أحياناً الضريبة مضاعفة عدة مرات، للحكومة، وللزعيم الإقطاعي، ولرشوة الموظفين. وقد تعددت تلك الضرائب حتى جاوزت السبعين ضريبة كانت ترهق كاهل الفلاحين والأجراء وصغار المنتجين.

ونشير كذلك إلى تطور العمل الصحفي إبان تلك المرحلة وذلك بالإرتباط مع زيادة نسبة المتعلمين، وعدد المدارس، ونشاط الطباعة، والإرتباط الوثيق بين وفرة الصحف في جبل لبنان وإزدياد عددها في مصر والسودان، خاصة في الصحافة التي أسسها وادارها لبنانيون في وادي النيل. ولعبت تلك الصحف دوراً ملحوظاً في التثقيف الشعبي، وفي الترجمة، وفي الإعلام. وترقى النهضة الصحفية في لبنان الكبير بجذورها إلى تلك المرحلة بالذات، لا سيما بعد إعلان دستور ١٩٠٨ في السلطنة العثمانية والذي أباح إلى حد ما، حرية النشر والتأليف وتأسيس الجمعيات السياسية والمهنية.

لكن تلك الإيجابيات الكثيرة لا تخفي السلبيات التي رافقت التبدلات الاجتماعية في جبل لبنان إبان تلك المرحلة. فقد تعزز الولاء الطائفي إلى جانب الولاء العائلي في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية. ونشطت الإرساليات التبشيرية بشكل واسع في تلك المرحلة، كذلك نشطت دعوات التغريب الثقافي وإطلاق مقولات تهدف إلى تحويل جبل لبنان وبيروت إلى قطعة من أوروبا على غرار شعار الخديوي إسماعيل بتحويل مصر كلها إلى قطعة من أوروبا.

لقد استخدمت الثقافة والمدارس والإرساليات وحركة التبشير وتعليم اللغات والصحف والمطابع والحركة المسرحية وغيرها بهدف إطلاق حركة تغيير واسعة في مختلف البنى الإقتصادية والإجتماعية. لكن قوى التغيير كانت هشة وتحاول تطبيق الكثير من الأفكار الجاهزة على مجتمع غير مستعد لها. لذلك بقي أثر تلك العوامل مرحلياً أحياناً وهامشياً في معظم الأحيان. وكثيراً ما كان دعاة التغيير يتركون قراهم وينتقلون إلى القصبات الكبرى أو إلى بيروت بشكل خاص. ونتج عن ذلك أن نشأ مجتمعان لبنانيان وليس مجتمعاً واحداً أي مجتمع بيروت وضواحيها، ومجتمع الأرياف النائية من جهة أخرى.

وليس صحيحاً القول أن الإشعاع الثقافي والاجتماعي لتلك التبدلات قد وصل إلى جميع قرى ومناطق جبل لبنان المتصرفية. ولم تتبدل طبيعة هذه السمات في المراحل اللاحقة حتى أن لبنان ما زال يضم مجتمعين شبه متناحرين: مجتمع المدينة المتأثرة بأفكار الغرب وليبراليته ومؤسساته الصحية والثقافية والإجتماعية وشركاته المالية والتجارية، ومجتمع الأرياف البعيدة التي حافظت على الكثير من تقاليدها الموروثة وعاداتها في الأعياد والزواج والأحزان. أما أحزمة البؤس التي تحلقت حول بيروت في المراحل اللاحقة فليست سوى نماذج لمجتمع الأرياف النائية التي تم نقل سماتها الأساسية مع سكانها إلى ضواحي بيروت.

ومع تعايش هذين المجتمعين ضمن نظام سياسي يفتقر إلى الحد الأدنى من التخطيط والعقلانية في ردم الفجوة بينهما. ما زالت مشكلات لبنان السياسية والإدارية والإقتصادية والإجتماعية تتفاقم جيلاً بعد جيل وتجعل حلها بعيد المنال.

بعض الملاحظات الختامية

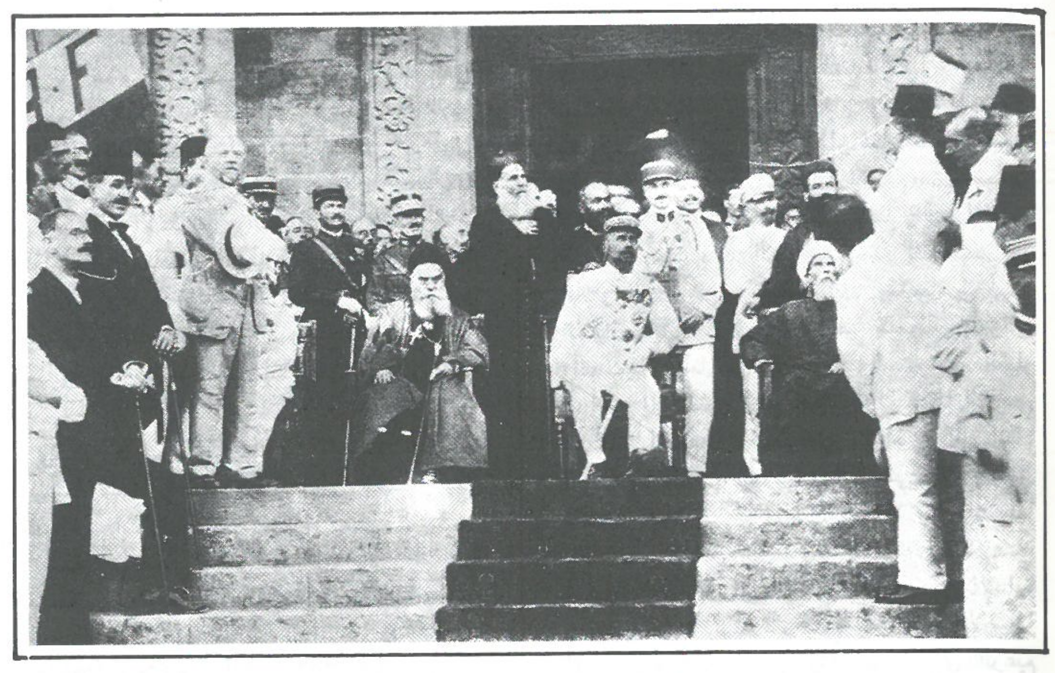
إن دراسة تحليلية معمقة لحركة التطور التاريخي في جبل لبنان إبان القرن التاسع عشر تبرز بالملموس الكثير من العبر التي أشار إليها ابن خلدون في تحليله للعصبية السياسية، والكثير من الدروس التي حللها يدخل في كتابه: «دروس التاريخ».

يكاد تاريخ النصف الثاني من القرن التاسع عشر لجبل لبنان يختلف كثيراً في سماته السياسية والإدارية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية عنه في النصف الأول منه. مرد ذلك إلى وفرة سمات التطور التي رافقت التبدلات الإقتصادية والإجتماعية في هذه المنطقة. وإذا كانت دراسة تلك التبدلات تحتاج إلى مجلد ضخم لرصد مختلف أسبابها ونتائجها فإن حدود هذه المقالة لا تسمح إلا بإبراز بعض سماتها الأساسية.

فمع قيام نظام المتصرفية انتهى حكم الإمارتين المعنية والشهابية في جبل لبنان والذي استمر أكثر من ثلاثة قرون. ورغم بروز أسماء من العائلة الشهابية في مجلس إدارة جبل لبنان فإن تلك الأسرة لم تعد تحكم الجبل منفردة ولا يحق لأبنائها توارث المراكز في إدارته. يضاف إلى ذلك أن أبناء هذه الأسرة عملوا جنباً إلى جنب مع أبناء أسر إقطاعية كانت تتوارث هي الأخرى زعامة مناطق وطوائف معينة لكنها لم تصل إلى المرتبة الأولى في حكم الجبل وكانت تخضع لنفوذ الأسرة الشهابية سابقاً.

ولعل من أبرز سمات التطور في هذا المجال أن قيام مجلس الإدارة في متصرفية جبل لبنان أوقف نزيف الدم الذي تعرضت له الأسر الإقطاعية من جراء خضوعها القسري لسلطة الأمير الحاكم. تكفي الإشارة إلى أن مرحلة حكم الأمير بشير الشهابي الثاني التي امتدت قرابة الخمسين سنة من أواخر القرن الثامن عشر حتى عام ١٨٤٠ شهدت إعدام عشرات الزعماء من الأسر الإقطاعية ومنهم عدد كبير من الأسرة الشهابية نفسها، لا بل من أشقاء الأمير الحاكم الذين تمت تصفيتهم الجسدية على يديه في معركة الصراع على السلطة. دلالة ذلك أن نظام الحكم في جبل لبنان تطور من ممارسة السلطة بالقوة وإعدام الخصوم حتى ولو كانوا من أقرب المقربين إلى الأمير الحاكم، إلى ممارسة الحكم بالطرق السلمية والسماح للمعارضة السياسية بإبداء الرأي بحرية نسبية، مع الإشارة إلى أن الحاكم نادراً ما كان يولي أي اهتمام لرأي المعارضة. وهذه السمة ما زالت ترافق تاريخ لبنان المعاصر حتى اليوم لأن السلطة فيه مجال تجاذب بين حاكم يريد التفرد بها ومعارضة تريد إيصال رأيها لحمل الحاكم على تغيير سياسته بالطرق السلمية في معظم الأحيان، أو بالثورة المسلحة إذا لزم الأمر على غرار ثورة ١٩٥٨.

من جهة ثانية، يقدم نموذج التطور الإقتصادي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر صورة تختلف جذرياً عما كانت عليه حركة التطور في النصف الأول منه. فقد حاول محمد علي باشا فرض نظام مركزية الدولة



□ احتفال بإعلان دولة لبنان الكبير في الاول من ايلول ١٩٢٠. ويبدو الجنرال غورو يحيط به البطريرك إلياس الحويك ومفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا.

الإحتكارية الذي كان مطبقاً في مصر. وعمل على نقل خطوطه العريضة إلى جبل لبنان وباقي الولايات السورية. فظهر الإحتكار في مختلف الحقول الإقتصادية وتحولت الدولة نفسها إلى المزارع الأول والتاجر الأول، في حين تحول المنتجون إلى أجراء تابعين لأجهزة الدولة البيروقراطية وممثليها في المقاطعات.

لكن هذا النظام لم يتجذر إذ لم يستمر طويلاً لأن وجود محمد علي في سوريا لم يصل إلى عشر سنوات كانت في معظمها حروباً وصدامات دموية مستمرة مع الجيش العثماني وقوى العصيان والتمرد في الداخل. لذلك انهار نظام الاحتكار المدعوم من الدولة المركزية مع رحيل الجيوش المصرية عن بلاد الشام. وحاولت الإدارة العثمانية خلال مرحلة حكم عمر باشا النمساوي الإستفادة من مرحلة حكم محمد علي واحتكاراته لتزيد في جباية موارد الضريبية بحراب الجيش العثماني. لكن التجربة نفسها فشلت تحت ضغط حركات العصيان والتمرد في الداخل والمدعومة من القناصل وجيوش القوى الأوروبية المتحالفة.

مع ذلك، فإن تنشيط زراعة التوت وإنتاج الحرير التي بدأت في عهد محمد علي استمرت بقوة في السنوات اللاحقة وذلك بالارتباط مع أسواق مدينة ليون الفرنسية. بعبارة أخرى، إن الاحتكار الذي عجزت إدارة محمد علي عن فرضه على اللبنانيين نجحت الاحتكارات الدولية في فرضه عليهم وربط انتاجهم تبعياً بتقلبات السوق الرأسمالية فبات لبنان منتجاً لسلعة واحدة معدة للتصدير هي الحرير ثم أضيفت إليها سلعة أخرى هي التبغ في عهد المتصرفية وهما سلعتان لا يساعدان على سد الحاجة إلى الإكتفاء الذاتي من الغذاء في الأزمات الاقتصادية الحادة على غرار ما حل بجبل لبنان في الحرب العالمية الأولى.

على الجانب الإقتصادي أيضاً برز تطور هام رافق إنتاج الحرير وتسويقه حيث ظهرت تبدلات أساسية في مجال حرية العمل، والإنتاج، والتبادل النقدي، والوساطة التجارية، وتوظيف الرأسمال في المصانع، والعمل المأجور لا سيما عمل النساء، واستيراد التكنولوجيا الحديثة لتطوير

الإنتاج، وإنتشار التسليف بفوائد فاحشة وغيرها. هذه التبدلات وغيرها شكلت الركيزة الأساسية للنظام الإقتصادي في لبنان الكبير ولبنان المستقل في القرن العشرين. حتى أن بورجوازية الحرير، والبورجوازيات المتشكلة من أموال الإغتراب والتسليف والمضاربات العقارية والوساطات التجارية واستغلال المراكز في الدولة وغيرها شكلت الأساس الصلب الذي بنيت وما زالت تبنى عليه شرائح البورجوازية اللبنانية الماركنتيلية منذ أكثر من قرن ونصف القرن.

وخلال هذه المرحلة بالذات ترسخت مقولات أساسية منها إن نظام التأمين أو الاحتكار، على إختلاف أشكالهما، لا يتلاءم مع «طبيعة» الإنسان اللبناني الذي «فطر» على المبادرة الفردية وحب المغامرة. وتعززت مقولة الرأسمالية الحرة القائمة على مبدأ: «دعه يعمل دعه يمر» «Laissez Faire, Laissez Passer» المشهور في لبنان والتي شهدت تبدلًا في العالم الرأسمالي كله ووضعت لها ضوابط لعقلنتها ووضعها في خدمة المصالح العليا للدولة والمجتمع إلا في لبنان حيث ما زالت الرأسمالية فيه ترتدي طابع النهب المكشوف، والربا الفاحش، والمضاربات العقارية غير الخاضعة لأية رقابة، والاحتكار البشع، والرشوة، وفساد الإدارة، واستغلال النفوذ، والمحسوبية وذلك منذ المتصرفية حتى الآن. على الجانب الاجتماعي، برزت تبدلات أساسية بين مرحلة حكم محمد علي والمتصرفية. فقد زالت الكثير من القيود التي كانت تحد من مشاركة الطوائف المسيحية في الخدمة العسكرية. وتشكلت قوى الأمن أو الضبطية من مختلف الطوائف اللبنانية تبعاً لنسبة مئوية ثابتة ومبنية على الحجم العددي لكل طائفة.

ومنذ حكم محمد علي لبلاد الشام تحولت الطوائف إلى مجموعات بشرية متساوية في الحقوق والواجبات. ورغم أن القوى المتضررة من حركة التطور في هذا المجال حاولت إفتعال صدامات دموية إلا أن النصوص القانونية لنظام المتصرفية كفلت هذا التطور فبدأت مسيرة العيش المشترك بين الطوائف اللبنانية على قاعدة ٦ و ٦ مكرر أي المساواة في عدد ممثلي الطوائف في بعض الإدارات. مع الإشارة إلى أن هذه القاعدة لم تحترم بشكل تام وكثيراً ما طبقت مقولة أخرى على أساس أن لكل طائفة الحق بعدد من المقاعد في الإدارات يتلاءم مع حجمها السكاني في المتصرفية. وما زالت الإدارة اللبنانية منذ ذلك الحين، عرضة للتجاذب بين التيار الداعي إلى تمثيل ثابت ومتساوٍ لجميع الطوائف في المراكز الأساسية للدولة كالبرلمان والحكومة ومناصب الفئة الأولى، وبين التيار الداعي إلى تمثيل الطوائف تبعاً لحجمها العددي للسكان المقيمين فعلًا على الأراضي اللبنانية. أما التيار الثالث، العقلاني العلماني، الذي يقول بتطوير الإدارة على قاعدة ثابتة لا تولي إهتماماً لتمثيل الطوائف بل فقط للكفاءة والنزاهة، فما زال خارج دائرة التأثير المباشر على الإدارة اللبنانية ذات الوجه الطائفي الواضح بالإضافة إلى طابع المحسوبية والإنتساب إلى الزعيم السياسي.

من ناحية أخرى، فإن النهضة العلمية التي أطلقها محمد علي في مصر قد انعكست إيجابياً على بلاد الشام، خاصة على جبل لبنان. حتى أن عدداً من أفراد البعثات التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا كانوا من الشوام بشكل عام ومنهم لبنانيون تحديداً. وقد عرف عن محمد علي حبه لتنشيط التعليم والمدارس على اختلاف أنواعها الإبتدائية والتكميلية والثانوية والمهنية والعليا. وارتبطت بحركة التعليم هذه قطاعات ثقافية هامة منها المطابع، والصحف، والمجلات، والجمعيات الأدبية، والمسرح، والفنون وغيرها. وشكلت مصر حركة استقطاب أساسية لعدد كبير من اللبنانيين خدموا الصحافة المصرية والمسرح والفنون فيها خدمات كبيرة حتى قيل أن قطاع الصحافة كان شبه احتكار في مصر للبنانيين.

نشير كذلك إلى ولادة الجامعتين، الأميركية واليسوعية، في بيروت، وهما أولى الجامعات العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في حين أن الجامعة المصرية تأخرت ولادتها حتى مطالع القرن العشرين. وهذا التطور

الثقافي البارز جعل من بيروت مركز استقطاب ثقافي لا يقل أهمية عن مصر منذ القرن التاسع عشر حتى اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥.

تجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن حركة التطور الإجتماعي والثقافي في جبل لبنان لم تنفصل عن الحركة المماثلة لها في بيروت لدرجة يصعب الفصل بين بيروت وجبل لبنان منذ تلك المرحلة طالما أن بيروت كانت العاصمة الفعلية لمتصرفية جبل لبنان في مختلف النواحي. يكفي القول أن المتصرفية لم تضم مدناً كبيرة تستطيع إطلاق نهضة إقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية فكانت بيروت بمثابة الرئة التي يتنفس منها جبل لبنان إبان مرحلة المتصرفية ولبنان كله منذ إعلان دولة لبنان الكبير ١٩٢٠. أما روابط جبل لبنان بالمدن اللبنانية الأخرى كطرابلس وصيدا وبعلبك وصور فبقي محدوداً للغاية. مرد ذلك إلى أن بيروت كانت تعد لتكون منذ أواسط القرن التاسع عشر، مركزاً أساسياً من مراكز الإنتاج الإقتصادي والثقافي في المشرق العربي كله حتى قيل: «بيروت بوابة الشرق» وأيضاً: «بيروت مطبعة المشرق».

بقي أن نشير إلى أن بيروت كانت نافذة للتغريب في المشرق العربي كله. فقد شكلت أحد المراكز الثقافية الأساسية لحركة التلاحم الفكري بين الشرق والغرب. وحملت مطابعها وصحفها ومجلاتها عناوين بارزة لحركة التغريب والاقتباس عن شعارات الغرب كالحرية والديمقراطية والليبرالية والاشتراكية والشيوعية والقومية والديكتاتورية والأحزاب وغيرها.

ومن نافلة القول، أن دراسة ذلك التلاحم وتحديد المضامين الأساسية لهذه المقولات يحتاج إلى مجلدات كثيرة، ومنها ما هو متوفر فعلًا في المكتبات العربية. تكفي الإشارة هنا إلى أن جبل لبنان شكل أحد المراكز الأساسية لحركة النهضة العربية المبكرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد ساهمت عوامل داخلية واقليمية ودولية كثيرة في تنشيط هذا الدور بالارتباط الوثيق مع بيروت بحيث يصعب الفصل بينهما لأن الحركة السكانية من جبل لبنان كانت السباقة في الإنتقال منه إلى بيروت قبل إنتقال باقي أبناء الأرياف اللبنانية إليها، خاصة البعيدة منها. هكذا تدامجت حركة التطور الاقتصادي والاجتماعي في جبل لبنان مع الحركة المماثلة لها في بيروت فأعطت للتجربة اللبنانية طابعها المميز منذ قرن ونصف القرن. وهي حركة اتسعت لتشمل العمل السياسي، والأحزاب، والجمعيات، والنقابات، بالإضافة إلى الثقافة والفنون والخدمات الإجتماعية والصحية وأماكن الترفيه وغيرها.

لكن تلك الحركة، رغم الإيجابيات الكثيرة التي رافقتها، لم تستطع التخلص من بعض السلبيات التي كادت تؤدي بالإيجابيات خاصة إبان الأزمات الحادة. فقد تزامن التطور السياسي مع بقاء الإقطاعية قوية وفاعلة في مناطق تواجدها حتى أن بعض الزعماء الإقطاعيين فرضوا نفوذهم على الدولة نفسها بأشكال مختلفة. كذلك تعايشت النصوص الدستورية المتطورة مع الممارسة السيئة لدرجة دفعت ميشال شيحا — وهو خير من خبر التجربة السياسية اللبنانية — إلى القول: «أن الديمقراطية اللبنانية ليست سوى ديكتاتورية مقنّعة».

بعبارة أخرى، أن التطور الإقتصادي — الإجتماعي الذي شهده جبل لبنان ومناطق لبنانية أخرى منذ القرن التاسع عشر حتى الآن ما زال أسير نظام سياسي متخلف بلغ حداً من الجمود والتحجر لدرجة تهدد مستقبل لبنان كله على حد تعبير الدكتور سليم الحص.

وما لم يقترن التطور الإقتصادي — الإجتماعي بتطور سياسي مماثل فإن مخاطر إنهيار التجربة اللبنانية تبقى مخاطر حقيقية مهما طال الزمن. لأن ركائز التطور الثلاث مترابطة ولا يمكن فصل الواحدة عن الأخرى. تلك هي عبرة قرن ونصف القرن من تطور جبل لبنان، لا بد من تطور لبنان في جميع مناطقه. ●

الجبل: غمد «الأمة» وسيفها

صفحات في هوية الدروز الموحدين الاسلامية

غسّان الحلَبي
المجلس الدرزي للبحوث والإنماء

يتمثَّل الدروز رموزَ تاريخهم بصورةٍ معلَّقةٍ على حائط غالباً ما يكون صدر البيت، في القاعة التي هي قلب البيت. ويُحتفى بها في قاعة استقبال قصر الزعيم كما في البيوت المتلاصقة لأحياء القرية الجرديَّة. في الجبل كما في الجليل، وفي مضارب القوم على سفوح جبل السمّاق كما في دُورهم الجميلة إن هم تغرَّبوا في المهاجر البعيدة. إنها صورة قائد الثورة السورية الكبرى سلطان باشا الأطرش. ولا يهمّ هنا تاريخ الرجل الشخصي فقط بقدر ما هي ملامح سيكولوجيا جماعيّة خبيئة في الذاكرة التاريخيَّة للجماعة. هيبة الرجل الذكورية، الشاربان الواقفان، الكوفيَّة والعِقال فضلاً عن سِمات الغضب والشهامة والثورة. وإن تَنَوَّعَ الشكلُ أحياناً، كما صقرٌ على زندِ الرجل أو عمامة بيضاء على رأسه، فإنّ اكتمالَ المعنى تُحقِّقُه الصورةُ إذا ما كان القائدُ فيها على فرسه العربيَّة الأصيلة الصافنة أو الواقفة على قائمتيها الخلفيَّتين، والسيفُ العربيُّ في اليمين العاليةِ، ساطعاً كما هلال فضّي منير.

ما من صورةٍ اختصرت تاريخَ جماعةٍ كمثلِ ما فعلته صورة الباشا الثائر. ذلك أن المكانةَ التي تبوَّأها الدروزُ على صفحات تاريخ «جزيرة الشام» صنعَتْها سيوفُهم البارقة وسواعدهم المقاتلة دفاعاً ــ وبتوثيق تاريخي محقَّق ــ عن «الأُمَّـةِ» و«الجماعة» و«المرجع الشرعيّ» الذي كان يمدُّهم بشرعيَّة السلطة ويخوِّلُهم تدبير الأمور على مرِّ الحِقب التاريخيَّةِ وتبدُّل الدول والحكّام.

إنها «المثاغرة»، تلك المهمَّة الجليلة التي دمغت طابعَ الدروز التاريخي بسِمتها ما تحمله من معاني القتال والجهاد والمرابطة التي باتت مثل جذورٍ حيَّة للشخصيَّة الجماعية الدرزيَّة وعنفوانها الأثيل، دون التفاتٍ إلى ما قِيل ويُقال. فقد صارت عادةً عند الدروز أن «يصنعوا التاريخ وغيرهم يكتبه». ولم يتوهَّج شِعارُ «العِرض والدين» ــ كما يحتفلُ به الدروز ــ مثل ما عندهم توهَّج، في منطقِ الدفاعِ عنهما والذبّ عن حِماهما حتى بات من الشهرةِ بمكان أن مفهوم «الموت» عند الدروز تخطّى حاجزَ الخوفِ والرهبة إلى طقوسِ الشوقِ والالتحام:

منها فتين على الردى وشِعارهم
اليوم أفضل من غدٍ يا فانِ

وفي ذروةِ التعبير عن افتخار الدروز بتاريخهم وأصل عقيدتهم، وبأبياتٍ كأنّها الحواشي الذهبيَّة حول صورة سلطان، يقول الشاعرُ الشيخ نايف تلحوق بلهجةِ العشيرةِ الجبليَّةِ الشاميَّة:

ويُوم أنْ بُعث هادياً من وُلْد عدنان
جِنًّا اهتدينا وباقي الناس ضلّون
كِنا «صحابة» وكانت الناس دشمان
واسلافنا الانصار في بدر كانون

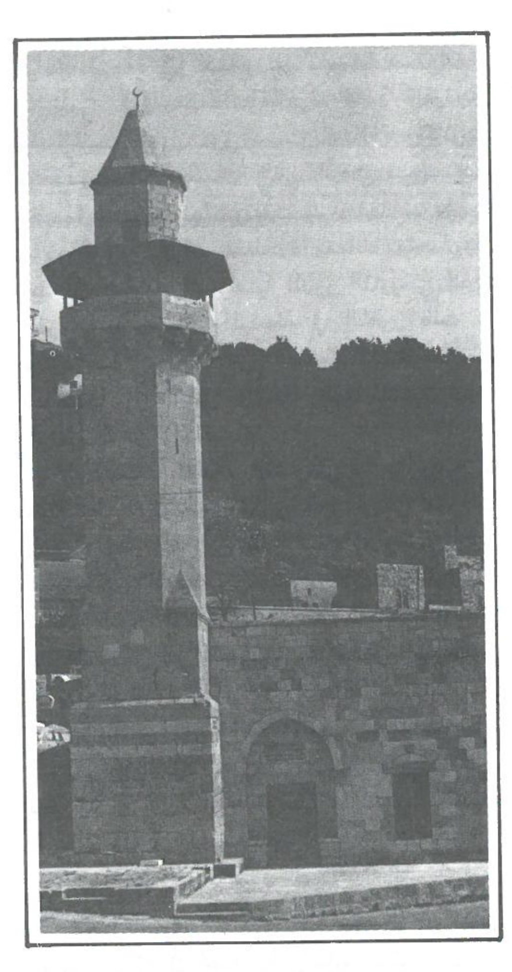
ويروح في قصيدةٍ طويلةٍ يمدح قومَهُ ويفتخر بأنّهم:

أمُّوا الجزيرة ملوك وصحاب تيجان
نصر ولخم ومناذرة تنوخ يكنون
جِنّا سلايل مجد وملوك وعيان
من يوم أوجد «كون» من كافا ونون

وينطلق كسيل نهرٍ هادرٍ في وصف أمجاد القتال ضد «الفرنجِ» و«الظَّلَمَة» والاستعمار الفرنسي في ملحمةٍ تراها في بعض البيوت بموازاة صورة قائد الثورة لتلخِّص بالرسم والكلمة سرَّ التماسُك الدرزي المعروفيّ في جذوره الأكثر عمقاً.

أحببتُ هذا المدخل للحديث عن التراث الإسلامي في الجبل لأنّه يعطينا بلمحةٍ بالغة التعبير المدخل الواضح لجوهر القلب الدرزي. إذ أن العشيرةَ المعروفيةَ منجذبةٌ إلى تاريخها بأكثر ممّا إلى إنطلاقة المستقبل. وما أريد قوله هو أن لا انفصام بين هذا التاريخ العابق بغبار القتال والحرب وبين العقيدةِ التي من أجلها ومن أجل الذبّ عن حياضها ثبت الموحِّدون في ثغورهم إلى يومنا هذا في دورٍ تتقمّصه الحِقب منذ ألف عام(١).

ودعونا نثير السؤال، بروحٍ تائقة إلى الإيجاب نافرة من السَّلب: لمَ لمْ تُثر قضيَّة التأويل التوحيدي لآيات القرآن الكريم إشكاليَّةً إسلامية إلّا في القرن الأخير رغم بروزها منذ عشرة قرون؟*



□ جامع الأمير فخر الدين المعني ــ أثر إسلامي بارز

وفي معالجتنا للقضايا التاريخية التي يثيرها هذا السؤال نستعرض تراثَ الجبل الإسلامي ونتقصَّى جذور المشاريع المشبوهة كي لا نقع في وتيرة السرد التاريخي المألوف والمثبت في كثير من المراجع الموثوقة والمتوفِّرة والمذكورة في هوامش هذا البحث.

* * *

إذا ما ستثنينا بعض الصراعات المحليَّة بين زعماء الإقطاع فيما بينهم من ناحية، وبينهم وبين الولاة «الإقليميين» من ناحيةٍ أُخرى، لوجدنا تاريخ القبائل العربيَّة التي استوطنت «ثغور الشام» منذ القرن الثاني للهجرة وحتّى منتصف القرن الماضي تاريخاً ملتحماً بالدور الذي أوكلته

أيّاها «الأُمَّةُ» في الدفاع عن ثغورها ضد الغزو الأجنبي. إنها مهمّة «المثاغرة» لصدّ الفرنجة. وقد تقلّبت الدول فوق دسْت الخلافة وتكاثرت، وتعـدَّدت العصبيّـات التي ادَّعت تـجسيـد «الجماعة» وتمثيلها. وتفتّت ــ واقعاً ــ مفهومُ «الأُمَّة» إلى ولايات متناحرة وممالك متصارعة، بيد أنّ الطبائع السياسيَّة للدور التاريخيّ الذي التزمت به القبائل المرابِطة في الثغور ظلّت في جـوهرهـا مستمدَّة من السلطةِ المستنـدةِ من شرعيَّتها إلى تمثيل «الأُمَّة» مهما تلاعبت بهـا عوامل الوهن والانقسام.

لقد استمدّ الحكمُ التنـوخيّ ــ بفروعـه ــ طيلة ما يقارب ستة قرون من الزمان مقوّمات وجودِه وشرعيَّته من تلك السلطة، وسلَّم أمانةَ الحُكم إلى أقربائه «المعنيين» لأنهم قاتلوا إلى جانب الذين استولوا على السلطة إيّاها فصار لهم السلطان على المسلمين. ولمّا خَلْخل الشهابيُّون الذين استلموا دفّة الإمارةِ هذا الإرتباط، قام الدروزُ بالدور عينه الذي قام به أجدادُهم، غير أن السلطانَ بات «الرجل المريض»، والطامعون بميراثه لعبوا تقنيَّة الطوائف والمذاهب مُقحمين السياق كلّه في بداية النفق.

* * *

يتحدَّر الدروزُ الموحِّدون في أنسابهم من قبائل عربيَّة عريقة في أصلابها وأصيلة حتّى بات من نوافل القول «تأكيد المؤكدَّ أو إثبات الثابت»[٢]. فالدروز في النسب عرب أقحاح لا يوجد في العرب الجالين عن جزيرة العرب أصحّ عروبيَّة منهم[٣]. وبات متواتراً في المصادر تعداد هذه الأنساب.

فمن القبائل التي استقرَّت في بلاد الشام قبل الإسلام وتحدَّر منهـا الدروز تيم الله أو (تيم اللات) التي هاجرت أوّلًا من الجزيرة العربيّة إلى وادي الفرات ثم استقرَّت في المكـان المعروف اليوم بوادي التيم في جنوب لبنان، ومنها قبيلة لخم التي استقرَّت في الحيرة وإليهـا ينتسب الأمراء الإرسلانيّـون والبحتريـون التنوخيُّـون الذين حكموا لبنان خلال القرون الوسطى. ومنها قبيلة طيء التي استقرّت في الأطراف الجنوبيَّة من بلاد الشام، وقبيلة ربيعـة النجديَّـة التي ينتسب إليها بنو معن وكذلك بنو جندل الذين ينتسبون إلى قبيلة تميم. وتفتخر بعض العائلات الدرزية بنسبها العريق كآل نكد إلى بني تغلب وآل تلحوق إلى بني عزّام وهم فرع من قبيلة الأزد وآل عبد الملك إلى بني شويزان وآل ناصر الدين والقاضي إلى تنوخ[٤]... وتحتفظ إحداها بسجلّ هو كناية عن مجموعة أوراق قديمة وحجج صادرة عن قضاة الشـرع في معرَّة النعمـان ودمشق وبيروت وطرابلس وصيدا تتعلّق بنسب الأرسلانيين وأخبار اللخميين الذين قدموا إلى لبنان سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩ م. حافل بأقدم الأخبار وأوثقها عن اللخميين جدود الفرع الأرسلاني منذ الفتح العربي الإسلامي لبـلاد الشام[٥]، اصطُلح على تسميته «السجلّ الأرسلاني».

وإذا عـدنـا إلى المصـطلح الخلدونـي في «العصبية» اللاحمة لأسـاس الحكم وجدنـاها ترتكز على أُسَّيْن جوهريين هما النسب والدين. فالنسبُ عربيٌ صُراح، والدينُ توحيدٌ مستمدٌّ من كتاب الله العزيز ومستظل رمز الدعوةِ المحمّدية والإسلام الحنيف على ما قال الأمير شكيب:

وليس لنـا غيـر الهـلالِ مـظلة
يـنـال لديـهـا العـزّ مـن هـو آمِـلُه

وتلك عصبيةٌ سادت وجاهدت وأرْست تقاليد الدروز وتراثهم بمُجمله على إنطواءٍ حميم يحضن عقيدتهم في التأويل بما لا يمسّ وحدة «الجماعة» ويُثير حساسيّتها المذهبيَّة.

لقد كانت فـاتحة السجـلّ التاريخي لمهمّـة «المثاغرة» عندما تسلَّم العباسيُّون الخلافةَ وبعدت المسافة بين بغداد عاصمة العباسيين وسواحل الشام، فأكثر الرومُ من مهاجمة السواحل. كان ذلك في عهد قسطنطين الخامس كويرونيمـوس (٧٤١ ــ ٧٧٥ م). فأرسل أبو جعفر المنصور حوالي عام ١٤١ هـ/٧٥٨ م عشائر تنوخيَّة من معرَّة النعمان إلى المناطق المحاذية لبيروت. وكانت هذه العشائر، كما يـذكر السجـلُّ الأرسلاني، بقيـادة الأمير منـذر بن مالك بن بـركـات بن منذر بن مسعود بن عون اللخمي التنوخي. وكان برفقته أخوه أرسلان بن مـالك وأبناء إخـوته حسّـان بن خـالد وفـوارس بـن عبـد الملك وعبد الله بن النعمان[٦]. تبـع ذلك تدفّق بعض العشائر من مناطق أُخرى لتستقـرّ في الثغور

وتتحمَّل عبءِ المهمّة ذاتها.

يبدأ سجلُّ مآثر الدروز في جَبَلهم من أولئك الأمراء التنوخيين الأوائل الذين قـدموا إليـه بمهمّة سامية. فقد اشتهر الأمير منذر بن مالك بالشدّةِ والشجاعة، وبذلك اشتهر الأميرُ ارسلان أيضاً حتى قال فيه أحدُ معـاصريـه ورفاقـه اسحق بن حماد النميري أنه «مِن اشجع مَنْ أدركناه من فرسان العرب الضراغم» وكان إلى ذلك عالِماً يهاب العُلماء وقد تتلمذ عـلى الإمام أبي عمرو الأوزاعي. وقد حكى اسحق أيضاً، وكان خادم تراب الإمام الأوزاعي، أن الأمير أرسـلان، لما ووري الإمـام الأوزاعي التـراب خاطبه قائلًا: «رحمك الله ابا عمرو فوالله لقد كنت أخافك أكثر من الذي ولّاني»[٧].

لقد كان أجداد الدروز الموحِدين آنذاك في فترةٍ سابقةٍ على التمذهب التأويلي التوحيـدي الذي سيحصل لاحقاً في أوائل القرن الخامس للهجرة. تأويل لن يحولَ دون الإهتمام بالإمام الذي أثار اهتمامَ السَّلَف، لأنه ليس انقطاعاً في العقيدةِ عمّا سبق، وإنمـا هو تبحُّـر في معنى الكتاب أقرب ما يكون إلى استبطانه وتثـويره وسبر أغواره على ما جاء في حديثِ عبـد الله: أثيروا القرآنَ فإن فيه خبرَ الأوَّلين والآخرين، وشرح شَمِرٌ فقال: تثوير القرآن قراءتُهُ ومفاتشةُ العلماءِ به في تفسيره ومعانيه[٨]. لهذا نرى أن الأمير صالح بن يحيى، وبعد حوالي سبعة قرون يتلمَّس آثارَ السلف ويبدي اهتماماً لافتاً بالإمام الأوزاعي واصفاً إيّاه بأنه كان «عظيم الشأن بالشام وأمره فيهم أعزّ من أمـر السلطان... وقـد جعلت له كتابـا يتضمَّن تـرجمتـه...»[٩] ولا غروَ في ذلك، فالخلَف هنا يتقصّى آثار أستاذ السَّلَف في تراثٍ حي متواصل من غير انحراف ولا تبديل.

على كل حال، فإن المعارك مـع المردة ابتدأت في الفترةِ الأولى للوصول، منها معركة حاسمة معهم سنة ١٧٥هـ/٧٩١م انتصر فيها الأمـير سعـود بن أرسـلان الذي كـان يقـطن سن الفيل.[١٠]

والأمـير ذاته رافق الخليفـة المأمـون مـع فرسانه إلى مصر واشترك معه في حربه ضد الأقباط سنة ٢١٦هـ/٨٣١م، ولشجاعته فيها ولّاه الخليفةُ العبّاسي، بالإضافـة إلى إمارة الغـرب التقليدية، ولاية صيداً ومقاطعة صفد[١١]. وتابـع ابنه الأمير النعمان سجلّ المآثر بتصدّيه للمردة عند نهر بيروت شرقي المدينة وانتصاره عليهم فبعث له الخليفة العباسي بكتاب يمدحه ويقرّه على ولايتـه كما أهـداه سيفاً وشعـار العبّاسيـين الأسود[١٢].

لن نتـابـع هنا تسلسـل الأحـداث بشكـل كـرونولوجي معـروف، وإنما يمكِّنُنـا استقراء السياق التاريخي لها من استخلاص مؤشّراتها بشكل عام. فشرعيَّةُ حكم الأمراء التنوخيين ظلّت مُستمدَّة من شرعية الدول المتعاقبة على تملُّكِ السلطة في عواصم الإسلام التاريخية، وهي دول وقـوى تنازعت السلطان وظلّت محـافظة عـلى صوريّة وجود الخلافة ليُمكّنها ذلك من إدّعاء تمثيل «الأُمَّة». وعلى أساس هذا التمثيل، وبحكم الأمر الواقـع، كانت تشرع على التـوالي حُكمَ الإمارةِ بالكتب والمناشير. ولا يمنـع هـذا من اعتبارِ هذه الوثائق ذوات أهمية تاريخيَّة بالغة بما تمثِّله من ارتباط دور أبناء الجبل القدامى بالسياق التاريخي العام لديار الإسلام.

لذلك فإننا نجد أن البعض دأب على توثيق تلك الرسائل التاريخيَّة بما يُشبه طقساً احتفاليّاً بعنفوان السلالةِ وفخـرها يستمـدّ روعته من النسخ الحيّ للتاريخ ذاته. وإلّا كيف لنا أن نفسِّر ذلك الهاجس الذي حثّ أجيالًا عديدة متعاقبة على جمـع تلك الوثائق وتصديقها من قضـاة الشرعِ في مدنٍ عدّة عبر القرون والحقب، فكانت الوثيقةُ تنتهي على سبيل المثال بما يلي: «هذا ما ثبت بين أيادي سيدنا ومولانا قاضي قضاة المسلمين مُحيي الملّة والدين أبو المعالي محمّد المذكور في أوّل النسب وفّقه الله للحكم بما يرضاه وذلك أمام الأسياد والعدول الآتي ذكرهم غفر الله لهم. كُتـب في رجب سـنـة خمس وتـسعـين وخمسماية والله سبحانه أعلم»[١٣]. وعلى هذا المنـوال تتمّ المصادقـة عـلى وثـائق «السجـل الأرسلاني» المُحتفى به إلى يومنا هذا إلى حدّ نسخه بخط يد أميرةٍ بالذات[١٤].

مرجـع آخر يحفظ لنا هيبةَ ذلك التراث وصلتَه بالمرجعية الإسلامية العُليا عبر الوثائق والمناشير

هو مخطوط الأمير صالح بن يحيى المُسمّى بعد طباعته «تاريخ بيروت» ولربما لو لم ينقرض فرعُ الأمير في السلالة لكان تاريخه بدوره يُنسخ باليد إلى يومنا هذا.

ومن طبيعة الأمور، ما لم نُلقِ عليها أحكاماً تعسُّفية، أن نعتبر هذه السجلّات وثائق إثبات هويَّة التراث الذي عاش عليه أبناء الثغور المجاهدين عبر الحقب والعهود. ولا بد من العودة معها إلى الفترة التي سبقت ظهور الإسلام حيث نرى أن «المعطيات التاريخيَّة تشير إلى أن المملكة التنوخيَّة التي كان يمتدُّ سلطانها من الحيرة شرقاً إلى بلاد الشام غرباً إلى نجران جنوباً، كانت في وقتٍ من الأوقات تسيطر على معظم الجزيرة العربية»[١٥]، وإلى تلك الفترة يشير الشيخ نايف تلحوق في قصيدته وفي البيت الذي ذكرناه سابقاً حين يعدّد بطون «نصر ولخم ومناذرة تنوخ» ويكمل فيقول:

الحيرة بنوها وضمنها شاد نعمان
قصر الخورنق والسدير هِن شادون
بذي قار هاني ساد من آل شيبان
يوم أن سلفنا جيوش كسرى تَقفُّون

ويتابع في أبيات ذُكرت سابقاً أن تلك القبائل اهتدت بهداية «ولد عدنان» عندما كانت الناس «دشمان» أي أعداء، ثم يقول:

عمّار والمقداد منّا وسلمان
الآيات عنهم والأحاديث يَتلُون
وجِنّا نخاف الله ونَدين بإيمان
وجِنا نطيع الله لو الناس عصيون...

وهكذا نرى تأثير السجلّات المذكورة في العنفوان الشعبي وتعلُّق «العصبية» المعروفية بتراثها، هذا التراث الذي يرتبط أيضاً بأيام الفتوحات المجيدة.

فالسجل الأرسلاني يذكر أيضاً أن عون بن المنذر كان مع خالد بن الوليد عند قدومه إلى الشام، وقد اشترك في واقعة أجنادين عام ١٣ هـ/٦٣٤ م حيث جُرح ومات. وحضر مسعود بن عون بن المنذر واقعة اليرموك بألف وخمس مئة فارس من أصحابه وقاتل قتالاً شديداً. ثم أن أبا عبيدة بن الجرّاح أسكن هؤلاء المقاتلة في معرّة النعمان القريبة من حلب[١٦].

وما لبث الخلفاء أن أبدوا اهتماماً كبيراً بالثغور منذ أيّام معاوية، فكان لتنوخ حظوة لديه[١٧]. ورأيْنا بعدها ما كان من أمر أبي جعفر المنصور وإرساله بعض العشائر إلى السواحل وما كان من أمر الأمير مسعود بن أرسلان مع الخليفة المأمون.

وإذا ما تتبَّعنا مجرى الأحداث بعد الضعف الذي أصاب وحدة الخلافة العباسيَّة وتفكّكها إلى دول متنازعة مع الإبقاء على رمز الخلافة، نرى أن السجّلات تحوي كما ذكرنا آنفاً ما يُفيد عن تواصل الإمارة الجبليَّة مع تلك القوى في إطار مهمّة «المثاغرة»[١٨].

فها هو طغتكين مؤسِّس السلالة البورية ذات الأصل التركي والتي حكمت دمشق من سنة ١١٠٤ إلى ١١٥٤ م يكتب إلى الأمير مجد الدولة محمد بن عدي التنوخي سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٦ م كتاباً يوليه الإمارة فيشتدّ ساعدُه ويبدأ بغزو الإفرنج[١٩]. كذلك يكتب مجير الدين أبق ملك دمشق منشوراً إلى الأمير ناهض الدين أبي العشائر بحتر بن عضد الدولة يأمره أن يبقى على رسومه المستمرّة في القرى المعروفة به وباجداده ويحثّه على الغزو والجهاد والمحافظة. وهذا الأمير هو الذي هزم الإفرنج في واقعة رأس التينة عند نهر الغدير جنوب بيروت سنة ٥٤٩ هـ/١١٥١ م وقُتل منهم خلق كثير «وترادفت غزواته عليهم حتى بلغ الشهرة العظيمة» كما يقول الشدياق[٢٠].

واتَّبع الزنكيون السياسة ذاتها مع التنوخيين، فقد أرسل الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في ١٤ ربيع الأوّل سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م «مرسوماً مطلقاً» إلى الأمير زهر الدولة كرامة بن بحتر الجميهري التنوخي يحثّ فيه على طاعته ومعاونته «في جهاد الكفّار»[٢١]. كما أرسل له منشوراً في ٧ رجب سنة ٥٥٦ هـ/١١٦٠ م يزيد له اقطاعه[٢٢]. ذلك لأن أبا العز زهر الدولة كرامة كان ممَّن يعتمد الملك العادل نور الدين عليهم في حربه ضد الفرنجة وهو الذي كان من أقدر الأتابكة الذين حاربوهم إلى حدّ أن عدّه الفرنجة كما يقول رونسيمان «عدوّهم الرئيس»[٢٣].

ثم وقعت أسرة الأمير زهر الدولة وعشيرته في محنةٍ قاسيةٍ عندما اجتاح الفرنجةُ بيروت بعد مكيدة أرّخها الأمير صالح بن يحيى في ١١ شوّال سنة ٥٦٩ هـ. ولمّا قدم السلطان الناصر صلاح الدين إلى خلدة في ١١ جماد الأوّل سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م لاسترداد بيروت من الفرنجة، لاقاه الأمير جمال الدين حجي بن الأمير زهر الدولة إلى خلدة واشترك معه في فتح المدينة. ويقول صالح بن يحيى أنه «لما فتح السلطان بيروت لمس بيده رأس حجي وقال له: قد أخذنا تارك من الفرنج، طيِّب قلبك، أنت مستمرّ مكان أبيك واخوتك» وكتب له منشوراً[٢٤].

يذكر صالح بن يحيى أيضاً مكاتبات من السلطان الملك الأفضل نور الدين علي بن الناصر بن أيوب إلى الأمير حجي، كذلك من الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، كذلك من الملك الصالح نجم الدين أيّوب سلطان مصر ودمشق إلى الأمير نجم الدين محمد بن حجي بن كرامة، ومن الملك الناصر صلاح الدين يوسف سلطان حلب ودمشق إلى الأمير جمال الدين حجي بن نجم الدين بن حجي[٢٥]، ما يدلّ على علاقة وثيقة بسلاطين تلك الحقبة الأيوبيين من السلَف إلى الخلَف.

العلاقة مع المماليك

استمرت العلاقة مع أصحاب السلطنة المُتداولة بعد سيطرة المماليك على مصر، فقد أرسل الملك المعز عز الدين أيبك زوج السلطانة شجرة الدر، أوّل السلاطين المماليك في مصر سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م منشوراً إلى الأمير سعد الدين خضر بن محمد بن حجي بالرغم من أن سلطته لم تكن قد امتدّت بعد إلى بلاد الشام[٢٦].

والأمر ذاته حصل بعد أقلّ من ثلاثة أشهر من سقوط دمشق بأيدي المغول في ربيع الآخر سنة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م، فقد أصدر كتبغا نائب هولاكو منشوراً يقرِّر فيه جمال الدين حجياً على اقطاعه الذي كان قد أقطعه إيّاه الملك الناصر الأيّوبي وقد خاطبه «بالأمير الأجلّ الأوحد الأعزّ المختار جمال الدين عمدة الملوك والسلاطين حجي بن محمد بن أمير الغرب أدام الله تعالى تأييده وتمكينه وتمهيده»[٢٧]. وتسلَّم الأمير زين الدين صالح من المغول أيضاً الخِلع والهدايا.

وحفاظاً على «إصلاح الحال»، إبّان تصارع القوى الكبرى، توجَّه الأمير زين الدين صالح إلى معسكر المماليك في عين جالوت وشاركهم نصرهم التاريخي على المغول بعد أن قاتل قتال «شجاعة وفروسيَّة» فنال الحظوة أمام الملك المظفَّر قطز بعد أن أخبره المقاتلة عن بطولته[٢٨].

نعود لنلقى الوتيرة ذاتها في بعث المناشير والكتب. فبعد استيلاء الظاهر بيبرس على السلطنة، أقرَّ الأمير جمال الدين حجياً على معظم إقطاعه الذي كان له بعد أن زاد عليه قرى أخرى[٢٩]. وقد حرص بيبرس الذي عُرف عنه مجالدته للفرنجة وصراعه الطويل معهم وانتصاراته الأسطوريّة عليهم على تعزيز مهمّة «المثاغرة»، فكان لنائبه على الشام جمال الدين أقوش النجيبي عدّة مكاتبات إلى الأمراء يحثّهم فيها على القيام بمهمّتهم[٣٠]. أراد الظاهر بيبرس بذلك أماناً له من خطر الثغور ليفرغ إلى حروبه مع القلاع الصليبيّة في الداخل ومع التتار الذين لاحقهم حتى الأناضول. وقد بعث بنفسه مرسوماً إلى الأميرين زين الدين صالح وجمال الدين حجي بعد أن تحقّق استحقاقهما للشكر والتكريم. ويذكر صالح بن يحيى نص المرسوم الذي يبدأ بالتوجُّه إلى «الأميرين المختارَيْن المحترمَيْن الأخصَّيْن المجاهدين... فخري القبائل والعشائر مجدي الأمرا اختياري الدولة عمدي الملوك والسلاطين...

وقد توطّدت العلاقة مع المماليك بعد بيبرس بعد أن شهدت تطوّراً أيّام السلطان الأشرف خليل والسلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث انضمَّت قوى الأمراء التنوخيين المُقاتِلة إلى الجيش لكي يؤلِّفوا حلقةً من حلقات الجيش المملوكي[٣١]. وقد أدّى هذا الإنخراط في

التشكيلات العسكرية المملوكية إلى إعادة تنظيم مهمّة «المثاغرة» التاريخيَّة المستمرّة منذ ما يُقارب خمسة قرون[٣٢].

يستمدّ القولُ الشعبي الدرزي «الدروز سيفُ الإسلام» جذورَهُ بالتأكيد من الفترة التنوخيَّة. وينبت جذعه سنديانةً صلبة في الأعقاب التي فاخرت بتراثها وحرصت كل الحرص ــ لا نصفه ولا ثلثه ــ على المحافظة عليه في حميميَّة أقرب ما تشابه طقساً مقدَّساً غير متنازع عليه. وإذا ما أضفنا إلى فترة حكم الإمارة التنوخيَّة تاجَها التي به أضاءت وتكرَّست حقيقةً حيَّةً في جوهر التراث التوحيدي، عنيت به الثورة الإصلاحية الإجتماعية الثقافية النيِّرة التي قام بها الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي لأدركْنا كم تتماهى الوثيقةُ التنوخيةُ في هيولى الشخصيةِ الدرزية التوحيدية ظاهراً وباطناً. وقبل الحديث عن الأسُس التي وضعها الأمير السيد (ق) للنظام الإجتماعي التوحيدي، يحسن بنا إستكمال السياق التاريخي ما بعد التنوخي في خطوطه العريضة.

«الدولة المعنية، التي هي بامتثال الشَّرع مَعنية...»

الخالدي

لن أدخل في تلك المتاهةِ التي اصطنعها المؤرّخون الموارنة للأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير، وإنّما سأتحدَّث باختصار عن التزام الأمير المعني بتراث عشيرته التزاماً ثابتاً بما لا يمنعه من أن يتملّك رؤيا ذات أبعاد حضاريَّة.

وأقول «متاهة» لأنه أُريد لقصّة الأمير فخر الدين أن تصبح أيديولوجيا الفكرة اللبنانية في جدلها العنيد مع محيطها العربي، فباتت كما قصّة الشرق الذي اصطنعه المستشرقون وفق ما أرادوا للشرقِ أن يكون[٣٣].

ولا أعتقد أن الشيخ أحمد بن محمَّد الخالدي الصفدي مؤرِّخ الأمير فخر الدين المعاصِر له استعمل التعبير لضرورة السجع عندما قال: «الدولة المعنية، التي هي بامتثال الشرع معنيَّة...»[٣٤] دون أن يعني ذلك حقّاً. ولربّما

نتأكّد من ذلك في السيرة التي ثبتها الشيخ الخالدي ذاته في تاريخه لأميره عندما كان الأخير لاجئاً في توسكانا.

فقد رفض الأمير أن يأكل «إلّا من ذبيحة المسلمين» وعيَّن له قصَّاباً من جماعته الحاج محمد قواس باشي ليتولّى شأن الذبائح[٣٥]. ثم أنه أقام الصلاة جماعة في رمضان في مقرّ إقامته الذي لم يمنعه من إجهار الأذان حيث كان له مؤذن هو أحمد صبايا في بيروت ممّا أثار حفيظة مضيفيه أكابر نابولي[٣٦]. ولم تمنعه الأزمة الحادّة التي نشبت معهم، عندما أراد مغادرة بلادهم والعودة إلى وطنه مهدِّداً بتفجير المركب، من المثابرة على صيام شهر رمضان وسائر أفراد عائلته[٣٧].

هذا فضلاً عن اهتمامه الزائد، أثناء حكمه في إمارته، برحلة الحج السنويّة التي كان يولي عليها أميراً، أحياناً أحد أولاده بالذات[٣٨].

وكان الأمير فخر الدين الكبير يحضر الصلاة في الجامع أيّام الأعياد الكبيرة ويرتّب في حاشيته العلماء والمؤذّنين[٣٩].

وقد بنى الأمير فخر الدين الجوامع عُرف منها جامع القاع في البقاع والجامع «البراني» في صيدا، وفي عهده أيضاً قام الأمير مُنذر بن سليمان بن علم الدين بن محمد التنوخي، أثناء ولايته على بيروت من قِبل الأمير علي بن فخر الدين المعني عام ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م بإنشاء المسجد المُسمَّى باسمه والواقع في قلب العاصمة بيروت (حالياً) في الوسط التجاري للمدينة بالقرب من المنطقة المعروفة باسم باب إدريس. وأما جامع دير القمر فقد بناه تنوخيّ آخر هو فخر الدين عثمان بن معن «أمير الأشواف» كما يصفه حمزة بن سباط[٤٠].

* * *

جامع المختارة

دخلت العلاقات بين الزعماء المحليين والولاة الإقليميين إبّان الحكم العثماني مرحلةً من الإضطراب والتشويش لِما شهدته من الدسائس والفِتن فيما بينهم. ولم تعد لمهمة «المثاغرة» تلك الأهمية القصوى نظراً لإنشغال أوروبا بمقاومة الإندفاع العثماني إلى قلبها بعد سقوط القسطنطينيّة وتهديد أسوار فيينا. وفي كل حال نرى أن تحوُّلاً أساسيّاً طرأ على السياق التاريخي لإمارة «جبل الدروز» كما كانت تُسمَّى آنذاك وذلك بعد انتقال الحكم فيها عن طريق ما يشبه «الشورى» إلى الشهابيين.

ومن دون استرسالٍ في سرد مجريات الأحداث التي شهدت إرهاصات الصراع على حكم الإمارة بين زعماء الإقطاع ومن ثمّ تطوّره واستفحاله إلى حدٍّ استنفار الحسّ الطائفي بتأثير من تدخّلات الدول الأجنبيَّة بشكل تصاعدي، فإنّنا سنتوقّف عند حدثٍ يرمز إلى نقطةِ تحوُّلٍ هامّة وصارخة التعبير فيما يخصّ مسألة التراث والصراع على هويّة الجبل.

لقد كان الأمير بشير الشهابي «لا يعقد محلولاً ولا يحلّ معقوداً إلّا بعد وقوفه على رأي الشيخ (بشير جنبلاط) واستطلاعه وجهة فكره ومنصرَف إرادته وذلك نظراً لما كان عليه الشيخ من السؤدد والمهابة ونفوذ الكلمة وعلو الشأن»[٤١] ولِما كان له من الفضل من توليته أميراً وتقديم «الدعم المالي والعسكري له لإثبات حكمه ونفوذه»[٤٢].

كان الشيخ بشير جنبلاط شخصية بلغت حدّ الأسطورة لِما تمتّع به من «العقل والذكاء والجود والسخاء والشجاعة والفصاحة والخِلال التي أقرّ له بها الأقران وصيّرته وحيداً في عصره وغُرَّة في جبين دهره حتى لقَّبه اللبنانيون بعمود السماء»[٤٣]. وكان الشيخ صاحب رؤيا نافذة في النظر إلى تاريخ عشيرته ومستقبلها في خِضمّ تصارع القوى من حولها بخاصّةٍ مع بروز تأثير العامل الأجنبي (حملة نابليون على مصر) وتفاعله في الداخل. ومن الطبيعي أن يسخّر نفوذه وثراءه واندفاعه الحيوي في خدمة بني قومه مع دعمه للأمير الحاكم. بيد أن الريبة نهشت قلبَ الأمير الشهابي فتطلّع إلى إثارة الخلافات بين أقطاب العائلات الإقطاعية الدرزيَّة تمهيداً لضرب سَمِيِّه.

يقول الشدياق المؤرِّخ المعاصر للأمير بشير: «بنى الشيخ بشير جامعاً في المختارة فانكاد الأمير منه جدّاً واستصوب تقوية اليزبكية»[٤٤] وليست الحال، فيما يخصّ بناء الجامع، كما حاول أن يصوِّرَه مؤرِّخو «الغرض الطائفي»، وإنما هي نهضة تستلهم تراثها كما رأيناه في السابق. وشكل الجامع كما هو في ذهنيَّة «عقّال» الموحِّدين لا يرتبط تحديداً بالهندسة المنطلقة إلى فضاء الفسحة الخارجية بقدر ما هو مرتبط بمفهوم «الداخل» فتبعثُ النفسُ فيها عن انسجامها في تكوير المنحنيات «العقدية» والشكل الموحي بالتواضع لقباب تنحني في خشوع كما تجسّده خلواتهم ومساجدهم المتواضعة وتكاياهم الصوفية. ويبدو أن الشيخ بشيراً أراد لجامعه أن يكون حائطاً بالمعنيَيْن ظاهراً وباطناً، فأقامه ببذلٍ وسخاء، وكان في كل حال جزءاً من نهضةٍ عمرانية أصابت القصور والجواسق والأقنيةّ الخ...

هكذا بنى الشيخ «جامع المختارة» عام ١٢٣٠ هـ/١٨١٤ م. غير بعيد عن قصره، على نسق جامع الجزّار في عكا، بمحاذاة القناة المائية التي أجراها من نهر الباروك[٤٥]. واستُعملت خمسة عشر قنطاراً من الرصاص في بناء قبّته ومأذنته[٤٦]. وأقيمت في هذا الجامع الصلواتٍ الخمس[٤٧]. وقد زيَّنت مدخله أبيات من الشعر:

ألا اسجدوا في مسجدٍ جاء نورُه
وأهدى الراكعين ضياء الهدى
مقام لدين الله أضحى منوَّرا
بآياته الحسنى وأطلع فرْقدا
بناهُ بشيرُ الجنبلاطيُّ يرتجي
من الله عفواً والثوابَ المشيَّدا
يلوحُ بمنجزاتِ التُّقى أرٌ خوا
وقارٌ وأمنٌ فادخلوا البابَ سُجَّدا[٤٨]

وعندما انفجر صراع البشيرَيْن وخرج الأميرُ الشهابيُّ منه منتصراً، لم يتورّع عن إشفاء غُلَّة كبده «فلغم الجامع بالبارود ودكَّهُ كما دُكَ الطور فغادره أثراً بعد عَين»[٤٩].

* * *

جبل «الاستشراق»!

سنرى منذ الآن فصاعداً تحوّلاً عميقاً، ليس

في انحراف وجهة الدروز الموحِّدين عن تراثهم وإنما في بروز عامل التدخّل الاستعماري الغربي آنذاك واستخدامه للعبة الطوائف الجبليَّة، وبالتالي في الإنكباب على بذر عوامل التفتيت المذهبيَّة للإجهاز على جسد «الرجل المريض» الذي صارته امبراطورية بني عثمان. إنها قصّة معروفة مسألة الأحداث الطائفيَّة في الجبل الحاصلة منذ ما قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر وانفجارها عام ١٨٦٠، واستغلال الدول الكبرى آنذاك لعصبيّة الطوائف وارتكاز كلّ منها على طائفة مما أدّى إلى فرض حلّ من قِبلها على العثمانيين فيما سُمّي ببروتوكول ١٨٦١. ما يهمّنا هنا هو عمل الاستشراق كأداة واكبت التدخل الإستعماري ومهّدت له عن طريق استخدام المعرفة عاملاً من عوامل الفعل السياسي الهادف إلى تفتيت المجتمع وتحطيم وحدته تمهيداً لتنفيذ خطط السيطرة و«الانتداب».

* * *

كان المستشرق البارون سيلفستر دو ساسي عميد المستشرقين الذي كتب في عقيدة الدروز وديانتهم[٥٠]. لنلاحظ أن كتابه صدر في باريس عام ١٨٣٨ حين كان دو ساسي «يُستشار بانتظام حول جميع المسائل المتعلّقة بالشرق من قبل وزير الخارجيَّة (الفرنسي)، وفي حالات معيَّنة، من قِبل وزير الحربية أيضاً»[٥١]. لم يكن هاجس دو ساسي معرفياً خالصاً ليتوغّل في بُنية التأويل التوحيدي وارتباطها الجوهري اللطيف بتراثها الإسلامي، وإنما كان منهجه يسير «طبقاً للقواعد المعرفيَّة الجوهريَّة المتعلّقة بالخسارة والكسب التي كان دو ساسي أوّل من وفّرها وطبّقها»[٥٢] إذ كان الموضوع العظيم في حياة سلفستر دو ساسي هو «الحسّ المكرّس للنفعيَّة التربويَّة والعقلانية»[٥٣]. وهذا «الحس المكرّس للنفعيَّة» كان يخدم آنذاك المخططات الفرنسية في «استقلاب» هويّة الإمارة الجبليَّة ذات الموقع الإستراتيجي الممتاز.

وبتأثير الحسّ ذاته طالَعَنا «غيز» بكتابه الموسوم بتلك التسمية التي لم يُسمع بمثلها من قبل: «الأمة الدرزية»[٥٤] وهو كتاب واكب مجريات الأحداث المتسارعة التي تلت الفتن الطائفيَّة عام ١٨٦٠ وكان أبرزها عقد مؤتمر باريس في ٣ آب ١٨٦٠ ونزول الجيش الفرنسي في بيروت في السادس عشر من الشهر ذاته ومن ثم الإتّفاق على البروتوكول الأوّل في ٩ حزيران ١٨٦١ والذي عُدِّل عام ١٨٦٤ والذي ينصّ في السطر الأوّل من المادة الأولى فيه على أن «يتولّى إدارة جبل لبنان متصرِّف مسيحي تعيِّنه الدولة العليَّة...»[٥٥].

وما لبثت أن ازدحمت حقبة «حكم المتصرفية» الهادئة في لبنان بوفود الإرساليات التي نشطت بشكل محموم وزرعت بذور الإنتماء الطائفي بمعناه السياسي في تربة الوطن القادم. ما يهمّنا هنا هو أن التراث الثقافي لكل طائفة بات سلعة للأهداف السياسية خاصّة وأن التنافس اللامتكافىء كان محموماً حول دمغ الهوية بطابع مرغوب. وفيما يتعلّق بالدروز فقد بدأت دفقات المنشورات حول تراثهم وعقيدتهم تتدافع إلى الظهور، وبدت الرغبةُ الأكاديمية في المعرفة المجرَّدة وليدةَ المشروع الإستعماري لأنّها واكبته أوّلاً بأوّل فكأنّها تبزغ وفقاً لرغبات الهدف السياسي الذي يتحكّم به «الحسّ المكرّس للنفعيَّة» إيّاه[٥٦].

الأمر ذاته حدث بعد انحسار نجم العثمانيين وفرض نظام الانتداب على دول المنطقة وانفجار ثورة سلطان باشا الأطرش ضد فرنسا عام ١٩٢٥. وما لبثت أبعاد هذه الثورة أن تفاقمت بشكل خطير بعد أن أذاع الزعيم الأطرشي باسم «قائد جيوش الثورة الوطنيّة السوريّة العام» البيانات الأولى التي حملت شعارات «الدفاع عن الأمّة» والدعوة إلى الثورة الشاملة ووحدة البلاد وقيام حكومة شعبية وجلاء المحتلّين[٥٧].

لم يكن سلطان يبحث عن مصالح طائفية وإنما كان انبعاثاً لتاريخ معروفي عتيق، ورمزاً لتراث الجماعة التاريخي المتمثّل «بسيف الأمّة» المشوق دفاعاً عن كرامتها وعزتها وشرفها. و«أمّته» كانت إسلاميَّةً عربيَّةً كما تعسّف «هنري غيز» مِن قبل وسمّاها كما شاء الفرنسيون لها أن تكون.

لن نستطرد في سرد التأثير العميق الذي أحدثته «الثورة السورية الكبرى» بينما الحديث عن تراث الجبل اللبناني، وإنما تجدر الملاحظة بأن رموز الثورة المذكورة صارت جزءاً ساطعاً في صُلب ذاكرة التراث المعروفي أينما وُجِدوا الدروز وأينما حلّوا.

في هذه الفترةِ أيضاً انتعشت ذاكرة الاستشراق ونشطت، فصدرت موجةٌ جديدةٌ من المنشورات الباريسيَّة التي تتناول بالبحث تاريخ الدروز وعقائدهم. ويُمكننا هنا أن نخلص إلى النتيجة إيّاها وهي أن «المعرفة» الاستشراقية هنا كانت وسيلةً لتحقيق الأيديولوجيا، والنتيجة مزيد من فوضى المعلومات والتشويش وتعميم الأحكام التعسُّفيَّة[٥٨].

* * *

الاستشراق الصهيوني

الدرزيَّةُ دينٌ قائمٌ بذاته، والدروزُ أُمَّةٌ مغايرة للإسلام لهم تراث مستقل غير مرتبط بتراث «الجماعةِ» وذاكرتها التاريخيَّة. هذه هي المبادىء التي جهدت دوائر دولة إسرائيل في تعميمها بشأن الدروز.

وقبل الدروز، فقد كانت مواجهة الباحثين الصهاينة قائمة على مستوى العرب والإسلام بشكل عام. ومنذ ما قبل تأسيس دولة إسرائيل كان الهدف الصهيوني في جوهره، كما يعرفُ الكبيرُ والصغير، هو خلق دويلات طائفيَّة تحيط بالكيان اليهودي المصطنع كحدود آمنة. و«كان قيام الكيان الصهيونيّ في عام ١٩٤٨ على أرض فلسطين مرحلةً جديدةً بالنسبة للإستشراق الصهيوني بكل المعاني»[٥٩]. فقد أدّى إلى تغيّر الرؤى والمناهجِ في مواجهة العرب والإسلام[٦٠]. وتصاعدت حدّة تقنيةِ التفتيت وذلك عن طريق إثارة كل ما يؤجِّج نزعة التمذهب ويصطنع اختلاق غريزة حسّ الأقليات بما يخدم التوجّهات الطائفيَّة. ليس هذا فقط، وإنما عَمِلَ الاستشراقُ الصهيوني على التشكيك بالمقدّسات الإسلامية مثل مفهوم النبوّة ومفهوم التنزيل وقت دأب على بعث التاريخ الباطني المنسي لدى مختلف المذاهب فلم ينجُ من شرِّه أحد.

هذا المنهج الصهيوني هو ما ينطبق تماماً على ما اصطلح على تسميته بمجموعة الكسليك التي صدرت في أثناء احتدام الحرب اللبنانيَّة قبل الإجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢، وبات الإقتناع راسخاً بأنها كانت تمهيداً له عن طريق إثارة الفتن الطائفيَّة[٦١]. هنا نجد أيضاً أن الأهداف السياسيَّة غير البريئة هي التي تقف خلف المشروع بأسره، فأيُّ حقيقة تملكها تلك المنشورات غير حقيقة الدسّ والتزييف وإثارة الشكوك؟ أم أن ذاكرتنا التاريخيَّة صارت بدورها نِتاجاً صهيونياً صِرْفاً؟

السيّد الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي

٨٢٠ هـ/٨٨٤ هـ

تُعيدنا كتابات «مجموعة الكسليك» إلى مسألة العقيدة عند الدروز الموحِّدين. ولا يعتقدنَّ أحدٌ أن انفصاماً دهريّاً ممكناً بين جسد العشيرةِ التاريخي وروحها باستطاعته التعشّش في شخصيّتها طيلة تسعة قرون. وإلّا كيف لنا أن نفسِّر هذا التواصل القديم الدائم بين سيوف الموحِّدين ومصلحة «الجماعة»؟ وأعني بالجماعة هنا المفهوم الذي عناه النبيُّ العربيُّ الكريم صلى الله عليه وسلّم.

نعم، ارتكز الموحِّدون في عقيدتهم القرآنيَّة على إيمانهم «بإمامة التأويل» التي ميَّزت فِرق التشيُّع بأكملها، بيد أنهم أغلقوا باب التفسير دون المساس بقدسيَّة الوحدة المُفترض أن تكون عليها «الجماعة». يدخل هذا عندهم في طبيعة العلاقة المعقَّدة القائمة في جدليَّة الظاهر والباطن. لقد مسخ المستشرقون والاستشراقيون[٦٢] حقيقة هذه الجدليَّة العميقة إلى مجرَّد موضوع «التقيَّة» و«المساترة» بمعنى الدهاء السياسي. والحقيقة أن الأمرَ متعلِّقٌ بطرائق المعرفة الروحيَّة التي منها العرفان والتصوُّف واستبطان المعنى وتثوير النصّ والتحقّق الذاتي لأبعاد الإنسان الذي هو «خليفة الله» على ما جاء في القرآن الكريم ﴿وإذْ قالَ ربُّك للملائكةِ إني جاعلٌ في الأرضِ خليفةً...﴾. لهذا تفرض العقيدة على الدروز الموحِّدين عدم المساس بمفاهيم الجماعة بل الإنطلاق منها، من الإيمان بها، إلى أبعادها

المعرفيَّة، كلٌّ حسب قدرته وطاقته ﴿لا يكلِّفُ اللهُ نفساً إلّا وُسْعَهَا﴾[٦٤]. وهذا ما يفسِّر تاريخهم وتراثهم مثلما ورد في القليل منه في هذا البحث. وبما أن السياق افترض ذكر بعض وجوه الطبقة السياسيَّة والتزامها الأثيل بمصلحة الجماعة، فقد آن الأوان للتحدّث عن الشخصية الروحية التي يعتبرها الدروزُ الموحِّدون الأكبر التي عاشت في بلاد الشام منذ مئات السنين.

* * *

هو الأمير السَّيِّد جمال الدين عبد الله البحتري التنوخي، ابن الأمير علم الدين سليمان بن بدر الدين محمد بن صلاح الدين يوسف بن سعد الدين خضر أمير الغرب التنوخي[٦٥]. ربي يتيماً مع والدته فظهرت «مخيلات الورع» وهو صغير، وكان مولده ثاني عشر ربيع الأوّل سنة عشرين وثمانمائة، أوّل ما رغب في حفظ الكتاب العزيز فختمه سريعاً ثم جرّده ثانياً ودرسه. وكان يطوف القرى في طلب العلم والحديث وهو صغير السنّ. تورّع يافعاً ما لا تصل إلى ورعه الكهول من أولى العلم[٦٦]. ولما ثبت جنانه وشيّد بنيانه... طرح الدنيا واشتغل بعبادة الرحمن فجرّد كتاب الله العزيز المقدَّس المطهَّر ودرسه وتلاه غيباً وداوم الدراسة فطبعت فصوله وآياته وأعشاره وسوره وسطوره في قلبه حيث لا يغيب عنه منه لفظة واحدة... ثم جمع الشروحات والتفاسير من تفسير القرآن العزيز المكرَّم الشريف[٦٧]. وجمع كُتُب اللغة العربيَّة... وسير الملوك وأخبار الأنبياء وكتب التواريخ والفلسفة وعلم الفقه على المذاهب وكُتُب النحو وغيرها. وكان يقرأ الكتاب العزيز ويشرحه ويتكلّم في علم الفقه والحديث ويصحِّح الأخبار ويشيد الإسلام ويرفع للحقّ منار... ثم أنه أمر بعمارة المساجد في القرى وتجديد الجوامع وإنشاء الوقوفات، ثم أنه حثّ على القراءة الصحيحة في القرآن المكرّم وجلب الفقهاء إلى النواحي وأقام الخطب في الجوامع يوم الجمعة في كلّ قرية يكمل العدّة[٦٨]. وطاعَتْهُ الخليقةُ واقتدت بأوامره ورضت بأحكامه الخصوم وطاعته أكابر النواحي ومشايخ البلاد، وكان له تلاميذ كُثُر... وكان له يوم معلوم من أيام الجمعة يفيد أهل بلده في معاني كلام الله تعالى في كتابه العزيز وقول رسوله الكريم، ثم أخبار الأنبياء وأشعار الأتقياء ومناقب الصالحين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٦٩]... وأخذ من أخبار «سيدي عبد الرحمن الأوزاعي الفقيه»[٧٠] ورسخت هيبته في قلوب أهل المعاملة الكبير والصغير والغني والفقير والأكابر والمقدّمين وعلت كلمته وقويت حجّته... وكانت تأتيه الخصوم من أقصى المعاملة، من جيرة صفد إلى أطراف حلب، إلى حدود طرابلس، إلى شوف بعلبك مع أطراف دمشق[٧١]. وكانت الذمة (يقصد أهل الذمة) من اليهود والنصارى تأتي على خبره وتحضر بين يديه في اختلافٍ بينهم في أمر الدنيا.

هكذا تمضي سيرةُ الأمير السيد (ق)، فتأتي بعدها على ذكر إقامته في دمشق لسنوات غير يسيرة ثم عودته إلى عبيه ووفاة ابنه الأمير سيف الدين عبد الخالق وصبره والتزامه جانب تأدية رسالته في نشر المعرفة وإعلاء جانب الحق حتّى وفاته عام ٨٨٤ هـ/١٤٧٩ م.

* * *

تكرّست «قداسةُ» السيّد الأمير لأنّه كان التجسيد الأمثل للحياة التوحيديَّة. وهذا الأمر يحظى بإجماع «عقّال» الموحِّدين في أربع جهات بلاد الشام. وحتى يومنا هذا يبقى ضريح الإمام التَّنوخي محجَّة الدروز الروحيين والزمنيين في ذلك المزار الجميل القائم في حضن الثغر التنوخيّ القديم، بقناطره الصاعدة مع انحناءةِ الإقرار كمعراجِ نفسٍ طائعةٍ لوجه ربّها الكريم، بقُبَّته المتواضعة على هيبةٍ ليس مثلها هيبة سوى ما توحي به تلك السلسلة الغريبة من العابدين الزاهدين المجاهدين الذين عرفهم زمن التصوُّف الأوّل في حضارة الإسلام الأولى.

تكرّست أيضاً طريقةُ السيّد الأمير ونهجه في حياة الموحدين المسلكيَّة مرجعَ ثقةٍ بإجماعٍ لم يُر مثله لا من قبل ولا من بعد. فبعد وفاة السيد بحوالي مئة وخمسين سنة كان الشيخ الفاضل محمد أبي هلال الذي عاش حياة تقى وعبادة كانت الأمثل من حيث تطابقها شبه التام مع نهج الأمير التنوخي. وهو الذي قال فيه تلميذه وكاتبُ سيرته الشيخ أبي علي عبد الملك

ابن الحاج يوسف الحلبي الشافعي أن آداب الشيخ الفاضل مع شروحات الأمير قدس الله روحه «أنه كان واقفاً على جليلها وحقيرها، ملتزماً حدودها، حاضاً على العمل بها وانتهاج نهجها»[٧٢]. ويحظى الشيخ الفاضل أيضاً بإجماع «العقّال» على وضعه في رتبةٍ تأتي بعد رتبة الأمير السَّيِّد مباشرة، ودائماً فيما يتعلّق بالكيفيَّة التي يجب أن يكون عليها مسلك التوحيد والتي وردت بمعالمها الجوهرية في سيرة الأمير السيّد.

* * *

وبعد، فكأنَّ بالدروز حسّاً عميقاً بالقدريَّة، والنيَّة عندهم هي قطب الأعمال، فإذا ما صلُحت النيَّة حَسُن المصير وإذا ما خبثت انقلب سوءُ العمل على صاحبه ﴿ولاتَ حينَ مَنَاص﴾[٧٣].

فإذا ما تطلّعنا أخيراً إلى بعض رجالات الجبل من عشيرة بني معروف في القرن الحالي لرأينا أسماء كبيرة لرجال مجاهدين مثل شكيب وعادل أرسلان، سلطان الأطرش، أمين آل ناصر الدين، علي ناصر الدين، عجاج نويهض، كمال جنبلاط وغيرهم كثير... ولرأيناهم أيضاً رجالاً «للأمَّة» بما لا يُقاس مع ما هم لطائفتهم. ألَمْ يَبْقَ الجبل بزعامته الوطنية طيلة الحرب اللبنانية الأخيرة قلعةً من قلاع العروبة وسيفاً ساطعاً من سيوف الإسلام الحقّ؟ إنه الوفاء لتراثٍ أقوى من أن تزعزعه أبوابُ الجحيم وأرسخ من أن تشوِّهه خبايا المُغرضين والعَرَض زائلٌ والجوهر باقٍ ما دامت الحياة.

●

الهوامش

(١) لماذا يتضامن الدروز؟ تقمُّص الدور التاريخي. صحيفة «السفير» ٨/٤/٨٩.
* أقصد اشكاليَّة دفق المنشورات التي تحاول تشويه تراث الدروز، ومعظمها صادر من هيئات غير إسلاميّة.
(٢) د. ياسين سويد، الدور العسكري للموحِّدين الدروز، مجلّة الضحى، عدد ١٥، ص ٥٥.
(٣) الأمير شكيب أرسلان، مقالة في كتاب د. سعود المولى: بنو معروف، أهل العروبة والإسلام. منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء ودار العودة. بيروت، ١٩٩٠، ص ٧١.
(٤) د. عباس أبو صالح ود. سامي مكارم: تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، دون تاريخ، ص ٢٠ ـــ ٢١.
(٥) أبو صالح ومكارم. ص ٢٤.
(٦) د. سامي مكارم، تنوخ، مخطوط لم يُنشر، ص ٤١.
(٧) مكارم، تنوخ، ص ٤٥ نقلاً عن الأمير شكيب أرسلان.
(٨) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مادة: ثوَر.
(٩) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس وكمال الصليبي، دار المشرق، بيروت ١٩٦٩، ص ١٣.
وهذا الكتاب للأمير صالح عن الإمام الأوزاعي يبدو أنه فُقد مع شديد الأسف فلم يصل إليا.
(١٠) أبو صالح ومكارم. ص ٢٨..
(١١) أبو صالح ومكارم. ص ٣٠. أيضاً: نديم نايف حمزة، التنوخيّون، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٤، ص ٥٧.
(١٢) أبو صالح ومكارم. ص ٣٠.
(١٣) مكارم، تنوخ، ص ٧٩.
(١٤) راجع هامش رقم ١٥٤ من مخطوط د. مكارم. والأميرة هي حياة أرسلان عقيلة الأمير فيصل.
(١٥) مكارم، تنوخ، ص ٨.
(١٦) مكارم، مخطوط تنوخ، ص ٣٦. نقلاً عن السجل الأرسلاني.
(١٧) مكارم، تنوخ، ص ٤٠.
(١٨) يقول الشيخ نايف تلحوق مفتخراً ودائماً باللهجة الجبلية الشامية:

لفيت معن وتنّوخ حلّوا بلبنان ... عن ساحلو جيوش الأجانب يصدُّون
هادَن ولد ايُّوب وملوك حمدان ... ولا يوم هدنة معن وتنوخ أعطون
عاد الفرنجي حامل الذلّ مِنهان ... وعادوا «الامارة» شامخ المجد يبنون

(١٩) طنوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٠، ص ٥٠٧.
(٢٠) الشدياق، ص ٥٠٧. ايضاً أبو صالح ومكارم، ص ١٠٢.
(٢١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٤٣.
(٢٢) النص في: صالح بن يحيى، ص ٤٣.
(٢٣) مكارم، تنوخ، ص ٨٥.
(٢٤) صالح بن يحيى، ص ٤٥ ونص المنشور ص ٤٦.
(٢٥) صالح بن يحيى، ونصوص المناشير على التوالي: ص ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٩ ـ ٥١.
(٢٦) يحلّل د. مكارم مغزى إرسال هذا المنشور في مخطوطه: تنوخ ص ٩٧.
(٢٧) صالح بن يحيى، ص ٥٢. ويشرح د. مكارم في: «تنوخ» ظروف الوضع ص ص ٩٩ ـ ١٠٠.
(٢٨) صالح بن يحيى، ص ٦٠. أيضاً: أبو صالح ومكارم ص ١١٢.
(٢٩) مكارم، تنوخ ص ١٠٤.
(٣٠) صالح بن يحيى، ص ص ٦١ ـ ٦٢.
(٣١) مكارم، تنوخ، ص ١٢٤.
(٣٢) يشرح د. مكارم في «تنوخ» المخطوط بشكل دقيق تقنية هذا النظام العسكري ومهماته وتأثيراته العسكرية في المواجهة مع الفرنجة. ص ص ١٤٧ ـ ١٤٨ كذلك تأثيراته على نظام المثاغرة والإمتيازات التي حاز عليها الأمراء التنوخيون به. ص ١٥٣.
(٣٣) تماماً كما رواها د. ادوارد سعيد في كتابه الذائع الصيت «الاستشراق».
(٣٤) الشيخ أحمد بن محمد الخالدي الصفدي، لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، تحقيق د. أسد رستم و د. فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٩، ص ٢.
(٣٥) الخالدي، ص ٢١٢.
(٣٦) الخالدي، ص ٢٣٥.
(٣٧) الخالدي، ص ٢٣٨.
(٣٨) الخالدي، ص ص ١١٤ ـ ١١٨.
(٣٩) الخوري بولس قرألي، فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان، دار لحد خاطر، ١٩٩٢، ص ٣٤. وغريب أن يستغرب الخوري قرألي حضور الأمير للصلاة في الجامع مع كل هذه السيرة التي أرّخها الشيخ الخالدي.
(٤٠) وفخر الدين هذا مُختلف فيه أنظر: حمزه بن أحمد بن سباط، تاريخ الدروز، تحقيق نائلة تقي الدين قائد بيه، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء ودار العودة. بيروت ١٩٨٩، ص ١٠٢. أنظر أيضاً تحقيقَيْن عن مسجد دير القمر ومسجد الأمير منذر في عددي مجلة «الضحى» الأول والثاني، شباط ونيسان ١٩٩٢ على التوالي.
(٤١) يوسف خطار أبو شقرا، الحركات في لبنان، دون ذكر دار نشر أو تاريخ طباعة. ص ٣.
(٤٢) د. عباس أبو صالح، التاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل لبنان، بيروت ١٩٨٤، دون ذكر دار نشر، ص ٢٢٣.
(٤٣) أبو شقرا، ص ٤.
(٤٤) الشدياق، جـ٢، ص ٣٩٧.
(٤٥) الشدياق، جـ١، ص ١٤٦.
(٤٦) Selim Hassan Hichi, La famille des Djoumblatt du VII[e] Siècle à nos jours, Beyrouth, Liban, 1973-1974. p. 141.
أيضاً: أبو شقرا، ص ١٥.
(٤٧) الشدياق، جـ١، ص ١٤٦. أيضاً: Hichi, p. 141.
(٤٨) Hichi, p. 141.
(٤٩) أبو شقرا، ص ١٥ أيضاً: Hichi, p. 141 أيضاً: الشدياق، جـ١ ص ١٥٠.
(٥٠) Le Baron Silvester de Sacy, Exposé de la Religion des Druzes, Paris 1838.
(٥١) إدوارد سعيد، الاستشراق، مؤسَّسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٤، ص ١٤٦.
(٥٢) إدوارد سعيد، ص ١٥١.
(٥٣) إدوارد سعيد، ص ١٤٦.
(٥٤) Henri Guys, La Nation Druze... Paris 1963.
(٥٥) أسد رستم، لبنان في عهد المتصرّفية، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٣، ص ص ٢٥ ـ ٥٥.
(٥٦) فضلاً عن مؤلفات دوساسي وغيز نجد على سبيل المثال: Regnault, Paris 1827 B.J. Taylor, Paris 1855 — G. Chasseaud, London 1855 — Henri Aucapitaine 1862 — François Lenormant, Paris 1860 etc...

(٥٧) فلاديمير لوتسكي، الحرب الوطنية التحررية في سوريا ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧، دار الفارابي بيروت ١٩٨٧، ص ١٨٤.
ويقول الشيخ تلحوق في قصيدته في اندلاع الثورة:

هيّا عَشيرَه شاهِد اليوم بِغْيان ... نار المعارك ربعنا كيف يصْلون
أسبابها «غورو» تعدّى و«ويغان» ... من بعدما عمال «ساراي» أبغون
قالوا بيحكُم بيننا السيف وسْنان ... قُلنا هَلا بيوم المواضي يحكمون

(٥٨) منها على سبيل المثال مؤلّفات: Lamazière: 1926 و Bordeaux: 1926 و Bouron: 1930 و Carbillet: 1929 و Poubleau: 1926 و Andrea: 1937 etc...
وليس كل من ألّف في الموضوع مستشرقاً بالمعنى الأكاديمي، وإنما منهم عسكريّون أشهرهم Carbillet حاكم جبل الدروز الإنتدابي الذي كان لتصرفّاته الفاشية التأثير الكبير في اندلاع الثورة. انظر لوتسكي: الحرب الوطنيّة. ص ١٦٢ وما بعدها.
(٥٩) د. رضوان السيد، اليهوديّة والصهيونية في الاستشراق، في كتاب الدين والتدافع الحضاري، منشورات رسالة الجهاد، ١٩٨٩، ص ٣٦٨.
(٦٠) رضوان السيد، ص ٣٦٨.
(٦١) لقد صدرت المجموعة مُغفلة، باسماء مستعارة ودون ذكر دار نشر مع العلم بأنها لا بدّ أن تكون نتيجة بحث طويل وشاق وأكبر بكثير مما يقدر عليه أفراد، وتناولت المجموعة التشكيك بعقائد الدروز والعلويين وبنبّوة النبي (ص) في كتاب «قسّ ونبي» والتشكيك بالقرآن الكريم في كتاب «عالم المعجزات» الخ...
(٦٢) أعني بهم أولئك الذين تأثّروا بأبحاث المستشرقين الغربيين دون سبر أغوار الموضوع بالشكل الموضوعي.
(٦٣) سورة البقرة، آية ٣٠.
(٦٤) سورة البقرة، آية ٢٨٦.
(٦٥) راجع في سيرته: حمزة بن سباط: من ص ٦٩، أيضاً: عجاج نويهض: التنوخي والشيخ محمد أبو هلال، بيروت ١٩٦٣، من ص ٨٩، أيضاً: سليمان بن حسين بن سليمان بن نصر: درة التاج وسلم المعراج، تحقيق اللجنة الثقافية في مؤسَّسة العرفان التوحيديَّة. أيضاً: يوسف إبراهيم يزبك: وليٌّ من لبنان، الحدث ١٩٦٠.
(٦٦) العبارات من حمزه بن سباط، ص ٦٩ وما يلي. وتأتي أهمية سيرة ابن سباط للسيد الأمير من كون أن والده شهاب الدين أحمد كان من تلاميذ الأمير التنوخي و«إمام جامع عبيه»، حمزة بن احمد بن سباط، ص ١١. وكان من التلاميذ أيضاً سليمان بن نصر صاحب «درّة التاج...» والشيخ أبي علي مرعي صاحب السيرة التي أوردها نويهض في كتابه: التنوخي. هي إذاً شهادات معاصرة في غاية الأهمية.
(٦٧) حمزة بن سباط، ص ٧١.
(٦٨) حمزة بن سباط، ص ٧١ ـ ٧٢.
(٦٩) حمزة بن سباط، ص ٧٢.
(٧٠) حمزة بن سباط، ص ٧٤ لنلاحظ أن الاهتمام بالإمام الأوزاعي مستمرّ عند الأمير السيد وحمزه بن سباط نفسه بعد أن رأينا اهتمام الأمير ارسلان به منذ القرن الثاني للهجرة واهتمام صالح بن يحيى به وكتابة ترجمته. وهو أمر يُلفت الإنتباه.
(٧١) دائماً العبارة لحمزة بن سباط، ص ٧٧.
(٧٢) نويهض، ص ٢٦٥، وفضلاً عن سيرته الواردة عند نويهض راجع في سيرة الشيخ الفاضل: د. عباس أبو صالح: التربية الإجتماعية عند الشيخ الفاضل أبي هلال، في كتاب مؤتمر التربية الإسلاميّة «الفكر التربوي الإسلامي»، دار المقاصد الإسلاميّة، بيروت ١٩٨١، ص ١٧٧.
(٧٣) سورة ص، الآية ٣.

الحياة الثقافية في الجبل

المحامي عصام العريضي

عضو المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب اللبنانيين

مقدمة

إذا كانت الثقافة، في تعريف بعضهم، أن تنسى ما قرأت، فإنّ الكتابة عن الثقافة، تقتضي عكس ذلك. فمن غير المسموح لكن أن تنسى وإن كان عليك أن تختصر قدر المستطاع.

ولولا رغبة صادقة ومُلحّة عند اخي الأستاذ فاروق البربير، صاحب «تاريخ العرب والعالم»، وقد نزلت عندها بطيبة خاطر، لما تجشّمت هذا المسلك الشاق، لتاكدي سلفاً من قصوري في هذا المضمار، ولأن هذا الموضوع قد لا يفيه حقّه مجلّد ضخم، فكيف بهذا البحث الوجيز.

على أنّني لا أنكر أن الموضوع يستهويني، فالحديث عن الثقافة بوجهٍ عامّ، يُغري فكيف إذا كان عن البيئة التي فيها نشأت، وبمناقبها انطبعت، عَنَيْتُ بها الجبل اللبناني الذي أحببت، والذي أعطى وما يزال في شتّى الميادين ومنها الثقافة والإبداع.

وإذا كان الموضوع، في هذا العدد الخاصّ من المجلّة الزاهرة، مقصوراً على الجبل، فالثقافة، في أوجهها المتعدّدة، اضحت مشاعاً للإنسانية جمعاء، وكل جماعة تكسب من القيمة والقدر على قدر مساهمتها في هذا الحقل الحضاري المنفتح والراقي.

وأبو عثمان الجاحظ، قد أدرك في زمانه، أن الثقافة هي العامل الأوحد في تخليد الشعوب، فقال في كتابه «الحيوان»:

«كلُ أُمّةٍ تعتمدُ في استبقاء مآثرها، وتحصين مناقبها على ضربٍ من الضروب، وشكلٍ من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بان تعتمد في ذلك على الشّعر الموزون، والكلام المقفّى، وكان ذلك هو ديوانها.. وذهبَتْ العجم على أنْ تُقيّدَ مآثرها بالبنيان، والكتابُ بذلك أولى من بنيان الحجارة أو حيطان المُدُن، لأنّ من شأنِ الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون».

وما تجدرُ ملاحظته، قبل الخوض في موضوع الحياة الثقافية في الجبل، أنّ الثقافة من طبيعة الجبل وطينة أهله، على عدم توفّر العوامل التي كان للمدينة حظّ السبق إليها. وقد يرجع السبب في ذلك إلى تعاليمهم، الدينيّة والإجتماعية، وإلى عراقتهم في العربيّة وتُراثها كما قال عنهم مارون عبّود:

يجري الدّمُ العربيُّ في أعراقِهِمْ
صِرفاً، صُراحاً، والدّليلُ المنطِقُ

فحتّى الفلاّح، قد تجد في حديثه نكهة ثقافية مستملحة، إذْ يستشهد في حديثه بآية أو حديث، أو طرفة ورواية، أو مثل أو قول مأثور، وقد اكتسب ذلك من المجالس التي يتوّج أدبُ اللفظ فيها أدب الحديث.

ومن الفلاح إلى السياسي النافذ، والحاكم. فالأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير (١٥٧٢ ــ ١٦٣٢) كان على جانب وافر من الثقافة. فهو يتقن من اللغات العربيّة والتركية والإيطاليّة، ويقال إنّه ترجم عن الإيطاليّة رواية «ماتيلدا»، ووضع كتاباً عن تاريخ المعنيين. وكان يُعنى بالكيمياء وعلم الفلك، ويحبُّ الرسم والموسيقى والشعر، ويأتي برجال العلم من اوروبا وغيرها ويدفع لهم أجرهم بسخاء، ويوفد البعثات العلميّة إلى الخارج. وقد قال عنه الأب روجيه الفرنسيسكاني: «إنّ الأمير كان متضلّعاً من معرفة النجوم والفلسفة التي أخذها عن والدته الستّ نسب».

هذا شأن فخر الدين منذ أربعة قرون، أمّا في عصرنا الحديث، فيكفي أن نذكر علمين في السياسة بلغا أرقى مراتب الفكر والثقافة هما الأمير شكيب أرسلان والأستاذ كمال جنبلاط. واللاّفت أنهما ينتميان إلى العائلتين الكُبريين اللتين تتقاسمان النفوذ السياسي في طائفة الموحدين الدروز في لبنان.

وقد لا يكون من قبيل الصُّدفة أن يعمد الزّعيم السياسي الأستاذ وليد جنبلاط إلى تحويل قصر بيت الدين إلى قصر للثقافة والفنون الجميلة فيصبح بذلك قصراً للشّعب.

وكما نجد الثقافة في السياسة، كذلك هي في الدّين. فقد برز في رجال الدّين أعلام في الثقافة والفكر، وفي طليعتهم الأمير السيّد جمال الدين عبد الله التنوخي (١٤١٧ ــ ١٤٧٦ م) صاحب المقام الشهير في عبيه والذي بلغ من تقاه وورعه مرتبة الولاية، إلى كونه خطيباً وشاعراً ومشترعاً وفقيهاً بلغت شروحاته المعروفة باسم شرح السيّد بضعة عشر مؤلفاً، عدا مؤلّفاته العديدة الأخرى ومنها «الكمالات والأسرار في شرح كلمات النبيّ المختار» وكتاب «سياسة الأخيار»، ومعجم «اللغة العرباء».

ومن بين رجال الدين الأعلام الذين وَعَوْا ثقافةً عالية في عصرنا الشيخ أبو صالح يوسف عبد الخالق ــ مجدل بعنا (١٨٨٢ ــ ١٩٤٩ م) وقد شملت ثقافته إلى جانب الديانات السماوية والحديث الشريف، سِيَر الأنبياء والرُّسل وتاريخ الشعوب ولا سيّما شعوب الشرق العربي. وقد ذكره جان هكسلي في كتابه، يوم كان رئيس وفد الأونيسكو إلى بيروت سنة ١٩٤٨، وأعجب بلقائه أيّما إعجاب: «الشيخ يرتدي عمامة مدوّرة، ناصعة البياض، ترمز إلى أنّه وصل إلى أعلى درجات سُلّم الحكمة والمعرفة».

وكما في السياسة والدين، كذلك لم تغب الثقافة عن ساحات البطولة والوطنيّة. فالأمير عادل أرسلان (١٨٨٧ ــ ١٩٥٤ م) كان الركن الوطيد للثورة السورية الكبرى (١٩٢٥) إلى جانب قائدها سلطان باشا الأطرش. والأمير شكيب قاد حملة الدفاع عن طرابلس الغرب عندما غزتها إيطاليا سنة ١٩١١. وعادل النكدي (١٨٩١ ــ ١٩٢٦) وهو دكتور في الحقوق من باريس وصاحب مؤلفات في القانون والسياسة، ترك فرنسا ليقاتل الفرنسيين في الثورة السوريّة الكبرى ويسقط شهيداً من شهدائها الأبرار وهو في الخامسة والثلاثين من عمره.

وكما في السياسة والدين والجهاد، كذلك نجد الثقافة في سائر نشاطات المعرفة وحقولها في القانون وفي الطب، في التاريخ والأدب والتربية وسواها، كما سنرى.

من عوامل النهضة الثقافية

لا بُدّ ولو من لمحة موجزة عن عوامل النهضة الثقافية في الجبل، والتي يمكن اختصارها في

المدارس، والصُّحف، والمهَاجر، ولا سيّما في الحقبة الممتدة من أواسط القرن التاسع عشر حتى أيامنا هذه.

المدارس

لم يكن للجبل حظّ وافر من المدارس حتى في زمن فخر الدين ونهضته. والرّجالات الأفذاذ الذين برزوا كانوا في معظمهم أساتذة أنفسهم أو تخرّجوا من مدرسة تحت السنديانة «وهي المديرسة التي ضاهت بأهميّتها الجامعات» على حد قول مارون عبّود.

من المدارس التي تُذكر، مدرسة المختاره، التي فتحها سعيد بشير جنبلاط (١٨١٣ — ١٨٦١) وذلك في السنة ١٨٤٩ واستقدم إليها الشيخ إبراهيم الأحدب من طرابلس للتعليم فيها والإشراف عليها وكان تلاميذها من الدروز والنصارى على السّواء ومنهم الدكتور شاكر الخوري صاحب «مجمع المسرّات».

وفي الشويفات أنشأ المعلّم مرعي شاهين سلمان (١٨٥٠ — ١٩٣٢) مدرسة خاصّة تعلّم فيها رجال كبار منهم الأميران شكيب ونسيب أرسلان. وكان المعلّم مرعي قد أنشأ قبلها مدرسة في وادي أبو جميل ببيروت بمشورة معلّمه الشيخ بطرس البستاني.

أمّا مدرسة الداودية الشهيرة، في عبيه، فقد أُنشئت العام ١٨٦٢ في مستهل ولاية المتصرّف داود باشا، الذي نُسبت إليه، وكان من الذين سعوا لإنشائها الطبيب الجرّاح حسن سُليم من جباع الشوف (... — ١٨٨١ م) والذي كان له حظوة عند المتصرف داود باشا. وكان أول مدير لها الشيخُ الجليل نجم يوسف آل ناصر الدين من كفرمتى (... — ١٨٦٨ م) وكان معروفاً بتقواه ونزاهته وقد اشترط على المتصرّف ألّا يتقاضى أي راتب أو تعويض وألّا يقبض مالاً إلّا بإيصال. وكان من أساتذة الداودية آنذاك رزق الله البرباري وأسعد الشّدودي، وكان حسن سليم ناظراً عاماً لها.

وفي السّنة ١٨٩٢ عيّن الأمير مصطفى أرسلان الأمير علي آل ناصر الدين، كفرمتى (١٨٤٢ — ١٩٢٢ م) مديراً لعلوم الداودية، فبلغت على يده، خلال تسع سنوات مستوى مدرسيّاً عاليا ومن تلامذتها البارزين في تلك الحقبة: إبراهيم عبد الملك. أحمد تقي الدين، أمين تقي الدين، أمين خضر، خليل المصفي، شفيق الحلبي، عباس المصفي، فؤاد حميّه، وكامل حميّه.

وبعد الداودية، أسّس الأمير علي نفسه، في كفرمتى مدرسة المعارف الحميديّة السنة ١٩٠٦، فكانت منارة للّسان العربي، لا سيما وأنّها حظيت بالأمير أمين آل ناصر الدين، حجّة العربية، أستاذاً لها ومشرفاً عليها إلى جانب والده الأمير عليّ. ومن خرّيجي هذه المدرسة أعلام بارزون نذكر منهم: سعيد حماده. سعيد طليع. سليم أبو حمزه. سليم أبو إسماعيل سليم حمدان (باتر). علي مزهر. فؤاد أبو غانم. سامي ناصر الدين (كفرمتى) حسن الطويل وسواهم.

ومن المدارس العريقة مدرسة «الصراط» في عاليه، للبنات، وقد أنشأتها السنة ١٩٢٥ المربّية والأديبة المعروفة عفيفه صعب (١٩٠٠ — ١٩٨٩ م).

على أن بين مدارس الجبل قاطبة، تبقى «الجامعة الوطنية» في عاليه الإسم الأسطع، أسسها المربي إلياس شبل الخوري، وقام على إدارتها زهاء خمس وثلاثين سنة من ١٩٢٣ — ١٩٥٧ الأديب والناقد الكبير أبو محمد مارون عبود ومنها تخرّج أعلام بارزون في لبنان والعالم العربي.

وكان «للكليّة اللبنانية» في سوق الغرب دور بارز في التربية والتعليم، ولا سيّما أيام سهر على إدارتها الأستاذ حنّا خبّاز. ولكنّ هذه الكليّة توقفت منذ حوالي ربع قرن.

وهنالك مدارس أنشأتها الإرساليات الأجنبية كمدرسة الإنكليز في عينعوب ومدرسة الأميركان في عبيه وهي التي انتقلت إلى بيروت السّنة ١٨٦٦ لتصبح «الكلية الإنجيلية السورية» ثم «الجامعة الأميركية» في بيروت.

وفي أيامنا هذه يجدر التنويه بمدارس ثانوية تتبارى في إحراز أفضل النتائج، وخاصة في

الإمتحانات الرسميّة، ومنها «مدرسة الشويفات»، و«الليسه ناسيونال» و«مدرسة العرفان» — السمقانية، و«مدرسة التنشئة الوطنية» في بعقلين التي أسسها الوزير المرحوم سعيد محمد حماده. ويقتضي كذلك أن نذكر ما للثانويات الرسميّة من دور فعّال وقد انتشرت على مدى واسع في الجبل. أمّا الجامعة اللبنانيّة فما زالت بعض فروعها في مستهل نشاطها ومنها فرع «كلية الإدارة والأعمال» في مدينة عاليه.

ويبقى لغير مدارس الجبل دور كبير في تخريج أعلام كبار، ودور أكبر في بعث الروح الوطنيّة، فلا ننسى «المدرسة الوطنية» للمعلم بطرس البستاني، ومدرسة الحكمة في بيروت، ومدرسة عينطورة، والجامعتين الأميركية واليسوعية في بيروت.

الصُّحف والصَّحافة

جريدة «الصفاء» أول جريدة أُنشئت في الجبل السنة ١٨٨٦. أنشأها الأمير علي آل ناصر الدين — كفرمتى (وقد أتينا على ذكره في حقل التربية) كما أنشأ مجلّة «الإصلاح» السنة ١٩١١. وقد بلغت «الصفاء» على يد الأمير أمين آل ناصر الدين، نجل الأمير علي، وأحد أئمة اللغة العربيّة الكبار، مستوى راقياً بين كبريات الصُّحف في بيروت والعالم العربي وكان من دعائمها الكبار، الأمير نديم آل ناصر الدين، ابن عم الأمير أمين. ومن الذين أشرفوا على تحريرها، بعد انتقالها من كفرمتى إلى بيروت، محمد مصطفى العريضي — بيصور، وسلمان جابر — البنّيه وسليم حمدان — باتر الشوف.

وفي السنة ١٩١٩ أنشأت المربيّة الكبيرة والأديبة عفيفه صعب مجلّة «الخدر». وفي السنة نفسها أنشأ عبد الله النجّار مجلة «القلم» بالإشتراك مع عجاج نويهض، كما أصدر، فيما بعد، بالإشتراك مع الشيخ هاني أبي مصلح مجلة «المجلّة».

وفي عهد الملك فيصل الأول أنشأ رشيد شقير (١٨٨٨ — ١٩٧٩) بالإشتراك مع أسعد داغر جريدة «العقاب». وفي السنة ١٩٢٢ أصدر علي ناصر الدين البمريمي (١٨٨٨ — ١٩٧٤ م)، مؤسس عصبة العمل القومي، جريدة «المنبر» في بيروت مع فؤاد عبد الملك. كما تولّى في السنة ١٩٢٨ تحرير جريدة «اللواء» في طرابلس، ومن بعدها تولّى تحرير «الجامعة الإسلاميّة» في القدس السنة ١٩٣٣.

وفي المهاجر حققت الصحافة، على يد أفذاذ من الجبل، انتشاراً أوسع بفضل مناخ الحريّة وتمكُن مُنشئيها من تحمّل أعبائها المادية:

فقد أصدر سليمان بدّور — بعقلين (١٨٨٨ — ١٩١٤ م) في الولايات المتحدة الأميركيّة (نيويورك)، السنة ١٩١٠، جريدة «البيان» التي كانت من كبريات الصحف العربيّة في المهجر، ومنبراً للأقلام الوطنيّة الحرّة. وكان الصّحافي المعروف عبّاس محمود أبو شقرا — عماطور (١٨٨٠ — ١٩٤٣) شريكاً لسليمان بدّور في «البيان» كما كان أمين الدمشقي مديراً مسؤولاً فيها. وبعد وفاة مؤسسها اشترى «البيان» وأصدرها مجدّداً أمين داود فياض — مجدل بعنا (١٨٩٢ — ١٩٨٢ م) وقد أناط بأخيه سعيد داود فياض إدارتها وتحريرها وظلّت تصدر حتى السنة ١٩٤٧، حين انتقل سعيد فياض إلى ديترويت وأنشأ جريدة «نهضة العرب».

وفي مصر أنشأ أمين تقي الدين — بعقلين (١٨٨٤ — ١٩٣٧) وهو المحامي والشاعر الكبير، مجلّة «الزهور»، السنة ١٩١١، بالاشتراك مع صديقه أنطون الجميّل.

وفي القدس أنشأ عجاج نويهض، السّنة ١٩٣٢، مجلّة «العرب» وكانت لسان حال حزب الإستقلال العربي الذي كان عجّاج أحد مؤسسيه.

وفي السنة ١٩٢١، أصدر المفكّر والأديب، نجيب العسرواي — بتاتر (١٨٩١ — ١٩٨٧) جريدة «الإصلاح» في البرازيل بالإشتراك مع سعيد مطر من مجدليا — عاليه.

أمّا الأمير أمين مجيد أرسلان (١٨٦٨ — ١٩٤٣) وهو أديب وسياسي كبير، فقد أنشأ وهو في باريس جريدة «كشف النقاب» بالإشتراك مع خليل أبي غانم، كما أصدر، بالعربيّة، جريدة

«تركيّا الفتاة»، ثم مجلة «السمير». وبعد انتقاله إلى الأرجنتين السنة ١٩١٠، حيث بقي فيها زهاء ثلث قرن، ملأه بالمآثر في شتى الحقول، انصرف إلى الأدب وتضلّع من الإسبانيّة فأصدر ما بين السنة ١٩١٥ والسنة ١٩٢٥ مجلّة «نوطا»، ثم مجلّة «القلم الأزرق»، وفي السنة ١٩٢٦ أصدر، بالعربيّة، جريدة الإستقلال التي كانت منبراً للدفاع عن قضايا العرب وخاصة سوريا ولبنان.

ومن أكثر المجلاّت التي كان لها شأن في مواجهة الإستعمار الغربي الأوروبي، مجلّة «الأمّة العربيّة» وبالفرنسيّة «La Nation Arabe» التي انشأها الأمير شكيب أرسلان في منفاه في جنيف السنة ١٩٣٠. أمّا جولات الأمير شكيب على صدر أمهات الصحف العربيّة، فهي غنيّة عن التعريف، وكلها من أجل قضايا العرب والمسلمين في مواجهة المستعمرين الطامعين، ومنها مقالاته في «المؤيد» في مصر، إبّان غزوة إيطاليا لطرابلس الغرب.

ومن الأقلام البارزة في التاريخ والأدب والصحافة، المحامي سليم أبو إسماعيل ــ دير بابا (١٨٩١ ــ ١٩٥٣) الذين انشأ في بيونس أيرس جريدة عربيّة سمّاها «الأرجنتين».

ومن الصحف، ذات الشأن، التي صدرت في لبنان، في النصف الثاني من هذا القرن جريدة الأنباء (١٩٥١) لسان حال الحزب التقدمي الإشتراكي والتي أشرف على سياستها الأستاذ كمال جنبلاط وبرزت فيها أقلام صحفيّة بارعة نخصّ منها الأستاذ عزّت صافي، الذي انتقل فيما بعد إلى الخليج وتسلّم تحرير عدّة صحف منها جريدة «الخليج» الصادرة في دبي.

ومن المجلاّت ذات الشأن مجلة «الضحى» التي عادت للصدور في حلة جديدة وبرعاية من سماحة قائمقام شيخ العقل الشيخ بهجت غيث.

ومن الصحفيين الذين لمعت أسماؤهم، وفيهم الشاعر والسياسي والأديب، نذكر الأمير نسيب ارسلان (١٨٦٨ ــ ١٩٢٧) شقيق الأمير شكيب وقد كتب مقالات عديدة، ومتطرّفة أحياناً، من أجل استقلال العرب ووحدتهم كان ينشرها في «المفيد» و«فتى العرب» و«صدى العرب».

ومنهم أيضاً:

* **عباس محمود أبو شقرا** ــ عماطور (١٨٨٠ ــ ١٩٤٣) كتب في الصحف المهجرية: «البيان» و«الهدى» و«نهضة العرب» وأصدر السنة ١٩٢٠ مع رشيد تقي الدين جريدة «البرهان».
* **يوسف خطّار أبو شقرا** ــ عماطور (١٨٠٥ ــ ١٩٠٤ م) وهو مؤرخ وشاعر اشترك مع إبراهيم بك الأسود في تحرير جريدة «لبنان».
* **سليمان بك أبو عز الدين** ــ العبادية (١٨٧٠ ــ ١٩٣٣) وهو المؤرخ المعروف. كتب في جريدة «الروضة» الصادرة في بعبدا أيام المتصرّفية وفي «المقتطف» في مصر وغيرها من أمهات الصحف العربيّة.
* **رفيق جابر البنّيه** صاحب مجلة «الأماني».
* **محمد أبو عزّ الدين** ــ العبادية (١٨٦٧ ــ ١٩١٧) وهو علاّمة وكاتب اجتماعي نشر أبحاثه في «المقتطف» و«الصفاء».
* **سلمان جابر** ــ البنّيه (١٩١٠ ــ ١٩٨٣) وهو لغوي وشاعر حرّر، في العديد من الصحف منها «الصفاء» و«الجبل» التي تسلم رئاسة تحريرها، ردحاً من الزمن.
* **محمد مصطفى العريضي** ــ بيصور (١٩١١ ــ ١٩٩١) وهو شاعر ولغوي وأديب، كتب في «الصفاء» وتسلّم رئاسة تحريرها بعد إنتقالها من كفرمتى إلى بيروت، كما تسلّم رئاسة تحرير جريدة «الزمان» البيروتية لصاحبها النقيب روبير أبيلا، ورئاسة تحرير جريدة «البناء» و«صباح الخير» في بيروت.
* **أمين بك خضر** ــ بعقلين (١٨٨٤ ــ ١٩٦٩) شارك في تحرير جريدة «الحريّة» لداود مجاعص. وكان قبله والده حسن بك خضر (١٨٣٦ ــ ١٩٣٣) مراسلاً «للجنة» و«الجنان» و«بيروت» و«ثمرات الفنون».
* **سليم حمدان** ــ باتر (١٨٩٢ ــ ١٩٦٨) وهو شاعر وأديب حرّر في «الصفاء» وجريدة «الجبل».
* **حسن فخر** ــ ديرقوبل (١٩٦٩ ــ ١٩٨٦) كاتب وطني واجتماعي، أحد أعضاء «الرابطة الأدبية» حرّر في عدة صحف: السفير، الصيّاد، الأحد، الكفاح العربي.

* **وسيم تقي الدين** ــ نجل الشاعر والمحامي أمين تقي الدين. حرّر في عدة صحف بيروتيّة، منها الصيّاد، وتأسست في منزله السنة ١٩٥١ «أسرة الجبل الملهم».
* **الشيخ رشيد القاضي** ــ وهو صحفي وكاتب بارع كتب في «النهار» و«السفير» و«الكفاح العربي».
* وفي الصحافة الأدبية برز: نجيب البعيني وراجح نعيم.
* ومن الصحفيين الناشطين اليوم: ناصيف ناصيف (النهار) وجدي العريضي وكمال ذبيان (الديار).

الحياة الأدبية

ويشمل هذا العنوان الشعر والنثر الفني واللغة والترجمة وما إليها. قبل عصر النهضة لمعت بعض الأسماء في الشعر واللغة. منها الأمير التنوخي ناصر الدين بن حسين، المتوفّى سنة ١٣٥٠م، وكان أمير مقاطعة الغرب، وشاعراً مجيداً، ومن شعره الرقيق:

ودّعتكم وفؤادي في وديعتكم
رهنٌ وقلبي ولُبّي انتمو فيه
لا تمنعوا طيفكم في اليوم يطرقه
لعلّه من سقام البعد يشفيه

وللأمير السيد عبد الله التنوخي شعر روحاني، أمّا تلميذه الشيخ شمس الدين الصايغ، المتوفّى ١٤٨٠م، فقد ترك ديواناً من الشعر في مجلدين ومعظم شعره جاء دفاعاً عن الأمير السعيد. وفي أواخر القرن العاشر للهجرة لمع في الشعر إسم الشيخ يوسف الكفرقوقي الذي ترك ديواناً اسمه دُرر النحور في التوبة إلى الملك الغفور» وهو شعر من الطبقة الرفيعة حاول أن يقلّد فيه أبا العلاء المعرّي في لزومياته ومعظمه تغزّل في العزّة الآلهية.

وفي قرية ديركوشه ــ المناصف، وفي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، عُرف الشيخ سعيد سعد الدين حمدان (١٨٣٥ ــ ١٩٣٢) بشعره الجزل الرقيق وقد كان إلى جانب ذلك قاضياً وشيخاً تقيّاً ورعاً.

وعرف عصر النهضة عمالقة في الأدب في طليعتهم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، وأمير الدولتين، الشعر والنثر، الأمير أمين آل ناصر الدين، كفر متى.

للأمير شكيب (١٨٦٩ ــ ١٩٤٦) ديوان من الشعر نشره سنة ١٩٣٥ ضم إليه بعض شعره الذي نشره في باكورته الشعرية سنة (١٨٨٧) وقد كان في الثامنة عشرة من عمره. إلا أن الأمير انشغل بالنثر أكثر من الشعر، وقد لمع فيه وهو طالب في مدرسة الحكمة، إذ يعترف أن شقيقه نسيب قد تفوّق عليه في الشعر، بينما هو تفوّق في النثر.

وكان الأمير شكيب، قبل تعرّفه إلى أحمد شوقي وشعره معجباً بمحمود سامي البارودي، وقد جرت بينهما مراسلات شعرية شهيرة كان فيها للأمير الفتى جولات موفّقة شهد له فيها البارودي وأعجب به أيّما إعجاب. أما صداقته لشوقي، التي خصص لها كتاباً فيما بعد سماه: «شوقي وصداقة أربعين سنة» (١٩٣٦)، فقد بدأت في سنة ١٨٩٢ حين تعرّف إليه في باريس عندما كان شوقي يدرس الحقوق، وكان قد قرأ له في مصر بعض شعره فأعجبه. وتوطدت بينهما صداقة متينة حدت بشوقي أن يسمي ديوانه «الشوقيات» بناء لرغبة الأمير، وقد قدّم شوقي لذلك في ديوانه مع أبيات في الأمير شكيب منها:

صحبتُ شكيباً برهةً لم يفُزْ بها
سواي، على أنّ الصّحاب كثيرُ
حرصْتُ عليها آنةً ثم آنةً
كما ضنَّ بالماس الكريم خبيرُ

وقد ردّها الأمير لشوقي تحيّة أحسن حين دعا لمبايعته أميراً للشعر فكان له ذلك سنة ١٩٢٧، في مهرجان الإمارة الكبير بمصر، وقد كان الأمير شكيب آنذاك في أميركا فأرسل قصيدة له تُليت في هذا الحفل.

وكان الأمير شكيب قد بلغ مرتبة عالية في النثر فأطلق عليه في العشرينات «لقب أمير البيان» وكان أول من لقبه بذلك صديقه الشيخ رشيد رضا، من طرابلس، والذي امتدت صداقته للأمير شكيب، كما صداقة شوقي، أربعين سنة،

خصص لها كتاباً سماه: «رشيد رضا وإخاء أربعين عاماً» (١٩٣٧). وانتخب الأمير شكيب عضواً للمجمع العلمي العربي بدمشق، ثم عُين رئيساً لهذا المجمع سنة ١٩٣٧ ولكنّه رفض العودة إلى دمشق وتسلّم هذا المنصب في ظل الانتداب الفرنسي خصوصاً بعد أن ألغت فرنسا معاهدة ١٩٣٦ مع سوريا.

وللأمير شكيب كُتب أدبية عديدة، منها ما نُشر ومنها ما زال مخطوطاً وبعضه مفقود. ومن كتبه المنشورة: «تحقيق المختار من رسائل أبي اسحق الصابي» ١٨٩٨ ــ «تحقيق الدّرة اليتيمة لابن المقفع» ١٨٩٧ ــ «آخر بني سراج» ترجمة عن الفرنسية، وهي رواية لشاتوبريان ــ «اناتول فرانس في مباذله» ترجمة عن الفرنسية ١٩٢٥ ــ «مطالعات في اللغة والأدب» ١٩٢٥ ــ مقدّمة لكتاب محمد النمراوي يردّ فيها على طه حسين في كتابه الأدب الجاهلي. «محاسن المساعي في مناقب أبي عمرو الأوزاعي»، تحقيق ديوان أخيه الأمير نسيب «الروض الشقيق في الجزل الرقيق» مع مقدمة له سنة ١٩٣٥، وفي نهاية هذا الديوان نشر للسجل الارسلاني وتحقيق الأمير شكيب له.

أما في اللغة العربية، وقد كان الأمير متضلعاً منها وداعية تطوّر فيها، على غرار الشدياق او مارون عبود، ومن أشهر كتبه في هذا المجال وقد طبع مؤخراً «القول الفصل في ردّ العامي إلى الأصل» مع مقدمة للأستاذ محمد خليل الباشا. كما أن له مخطوطة: «ما لم يرد في متون اللغة».

أما مؤلفات الأمير الأخرى في غير حقل الأدب فسنأتي على ذكرها في حينه، في هذا البحث.

وأما الهرم الثاني، والكبير أيضاً، فهو الأمير أمين آل ناصر الدين من كفر متى (١٨٧٦ ــ ١٩٥٣)، وهو سليل الأسرة التنوخية التي أعطت بسخاء سواء في الحياة العامة أو الأدب، أعلاماً أفذاذاً. وككل نابغة تفجّرت موهبة الأمين باكراً في الشعر، وقد كان في العاشرة عندما خاطب الشيخ خليل اليازجي ببيتين من الشعر فردّ عليه الشيخ بأبيات يتنبأ له فيها بقصب السبق في ميدان الشعر والأدب، وكان الأمير أمين في الحادية والعشرين من عمره عندما أصدر «الصفاء» التي أسسها والده الأمير علي. وكانت تربطه بالأمير شكيب صداقة متينة، وكان الأمير شكيب معجباً بغزارة شاعريته مما دفعه إلى القول: ليس غريباً عليك أن تصدر «الصفاء» بكاملها شعراً. وبعد حين أصدر الأمير أمين أحد اعداد الصفاء سنة ١٩٠١ بكامله شعراً حتى الاعلانات. وفي هذه السنة أصدر ديوانه الأول «ثمرات الأفكار». وفي سنة ١٩١٣ نشر ديوانه الثاني «صدى الخاطر». وفي سنة ١٩٣١ أصدر ديوانه «الإلهام». أما «ديوان الفلك» فقد صدر بعد وفاته مع دراسة للدكتور سامي مكارم وتصدير لابن عمه الأمير نديم آل ناصر الدين. وقد صدر هذا الديوان في سنة ١٩٨٣.

أما في اللغة، وقد كان الأمين حجّتها وأحد كبار أئمتها في عصره حيث كان يستفتيه في معضلاتها كبار الأدباء والكتاب، فله آثار قيّمة في مقدمتها معجم «دقائق العربية» وقد طبع مرتين. ومعجم «الرافد» و«البيّنات» في النقد الأدبي واللغوي، الجزء الأول. وله آثار غير مطبوعة منها: «البيّنات»، الجزء الثاني. «والثمر اليانع في الصرف والنحو»، «عين الثلاثي في اللغة».

وللأمين آثار عديدة أخرى، مطبوعة او مخطوطة، في الرواية والنقد الاجتماعي والسيرة والتاريخ.

وهناك نخبة من تلامذة الأمين اقتفوا اثره في طليعتهم ابن عمه الأوفى الأمير نديم آل ناصر الدين، أمدّ الله بعمره، وقد عرفته الصحافة بمواقفه الوطنية والعربية الجريئة سواء على صفحات «الصفاء» أو غيرها من أمهات الصحف العربية. وهو اليوم، حجّة في العربية، ومقصد طلابها وأدبائها يستفتونه في العَصي من معضلاتها. وقد صحّح معجم «البستان» على أن تنشره مكتبة لبنان باسم «القاموس الكبير» ولكنه لم يصدر بعد. ومن كتبه القيّمة في اللغة «شطط الأقلام». وفي الأدب له سفر نفيس هو كتاب «الدراري»، الذي لم يزل، مع الأسف، مخطوطاً، وهو دراسة عن كبار أعلام الأدب في عصر النهضة تعتبر مرجعاً لكل دارس ومحقق، ومن مخطوطات الأمير نديم أيضاً «العقائل» و«الرسائل».

وما زال لهذه النبعة الكريمة من آل ناصر الدين في كفر متى فروع باسقة منهم الأمير طارق نجل الأمير نديم، وهو شاعر مطبوع وفذ وشقيقاه في دنيا الصحافة والأدب الأميران سعيد ودريد.

ومن أبرز الأسر العريقة في آدابها. كما في نسبها آل تقي الدين في بعقلين وقد برز منهم أعلام كبار في شتى الحقول الفكرية أو تقلدوا مناصب رفيعة في الحياة العامة وكبيرهم هو الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين (١٤٩٥ ــ ١٥٥٨م)، صاحب المزار في كفر متى حيث توفي، والذي يحتلّ، بعد الأمير السيد عبد الله التنوخي، المرتبة الثانية في الشؤون الدينية ومن مؤلفاته القيّمة: «النقط والدوائر» الذي طبع سنة ١٩٠٢، ومخطوطتان هما: «شرح الشهادتين» «والبيان في شرح البدعة ومجرى الزمان». ومن الذين برزوا، من آل تقي، في عصرنا، في عالم الأدب:

● **الشيخ احمد تقي الدين** (١٨٨٥ ــ ١٩٣٥) له ديوان شعر جمعه ونشره ابنه المرحوم الشيخ حليم سنة ١٩٦٧ كما أعيد طبعه سنة ١٩٨٢.

● **امين تقي الدين** (١٨٨٤ ــ ١٩٣٧) وهو شاعر كبير، إلى جانب كونه صحافياً ومحامياً بارعاً. وقد جُمع شعره وصدر في ديوان سنة ١٩٩٢ مع دراسة للأستاذ نجيب البعيني. وللدكتور سامي مكارم دراسة قيّمة حول شعر أمين تقي الدين سوف تصدر مع نسخة أخرى من ديوانه.

● **سعيد تقي الدين** (١٩٠٤ ــ ١٩٦٠) وهو من كبار كتّاب القصة والمسرحية في العالم العربي، وله مقالات في النقد السياسي والاجتماعي، وقد تفرّد بأسلوب ساخر يحاكي كبار الأدباء في هذا الاتجاه، وقد أصدرت له دار النهار ــ في بيروت مجموعة آثاره في أجزاء ستة: القصص، المسرحيات، المقالات الأدبية، المقالات السياسية، الخطب والرسائل مع ملحق: «أنا والتنين» و «دروب موحشة».

● **خليل تقي الدين** (١٩٠٩ ــ ١٩٨٧) شقيق سعيد كاتب قصة ومقالة بارز وبارع ومن مؤلفاته: «عشر قصص». «الاعدام». «خواطر ساذج» «تمارا». «كارن وحسن». «من هتلر لرياض الصلح» «والعائد».

وهناك ادباء آخرون، في آل تقي الدين، إنما تميزوا في نواح فكرية أخرى، كالسياسة، والتاريخ والصحافة والقانون، وقد أتينا على ذكر بعضهم وسنأتي على ذكر بعضهم الآخر في سياق هذا البحث وتحت العنوان المناسب.

وهناك شعراء في الجبل اللبناني، برزوا إلى جانب نشاطات أخرى لهم ومنهم: سامي آل ناصر الدين كفر متى (١٨٩٦ ــ ١٩٦٣). الشيخ أبو حسن هاني ريدان. عينعنوب (١٨٨٦ ــ ١٩٧٠). عارف أبو شقرا عماطور (١٨٩٩ ــ ١٩٥٨). وديع يوسف ملاعب. بيصور (١٩١٤ ــ ١٩٨٤) عباس نصرالله. جديدة الشوف (١٨٩٣ ــ ١٩٧٤). سلمان جابر. البنية (١٩١٠ ــ ١٩٨٣). الشيخ وديع تلحوق. عيتات (١٩١٤ ــ ١٩٨٤). الشيخ نايف تلحوق، عيتات (١٨٩٧ ــ ١٩٧٣) وقد لمع في الشعر العامي ــ فؤاد أبي غانم كفر نبرخ (١٨٩٢ ــ ١٩٧٥). الشيخ هاني أبي مصلح. عين كسور (١٨٩٣ ــ ١٩٧١) وهو أيضاً لغوي مدقق. سليم حمدان باتر (١٨٩٢ ــ ١٩٦٨) له ديوان «أطياف» قدّم له الأستاذ كمال جنبلاط وكتاب «الدّر النظيم في مختارات السليم». ومحمد مصطفى العريضي. بيصور (١٩١١ ــ ١٩٩١) إلى كونه صحافياً ولغوياً. وحسن بك خضر. بعقلين (١٨٣٦ ــ ١٩٢٢) وقد جمع القصائد التي قيلت في مدح نسيب باشا جنبلاط في كتاب سماه «الغصن الرطيب في مدح النسيب». والأستاذ فندي الشعار، عيناب، أمدّ الله بعمره. وفارس سعد ورفيق وهبي.

ومن الشعراء الذي برزت أسماؤهم في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد برزوا في اتجاهاتهم الشعرية الجديدة، ومنها الحداثة التي كان لها دور مهم على مسرح هذه الحقبة من الزمن: كمال جنبلاط (في ديوانه «فرح») فؤاد الخشن. عصام العريضي. ذوقان عبد الصمد. نعيم تلحوق. مالك حمدان. زياد ذبيان وطارق ناصر الدين وحكمت تلحوق. ومن الشاعرات

البارزات: ناديا تويني. إنصاف الأعور معضاد. أديل الخشن. ناديا الجردي نويهض.

على أن فؤاد الخشن هو في مقدمة رواد الشعر الحديث، ويعتبره بعض النقاد أول رائد للحداثة الشعرية الأصيلة. وقد نال جوائز أدبية رفيعة منها جائزة رئيس الجمهورية اللبنانية سنة ١٩٦٤ عن عمله الشعري «عشتروت وأدونيس». وهو من مؤسسي «أسرة الجبل المُلهم» سنة ١٩٥١ مع وسيم تقي الدين وعلي سعد، وأحمد أبو سعد وسواهم. وقد صدرت مؤخراً لفؤاد أعماله الكاملة في جزءين عن دار العودة — بيروت.

وفي سنة ١٩٨٠ تأسست «الرابطة الأدبية» التي اختار أعضاؤها فؤاد الخشن عميداً لها، وكان الشاعر الكبير المرحوم عمر أبو ريشه رئيساً فخرياً لها. وقد كان لهذه الرابطة شأن أدبي على امتداد نيّف وعقد من الزمن. ومن أعضائها الدكتور سامي مكارم صاحب المؤلفات النفيسة في الأدب والدين والفلسفة وسنأتي على ذكرها. والمحامي عصام العريضي، أحد مؤسسيها، صاحب ديوان «ثلوج» وكتاب «على بساط الشعر» ومجموعة شعرية تحت الطبع وسواها من الأبحاث الأدبية والتاريخية. مالك حمدان صاحب ديوان «جبل النار» ومجموعة شعرية أخرى «الشذا والدخان». أمين الديب وله رواية: «حرية وراء القضبان». والشاعرة أديل الخشن صاحبة ديوان «أصداء». والشاعر الطبيب، طبيب العيون، الدكتور أسد شرف الدين وله ديوان شعر بالإسبانية ترجمه فؤاد الخشن إلى العربية واسمه «قصائد بلا عنوان». والكاتبة والشاعرة ناديا الجردي نويهض صاحبة «قناديل» و«نساء من بلادي» و«كلمات من ذهب». والفنان الرسام المعروف جميل ملاعب. والأديب الناقد ميشال جحا، والشاعر بسام العنداري. والكاتبة الباحثة زهرة حمود. والصحافي المرحوم حسن فخر. والصحافي الكاتب فضل الأمين. والصحافي عبد الكريم غندور.

وكانت الشاعرة إنصاف الأعور معضاد من مؤسسي «الرابطة الأدبية» لكنها ما لبثت أن انفصلت عنها لتؤسس صالونها الأدبي المعروف «الملتقى الأدبي» الذي كرّمت فيه العديد من الأدباء والشعراء اللبنانيين.

والشاعرة المرحومة ناديا تويني (١٩٣٤ — ١٩٨٣)، وهي إبنة السفير محمد علي حمادة وشقيقه الوزير مروان، وزوجة الصحافي الكبير غسان تويني. من أبرز الشاعرات، على المستوى اللبناني والعالمي، حيث نالت سنة ١٩٧٢ جائزة الأكاديمية الفرنسية عن عملها الشعري: «قصائد من أجل قصة». ومن مؤلفاتها: النصوص الشقراء (١٩٦٣) — «حزيران والكافرات» (١٩٦٨). لبنان وعشرون قصيدة من أجل حب (١٩٧٩). «عصر الزبد». محفوظات عاطفية لحرب لبنان ١٩٨٢ — وكلها بالفرنسية.

ويبقى هنالك أقلام واعدة في ميدان الشعر والأدب، كما في ميدان الصحافة عسى أن تصبح أسماء بارزة لتكمل المسيرة وتضيف إلى التراث كل ما هو جديد وإبداع.

ومن الأقلام البارزة في النقد والرواية شفيق الفقية عاليه. ووديع ملحم العريضي — بيصور. وفي المقالة الأدبية سمير أبو حمدان. غريفه وهو كاتب معروف وله عدة مؤلفات.

اما في اللغة فأقدم من أولاها العناية السيد عبد الله التنوخي في معجمه «اللغة العرباء»، وفي عصرنا العلّامة الحجّة أمين آل ناصر الدين وابن عمه الأمير نديم وقد أتينا على ذكرهما. والعلّامة الأستاذ محمد الباشا — (دميت — الشوف في مؤلفاته العديدة) ومحمد مصطفى العريضي في معجمه «الفرائد المكنونة». وملحم غرز الدين في مؤلّفه طرائف العربية» ونجيب العسراوي في معجم له عربي — برازيلي اسمه «تعالوا نحكي عربي» وسبق أن ذكرنا للأمير علي يوسف آل ناصر الدين — كفر متى معجمه المخطوط، إنكليزي — عربي. وللشيخ ناصر الدين العيد — بعقلين (... — ١٦٩٨م) قاموس سماه «الدُرر المضيئة واللمع النورانية» يشرح فيه الألفاظ الدينية وقد رتّبه على أساس الحرف الأخير من الكلمة. وللشيخين هاني أبي مصلح وكمال أبي مصلح أيادٍ تذكر على العربية في مؤلفاتهما وفي أبحاثهما القيّمة والمفيدة. ولآل الشرتوني أيادٍ سمحة على اللغة ونخص بالذكر منهم المعلم رشيد الشرتوني في مؤلفاته المعروفة.

في التاريخ

يعتبر صالح بن يحي، في أواسط القرن التاسع الهجري المؤرخ الحجة، والمرجع الثقة لحقبة امتدت ثلاثة قرون وتنتهي سنة ٨٤٠هـ = ١٤٣٦م وذلك في كتابه الشهير «تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب» وفيه من تاريخ بيروت ما لا يزيد على سبع صفحات والباقي عن مقاطعة الغرب (الشوف الأدنى) وتاريخ التنوخيين. والكتاب يعتبر وثيقة تاريخية نفيسة عثر على مخطوطته في باريس الأب لويس شيخو اليسوعي ونشره العام ١٨٩٨ وأعيد طبعه عام ١٩٢٧. ويذكر الزركلي أن لصالح بن يحي كتاباً آخر في سيرة الأمام الأوزاعي.

وبعد صالح بن يحي يأتي ابن سباط العاليهي، المتوفّى سنة ١٥٢٠م، وهو ابن الفقيه شهاب الدين سباط أحد تلامذة الأمير السيد عبد الله التنوخي خطيب جامع عبيه والمؤذن المعروف بصوته الشجي. ومن سلالته آل الفقيه في عاليه وآل أبو الفضل والفقيه في السويد بسوريا. من مؤلفات ابن سباط مخطوطتان الأولى مفقودة والثانية تؤرخ الحوادث على مدى أربعة قرون من سنة ١١٣٢م إلى سنة ١٥٢٠م (٥٢٦هـ — ٩٢٦هـ) وهناك نسخة من هذا التاريخ بخط الشيخ ناصيف اليازجي في مكتبة اللاهوت البروتستنتية في بيروت. وقد كتب ابن سباط في تاريخ العالم القديم وتعاليم الموحدين الدروز واعتمد الكامل لابن الأثير مرجعاً له كما اعتمد تاريخ بيروت لصالح بن يحي. ويقول الشيخ محمد الأشرفاني، المتوفّى سنة ١٦٥٨م، وصاحب كتاب عمدة العارفين في قصص النبيين أن من بين المصادر التي اعتمدها لكتابه هذا، كتابين لابن سباط هما «لطائف الإشارات» و«المخمسة». كما تذكر السيدة نائلة تقي الدين قائد بيه، في تحقيقها لابن سباط، ان له كتاباً آخر هو: «نزهة المشتاق في بعض جوانب المعمورة والآفاق».

ومن المؤرخين القدامى الشيخ مرعي حمادة، المتوفّى سنة ١٤٩٥م، وهو جد آل حمادة في بعقلين. تتلمذ على يد الأمير السيد عبد الله التنوخي وكتب سيرته. وإليه يرجع الفضل في معرفة الكثير من الأمور عن الأمير السيد والتي نشرها الأستاذ عجاج نويهض في كتابه «التنوخي». توفي في عهد فخر الدين الأول.

ومن المؤرخين لحقبة المتصرفية، يوسف خطار أبو شقرا. عماطور (١٨٧٥ — ١٩٠٤) في كتابه الذي يعتبر مرجعاً موثوقاً «الحركات في لبنان أيام المتصرفية» والذي أشرف على طبعه ابنه عارف أبو شقرا وقد سار على خطى أبيه فكتب: ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف و «تاريخ جبل الدروز».

ومن مؤرخي القرن التاسع عشر ملحم تقي الدين (١٨٤٨ — ١٩٢٤) وله مخطوطة «تاريخ المير يوسف الشهابي». ويقال إنها اختفت.

ومن المؤرخين البارزين، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين الأمير أمين مجيد أرسلان (١٨٦٨ — ١٩٤٣) وهو أديب وسياسي وطني فذ، أسس في الأرجنتين «الجمعية الخيرية المعروفية» ومن مؤلفاته التاريخية: المنشورة: «تاريخ نابليون الأول» نُشر تباعاً في جريدة لسان الحال عام ١٨٩٠. والمخطوطة منها: «سيرة أحمد باشا الجزار»، «حصار نابليون لمدينة عكا». «ملكة تدمر». وله مؤلفات عديدة في السياسة سنأتي، في حينه، على ذكرها.

أما أعلام المؤرخين، في العصر الحديث. فهم الأمير شكيب أرسلان، سليمان بك أبو عز الدين. عجاج نويهض. علي ناصر الدين البمريمي. بالإضافة إلى غيرهم ولا سيما أصحاب المؤلفات من أساتذة الجامعات ومنهم الدكتوران عباس أبو صالح وسامي مكارم، والأستاذ محمد الباشا في كتابه «معجم الدروز» في جزءين.

ومن أبرز آثار الأمير شكيب المطبوعة:

(١) تعليقاته على كتاب: حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض وقد بلغت التعليقات خمسة أسداس الكتاب وهو من أنفس المراجع التاريخية العربية والإسلامية التي صدرت في

مطلع هذا القرن. (٢) تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة». (٣) «وقائع سقوط الأندلس» (٤) الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية في ثلاثة أجزاء. (٥) تحقيق أربعة كتب سلطانية عن أبي الحسن علي بن أبي النصر والد أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة. (٦) مظفّر باشا في لبنان ١٩٠٧. (٧) مذكرات الوفد السوري الفلسطيني إلى جامعة الأمم في جنيف ١٩٢٣. (٨) المسألة السورية ١٩٢٦. (٩) الارتسامات اللّطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف أو المعروف بالرحلة الحجازية. (١٠) تاريخ غزوات العرب في فرنسا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ١٩٣٣. (١١) تعليق على تاريخ ابن خلدون ١٩٣٦. (١٢) السجل الارسلاني في كتاب «روض الشقيق». (١٣) : سيرة ذاتية». (١٤) «رحلة إلى ألمانيا. (١٥) رسالة البلاشفة أو رحلة روستر.

أمّا آثار الأمير شكيب التاريخية غير المطبوعة فمنها: «بيوتات العرب في لبنان» وهي من أنفس ما كتب وقد فقدت هذه المخطوطة ويقال إنها في مكتبة أمين نخلة. «تاريخ الجزائر». «طرابلس وبرقه في ليبيا». «الجيش المعبّا في تاريخ أوربا». «تاريخ لبنان» وغيرها.

وسليمان بك أبو عز الدين. العبادية (١٨٧١ ـ ١٩٩٣) وهو مرجع تاريخي ثقة كثيراً ما أتى على ذكره الأمير شكيب بحيث يقول وقد استشرت في هذه النقطة المؤرخ سليمان بك أبو عزّ الدين ـ وقد اشتهر في تحقيق الانساب العربية القديمة. ترك مؤلفاً نفيساً هو «ابراهيم باشا في سوريا». وله مقالات عديدة أشهرها ردّه في «المقتطف» السنة ١٩٣٠ على فيليب حتي الذي ذكر عن الدروز أشياء غير صحيحة.

وعجاج نويهض، رأس المتن (١٨٩٦ ـ ١٩٨٢) وهو مناضل عربي كبير من أشهر أعماله ترجمة «حاضر العالم الإسلامي» (١٩٢٥) الذي علّق عليه الأمير شكيب كما نوّهنا اعلاه ومن أشهر كتبه المطبوعة: «أبو جعفر المنصور». «فتح القدس». «التنوخي». والمخطوطة: «تاريخ الحركة العربيّة». «سيرة الأمير شكيب أرسلان». «تراجم لعدد من رجال الفكر والسياسة من العرب والمسلمين». محاضرات في التاريخ والسياسة.

اما علي ناصر الدين البمريمي (١٨٨٨ ـ ١٩٧٤) مؤسس عصبة العمل القومي، فله مؤلفات عديدة منها في التاريخ والسيَرة «سلسلة الثائرون العرب في التاريخ». «مصطفى كمال أو جنون الأبطال». «أبو ذرّ الغفاري». «سيف بن ذي يزن» هتلر اليهود ـ ترجمة.

ولفؤاد بك حمزة. عبيه (١٩٠١ ـ ١٩٥٢) الذي كان مديراً للشؤون الخارجية لدى الملك عبد العزيز آل سعود مؤلفات في التاريخ. منها المطبوعة: «قلب جزيرة العرب». «المملكة العربية السعودية». «رحلة عسير». ومنها المخطوطة: «تركيا الحديثة». الخليفة عمر بن عبد العزيز. «موقع سوق عكاظ في الحجاز».

ولعارف بك النكدي. عبيه (١٨٨٧ ـ ١٩٧٥) مخطوطات قيّمة في التاريخ منها «تاريخ الأمير السيد عبد الله». «حياة محمد». «عمر بن عبد العزيز». «الحركات اللبنانية في السنوات ١٨٤٠ و١٨٤٥، و ١٨٦٠». «الولايات الأوروبيّة المتحدة».

امّا آل طليع في جديدة الشوف وقد برز منهم ـ رجالات أفذاذ في السياسة والحكم والأدب والقانون ومن أشهرهم رشيد طليع (١٨٧٦ ـ ١٩٢٦) الذي ترأس الحكومة في عهد الملك فيصل الأول والتحق بالثورة السورية الكبرى ١٩٢٥، فقد اشتهر منهم في التاريخ وهبه طليع (١٨٧٤ ـ ١٩٦١) الذي تعمّق في أنساب الأسر وفي التاريخ فكان مرجعاً لمشاهير المؤرخين أمثال: سليمان أبو عز الدين، أسد رستم، يوسف يزبك وفؤاد افرام البستاني.

والقاضي أمين طليع (١٩١١ ـ ١٩٨٩) له مؤلفات قيمة في التاريخ منها: «سيرة رشيد طليع». «تاريخ آل طليع». «تاريخ الشوف». «أصل الموحدين الدروز وأصولهم»؛ «ومشيخة العقل».

ولمحمود الحسنيّه، عين وزين (١٩١٨ ـ ١٩٨٣) مخطوطتان في التاريخ والسيرة هما: «الأمير فخر الدين الكبير» و«سلطان باشا الأطرش».

ومن المؤرخين والباحثين الكبار السفير عبد الله النجّار (١٨٩٨ ـ ١٩٧٦) ومن مؤلفاته التاريخية: «بنو معروف في جبل حوران» ١٩٢٤. «الفظائع في البلاد المقدّسة» ـ بالانكليزية. «أسرار المؤامرة الصهيونيّة» بالانكليزية. «انحطاط اليهودية الحاضرة». بالانكليزية. «الدروز» بالانكليزية. «الصهيونية بين تاريخين».

ولمنير تقي الدين. بعقلين (١٩١٧ ـ ١٩٧٩) مؤلفات في التاريخ العربي منها: «فلسطين العربية» ١٩٤٥. «الصليبية الجديدة في فلسطين» ١٩٤٨. «سقوط فلسطين». «سايكس بيكو دعامة الاستعمار الأوروبي». و«تاريخ المسألة الفلسطينيّة» في ثلاثة أجزاء.

ومن الذين برزوا في كتابة التاريخ في الثلث الأخير من القرن العشرين: نجلاء أبو عزّ الدين في كتابها بالانكليزية «تاريخ الدروز». غالب أبو مصلح في «تاريخ الدروز». حافظ أبو مصلح «واقع الدروز». محمد مصطفى العريضي في «تاريخ الموحدين الدروز». سامي أبو شقرا في «مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ». صالح زهر الدين في «تاريخ الموحدين الدروز» و«سيرة الأمير شكيب ارسلان». حسن البعيني في كتابه «سلطان باشا الأطرش». نجيب البعيني في «سيرة الأمير شكيب ارسلان» رياض غنّام في «المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٠». عادل نويهض في «سنوات كانت عربيّة». نديم نايف حمزة في كتابه «التنوخيون».

اما الدكتور عباس أبو صالح، استاذ التاريخ في الجامعتين الأميركية واللبنانيّة، فهو من المراجع الثقة في التاريخ المعاصر ومن مؤلفاته بالإشتراك مع الدكتور سامي المكارم «تاريخ الموحدين الدروز». ومن أشهر مؤلفاته «تاريخ الإمارة الشهابية»، وأبحاث وكُتُب عديدة أخرى.

في الكتابة السياسيّة

أبرز من كتب في السياسة: الأمير شكيب ارسلان. كمال جنبلاط. علي ناصر الدين البمريمي. عجاج نويهض. عادل النكدي. فريد زين الدين. فايز القفيه. محمد شيا. غازي العريضي. أديب الزهيري. عفيف فرّاج. كمال أبو مصلح. فارس شتي

فالأمير شكيب، في كتاباته كما في نضاله، يبقى ابرز المفكرين السياسيين في مطلع القرن العشرين ونهاية القرن التاسع عشر سواء في قضايا العالم الإسلامي أو قضايا العالم العربي. ولعلّ أبرز مواقفه السياسيّة، والتي حكم له التاريخ بصحّتها تلك التي عارض فيها الشريف حسين في الإنسياق وراء أخاديع إنكلترة وفرنسا. مؤيداً أهون الشرّين وهو الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية فقد كشف الأمير مؤامرة التقسيم وسايكس ـ بيكو وحتى وقوع الحرب العالمية الأولى قبل حدوثها كلّها. وبعد سقوط الدولة العثمانية برز الأمير داعية للوحدة العربيّة ومن أبرز مؤلفاته وكتاباته في تلك الحقبة «بيان إلى الأمة العربيّة عن حزب اللامركزية» آستانة ١٩١٤. «المسألة السورية». «الوحدة العربية» ١٩٣٧. النهضة العربيّة في العصر الحديث، ١٩٣٧. «رشيد رضا وإخاء أربعين سنة» ١٩٣٧ وسواها من المقالات العديدة ومنها مقالاته الشهيرة في «المؤيّد» في مصر عندما غزت إيطاليا طرابلس الغرب. ومقالاته المتطرّقة في «الأمة العربية» بالفرنسيّة في جنيف وقلب أوروبا.

ومن الذين كتبوا في السياسة والفكر القومي في النصف الأول من هذا القرن علي ناصر الدين البمريمي ومن مؤلفاته «قضيّة العرب». «الدولة العربية الاتحادية». «مشروع الاتحاد العربي». كما كتب في السياسة اللبنانية ومن مؤلفاته فيها: «الوحدة الوطنيّة في لبنان» وسواها.

وكتب عجاج نويهض في الفكر القومي العربي والفكر الإسلامي. وله مؤلفات ذات قيمة، منها المطبوع ومنها المخطوط: «النظام السياسي» ترجمة. «العراق أو الدولة الجديدة». ترجمة. «نفاق اليهود». «بروتوكولات حكماء صهيون» ترجمة وهو الأشهر وغير ذلك من المقالات العديدة خاصة تلك التي كان يحرّرها في جريدة «العرب» التي أنشأها في القدس ١٩٣٢.

ومن الذين وضعوا المؤلفات أو ترجموا في السياسة العالميّة، عادل النكدي، الذي ترجم عن الفرنسيّة كتاب: «النظام السياسي لأوروبا المعاصرة» لاتيان فلاندان. كما كتب فريد زين الدين ــ عين قنيه الشوف (١٩٠٧ ــ ١٩٧٣) بالعربية: و«الحركات القومية في أوروبا في القرن التاسع عشر».

على أن أبرز المفكرين السياسيين في النصف الثاني من القرن العشرين هو الأستاذ كمال جنبلاط الذي أسس الحزب التقدمي الاشتراكي وعرفت عنه ثقافة موسوعية شاملة قلّ أن وعتها شخصيّة سياسية في أيامنا هذه. فقد كتب في الفكر الإنساني والقومي والاقتصادي والاجتماعي والديني، كما كتب في السياسة اللبنانية وفي شؤون أدبية اجتماعية ضمّها كتابه الشهير «أدب الحياة». ومن أشهر مؤلفاته: «ثورة في عالم الإنسان». «فيما يتعدى الحرف». «هذه وصيتي»، في السياسة اللبنانية ــ أوضاع وتخطيط» «الديمقراطية الجديدة»، «لبنان وحرب التسوية» «حقيقة الثورة اللبنانية»، وكتب أخرى.

أما المحامي سليمان تقي الدين، بعقلين، فقد برز منذ ١٩٧٧ بفكره السياسي في مؤلفاته القيّمة ومنها «التطوّر التاريخي للمشكلة اللبنانية» ١٩٧٧ «محاكمة الحركة العربيّة في لبنان» ١٩٨٢. «العرب والمسألة السياسيّة» ١٩٨٣. «المسألة الطائفيّة في لبنان» ١٩٨٥ وهو أبرز مؤلفاته. و«تحوّلات المجتمع والسياسة» ١٩٩٢.

وكتب فايز الفقيه (١٩٤٠ ــ ١٩٨٧) ــ عاليه في الفكر السياسي التقدمي وعلم الإجتماع ومن مؤلفاته «نضالنا التقدمي الاشتراكي». «علم الاجتماع الحضري». «حول الفكر والنضال الاشتراكي». «ثورة ٢٣ تموز وعبد الناصر».

ولمحمد سعيد مسعود. بشامون، وهو مهاجر ومناضل من أجل العرب وفلسطين كتاب بالإنكليزيّة، «ناضلت كما أعتقد» كندا ١٩٧٦.

وللدكتور محمد شيا مؤلفات في السياسة منها: «شكيب ارسلان، مقدمة الفكر السياسي». وجدليّة التفتّت والوحدة في الشرق العربي ١٩٧٠ ــ ١٩٩٠».

وللاستاذ غازي العريضي، المدير المسؤول لإذاعة «صوت الجبل» مؤلف في التعليقات السياسية بعنوان «كلمات في الزمن الصعب» في أربعة أجزاء.

في الكتابة الدينيّة

الهرم الأكبر في الشروح الدينيّة والفقه لدى طائفة الموحدين الدروز هو الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي (٨٢٠ هـ ــ ٨٨٤ = ١٤١٧ ــ ١٤٧٦ م) وهو صاحب المزار المعروف في عبيه وأشهر كتبه تلك المعروفة بشرح السيد وتبلغ أكثر من أربعة عشر مؤلفاً وقد اتينا على ذكرها في المقدّمة.

وبعد الأمير السيد، في الكتابة الدينيّة، يأتي الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين المولود في بعقلين سنة ٩٠٠ هـ = ١٤٩٥ م والمتوفّ في كفر متى حيث أقام (السنة ٩٦٥ هـ = ١٥٥٨ م) وله مزار فيها ومن أشهر مؤلفاته «النّقط والدوائر» وقد اتينا على ذكرها من قبل.

ومن تلامذة الأمير السيد عبد الله، شهاب الدين بن سباط (.... ــ ١٤٨٣ م) وهو والد المؤرّخ الشهير ابن سباط العاليهي، وقد كان فقيهاً بارعاً وخطيباً ومؤذناً شجيّ الصوت.

وللأمير شكيب أرسلان كتاب «ولماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم» يعرض فيه لأسباب تأخر المسلمين السياسيّة والاجتماعيّة ويذكّر بتعاليم الإسلام التي كانت وراء فتوحاتهم وانتصاراتهم في الماضي.

وللأستاذ سامي أبو شقراء كتاب «التوحيد الدرزي في مضمونه الانساني» وكتاب آخر: «مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ».

وللقاضي أمين طليع كتابان: «المذهب الدرزي» و«التقمّص». وللأستاذ العلاّمة محمد خليل الباشا كتاب «التقمّص».

ومن أشهر من كتبوا في الفكر الديني عند الدروز السفير عبد الله النجّار ومن كتبه: «إمامة العقل عند الدروز» و«مذهب الموحدين الدروز» وكتاب «الدروز» بالإنكليزيّة.

ولتوفيق سلمان، الرملية (١٩١٠ ــ ١٩٦٦) كتاب «أضواء على تاريخ مذهب الدروز».

ولسعيد حمّود ملاعب، بيصور كتاب «الحكمة والحكماء» في ثلاثة أجزاء. أما في المهجر فقد برز في مجال الكتابة الدينيّة والفلسفية نجيب العسراوي ــ بتاتر (١٨٩١ ــ ١٩٨٧) ومن كتبه: «الإسلام في أميركا» (١٩٢٥) وهو ردّ على كتاب «الطلاق وتعدّد الزوجات» للياس مسرّة. وكتاب : «ردّ من البرازيل» وهو ردّ على كتاب الدكتور سامي مكارم: «أضواء على مسلك التوحيد». وله أيضاً كتب: «الدرزية« بالبرازيلية. و«المذهب التوحيدي الدرزي» وكتاب «تحرير العقل وطلاق الفكر»

وفي الفكر الفلسفي عرف الدكتور سعيد أمين أبو علوان (١٩١٨ ــ ١٩٥٢)، دكتوراه في الفلسفة واللاهوت والفلسفات الشرقية من باريس، وقد تفوّق في الدراسات الفلسفية والدينيّة الشرقية.

وأما الدكتور جميل نمور. بعقلين (١٩٣٧ ــ ١٩٨٦) فقد شغل منصب رئيس دائرة الفلسفة في جامعة ساكريمنتو في ولاية كاليفورنيا وأدرج اسمه في «دليل العلماء الأميركيين» و«دليل العلماء العالميين».

على ان أبرز المفكرين اليوم، وأغزرهم نتاجاً، في الكتابة الدينيّة والفلسفيّة، لدى الموحدين الدروز، هو الدكتور سامي مكارم المولود في عيتات ١٩٣١. وهو دكتور في الفلسفة من جامعة ميشغن (آن آربر) وأستاذ التصوّف والأدب العربي في الجامعة الأميركيّة ببيروت. ورئيس مركز الشرق الأوسط للدراسات العليا سابقاً في الجامعة نفسها. وهو اليوم الأمين العام للمجلس الدرزي للبحوث والإنماء. ومن مؤلفاته:

● «أضواء على مسلك التوحيد» (الدرزية) (١٩٦٦) مع مقدمة لكمال جنبلاط. ● شيراز مدينة الأولياء والشعراء ــ ترجمة إلى العربيّة ١٩٦٦ ● العقيدة الإسماعيليّة بالإنكليزيّة (١٩٧٢) ● العقيدة الدرزية ــ بالإنكليزية ١٩٧٤ ● المذهب السياسي للإسماعيليّة ــ الأمامة ــ بالإنكليزية ● مسلك التوحيد ١٩٨٠ بالعربية وهو أشهر كتبه ● الحلاج في ما وراء المعنى والخط واللون ١٩٨٩ ● الشيخ علي فارس ١٩٩٠ ● الأمير رافع أبي الليل بالعربية تحرير وداد القاضي ● النظام الكوني عند الإسماعيلين والدروز ــ بالإنكليزية ١٩٨٤ ● عاشقات الله ــ تحت الطبع ــ. وله في الأدب أبحاث ومؤلفات بالإضافة إلى كونه فنّاناً كبيراً في الخط العربي له لوحات خالدة.

في القانون

برز أعلام في هذا الحقل منهم:

عادل النكدي في كتابه بالفرنسيّة، «الأصول الادارية في الاسلام». وفريد زين الدين: «نظام المراقبة على الانتدابات الدولية» بالفرنسيّة أيضاً. والقاضي أمين طليع: «القضاء المذهبي الدرزي». وعارف بك النكدي في كتابه: «القضاء في الاسلام» وعبّاس حميّة في «قاموس هوامش وشرح الشريعة».

أما أبرز من كتب في هذا الحقل في الثلث الأخير من القرن العشرين فهو الشيخ حليم تقي الدين الذي كان رئيساً لمحكمة الاستئناف الدرزية وأستاذاً للقانون الجنائي في معهد العلوم الاجتماعيّة ومن مؤلفاته: «قضاء الموحدين الدروز في ماضيه وحاضره»، «الأحوال الشخصيّة عند الدروز وأوجه التباين مع السُّنة والشيعة مصدراً واجتهاداً» «الوصيّة والميراث عند الموحّدين الدروز ومئة مقال في تقسيم الميراث بالاشتراك مع القاضي الشيخ مرسل نصر.

والدكتور القاضي غسّان رباح دراسات قانونيّة وهو أستاذ القانون في كليّة الحقوق ــ الجامعة اللبنانية ــ بيروت وقد صدر له مؤخراً شروح في قانون الإيجارات الجديد.

ومن أبرز الحقوقيين الذين مارسوا القانون عملاً المحامي بهيج تقي الدين والقاضي أسعد حريز.

في الطب

أبرز الأطباء في القرن التاسع عشر هو الدكتور سعيد آل ناصر الدين كفر متى والد الأمير نديم وقد كان على خلق رفيع إلى جانب علمه الواسع. كما برز في هذا الحقل آل سليم من جباع الشوف ومنهم حسن سليم (..... ـ ١٨٨١ م) وقد كان جرّاحاً ومن اشهر رجالات لبنان في القرن الماضي كتب عنه جرجي نقولا باز: «إنه أول من وضع الطبّ في لبنان في خدمة الانسانيّة». وجاء بعده أولاده: الدكتور أسعد سليم (١٨٥٠ ـ ١٩٢٣) الذي ابتكر مضاداً للجراثيم التي تفتك بدود الحرير وكان يكتب المقالات الطبيّة في «المقتطف» و«الطبيب» و«لسان الحال» و«لبنان». وله كتاب: «المرشد الخبير في تربية دود الحرير».

وداود حسن سليم (.... ـ ١٩١٣ م) الذي تخرّج من الجامعة الأميركية في بيروت لسنة ١٨٨٤ وكان جرّاحاً بارعاً نافس أستاذه الدكتور بوست الذي أغراه بالسفر إلى أميركا لأبعاده. وبعد وفاة والده سافر إلى كندا سنة ١٨٨١ فلمع اسمه في حقل الطب بحيث أدرج في دائرة المعارف الطبيّة الأميركيّة. وإلى بروزه في الطب اخترع المروحة الكهربائية ووضع نظرية تحويل طاقة القطار من الفحم الحجري إلى الكهرباء.

اما شقيقة يوسف حسن سليم (.... ـ ١٩١٨) فقد تمكّن في السنة ١٩١٧ عندما استفحل أمر الكوليرا وذهب بألوف اضحايا، من أن يخترع مصلاً واقياً من هذا المرض الفتاك كان له فاعليته بنسبة عالية.

ونبغ في المهجر، حديثاً، في حقل الطب الدكتور سمير حسين الشعّار (١٩٣٤ ـ ١٩٧٢) الذي لم يعمّر طويلاً كأكثر النابغين، فقد أصيب بكليتيه مما حداه أن يكون موضوع أطروحته الأولى في (الـ B. A.) في جامعة كاليفورنيا اختراع جهاز كلية اصطناعيّة وفي أطروحة الدكتوراة كان موضوعه القلب الاصطناعي وقد سجّل هذا الإختراع تولّت انتاجه شركة موغ تحت اسم: Saar Actuator Cantroller-Arificial Heart.

وفي حقل الطب أيضاً تفوّق سعيد فريد جنبلاط (١٨٩٣ ـ ١٩٦٤) وهو خرّيج الجامعة الأميركية في بيروت السنة ١٩١٩ وحامل ليسانس في الطبّ من السوربون بفرنسا وقد اكتشف دواء ناجحاً لمرض العيون التراخوما. وفي السنة ١٩٢١ كان رئيساً مشاركاً في كليّة الطب بباريس.

وفي الفيزياء نبغ، في لبنان، الدكتور حسن مشرفيّة، الشويفات. وفايز أسعد قائدبيه عينعوب. اما في الرياضيّات فقد نبغ بديع تقي الدين ـ بعقلين فوضع في هذا الحقل ثمانية عشر مؤلفاً.

في الفنون

كثيرون هم الذين برعوا في التفنّن بالخط العربي وكان أبرزهم في القديم السيد عبد الله التنوخي. وفي عصرنا بلغ الخط العربي على يد الشيخ نسيب مكارم، عيتات (١٨٩٨ ـ ١٩٧١)، والد الدكتور سامي، مراتب راقية من الإبداع الذي بلغ حدّ الإعجاز حتى أصبح خطّاط الملوك، وكان قد قرأ أنّ الأمير عزّ الدين جواد التنوخي قد كتب آية الكرسي على حبّة أرز فكتب الشيخ نسيب على حبّة الأرز وزاد خمس عشرة كلمة على ما كتبه التنوخيّ.

ويجدر بنا أن نذكر اليوم بالاعجاب الخطاط فارس ملاعب الذي سار على خطى الشيخ نسيب وأتى بالمعجزات في فنّه حتى ذكر اسمه في دليل الفنانيين العالميين.

ومن الذين برعوا في هذا الفنّ في الجبل الخطاط فهد العنداري ـ العبادية (١٩٠٣ ـ ١٩٧٣) الذي كان خطّاط الجمهورية اللبنانية.

امّا الدكتور سامي مكارم الذي أخذ عن والده فن الخطّ عاد وتفنّن فيه من جديد فجعل من الكتابة لوحة فنيّة هي آية في التصوير بحيث لم تعد الكتابة وسيلة لإظهار المعنى بقدر ما هي جمال في الشكل يعبق المعنى من خلاله كما الأريج من الزهرة. وقد بلغ عدد المعارض التي اقامها الدكتور مكارم للوحاته بضعة عشر معرضاً نال فيها كل تقدير وإعجاب.

أما في الرسم فمن الفنانين الذين لمعت اسماؤهم عارف الريّس، عاليه وجميل حمّود ملاعب بيصور، وكلاهما احتل مركزاً رفيعاً في هذا الفن مع خلال المعارض التي نالت النجاح والإعجاب. كما عُرف في هذا الفن وهبب البتديني، وسلوى روضه وهي فنّانة تجريديّة في الرسم والنحت.

وفي النحت اشتهرت الفنانّة معزّز روضه (١٩٠٦ ـ ١٩٨٦). وفي الموسيقى لمع نجم العزف ديانا تقي الدين ابنة الأديب سعيد تقي الدين سواءً في الغرف أو التأليف حتى بلغت مستوى عالمياً من الإبداع.

النهضة النسائية

بالإضافة إلى الأسماء التي أتينا على ذكرها من النساء البارزات، يجدر بنا أن نتوقّف عند أسماء أخرى من النساء اللواتي لمعن في شتى الحقول. ومن هذه الاسماء نجلا صعب وأنيسة النجّار في الحقل الإجتماعي وأميّة حمدان وسلوى صافي وجمال نويهض في الأدب وليلى نجّار في السياسة وسلوى شقير في الديبلوماسية. وهذه الأخيرة كانت رئيسة البروتوكول في البيت الأبيض وشقيقتها خالدة شقير مؤرخة قديرة لها كتب عدة حول السياحة في بلاد العرب. ●



كيس القمح

● في أحد أيام صيف عام ١٩١٧ صوّل أهل بيت الشيخ أبي ناصر الدين حسين الفقيه كمية من القمح ورفعوها إلى سطح المنزل كيما تجف. ويمكن طحنها. وجاء الليل وبقي القمح على السطح.

وحوالي منتصف الليل احس الشيخ أبو ناصر الدين بحركة على السطح وتأكد من سماع وقع أقدام وتذكر القمح فنهض من فراشه وتسلق السلّم بهدوء إلى السطح فشاهد رجلاً، وقد جمع مقدار نصف كيس من القمح، يحاول أن يرفعه إلى ظهره دون أن يتمكن. فتقدم منه الشيخ أبو ناصر الدين وقال له: «يا ابني، دعني أساعدك على رفعه».

أجفل الرجل من مباغتة الشيخ له وترك الكيس ووقف جامداً وقد عقد الخجل لسانه. وكان نور المجرّة كافيا لتبين الوجوه ومعرفتها. ولما طال تردد الرجل فيما يفعله أو يقوله، قال له الشيخ أبو ناصر الدين: «اسمع يا هذا، أنا اعرفك وأعرف أنه لو كان عندك في البيت ما تأكله مع عيالك لما اقدمت على هذا العمل. والآن إن شئت أن استر فعلتك فما عليك إلا أن تأخذ هذا القمح مني على نية الخير. وإن لم تقبل قصدي فضحت أمرك».

لم يترك الشيخ للرجل خياراً. فرفع الكيس إلى ظهره بمساعدة الشيخ ونزل السلم وذهب في سبيله.

* * *

المجالس التمثيلية والأجهزة العسكرية والمدنية والادارية في جبل لبنان في العهد العثماني

د. حسان حلاق *

مقدمة

شهد جبل لبنان في القرن التاسع عشر تنظيمات عديدة، كان في مقدمتها إنشاء مجالس شورى، ومجالس تمثيلية، ومجالس قائمقامية، ومن ثم مجالس نيابية، باتت تتطور تباعاً منذ العهد العثماني حتى اليوم في لبنان المستقل. وتحسساً من متصرفية جبل لبنان بأهمية الأمن والحفاظ على سلامة اللبنانيين، فقد قام المتصرفون في جبل لبنان ابتداء من عام ١٨٦١، باستحداث «فرق الضبطية» أو الدرك اللبناني، الذي كان له دور فاعل في ضبط وحفظ الأمن طيلة عهد المتصرفية، وطيلة عهود الاستقلال. واستكمالاً في تنظيم متصرفية جبل لبنان، فقد حرص المتصرفون على استصدار تنظيمات وقرارات عديدة، تمثلت بتعيين الموظفين والقضاة والأطباء والمهندسين والقائمقامين، وذلك للمساهمة في إدارة المتصرفية واستكمال الهيئات الوظيفية فيها.

وعليه، فإننا سنعالج في هذه الدراسة تاريخ المجالس التمثيلية في لبنان، وتاريخ نشأة الدرك اللبناني باعتباره مؤسسة عسكرية في المتصرفية وفي لبنان، ومن ثم سنعالج التعيينات المدنية والإدارية في الجبل باعتبار أن الجهاز الإداري والمدني مكمل للجهاز العسكري وللمجلس التمثيلي.

* * *

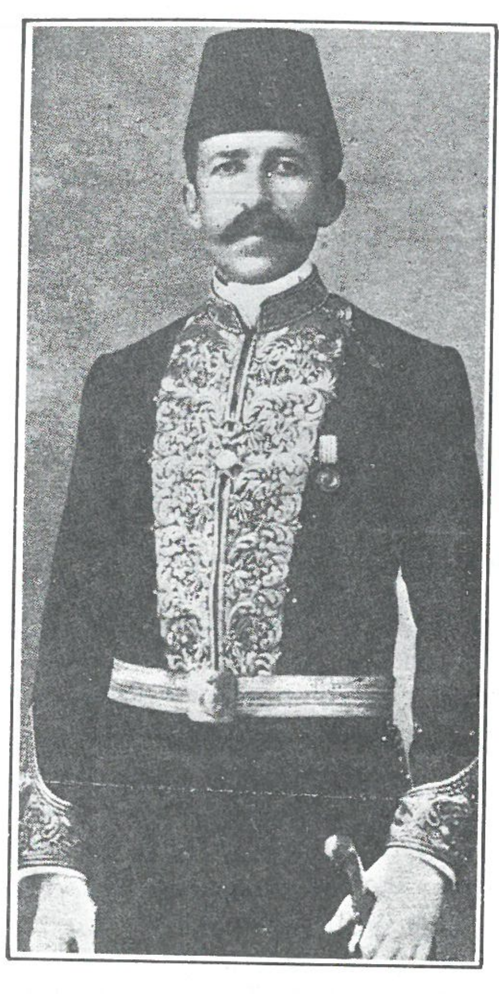
(*) ـ استاذ التاريخ الحديث في الجامعة اللبنانية وجامعة بيروت العربية.
ـ عضو المجلس الأعلى لجامعة بيروت العربية.



لم تكن بيروت والمناطق اللبنانية تعرف أسلوب المجالس التمثيلية والمتخصصة في العهد العثماني. غير أنها بدأت تتعرف إليها في فترة العهد المصري عندما أنشأ محافظ بيروت ومتسلمها الأمير محمود نامي عام ١٨٣٣ مجالس تجارية وصحية وقضائية متخصصة، وانشأ مجلس شورى بيروت من ابناء البلدة لتنظيم أوضاعها وإصدار القرارات اللازمة.

وجرت محاولات مماثلة في جبل لبنان، ثم جرت مطالبات بإنشاء مجالس تمثيلية متأثرين بما جرى في بيروت. وكانت الفرصة ماثلة أمام سكان وأعيان الجبل عندما طالبوا الأمير بشير الثاني الشهابي بإصدار فرمانات خطية من محمد علي باشا والي مصر ومن الأمير بشير نفسه برفع المظالم وتحسين أوضاع الشعب. ولما لم يتجاوب الأمير بشير مع هذه المطالب لجأ سكان جبل لبنان إلى أعمال العنف عام ١٨٣٩، واشترطوا عزل بطرس كرامة من الديوان، وإنشاء ديوان عالٍ مشترك يتألف من ممثلين اثنين عن كل طائفة من طوائف الجبل.

وبعد خروج المصريين عام ١٨٤٠ من لبنان وبلاد الشام، جرت اضطرابات طائفية في الجبل عام ١٨٤١ وكان الأمير بشير الثالث (بو طحين) أميراً على الجبل فأبعدته السلطة العثمانية، وعينت مكانه حاكماً على الجبل عمر باشا النمساوي، ثم ما لبث أن تم تقسيم الجبل إلى قائمقاميتين درزية ومسيحية وجعلت طريق الشام حداً فاصلاً بين القائمقاميتين، وفي عام ١٨٤٢ تم تعيين الأمير حيدر إسماعيل أبي اللمع قائمقاماً على النصارى والأمير أحمد عباس ارسلان قائمقاماً على الدروز. ولكن لم يتم في عهدهما إقامة مجالس تمثيلية بالمعنى الصحيح. ونظراً لإستمرار الإضطرابات فقد أرسل الباب العالي من استانبول عام ١٨٤٥ وزير الخارجية شكيب أفندي وزيراً مفوضاً لتهدئة الأمور في الجبل. لذا فقد أنشأ شكيب أفندي بموافقة سفراء وقناصل



□ حبيب باشا السعد بلباس الباشوية

الدول الكبرى الأوروبية مجلسي شورى يتعاونان مع القائمقامين لتنظيم الأوضاع وإجراء العدل بين فئات السكان.

لقد صدر قرار شكيب أفندي وتضمنت التعليماتنامه مقدمة وستة بنود منها:

ـ يرئس القائمقام مجلس الشورى في قائمقاميته.

ـ يعين القائمقام وكيلاً عنه يحل محله عند الإقتضاء.

ـ تُمثل كل طائفة بعضو مستشار واحد وقاضي عدل واحد ملم بقواعد منصبه.



□ الشيخ محمود شجاع، الشيخ جمال الدين فندي شجاع ـ الشيخ فندي شجاع

— انتقاء الأعضاء والقضاة يتم بالتعاون بين القائمقام والمطارنة عند النصارى، وبين القائمقام وشيخي العقل عند الدروز.

— التثبت من أن الأعضاء والقضاة لبنانيون جبليون مقيمون في الجبل مستوطنون في القائمقامية التي يمثلون، وأن أحداً منهم لم يدخل أصلاً وقطعاً في خدمة الأجانب. وعندما تعرض أسماء المرشحين على والي الإيالة فيوافق بمقتضى هذه الشروط أو يرفض الموافقة.

— من مهام مجلسي الشورى توزيع وكيفية جباية الضرائب على سكان الجبل سنوياً بكمال العدل. أما الجباية فتتم بمعرفة القائمقام ورجال الإقطاع والوكلاء. أما مأمورية المجلسين فهي النظر أيضاً في الدعاوى الماثلة أمامها بموجب العرف السائد في الجبل. ولا ينظر المجلسان إلا في الدعاوى والأمور التي يحيلها القائمقامان إليهما.

وتضمنت التعليماتنامه أسماء أعضاء مجلسي الشورى الدرزي والنصراني على النحو التالي:

مجلس قائمقامية النصارى ويضم: وكيل القائمقام من المسلمين السنة القاضي الشيخ حسين الخطيب من قرية رأس نحاش، العضو سعيد قبلان دبوس من جبيل، من الشيعة العضو حسين هميدر من قرية حصين، من الدروز القاضي علي بلوط من قرية المتين، العضو علي أبو قائد بيه من قرية الخريبة، من الموارنة القاضي الخوري ارسانيوس فاخوري من بعبدا، العضو الشيخ جرجس أبو صعب من قرية المزرعة، من الروم القاضي سليمان مرهج من قرية الشوير، العضو شديد عيسى الخوري من بحمدون، من الروم الكاثوليك القاضي ابراهيم الشامي من الساحل، العضو عبد الله أبو خاطر من زحلة، كاتب المجلس من الموارنة الخواجه حبيب قرداحي.

مجلس قائمقامية الدروز ويضم:

— وكيل القائمقام من المسلمين السنة القاضي الشيخ محمد الخطيب من برجا، العضو الشيخ أحمد الخطيب من شحيم.

— من الشيعة: العضو قاسم العرب من برج البراجنة.

— من الدروز: القاضي الشيخ محمد القاضي من دير القمر، العضو الشيخ يوسف نصر الدين من كفرمتى.

— من الموارنة: القاضي الشيخ بشاره الخوري من رشميا، العضو سجعان من معلقة الدامور.

— من الروم: القاضي حنا الخوري من الشويفات، العضو ضاهر بو نبهان من رأس المتن.



— من الروم الكاثوليك: القاضي درويش روزا من دير القمر، العضو فارس شكور من عين زحلته.

— من الدروز: كاتب المجلس محمود تقي الدين من بعقلين.

ويلاحظ أن مجلسي الشوري في القائمقاميتين لم يكن التمثيل فيهما مقتصراً على طائفة دون أُخرى، بل أن جميع الطوائف الموجودة في الجبل مُثلت في المجلسين بشكل متساوٍ في التمثيل رغم وجود أكثرية وأقلية بين هذه الطوائف والمذاهب. فكل طائفة مهما كان عدد أفرادها مُثلت في المجلس باثنين لا بنسبة أعداد أفرادها بعكس ما جرت عليه الحال في نظام المتصرفية منذ عام ١٨٦١.

ويلاحظ بأن صلاحيات مجلسي الشورى في عهد القائمقاميتين في فترة إنشاء المجلسين بين (١٨٤٥ ـ ١٨٦٠) كانت أوسع نطاقاً من صلاحيات مجلس الإدارة في عهد المتصرفية. فقد نظر كل من مجلسي الشورى في توزيع الأموال الأميرية، وبحث جميع المسائل الإدارية والقضائية الحقوقية والجزائية «وجميع المصالح الجسيمة العائدة بالجملة إلى الأهالي».

هذا وبعد تجدد الإضطرابات في الجبل عام ١٨٦٠ اضطرت الدولة العثمانية بالإتفاق مع الدول الأوروبية: إنجلترا، فرنسا، روسيا، النمسا وبروسيا على توحيد الجبل مجدداً وإلغاء نظام القائمقاميتين وإنشاء نظام المتصرفية الذي قرره السلطان عبد المجيد بهمة مندوبه فؤاد باشا ورضيت به سائر الدول في ٩ حزيران ١٨٦١ ـ غرة ذي الحجة ١٢٧٧هـ.

وقد تألف نظام المتصرفية من (١٨) مادة أهمها أن تكون إدارة الجبل بواسطة متصرف مسيحي عثماني من خارج الجبل تعينه الدولة العثمانية يلقى القبول من الدول الأوروبية الموقعة على النظام ويقيم مدة تمتد إلى خمس سنوات أو عشر سنوات، ويساعد المتصرف مجلس إدارة منتخب مكون من اثني عشر عضواً من طوائف الجبل يترتب عليهم توزيع التكاليف ونظارة الواردات والصادرات اللبنانية. ثم يعين النظام تقسيم الجبل إلى سبعة أقضية وإلى نواحٍ ويعلن مساواة الجميع وإلغاء الإمتيازات



□ ملحم بن ناصيف تلحوق (١٨٥١ ـ ١٨٨٧) محاسبجي جبل لبنان.

السابقة. كما حرم على الجيش العثماني الإقامة في المتصرفية وأنيط أمر المحافظة على الأمن بدرك لبناني خاضع لتعليمات المتصرف. كما إنحصرت الوظائف القضائية بقضاة لبنانيين يعينهم المتصرف. كما أن الإداريين في الجبل كانوا من أبنائه. ولهذا يلاحظ بأن اللبنانيين بدأوا يمارسون تقاليد المجالس ونظامها، كما تعودوا على بعض الإستقلال في الأمور الإدارية والإقتصادية والمالية، أما الأمور السياسية والتشريعية الهامة فقد استمرت مطلقة بيد المتصرف العثماني.

اما فيما يختص بنواب جبل لبنان أو أعضاء مجلس إدارته في عهد أوهانس باشا، فقد كان رئيسه عادة المتصرف. وفي هذه الفترة عين أوهانس باشا كما سبق أن ذكرنا حبيب باشا السعد نائباً للرئيس بعد أن كان المنصب شاغراً بوفاة الأمير قبلان أبي اللمع. كما تولى رئاسة الديوان الأديب محمود بك تقي الدين. أما أعضاء مجلس الإدارة ـ نواب جبل لبنان فكانوا بعد اكتمال عددهم على الوجه التالي:

١ ـ حسين بك الحجار: النائب عن قضاء الشوف.

٢ ـ فؤاد بك عبد الملك: النائب عن قضاء الشوف.



□ علي باشا بن احمد بن حسن بن قاسم علي جنبلاط مدير ناحية الشوف وروملي بكلربك

٣ ــ محمد أفندي محسن: النائب عن قضاء كسروان.

٤ ــ نعوم باخوس: النائب عن قضاء كسروان.

٥ ــ سعد الله بك الحويك: النائب من قضاء البترون.

٦ ــ جرجس تامر: النائب عن قضاء الكورة ثم خلفه بالانتخاب نقولا بك غصن.

٧ ــ خليل بك عقل: النائب عن قضاء المتن.

٨ ــ الياس أفندي الشويري: النائب عن قضاء المتن.

٩ ــ الشيخ محمد صبرا: النائب عن قضاء المتن.

١٠ ــ سليمان بك كنعان: النائب عن قضاء جزين.

١١ ــ محمود بك جنبلاط: النائب عن قضاء جزين.

١٢ ــ يوسف بك البريدي: النائب عن قضاء زحلة.

١٣ ــ داوود بك عمون: النائب عن قضاء دير القمر.

ولما أعلنت الدولة العثمانية بإعادة العمل بالدستور جرت انتخابات المبعوثان (النواب) عام ١٩٠٨ فنجح عن بيروت وأقضيتها سليمان البستاني ورضا الصلح، وفؤاد خلوصي عن لواء طرابلس الشام. وفي عام ١٩١٣ جرت الإنتخابات الثانية للمبعوثان وممن فاز فيها عن ولاية بيروت: سليم سلام، ميشال ابراهيم سرسق، وكامل الأسعد. وكان سليمان البستاني قد توفي قبيل إجراء الإنتخابات الجديدة، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن السلطان محمد رشاد (الخامس) حرص على توليته كلبناني منصب وزير الزراعة وذلك قبل وفاته. وقد قام النواب اللبنانيون بدور بارز في مجلس المبعوثان في مختلف المجالات السياسية والثقافية والتربوية والعمرانية.

وفي فترة الإنتداب الفرنسي ١٩٢٠ ــ ١٩٤٣ جرت بعض الإنتخابات النيابية وكان بعض النواب يعينون بقرار من السلطة الفرنسية. وكانت أول عملية انتخاب في لبنان قد جرت عام ١٩٢٢ بتدخل واضح من السلطة، وكان أول مجلس نيابي قد تكون على النحو التالي:

عن بيروت: د. حليم قدورة، إميل إده، محمد المفتي، د. أيوب تابت، نخله التويني.

عن البقاع: عبد الله أبو خاطر، شبل دموس، إبراهيم حيدر، أحمد الحسيني، حسين قزعون، موسى غور.

عن لبنان الشمالي: عبود عبد الرزاق، يعقوب النحاس، وديع طربيه، د. مسعود يونس.

عن لبنان الجنوبي: نصري العازوري، الأمير خالد شهاب، فضل الفضل، رزق الله نور، نجيب عسيران، يوسف الزين.

عن جبل لبنان: د. نخلة الأشقر، الأمير فؤاد ارسلان، نعوم باخوس، رشيد جنبلاط، الشيخ يوسف الخازن، نعوم لبكي، ابراهيم المنذر، حبيب باشا السعد.

عن طرابلس: نور الدين علم الدين.

هذا وقد جرى تعيين حبيب باشا السعد رئيساً لمجلس النواب.

أما أول وزارة في لبنان فأنها تألفت مع ولادة الجمهورية اللبنانية عام ١٩٢٦ وقد أمتدت من

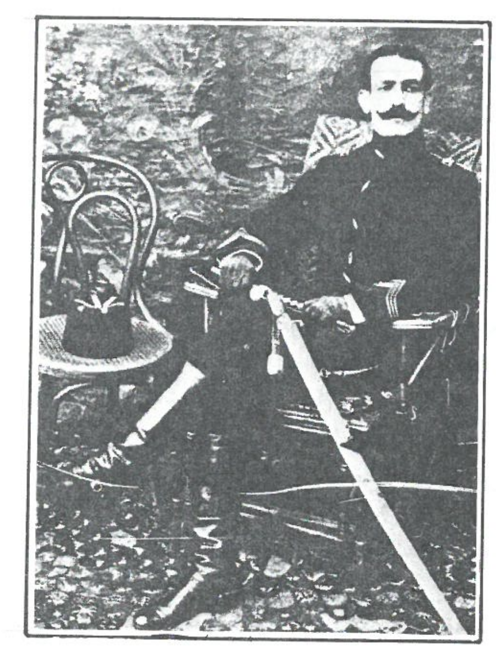
أول حزيران ١٩٢٦ إلى ٥ أيار ١٩٢٧ وذلك في عهد الرئيس شارل دباس وقد تكونت على النحو التالي:

أوغست أديب رئيس الوزراء ووزير المال، نجيب قباني وزير العدل، بشارة خليل الخوري وزير الداخلية، يوسف افتيموس وزير الأشغال العامة، نجيب أميوني وزير المعارف، علي نصرت الأسعد وزير الزراعة، د. سليم تلحوق وزير الصحة.

وهكذا استمر اللبناني بشكل أو بآخر في معترك الحياة النيابية والوزارية، وقد تجلى ذلك مجدداً في عهد الاستقلال عندما تولى رئاسة الجمهورية الشيخ بشارة الخوري وتولى رئاسة الوزراء رياض الصلح. ولم تتوقف الحياة النيابية والوزارية أو الانتخابات في لبنان، غير أن الأحداث اللبنانية التي بدأت منذ عام ١٩٧٥ اوقفت الإنتخابات اللبنانية في لبنان وأعتمد على مبدأ التجديد للنواب، وكان آخر عملية انتخابية جرت في لبنان عام ١٩٧٢. ثم واثر الإتفاق على «وثيقة الطائف» عام ١٩٨٩، فقد بدأت الحكومة اللبنانية بتطبيق بنود الاتفاق وقد نص أحد بنوده على إجراء انتخابات نيابية. وبالفعل فقد جرت هذه الانتخابات في صيف عام ١٩٩٢.

٢ ــ تاريخ نشأة الدرك اللبناني منذ العهد العثماني

منذ أن نشأت متصرفية جبل لبنان وصدر البروتوكول الخاص بها عام ١٨٦١، تبين بأن المادة الرابعة عشرة منه نصت على إنشاء «فرق الضبطية» بمعدل سبعة أنفار عن كل ألف نفس من الأهالي. واتصل متصرف الجبل بالقائد الفرنسي الجنرال دي هو تبول وطلب منه فصل بعض ضباط حملته لتنظيم «فرق الضبطية» ولكن الجنرال اعتذر. وفي عام ١٨٦٥ طلب المتصرف داوود باشا ضباطاً من الحكومة الفرنسية لتنظيم الجند في المتصرفية، فتجاوبت معه وأرسلت إليه بعثة برئاسة القائد «التيب» (ELTèbe) يرافقه الضباط: «فان» (Fain) و «بوردونه» (Bordonnée) و «دليكلير» (Deliclaire).



□ فؤاد بن سلمان شقير (١٨٨٢ ــ ١٩٢٧) بكباشي ومن أوائل العسكريين في الجبل وقائد الدرك اللبناني عام ١٩٢٠

وبدأت البعثة العسكرية الفرنسية بتدريب الفرق العسكرية اللبنانية ووضع الأنظمة الخاصة لها، غير أن ثورة يوسف كرم لم تترك لهم مجالاً للاستمرار وللعمل المجدي، وقد انتدب رئيس البعثة القائد «التيب» لصد غارات يوسف كرم، وقُتل في إحداها الأمير سعد الدين شهاب أول قائد وطني للدرك اللبناني.

ولما نشبت الحرب عام ١٨٧٠ بين فرنسا وبروسيا اضطر ضباط البعثة الفرنسية من العودة إلى وطنهم، وبدورهم اضطر الضباط اللبنانيون من الاستقلال بأمور الدرك والضبطية، فعملوا على متابعة التنظيم والتدريب.

وفي عهد المتصرف اوهانس باشا قيو مجيان ١٩١٢، جرى الاهتمام بتنظيم الدرك اللبناني. وقد تولى قيادة الدرك كبار الشخصيات والقادة والجند في متصرفية جبل لبنان وهم:

ــ الميرالاي ملحم بك الخوري: وهو قائد الجند اللبناني برتبة ميرالاي.

— البكباشي سعيد البستاني: رئيس أمناء لوازم الجند.
— البكباشي فؤاد بك شقير: وكان مختصاً باطلاعه على الأنظمة العسكرية العثمانية.
— البكباشي جرجس بك فرحات.

— البكباشي حليم بك شقير.
— القول آغاسي الأمير فايز شهاب.
— القول آغاسي سعيد بك حمادة كبير مرافقي الحاكم. المتصرف.
— اليوزباشي الشيخ خليل الخازن.
— اليوزباشي نجيب بك المعلوف.
— اليوزباشي حنا بك الضاهر. من مرافقي الحاكم المتصرف.
— اليوزباشي الشيخ أنطوان الخازن من مرافقي الحاكم المتصرف.

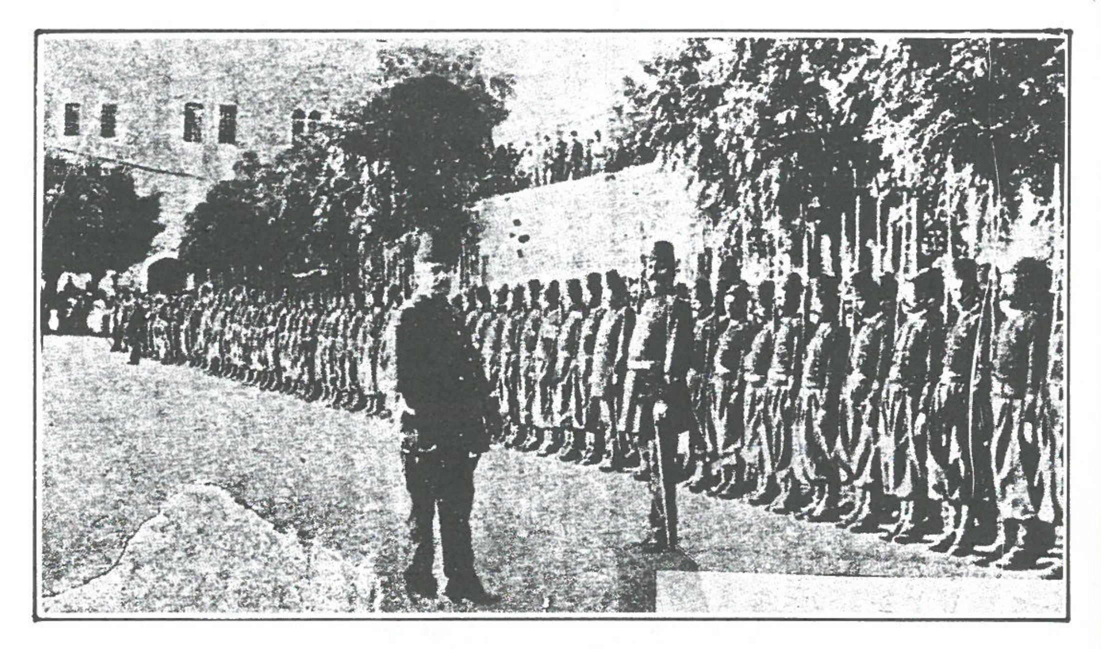
وفي عهد المتصرف أوهانس باشا جرت بعض المطالبات والتظاهرات من قبل الجند في العام ١٩١٣ مطالبين بتحسين أوضاعهم، وقد سبق أن قدموا هذه المطالب إلى قائد الجند ملحم بك الخوري، ولكن دون جدوى، فوصلت التظاهرات إلى بعبدا وقدموا مطالبهم للمتصرف الذي تجاوب معهم وأمر بصرف سلف لهم لتحسين معيشتهم وأوضاعهم.

وعلى الفور أصدر المتصرف قراراً بإقالة القائد ملحم بك الخوري، وأسندت قيادة الجند بالوكالة إلى المقدم سعيد بك البستاني رئيس أمناء لوازم الجند اللبناني. وبمناسبة تظاهرات الجند قدمت إلى جبل لبنان بعثة عثمانية من استانبول للتحقيق في أسباب هذه الفوضى، وأيدت المتصرف فيما اتخذه من قرارات، وكانت البعثة برئاسة الميرالاي طيّار بك. كما استطاع المتصرف الحصول على موافقة الباب العالي، للاستعانة بخبير فرنسي لتنظيم الجند اللبناني، الذي وصل فعلاً، وقام بوضع نظام حديث للجند.

وبعد عدة أشهر أصدر المتصرف قراراً بتثبيت المقدم سعيد بك البستاني في القيادة لما وجده فيه من نزاهة وحسن إدارة، ورفعه إلى رتبة ميرالاي (زعيم) بعد موافقة وزراء الحربية العثمانية. وقد برز في هذه الفترة من قيادات الجند المقدم فؤاد شقير من وجهاء الدروز في قضاء المتن، فقد تميز عن بقية الأمراء والضباط بسعة اطلاعه على القوانين والأنظمة العسكرية ومعرفته اللغة التركية. كما برز بعض ضباط الجند اللبناني في هذه الفترة ومنهم المقدمون: سليم طرابلسي، حليم شقير، جرجس فرحات، سعيد حماده، نجيب معلوف، الشيخ أنطوان الخازن، حنا الضاهر، والحاج شاهين، والأمير فايز شهاب.

ولما وصل جمال باشا إلى لبنان بدأ بإحداث بعض التغييرات منذ عام ١٩١٥، فقد ألغى العمل بالعرف القائم على تولية ماروني لقيادة الدرك والجند في الجبل، لذا اختار جمال باشا ملحم بك حمادة المقدم في الجيش العثماني قائداً للدرك اللبناني محل سعيد بك البستاني الذي نفي إلى الأناضول. وكان ملحم بك حمادة ابن عم شيخ عقل الدروز ومرافق المتصرف، وقد تخرج من الكلية العسكرية من استانبول، والتحق بالجيش العثماني ورقي إلى رتبة بكباشي (مقدم). وما هي إلا فترة حتى صدر قرار من قائد الفيلق الرابع جمال باشا بنقل ملحم بك حمادة إلى مركز القيادة العسكرية في عالية حيث سيتولى محاكمة المتهمين بالعمل ضد تركيا، وعيّن مكانه في قيادة الدرك المقدم وحيد بك الجركسي، ثم ما لبث أن نقل إلى خارج لبنان، وعيّن مكانه البكباشي وفيق بك وهو رجل تركي حازم وحسن الإدارة. وبعد فترة تم نقله أيضاً وعين مكانه البكباشي طلعت بك وقد ظل في قيادة الدرك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى أي إلى عام ١٩١٨.

ولا بد من الإشارة إلى أنه كان يتبع القائد الأعلى للدرك بعض القيادات في الأقضية التابعة لجبل لبنان، وعلى سبيل المثال فقد كان قائد الدرك في البترون والكورة في عام ١٩١٤ نجيب بك المعلوف المقدم اللبناني. وفي مطلع عام ١٩١٦ عيّن فوقه القائد التركي زكي، وفي بدء عام ١٩١٨ خلفه المقدم التركي عثمان بك. وقد تبين أن السبب الرئيسي في تعيين أتراك قادة للدرك في البترون والكورة، وفي إبدالهم بين فترة وأخرى هو أن عدداً كبيراً من التابعين للخدمة العسكرية



□ الميرالاي سعيد سعد الدين شهاب يستعرض الجنود في عيد الجلوس المانوس

من أهل الولاية يلجأوون إلى البترون وسواها من انحاء الجبل البعيدة عن بيروت وطرابلس، فراراً من الجندية التي تبدأ بالتعليم العسكري ثم يعقبه السَّوق إلى الجبهة الحربية.

ولما خضع لبنان للقوات الفرنسية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، أرسلت فرنسا إلى لبنان الليوتنان «ماستر»(Maistre) من الجندرمة الفرنسية بهدف تنظيم الدرك اللبناني. ففتح في بيت الدين مدرسة للضباط والأفراد ضمت خيرة الشبان، ونظم الخدمة في الفرق، ومضى في عمله الدؤوب إلى أن وضع أساساً متيناً لهيكل الدرك الحديث. ثم جيء بعده بالكابتين «كلير» (Claire).

وفي عام ١٩٢٠ بعد إعلان دولة لبنان الكبير، جرى ضم الدرك في الجبل إلى درك بيروت ومناطق الساحل، ودعي الكولونيل «ده بره» (Deprez) لتنظيم هذين السلكين الموحدين، فعمل مع معاونيه في كل محافظة على تأليف مجموعة الدرك من سريّات وفصائل ومخافر، وانشاء فصائل سيارة، ومدارس للضباط والأفراد، واتخاذ كافة الإجراءات الإدارية والعسكرية والتنظيمية لتنظيم الدرك وتطويره. وبعد فترة حل محله الكولونيل «كريس» (Kreis)، ثم خلفه أيضاً الكولونيل «دى مارلياف» (De Marliève).

وفي عام ١٩٢٧ تولى أمر الدرك الكولونيل «بوافان» (Boivin) الذي كان سابقاً في حلب. وفي أيامه اضطلع سلك الدرك بأمر السجون وصيانة الأحراج وتأمين السير والحفاظ على الأمن في المناطق والبلدات. هذا وقد شيدت ثكنة خاصة للدرك فخمة قرب مستشفى «أوتيل ديو» والتي تعرف اليوم بإسم ثكنة إبراهيم الخوري وهي مقر القيادة العامة، كما أنشئت فيما بعد عدة ثكنات منها ثكنة الدرك في شارع فردان وسواها من الثكن. وقد بقي الكولونيل «بوافان» (Boivin) على رأس الدرك أربع عشرة سنة.

وقبل دخول الجنرال ديغول إلى لبنان على رأس قوات فرنسا الحرة، رحل الكولونيل «بوافان» وحل محله القومندان «لافافادير» ثم «روزنفالون» من قدماء ضباط البعثة في الشوف وطرابلس وزحلة، فذهب هؤلاء بذهاب الفيشيين،



□ فرقة موسيقى الجند اللبناني عام ١٨٩٨

وحل محلهم الكولونيل مارزيرو» الذي لم يلبث على رأس الدرك إلا أياماً قلائل. ثم عين اللبناني الكولونيل سليمان نوفل قائداً عاماً للدرك اللبناني.

وكان يعاون القائد الفرنسي ضباط فرنسيون ساهموا في تنظيم الدرك، وعملوا على تأسيس الفرقة الموسيقية بأسلوب حديث وبمعدات حديثة، علماً أن فرقة موسيقى الدرك أو موسيقى الجند كانت قائمة منذ عهد المتصرفية، ولكنها في عهد الانتداب وعهد الاستقلال تطورت تطوراً بارزاً، ومن أبرز من تولى قيادة موسيقى الدرك أفراد من آل فليفل وبعضهم من أساتذة الموسيقى البارزين في لبنان والعالم العربي.

وفي صيف ١٩٤١ سافرت البعثة العسكرية الفرنسية نهائياً إلى فرنسا، وسافر أفرادها إلى وطنهم. وكانوا يتقاضون مرتباتهم وملحقاتها من الخزينة اللبنانية، وكانوا يلبسون ألبسة الضباط اللبنانيين مع بعض الفوارق وزيادة في الرتب ليصبح لهم حق التقدم عليهم في معرض القيادة.

ولا بد من الإشارة إلى أن سلك الدرك كان يضم فرقة الخيّالة التي كان يطلب منها في بعض الأحيان اقتحام المناطق البرية أو الجبلية لملاحقة الفارين من العدالة. كما أن أهل بيروت لا يزالون يذكرون خيّالة الدرك وهم يحافظون على الأمن حول الملعب البلدي في الطريق الجديدة أثناء الاحتفالات الرسمية بأعياد الاستقلال والجلاء، وأثناء إقامة المباريات الرياضية والكشفية وسواها. وقد قام رجال الدرك في عهود الاستقلال وبعدها بسنوات عديدة بأعمال بارزة وهامة في ميدان الأمن والخدمة العامة. ولا يزال الدرك وقوى الأمن الداخلي تحتفل في ٩ حزيران من كل عام بعيد الدرك أو عيد قوى الأمن الداخلي.

الموظفون والقضاة والأطباء والمهندسون والقائمقامون في جبل لبنان في عهد المتصرف أوهانس باشا

كان الموظفون في متصرفية جبل لبنان يخضعون لنظام المتصرفية الخاص، ويأتمرون مباشرة بأمر المتصرف. وفي ٢٣ كانون الأول ١٩١٢ صدرت الإرادة السنية العثمانية بتعيين أوهانس باشا قيومجيان ــ وهو أرمني عثماني ـ



□ أوهانس باشا قيومجيان

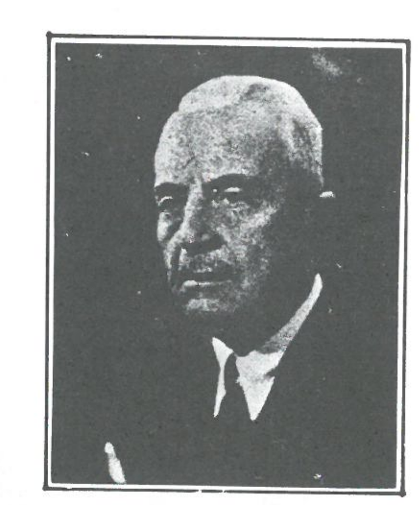
متصرفاً على جبل لبنان بموجب فرمان سلطاني، وذلك بعد موافقة الدول الأوروبية العظمى الست على هذا التعيين استناداً إلى نظام المتصرفية المتفق عليه.

وفي أوائل كانون الثاني ١٩١٣ وصل المتصرف الجديد إلى مرفأ بيروت حيث استقبل استقبالاً رسمياً حافلاً. وفي بعبدا تلي الفرمان السلطاني بحضور حشد كبير من رجال الدولة ورجال الدين والأعيان، وبذلك تسلم المتصرف الجديد حكم متصرفية جبل لبنان رسمياً، وقد تمنى أهل الجبل يومذاك أن يكون العهد الجديد عهد تقدم وازدهار للبنانيين.

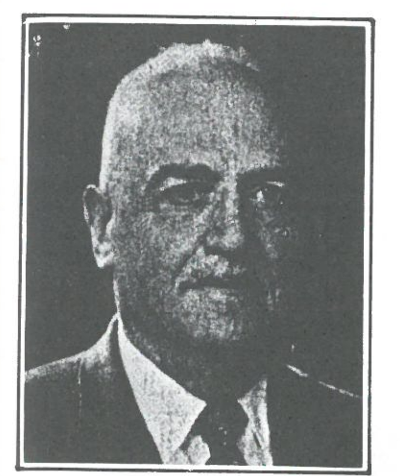
وكان أول قرار اتخذه المتصرف الجديد قضى بتعيين حبيب باشا السعد نائباً عنه في رئاسة مجلس إدارة جبل لبنان، وإقالة ناصيف بك الريس من مديرية القلم التركي وتعيين القاضي يوسف أفندي الحكيم مكانه. وعمل المتصرف أوهانس باشا على إجراء تعديلات على الوظائف الهامة في المتصرفية وتغيير بعض الموظفين وتثبيت بعضهم الآخر وكانوا في هذه الفترة يتولون المناصب التالية.

ــ **حليم بك**: يتولى منصب المحاسب المالي أو مدير المالية، وهو رجل تركي أرسلته وزارة المالية العثمانية لضمان تنظيم الموازنة بين الواردات والنفقات.

ــ **نمر أفندي شمعون**: رئيس ديوان المالية ومساعد حليم بك في الشؤون المالية. وكان موقفه حساساً لأنه كان موالياً لآل عمون الأخصام السياسيين لحبيب باشا السعد نائب المتصرف في رئاسة مجلس الإدارة.



□ يوسف الحكيم: قاض في الجبل ثم وزير في الحكومة الفيصلية في دمشق



□ عارف بن امين النكدي (١٨٨٧ ــ ١٩٧٥) علم من أعلام الفكر والوطنية في لبنان والعالم العربي

ــ **يوسف أفندي الحكيم**: رئيس القلم التركي وكبير أمناء المتصرف. وكان يقابل هذا المنصب في ولاية بيروت «مكتوبجي الولاية».

ــ **إبراهيم بك الحكيم**: مساعد رئيس القلم التركي.

ــ **الأمير نبيه شهاب**: الكاتب في ديوان القلم التركي.

ــ **خليل بك الخوري**: رئيس القلم العربي وهو من قدامى الموظفين في المتصرفية.

ــ **شبلي بك الملاّط**: مساعِد رئيس القلم العربي.

ــ **الدكتور بولس نجيم**: رئيس القلم الأجنبي ورئيس مديرية السجون.

ــ **كميل بك شدياق ويوسف بك معتوق**: معاونا الدكتور بولس نجيم.

ــ **عبد الله بك الخوري**: مدير الأمور الأجنبية في المتصرفية، ومدير التشريفات والمشرف على تبادل الزيارات مع القناصل الأجانب.

ــ **نخلة بك الخوري**: مدير الأوراق الحكومية.

ــ **نسيب أفندي الخوري**: وكان يتولى منصب معاون مدير الأوراق.

ــ **جرجس بك صفا**: رئيس دائرة الحقوق الاستئنافية.

ــ **مصطفى بك العماد**: وكان يتولى رئاسة محكمة الجنايات، وهي الدائرة الاستئنافية للأحكام الجزائية التي تصدر من المحاكم الابتدائية في الأقضية. وهو من كبار الزعماء في قضاء الشوف.

ــ **القاضي سليم باز**: المدعي العام لدى محكمة الاستئناف. وكان مشهوراً بشرحه لعدة قوانين جزائية وحقوقية وتجارية.

ــ **نجيب مشرق**: معاون المدعي العام لدى محكمة الاستئناف.

أما المستشارون في محكمة الاستئناف في دائرتيها الحقوقية والجزائية فهم القضاة: أحمد افندي الخطيب، إبراهيم بك الأسود، السيد أحمد الحسيني، إلياس بك بركات، إلياس بك الباشا، إبراهيم بك مسلّم، الشيخ طنوس جعجع، ملحم بك حمدان، عبد الجليل أفندي الخطيب، محمد بك عز الدين، أنطون بك الخوري. وقد تمثل في تشكيل هذه المحكمة الطوائف اللبنانية الست وهي: السنية والشيعية والدرزية والمارونية والأرثوذكسية والكاثوليكية.

ــ **القاضي يوسف بك الملاّط**: وقد عيّن رئيساً لديوان دائرة الحقوق.

ــ **القاضي عارف بك نكد**: وقد عيّن رئيساً لدائرة الجنايات.

□ وديـع عبود نعمة



□ محمد بن امين ابو عز الدين (١٨٦٧ ــ ١٩١٧) قاضي محكمة الجنايات في الجبل

ــ **الأطباء نجيب بك الخوري، فارس أفندي الملاّط، وداد أفندي مشاقة**: وهم يتولون مهام المصلحة الصحية في جبل لبنان والمسؤولون عن الصحة العامة.

ــ **المهندس أمين بك عبد النور**: رئيس الدائرة الفنية، وقد تم تحت إشرافه فتح معظم المركبات في مختلف بلدات الجبل وبعض الجسور والأبنية الحكومية.

ــ **المهندس البير نقاش**: معاون رئيس الدائرة الفنية.

أما القائمقامون في متصرفية جبل لبنان في عهد المتصرف أوهانس باشا فهم:

ــ نسيب جنبلاط: قائمقام الشوف.

ــ الأمير فائق شهاب حفيد الأمير بشير الكبير: قائمقام المتن.

ــ الشيخ كنعان الضاهر: قائمقام كسروان.

ــ سليم بك ناصيف: قائمقام البترون.

ــ الدكتور محفوظ طالب: قائمقام الكورة.

ــ سليم بك المعوشي: قائمقام جزين.

ــ إبراهيم بك أبو خاطر: قائمقام زحلة.

ــ سعيد بك حمادة: مدير ناحية الهرمل.

ــ شاكر بك أفرام البستاني: مدير ناحية دير القمر.

ومن خلال هذه الدراسة التاريخية، يتبين مدى التطور الذي أصاب جبل لبنان، بل لبنان كله في الميادين السياسية والعسكرية والإدارية والقضائية والصحية والهندسية. ويتبين مدى تطور المجالس التمثيلية التي كانت في جذورها بمثابة مجالس شورى متواضعة، ثم ما لبثت أن أصبحت مجالس تمثيلية واضحة المعالم. وأوضحت الدراسة الجهود المبذولة منذ عام ١٨٦١ من أجل تأسيس مؤسسة «الدرك اللبناني» التي باتت مؤسسة عسكرية وأمنية لا يستغنى عنها. وكما كان الجهاز العسكري ضرورة أساسية لحفظ المجتمع في جبل لبنان، فقد كان الجهاز الإداري وما يرتبط به من مؤسسات قضائية وطبية وهندسية من الضرورات الأساسية أيضاً لاستكمال عوامل استقرار متصرفية جبل لبنان.

●



الاقليم... «مثلث الصمود»

محمد مشموشي:
نائب رئيس التحرير في جريدة «السفير»

لم يكن إقليم الخروب يوما إلا بمثابة القلب النابض في جسد الجبل، وتعبير مثلث الصمود الذي أطلق عليه في أثناء الحرب اللبنانية وفي مواجهة الاجتياح الإسرائيلي، ثم في مواجهة الإحتلال، كان التجسيد العملي لهذا الواقع وللشعارات الوطنية التي رفعها الإقليم وعاشها على امتداد تاريخه الحديث والقديم.

وإذا كانت كلمة «مثلث» تشير إلى الموقع الجغرافي للاقليم، باعتباره رقعة من الأرض مثلثة الشكل ترتاح قاعدتها هانئة على الساحل بين نهري الأولي عند مداخل عاصمة الجنوب، صيدا، والدامور إلى الجنوب من بيروت، ويرتفع رأسها شامخا عند قرية بسابا في الشرق في مواجهة وادي بسري الوديع وبلدتي جزين الجنوبية وباتر الشوفية، فإن كلمة «الصمود» تشير إلى الموقع الوطني الذي احتله الإقليم على الدوام سواء في النضال من أجل الإستقلال عن الإستعمار الفرنسي في مطالع القرن أو في النضال من أجل بناء دولة الإستقلال في المراحل التي تلت إعلان الإستقلال.

ومن الطبيعي أنه ليس لأحد أن يزايد على أحد في، لا في الوطنية ولا في العروبة ولا في الالتزام بالقضايا القومية، إلا أن الإنصاف من جهة والمناسبة (أي مناسبة إصدار هذا العدد الخاص من مجلة تاريخ العرب والعالم) من جهة أخرى يقضيان بإعطاء الإقليم بعض ما يستحق في هذا المجال.

وليس الهدف التوغل مجددا في التاريخ. ولا العودة إلى تسجيل وقائع محددة قد يكون نسيها البعض، لتأكيد ما لا ينكره أحد أو يشك فيه عن وطنية الإقليم، بل الهدف محاولة الإنصاف فقط في مرحلة من الزمن عز فيها الإنصاف واختلطت فيها الأمور إلى حد الضياع.... فلا الحق ــ بعد حرب دمرت كل شيء تقريبا ــ بات حقا، ولا الباطل بات باطلا، ولا العدل بات هو العدل الذي تحدثت عنه كتب السماء ووقر في نفوس الناس على مر الأيام!!.

ولكن هل تعدل كلمات قليلة، أو هل هي تبدل، ما اختلط في الأذهان على امتداد سنوات الحرب؟!.

من نافل القول أن صورة الإقليم ــ إقليم الخروب الذي نال هذه التسمية أصلا بسبب كثرة شجرة الخروب فيه ــ لم تنكسر في حرب السنوات السبع عشرة وان اعتراها بعض التشوه. فالطائفية لم تدخله بينما كانت تغزو المجتمع اللبناني كله من دون استثناء. كذلك هو الإنعزال، وبخاصة عن العرب والأمة العربية وقضاياهما، برغم تورط الكثيرين من العرب في الحروب المتعددة على أرض لبنان، وبرغم ترك الإقليم يلعق جراحه وحيدا في مواجهة مشكلاته الحياتية الكثيرة والقاسية فضلا عن مشكلاته في مواجهة الإحتلال الإسرائيلي بعد الاجتياح في العام ١٩٨٢.

أما بالنسبة للقضية الفلسطينية، وللشعب اللبناني المدني والمسلح الذي استضافه الإقليم، فلم يكن الإقليم أقل وفاء بها وبه من غيره من المناطق اللبنانية سواء في الجنوب أو في الجبل. وشهادات المناضلين الفلسطينيين في هذا المجال أكثر من أن تعد وتحصى، وهي شهادات يعتز بها أهل الإقليم وسيبقون على اعتزازهم بها، مع أن البعض في لبنان الآن ــ وبعد الذي جرى محليا وعربيا ودوليا ــ بات ينظر إليها من زاوية أنها تهمة إن لم يخجل بها فهو لا يريد أن يتحدث عنها.

هذا في الحرب، وما أكثر المآسي والكوارث التي خلفتها هذه الحرب في المجتمع اللبناني بمختلف فئاته ومناطقه وطوائفه ومذاهبه!!. أما قبلها فحديث ناصرية الإقليم وعروبته النقية وحماسه للوحدة العربية، انطلاقا من الوحدة الرائدة بين مصر وسوريا، لم يكن يوما محل جدال لا في داخل الإقليم ولا في خارجه... ومن أصغر دسكرة فيه وأكثرها نأيا عن العاصمة إلى أكبر بلدة فيه وأقربها إليها.

قد يقال أن في ما سبق من كلام بعض الشعر، وخاصة بعض الشعر العاطفي، من أحد أبناء الإقليم المتعصب لأهله ومنطقته إن لم يكن لقريته بشكل خاص. وليس المجال مجال نفي مثل هذه التهمة مع أنها من نوع التهم التي لا يستطيع أحد أن ينفيها.

ولكن هل تعرف قارئي العزيز إقليم الخروب هذا؟!.

هذه بعض المعلومات السريعة عنه:

يقع الإقليم في القسم الجنوبي الغربي من قضاء الشوف، وتبلغ مساحته حوالي ١٦٧ كيلومترا مربعا أي ما يعادل ثلث قضاء الشوف و ١,٦ في المائة من مساحة لبنان.

يبلغ عدد قرى الإقليم ٣٩ قرية.

كان عدد سكانه في العام ١٩٦٥ حوالي ٥٢ ألف نسمة، وفي العام ١٩٩٠ وصل العدد إلى أكثر من مائة ألف نسمة أي ما يعادل ٢ ٪ من سكان لبنان. وتقول التقديرات أن عدد السكان سيصل في نهاية القرن إلى ١٣٠ الف نسمة، وبعد ٢٥ سنة إلى ما يقارب ١٨٠ ألف نسمة.

أقصى ارتفاع عن سطح البحر في شرقي الإقليم يصل إلى حوالي ألف متر.

الكثافة السكانية في الإقليم حاليا تصل إلى ٦٠ نسمة في الهكتار الواحد، فيما تبلغ هذه النسبة في لبنان حوالي ٤٠ نسمة فقط.

أكبر قريتين في الإقليم هما شحيم وبرجا، وعدد سكانهما يصل إلى ٢٠ ألف نسمة لكل منهما، كما أن هناك قرى عدة يبلغ عدد سكانها أكثر من أربعة آلاف نسمة منها الجية وكترمايا وجون.

●



صناعة النسيج في برجا
في مرآة الماضي وواقع المستقبل

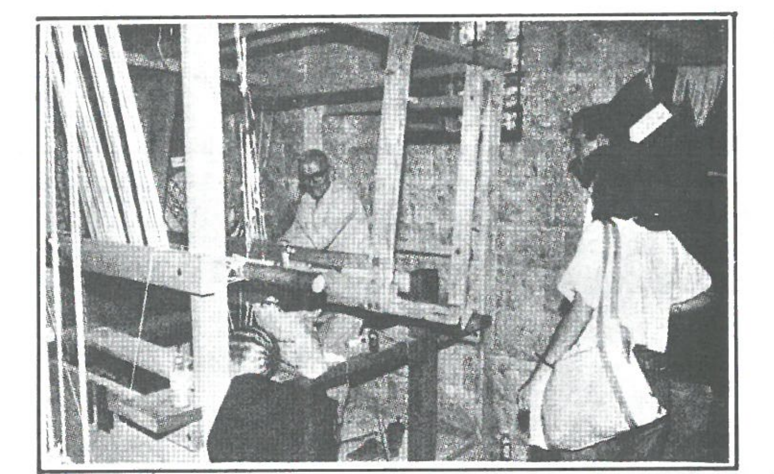
د. لطفي المعوش
استاذ في الجامعة اللبنانية

إقليم الخروب الذي يبست شجرات الخروب في أراضيه من كثرة الإهمال وأصبحت طعماً للنيران مع آمال أبنائه وسكانه. إقليم الخروب هذا، المتروك للفقر والحرمان، المنسي وراء أكوام التخلف والإهمال.

أجل يبست خروباته التي ملأت أراضيه في السابق اخضراراً، وحلّت عيش أبنائه، ودرّت عليه الخيرات، وأخذت زيتوناته الهرمة تموت شيئاً فشيئا من كثرة النسيان والوعود بالمشاريع لتحسين أوضاعه، حتى أصبحت أراضيه قاحلة كالصحراء، جافة كرمالها، ولم يبق من خروباته سوى الإسم الذي يطلق على المنطقة، وساعدت الأحداث المؤلمة على الإطاحة بالبقية الباقية، فهجره بعض سكانه إلى مناطق أخرى والبعض الآخر إلى العاصمة سعياً وراء لقمة العيش وركضاً وراء الرغيف.

تلك هي في كلمات حالة الإقليم، ومطالب قراه المنتشرة هنا وهناك، ولا تختلف عن مطالب الأكثرية الساحقة من اللبنانيين، حتى كاد يسمّى «بالجنوب الثاني» ولكن بدون مجلسه.

وعلى مجموعة من التلال المطلة على البحر، تتربع بلدة من أكبر بلداته سكاناً — برجا — التي يزيد عدد نفوسها عن الـ ٢٠ ألف نسمة. منذ القديم وتعاني هذه البلدة الحرمان والاهمال حتى أصبحا صفة ملازمة لها عبر الأيام والسنين حيث لا طرقات داخلية — للأشخاص والحمير فقط — ولا مستشفيات، ولا أية دائرة حكومية تقوم بتلبية حاجات أبنائها، إلى أزمة الأزمات — المياه — حيث يدفع الأهالي قيمة الإشتراكات السنوية، دون أن يحصلوا ولو على قطرات مما دفعوه. بالرغم من وجود بئر ارتوازي إلا أن المياه لم تعرف طريقها جيداً إلى منازل المشتركين ولا هاتف يصلها بالعالم الخارجي.



□ النول من برجا في قاعة معرض الأشغال اليدوية

ويتخذ أهالي برجا من الوظيفة الحكومية مصدراً لمعيشتهم، أو من التجارة البسيطة. ولكن أكثرية هؤلاء كانوا يعملون كباعة متجولين في المناطق حتى استشهروا بها منذ عشرات السنين، ولهذا سبب سنأتي على ذكره فيما بعد.

وقديماً ازدهرت في بلدتنا الحِرَفْ، من صناعة الأحذية إلى صناعة الصابون إلى أكثر حرفة انتشاراً: صناعة النسيج على أنواعها.

والآن سيقتصر حديثنا على هذه الحرفة ونعرض لتطورها وإزدهارها ومن ثم اضمحلالها وانقراضها.

لو نظرنا خلف المرآة، تتراءى لنا صورة عمّال النسيج — الحيّاكين — يتحلّقون حول أباريق الشاي، فيتداعون إليه يومياً في العاشرة صباحاً وفي آخر النهار. كانوا يشترون سوية الشاي والسكر، ويجلسون في حلقة دائرية يتطارحون هموم المهنة ومشاكلها ويستطردون في الحديث إلى السياسة فيصل بهم إلى معالجة أوضاع العالم ومن ثم إلى متاعب حرفتهم مجدداً... فيخيل للسامع أنها حلقة مناقشة عامة منظمة أو نحوها. حتى أن الأفكار التقدمية انتشرت أولاً في البلدة بين صفوفهم وعلى أيديهم.

تلك الجلسات — جلسات الشاي — كانت تعقد منذ أكثر من أربعين سنة (أيام زمان). حيث كانت الحرفة مزدهرة وفي أحسن أيامها، فكانت الأنوال — نول — منتشرة في البلدة على شكل تجمعات: هنا أربعة أنوال، وهناك ستة وهنالك عشرة وهكذا.... تجمعات ولقاءات وأحاديث. هذا ما كان يشاهد يومياً في برجا.

هذا الصورة إن دلّت على شيء فإنما تدل على مدى إنتشار حرفة النسيج في برجا، ومدى الإزدهار الذين بلغته في فترات سابقة من هذا القرن وما قبله.

وتذكر بعض المصادر التاريخية: أن الحرف شهدت انتشاراً وتطوراً في لبنان أيام الأمير فخر الدين المعني الكبير، خاصة بعد عودته من إيطاليا وإطّلاعه هناك على التطور الحضاري فيها وتأثره بتلك الحضارة. وكان للمعاهدات التجارية التي عقدها مع بعض الدول الغربية أثر في تشجيع الحرف وخاصة صناعة النسيج، فزاد إنتاج المنسوجات الحريرية بشكل خاص وانتشرت الحرف في مناطق مختلفة من لبنان مثل عين طوره وبيت شباب وبرجا. والأخيرة كانت تنتج كميات كبيرة من النسيج على إختلاف أنواعه، وأن معظم أراضيها كانت مزروعة بأشجار التوت لتربية دودة القز، كما كانوا يشترون أوراق التوت من القرى المجاورة وخاصة الدامور.

وعن تلك الفترة بالذات، يرد ذكر بعض المعاهدات التجارية — المعقودة بين لبنان وإيطاليا وبينه وبين فرنسا — لتصدير المنتجات اللبنانية إليهما. هذه المعاهدات كانت تنص على التبادل التجاري.

ويذكر الدكتور عادل إسماعيل في كتاب «تاريخ لبنان» متناولاً الحالة الإقتصادية في عهد الأمير فخر الدين الثاني وخاصة الحِرَفْ ما يلي «بالإضافة إلى القطن والحرير وكانت الأمة — أي فرنسا — تأخذهما من لبنان وتصدرهما إلى المقاطعات، يجب أن نذكر منتجات أخرى مصنعة كانت أو خامات منتجة زراعية، ومن أولى هذه المنتجات، نذكر منسوجات (Bours) المصنوعة في برجا، والتي يبلغ مقدار انتاجها المصدّر سنويه إلى مرسيليا / ٤٢٠٠/قطعة من مختلف النوعيات والقياسات. هذا النوع الذي كان مزدهراً في تلك الحقبة، دخل اليوم في الإطار التقليدي للإقتصاد المحلي، ولا يوجد إلا في بعض مراكز الجبل وخاصة في برجا والذوق وبيت شباب وعينطورة».

وهناك بعض الأمثلة المتداولة في برجا، والتي تدل على أهمية هذه الحرفة فيها ومدى تطورها والاتساع الذي بلغته: منها إذا كدّس احدهم بضاعة كثيرة قيل له «مصمّدهن حتى يجوا الروم». وكذلك عندما تأتي الأيام الأخيرة من شهر شباط القارص البرد فإنهم يقولون «يا عجوز كسّري دولابك». والدولاب هو أداة تستعمل في تحضير الخيوط لعملية الإنتاج. والذي لا يستعمل إلا نوعاً معيناً من البضاعة، يقولون عنه: «ما بيحيّك إلا من غزل داريا.» وعن الشاي الحالك السواد القوي، يقولون: «مثل شاي الحيّاكين».

بالإضافة إلى هذه الأمثال، هناك روايات (؟؟) تقول: «أنه كانت هناك معاهدة تجارية معقودة بين برجا وإيطاليا. تصدِّر بموجبها برجا إلى إيطاليا منسوجاتها المختلفة.» ولكن ليس هناك دليل يؤكِّد صحة هذه الروايات. ويبقى مثل «قدوم الروم» دليلاً على العلاقات التي كانت قائمة بين الطرفين، وهذا ربما ساهم في حبك رواية الأهالي عن المعاهدة. ويذكر أيضاً وجود شرشف من إنتاج برجاوي في أحد متاحف فينا.

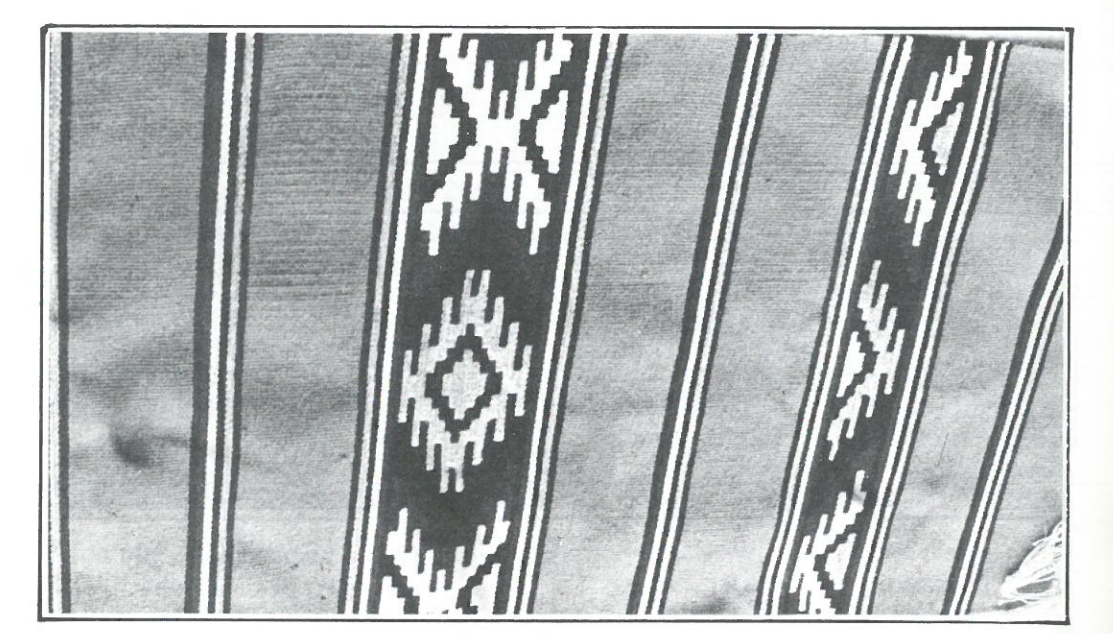
ومهما يكن من أمر، فالحوادث المذكورة في بعض الكتب التاريخية والأمثال المتداولة بين الأهالي، والروايات المختلفة، كل هذه تكشف وتؤكِّد ما ذكرناه عن هذه الحرفة المشهورة جداً في برجا، والدور الذي لعبته بالنسبة لإقتصاد تلك القرية، ومدى مساهمتها في الإقتصاد الوطنيّ أيام فخر الدين وما تلاه من عهود وحتى أيام المتصرفين والإنتداب ومن ثم الإستقلال بينما شارفت اليوم على الإضمحلال والإنقراض.

وخلال الحرب العالمية الأولى، كان سكان البلدة يعملون جميعاً في هذه الحرفة، ويعتاشون من خيراتها، ويقال أن موسم الحرير فيها كان بمثابة موسم التفاح اليوم في بعض مناطق الجبل والتبغ في الجنوب اللبناني، إذ كان أفراد العائلة جميعاً يشتركون بإعداد مواد الإنتاج والمساهمة فيه، من تهيئة الخيطان وإعدادها لتكون صالحة للإستعمال إلى تحضير **الماسورة إلى السدوى**، أي بصورة عامة التجهيز لبدء عملية الإنتاج.

ولكن مع الحصار المفروض على البلاد نتيجة الأعمال الحربية، انقطعت المواد الغذائية والمواد الأولية للغزل — أي الخيطان القطنية بصورة خاصة — فأخذ الأهالي يندفون قطن اللحف التي يتغطون بها أثناء نومهم ويحولونها إلى خيوط مستعملين الدولاب البدائي، ثم يصبغونها ويحيكون منها قماشاً، مختلف الألوان والأنواع، إذ صنعوا وجوهاً للفرش ولخياطة التنانير والقمصان — قمصان الزفير كما كانوا يسمونها — ما عدا القمباز الذي كان يصنع من خيوط مبرومة من القطن وبعض أنواع الخيوط الأخرى.

بعد الحرب الكونية الأولى، وانهيار الأمبراطورية العثمانية، تم تحقيق السيطرة الإستعمارية على البلاد العربية، فتدفقت البضائع الأوروبية مغرقة الأسواق العربية بمنتجات هذه الدول، مما أدى إلى إضعاف الصناعة المحلية لعدم قدرتها على منافسة الإنتاج الآلي المتطور، فتراجعت هذه الحرفة وأخذت حياكة المنسوجات بالتأخر والتقهقر حتى وصلت إلى مرحلة الإنقراض.

وحوالي الأربعينات من هذا القرن: ١٩٤٣ — ١٩٤٦ أي منذ حوالي ٥٠ سنة كان في برجا أكثر من ٢٥٠ نولاً من مختلف القياسات والأنواع. ولكن هذا العدد بدأ يتضاءل في الخمسينات إلى حوالي المئة. أما اليوم فإن عدد هذه الأنوال لا يكاد يبلغ عدد أصابع اليد الواحدة.



□ بساط ارض من مجموعة المعلم سليم لمع

إن أهالي برجا — كما أشرنا — كانوا غالبيتهم يعملون في تلك الحرفة بحيث كانت تعيل الأكثرية تقريباً. ولكن مع إنخفاض عدد الأنوال العاملة إنخفض عدد عمال الحياكة في الخمسينات إلى حوالي المئة عامل، يساعدهم عمال ملحقون بلغوا المئة، فيصل العدد إلى المئتين. وهذا يدل على تراجع هذه الحرفة وإنحسارها.

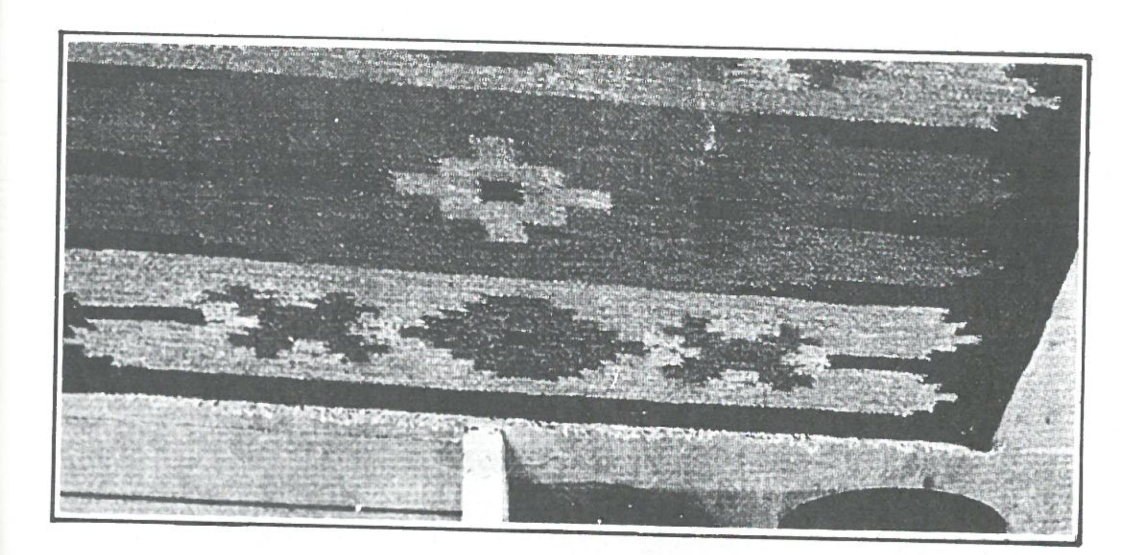
ولكن **ما هو النول وكيف تطور**؟ كان النول، في القديم، يدوياً أي بواسطة اليد فقط، بعرض حوالي ٧٠ سم. ثم تحول إلى ١٤٠ سم فإلى ٢٠٠ سم وأصبح جراراً يدار باليد بواسطة ما يسمى بالدفة، ويستمر بواسطة الرجلين.

على مثل هذه الأنوال انتجت أنواع متعددة من المنسوجات: الشراشف البرجاوية أبرزها والقمصان الزفير — كارو ملونة — والحرير الذي صنعت منه أفضل الأنواع التي تضاهي قمصان ٥٥٠٠ وأنواع أخرى من البدلات وقماش القمباز — ولكن أشهر هذه المنسوجات: الحرير المستخرج من دودة القز والشراشف.

أما كمية الإنتاج فكانت تختلف من عامل إلى آخر ولكن الحد الوسطي للإنتاج الفردي فيتحدد بـ ٤ شراشف يومياً — الشرشف حوالي ٢,٥ متر أي حوالي ٤٠٠ شرشف يومياً في الخمسينات. وفي فترات الإزدهار كان الإنتاج يرتفع وخاصة أيام التصدير إلى الخارج حيث كان الطلب كثيراً.

وأيام الأمير فخر الدين وما بعده بقليل كان يصدِّر أكثر الإنتاج إلى الدول الأوروبية — إيطاليا وفرنسا — وبعد ذلك أصبح الأهالي يقومون بانفسهم بهذه العملية عن طريق بيعه مباشرة للمستهلكين، **حيث اشتهر أهالي برجا** كباعة متجولين، جابوا أسواق فلسطين وسوريا والأردن إضافة إلى المناطق اللبنانية، يحملون إنتاجهم — خاصة الشراشف والمناشف على أكتافهم أو بشكل ربطات على ظهورهم، يبقون أياماً خارج البلدة حتى ينتهوا من بيع بضاعتهم التي اشتهروا بها: جاء البرجاوي — ممكن أن يكون بائعاً متجولاً غير برجاوي، ولكنه يعرف بالبرجاوي — ومن ثم يعودون إلى عائلاتهم.

اما إنتاج الحرير، فكان يشتريه الميسورون من اللبنانين والأجانب. إذ كان سعره أكثر من سعر الشراشف بكثير. لهذه الغاية كانت تربّى دودة القز بشكل واسع وأن معظم أراضي برجا



□ بساط ارض من مجموعة المعلم سليم لمع

كانت مشجّرةً بالتوت إلى جانب أشجار الخروب والزيتون واللوز والتين والكرمة.

أما المواد الأخرى المستعملة وخاصة القطنية، فقد كانت في الخمسينات تشترى من مصانع جبر والعسيلي على شكل ربطة ومن ثم بشكل مواسير كبيرة.

الأسعار: في الماضي، توفر نوع من الغزل المبروم للإنتاج بأسعار معتدلة وأقل، أما أثناء الحرب العالمية فلم تتوفر الخيوط ووصل سعر ربطة الغزل إلى ١٤٠ ليرة بينما كان سعرها لا يتجاوز ١٢,٥ ليرة. وكانت الربطة تزن بـ ٤,٥ كلغ.

مراحل الإنتاج: للحصول على الشرشف المعروف «بالشرشف البرجاوي»، تبذل جهود مضنية للغاية. وتمر الخيوط التي ينسج بها بمراحل متعددة حتى تصبح شرشفاً.

المرحلة الأولى: هي عملية شراء الخيوط السمراء من مصانع جبر للنسيج ومصانع العسيلي للخيوط ومعامل بطرس. بعدها تصبغ الخيوط، وتبيّض حسب الحاجة ثم تشمّع بمادة من نوع النشاء، بعد ذلك يأتي دور السدى. أي جمع الخيوط وإعدادها لعملية الإنتاج وتوزع الألوان حسب الطلب. وهذه كان لها عمال اختصاصيون لتوزيعها وقسمتها على ما يسمى الامشاط. وكانت الخيوط تقسم إلى ثلثين بثلث (٢/٣، ١/٣) أو ٣/٤، ١/٤.

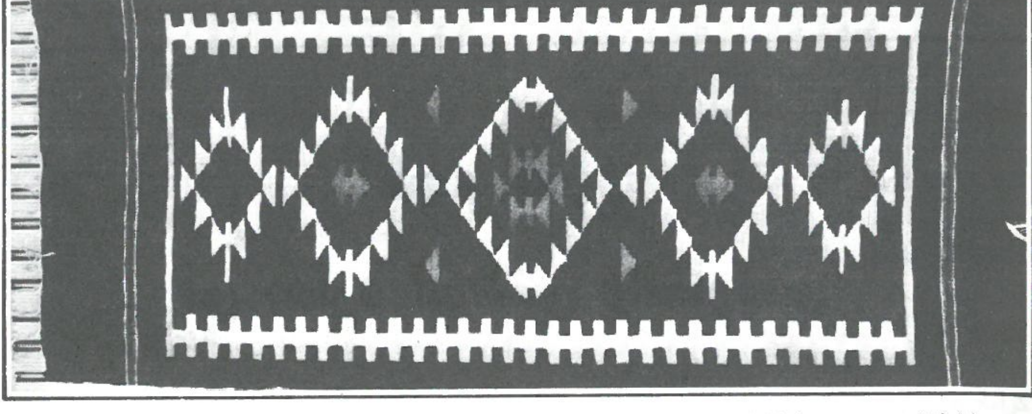
ويروي أحدهم، أنه أراد قسمة السدوة. سألته زوجته كيف نقسمها؟ أجاب ابنه: نقسمها ٢/٣ بـ ١/٣.

سكت الوالد قليلا ثم قال: نقسمها ٢/٣ بـ ١/٣. والواقع أن الوالد لم يكن يعرف غير هذا النوع من القسمة.

بعد ذلك يبرّز الغزل ثم يوضع في النول وتبدأ عملية الحياكة التي يقوم بها عامل واحد يساعده عامل آخر لإعداد اللُحمة: أي لف الخيوط على مواسير خاصة توضع في المكّوك. فالسدوى لها عامل والتبريز أيضاً وصناعة الخيوط كذلك وغيرها.

أضف إلى ذلك: أن هناك عملاً يلحق بعملية الإنتاج وله أهمية رغم إنفصاله عن كل المراحل المذكورة وهو اللقي: أي تنيير الأمشاط من القصب. وخيطان النير كان لها عمال مختصون بهذا العمل.

إذا ما قمت بزيارة برجا للتعرف على هذه الحرفة فأنت لا تجد سوى بقايا أخشاب ملقاة في الزوايا نخرها السوس وغطاها الغبار ولا تجد



□ بساط ارض من مجموعة المعلم سليم لمع

إلا بعض أنوال معدودة يكاد إنتاجها لا يكفي ثمن المواد المستعملة في الإنتاج. وإذا سألت من كان يعمل بها، يأتيك الجواب: «رزق الله على أيام الروام والأتراك» كان هناك إنتاج وبيع وبالدارج: أخذ وردّ. كانت الأمور ميسرة.

وإذا تحشرت أكثر لمعرفة سبب انقراض هذه الحرفة، يكون الرد سريعاً، بأن الآلة هي السبب لأن العمل اليدوي لا يستطيع منافستها. إلى جانب الإهمال الذي لاقاه عمّال هذه الحرفة من جانب مؤسسات الدولة. ويذكر أحد العمال. أن مصلحة الإنعاش الإجتماعي ـ قبل بداية الأحداث أحضرت قطعة قماش من نوع الحرامات وتحديداً مسطرة حرام جزائري، عجز مدربوها الفنيين ومهندسوها عن حل طريقة صنعها. فقدمت الحرام كلغز. ولكن بعض الحياكيّن تمكون من حلّه ولكن لسوء الحظ، أخذت النتيجة إلى الارتيزانا وتم تصنيعه هناك وبعدها لم يأت أحد.

من كل ما تقدم، نلاحظ أن هذه الحرفة التي بلغت الذروة أيام العز، تقهقرت ولم يبق منها سوى الذكريات، فهجرها عمالها وانتقلوا إلى المدينة للتفتيش عن عمل، فانتشرت البطالة بين الكثير من عمال هذه الحرفة لأنهم ليسوا في وضع يؤهلهم للعمل في القطاع الوظيفي. هؤلاء العمال لا يمكنهم أن يتحولوا إلى القيام بعمل آخر سوى تحولهم إلى باعة متجولين للأقمشة الجاهزة.

ولكن انعدام المساعدة المادية والفنية والتي يمكن تقديمها للعاملين فيها من قبل الدولة، وعدم وجود الأسواق أو من يقوم بشراء كمية الإنتاج، ومنافسة الإنتاج والمصنوعات الأجنبية للمنسوجات الوطنية، وعدم وجود نقابة لعمال هذه الحرفة تستطيع أن تساهم في حلّ مشاكلهم، وعدم شمول الضمان الصحي والإجتماعي لعمال هذه الحرفة وتأمين الشيخوخة وطوارىء العمل، جميع هذه الأسباب أدت إلى الوضع الذي وصلت إليه صناعة النسيج.

إن البكاء على رأس الميت لا يعيد له الحياة ولكنه حلال.

إن إعادة النظر بالمواقف السابقة والإهتمام الجدّي من قبل الدولة ومؤسساتها والقيام بدورات تدريبية لتعليم صناعة النسيج وتقديم التشجيع للمهتمين بهذه الصناعة كفيل بإعادة إحياء هذه الحرفة واستمرارها. وبالرغم من وجود جيوش العاطلين عن العمل من الشباب والفتيات إلا أن أحداً منهم لا يفكر بالتوجه نحو هذه الصناعة.

فالبرامج التوجيهية، وتسليط الأضواء والإهتمام الجدي كفيل بتسوية الأوضاع وإعادتها إلى طبيعتها.

إن هذه الدراسة البسيطة، لم تدخل في عمق المعالجة وبالتالي فهي ناقوس يقرع لتحويل الأنظار وجذبها للوضع المأساوي الذي وصلت إليه صناعة النسيج في برجا.

●

إقليم الخروب في مساره الوطني والتاريخي

د. سعيد مراد(*)

يشكل إقليم الخروب، الذي أطلقت عليه هذه التسمية لكثرة شجر الخروب المنتشر في أراضيه، الجزء الغربي من قضاء الشوف وحلقة الإتصال بين بيروت والجنوب، وهو على شكل مثلث تمتد قاعدته من جسر الدامور إلى جسر الأولي مشكلاً بذلك القسم الأكبر من ساحل الشوف. أما رأسه فينتهي عند بلدة بسابا على مسافة ٢٥ كلم من مصب نهر الأولي.

وليس المقصود بهذا التحديد إبراز أهمية موقع الإقليم من الناحية الجغرافية، ولا محاولة كتابة تاريخ مستقل لمنطقة لم ينفصل تاريخها يوماً عن تاريخ محيطها، إنما التأكيد على ما لهذا الموقع الذي لفه النسيان والحرمان من دور في تاريخ لبنان وتأكيد انتمائه العربي.

أما من الناحية السكانية، فإننا أحصينا بالاستناد إلى جدول القرى والمزارع المنشور في كتاب «مباحث علمية واجتماعية» وجود ستين قرية ومزرعة(١) إلا أن المأهول منها حالياً سبع وثلاثون، وتشكل شحيم وبرجا حوالي نصف عدد السكان البالغ عددهم ما يقارب المئة ألف نسمة. أما لجهة تاريخ السكن الفعلي في الإقليم، فليس هناك من تاريخ مؤكد بهذا الصدد، وإن كانت المغاور والكهوف المنتشرة في أكثر بلداته وقراه كبرجا وشحيم وعانوت ودلهون والمعنية وبسابا تدلنا على أن السكن فيه ربما يعود إلى العصر الحجري. بيد أن الآثار الرومانية الموجودة في شحيم في المكان المعروف اليوم باسم «القصر» وفي برجا «تمثال جوبيتر» والقرى والكنائس المندثرة في أكثر من ناحية، لا تدع مجالاً للشك حول السكن الفعلي في هذه الفترة، مما يستوجب القيام بدراسة مستقلة حول الآثار وتاريخها في هذه المنطقة.

ومع الفتح العربي، بدأ العهد المسيحي بالتقلص، إذ كان هم الخلفاء الأمويين ومن بعدهم العباسيين والسلاطين والحكام في دمشق حماية الشاطىء اللبناني من هجمات البيزنطيين ومن بعدهم الصليبيين، فاستقدموا القبائل العربية للقيام بهذه المهمة. ويبدو أن بعض هذه القبائل وجدت في موقع الإقليم الستراتيجي بين بيروت والجنوب ما يحقق هذه الغاية، فاندمجت مع سكانه، ومع الزمن طبعته بطابعها.

* أستاذ مادة تاريخ الفكر السياسي في كلية العلوم الإجتماعية ــ الفرع الأول ــ الجامعة اللبنانية.
ــ المدير المالي في الصندوق الوطني للضمان الإجتماعي.

وأول مرة يرد فيها ذكر قرية من قرى الإقليم كان في المنشور الذي وجهه الملك العادل نور الدين محمود زنكي عام ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) إلى الأمير زهر الدولة أبي العز كرامة بن بحتر حيث أقره على الإقطاعات التي ورثها الأمير كرامة عن أبيه، ومنها «برجه من صيدا بعاصر منها»،(٢) أي برجا وبعاصير. وفي منشور آخر يعود تاريخه إلى عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) موجه من الملك المعز إلى الأمير سعد الدين البحتري يرد ذكر قرى الإقليم «برجه، بعاصر، إشحيم»(٣) أي شحيم. ومعلوم أن الملك العادل نور الدين زنكي عرف بمحاربته للصليبيين، حيث كان يدعوهم «بالكفار».

ضمن هذا السياق التاريخي تبرز ثلاث حقائق:

ــ الأولى: أهمية الإقليم الستراتيجية.
ــ الثانية: إرتباط الإقليم بالجبل.
ــ والثالثة: دور الإقليم في الدفاع عن عروبة لبنان.

هذه الحقائق راحت تتأكد منذ ذلك التاريخ حتى اليوم، بحيث لا نستطيع فصل تاريخ الإقليم عن تاريخ الجبل من ناحية، وتحول الإقليم إلى قلعة من قلاع الوطنية والعروبة من ناحية ثانية.

ومع بداية الفتح العثماني وتوطيد الإمارة المعنية، شكل الإقليم وحدة لا تنفصل عن الشوف، وملاذاً يلجأ إليه الأمراء المعنيون، فتذكر لنا المراجع التاريخية لجوء الأميرين أحمد وقرقماز إلى أحراج مزبود هرباً من بطش والي صيدا. وبالرغم من تقسيم الجبل إلى مقاطعات كانت تنتقل بالإرث إلى هذا العهد الذي عرف بالعهد المقاطعجي، فإن هذه المقاطعات قسمت إلى قسمين أو معاملتين: القسم الشمالي أو معاملة طرابلس وكانت تمتد من حدود طرابلس إلى جسر المعاملتين وكان يتألف من ثماني مقاطعات، أما القسم الجنوبي أو معاملة صيدا فكانت تمتد من جسر المعاملتين إلى نهر الأولي، وقسمت إلى ست عشرة مقاطعة إحداها مقاطعة إقليم الخروب «وموقعها إلى غربي الشوف من الدامور إلى نهر الأولي وقاعدتها شحيم ومشايخها آل جنبلاط».(٤)

ولم يكن تاريخ الإقليم في العهد الشهابي سوى تاريخ الآلام والحرمان والخضوع لمشيئة المقاطعجي وما يفرضه من سخرة وميري، وكان أبناؤه يساقون سوق النعاج إلى ساحات الحرب تنفيذاً لرغبة الأمير الحاكم. هكذا كان الأمر أيام الأمير ملحم والأمير يوسف وأولاده وأيام الأمير بشير. ففي عام ١٧٤٨ زج الأمير ملحم بالإقليم لمواجهة عثمان باشا واتخذ مزبود قاعدة له ليتمكن من إتمام تجنيد رجال الإقليم وليقف حائلاً دون تقدم جيش الوالي إلى الجبل.(٥) وعام ١٧٧٠ أقحمه الأمير يوسف في صراعه مع ظاهر العمر.(٦) كما دخل الإقليم حمأة الصراع بعد أن ولي الجزار على مركز الإمارة، من ناحية ثانية، ما جعله مسرحاً للعمليات الحربية التي لم تهدأ على إمتداد ما يقرب من ستين عاماً. فعلى أثر الصراع بين أولاد الأمير يوسف والأمير بشير وإنحياز الجزار لهذا الأخير، يكتب الجزار للأمير بشير «بأن ينهض بالعسكر إلى صيدا ليكون إبتداء القتال من ناحية إقليم الخروب لقرب الإمداد. فرجع الأمير بالعسكر إلى صيدا ثم قام به إلى إقليم الخروب وكان عدده إثني عشر ألفا. فأقام بجانب منه في عانوت وأنزل الباقين في داريا وشحيم. فأخذوا يقطعون الأشجار ويحرقون المنازل وينهبون البيوت ويحرضون الناس إلى القتال. أما الأمير حيدر والأمير قعدان فأقاما بعساكر البلاد في بعقلين وعين بال».(٧)

ويبدو أن ظلم الجزار وبطشه كانا أقل وطأة على أهل الإقليم من قسوة الأمراء الشهابيين وأعوانهم.

ولم يكن الإقليم مسرحاً للحرب ووقوداً لها فحسب، وإنما كان أيضاً حقلاً للتجارب في نظر الأمراء الشهابيين، ومن ذلك أنه لما اشتد مرض الجدري حمل قنصل النمسا اللقاح إلى الأمير

بشير الذي لم يثق بنفعه «ولكنه جربه ببعض خاصته أولاً وأرسلهم إلى برجا ليخالطوا المجدورين حيث كان المرض هناك فتاكاً ولما تحقق نجاتهم من العدوى تلقح هو وأهل بيته».[٨]

ولما استتب الأمر للأمير بشير بعد أن تخلص من خصومه ومنافسيه أعاد توزيع الإقطاعات على مناصريه، فكان إقليم الخروب في عهدة إبنه الأمير خليل إلا أن هذا الأخير «أوكل إدارته إلى الشيخ حسين حمادة البعقليني».[٩]

ومع نهاية العهد الشهابي وقيام نظام القائمقاميتين اشتد العسف والجور، ومع ذلك بدأت بوادر الوعي بالظهور إثر تشكيل المجالس التمثيلية، فاجتمع وجوه الإقليم في محلة التياب قرب شحيم واختاروا أحمد الخطيب مندوباً عنهم يمثلهم في مجلس القائمقامية الجنوبية، وكان لهذه الإجتماعات اثرها في نشوء رأي عام يشعر بالظلم ويسعى لرفع الحيف عنه[١٠].

ومع قيام نظام المتصرفية، أرسيت قواعد الطائفية التي كانت تخفي هيمنة مارونية واضحة، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى المشروع الذي أعد لإنشاء جهاز الدرك الذي يبين هذه الهيمنة: «١١٩٧ ماروني من مجموع ١٨٤٠ عنصراً»[١١] في ظل هذا النظام، شكل الإقليم إحدى المديريات الاثنتي عشرة التابعة لقضاء الشوف. وشكل سكانه السنّة اقلية بالنسبة لباقي الطوائف، وكانوا ممثلين بمجلس الإدارة بعضو واحد. وبالرغم من الإستقرار الأمني الذي نعم به الجبل طيلة عهد المتصرفية بقي الإقليم غارقاً في بحر من الجهل والحرمان، حتى أن قرار المتصرف فرنقو باشا القاضي بافتتاح خمس مدارس في الإقليم في كل من برجا ـ شحيم ـ الزعرورية ـ عانوت ـ مزبود، ظل حبراً على ورق، باستثناء مدرسة شحيم التي كانت قد افتتحت في عهد داوود باشا، في حين تأخر افتتاح مدرسة برجا التي اقتصرت على معلم واحد حتى أواخر العام ١٩٠٠.[١٢]

وظل الإقليم بدون طرقات حتى آخر عهد المتصرفية أيام المتصرف إسماعيل حقي بك الذي أمر بشق طريقين الأول إلى برجا والثانية إلى شحيم. وبهذه المناسبة وتخليداً لهذا الحدث نظم حسين الحجار بيتين من الشعر جاء فيهما:

بكى الإقليم أياما طوالا ... ونادى ربه قد ضاع حقي
فرقّ له اله الخلق عدلاً ... وأرسل نحوه اسماعيل حقي[١٣]

إلا أن مشاعر الحرمان هذه لم تقضِ على اماني أهالي الإقليم القومية التي جسدها في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى الحكم العربي في دمشق (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) ممثلاً بشخص الأمير فيصل، وقد عبر أحد أبناء الإقليم ـ الشيخ إبراهيم حسن الخطيب ـ عن هذه الأماني مخاطباً الأمير فيصل بقوله: «فوضناك أن تكون سلطاناً... جبل لبنان جزء متمم لسورية لا ينفك عنها»[١٤] كانت وفود الإقليم تأتي إلى بلدة مزبود لتضع نفسها تحت تصرف إبراهيم الخطيب ـ مندوب الإقليم في المؤتمر السوري ـ باعتباره ممثلاً للملك فيصل. وقد رفع العلم العربي فوق منزله غير آبه بإنذار الفرنسيين وتهديدهم. وقد بلغ حماس أبناء الإقليم للحكم العربي ذروته عند زيارة القائد يوسف العظمة ـ بطل معركة ميسلون ـ للمنطقة في ربيع عام ١٩٢٠، ففي مزبود استقبل استقبال الفاتحين وراحت الجماهير المحتشدة تردد:

«يا يوسف بيك عحسابك ... منبيع الروح ومنفادي»
«نحنا فيصل ملكنا ... إن عشنا أو هلكنا»

وعندما وصل الموكب إلى مدخل شحيم بلغ الحماس عند الشباب درجة أن رفعوا السيارة بمن فيها.

وكان من نتيجة هذه الزيارة، إنخراط العديد من أبناء الإقليم في الجيش العربي بعد أن دعاهم يوسف العظمة للمشاركة في بناء الدولة العربية. وقد روى لنا الأستاذ فريد الخطيب ان حوالي ستين شخصاً من شحيم وحدها قد رافقوا يوسف العظمة إلى سوريا، يذكر منهم «شكيب أمين ضاهر وفهد علي يونس وتوفيق صادق».[١٥]

إلا أن الحلم لم يتحقق، فكانت معركة ميسلون ضربة قاضية وجهتها فرنسا للحركة العربية الوحدوية، ودخل لبنان تحت مظل

الإنتداب الفرنسي بعد أن وسعت حدوده بضم مدن الساحل والأقضية الأربعة إلى المتصرفية، وطيلة عهد الإنتداب عوقب الإقليم بالحرمان نتيجة مواقفه الوطنية والقومية. وإذا كان الإقليم شكل في دولة لبنان الكبير إحدى أبرز المناطق المتخلفة، إلا أنه بالرغم من ذلك، وبالرغم من أن الثقل الإسلامي في الدولة الجديدة إنتقل إلى بيروت والمناطق الساحلية، فقد بقي للإقليم دوره المميز في كل العهود، فهو الذي رجّح فوز الكتلة الدستورية على الكتلة الوطنية في معركة الإستقلال عام ١٩٤٣ بالرغم من تدخلات المفوضية الفرنسية، وكان دوره حاسماً في سيطرة النهج الإستقلالي المنادي بالتعاون إلى أقصى حد مع الدول العربية مقابل النهج الإنعزالي الذي طالب بالعودة إلى لبنان الصغير تحت الحماية الفرنسية.[١٦]

وكان أهالي الإقليم في طليعة من شارك في الدفاع عن الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨ وحضنوا أبناء فلسطين عند نزوحهم كما حضنوا بدايات تشكل المقاومة الفلسطينية. وكان دورهم واضحاً في معركة القضاء على الفساد عام ١٩٥١ بتبنيهم خط الكتلة الوطنية الإشتراكية وفي التصدي لربط لبنان بسياسة الأحلاف الأجنبية كحلف بغداد ومشروع أيزنهاور، كما ساهم أبناؤه مساهمة فعالة في إنتفاضة عام ١٩٥٨. ولا نغالي إذا قلنا أن كمال جنبلاط كان مديناً لأبناء الإقليم بتثبيت زعامته الوطنية والعربية، فأهالي الإقليم كانوا يتناسون مصالحهم الشخصية يوم الإنتخابات ليقترعوا لصالح الخط الوطني التقدمي الذي مثله كمال جنبلاط، وبسبب هذا الخط كان الإقليم يهمل رسمياً ويعاقب بالحرمان. وقد أدرك كميل شمعون هذه الحقيقة عندما فصل عام ١٩٥٧ جزءاً من الإقليم وربطه بدائرة العرقوب الإنتخابية، وأحدث دائرة إنتخابية جديدة هي دائرة دير القمر ـ شحيم التي لا مجال فيها لمرشح درزي، فاستطاع بذلك إسقاط كمال جنبلاط، وعندما عاد الشوف دائرة إنتخابية واحدة في العام ١٩٦٤، أضطر لنقل ترشيحه إلى كسروان مخافة مجابهة التيار العروبي في الإقليم. هذا التفاعل بين كمال جنبلاط وأبناء الإقليم أحدث خللاً في المعادلة التي كانت قائمة حتى ذلك الحين بين كتلة وطنية وكتلة دستورية معطياً للنضال الوطني اللبناني تطلعات تتجاوز التخوم اللبنانية لتتفاعل مع حركة التحرر العربية بقيادة جمال عبد الناصر.

ومع غياب كمال جنبلاط راحت العلاقة بين الجبل والإقليم القائمة على الإنتماء إلى الخط التقدمي العربي تتعمق وتزداد رسوخاً تحت قيادة وليد جنبلاط.

هذا النهج الوطني الذي يتمتع به الإقليم هو الذي يفسر لنا تجسيد ظاهرة العيش المشترك بين جميع أبنائه على إختلاف طوائفهم وعلى مدى التاريخ. ففي حكايات الآباء عن الأجداد ما يفيد أن كثيراً من مسيحيي الإقليم لجأ إلى القرى الإسلامية أثناء أحداث ١٨٦٠ الطائفية. وتروي لنا المراجع التاريخية أن والي بيروت بكر سامي بك لم يستطع عام ١٩١٤ أن يشعل الفتنة عندما زار شحيم وألقى خطبة تحض على قتال المسيحيين.[١٧] وطيلة الأعوام ١٩٧٥ ـ ١٩٨٢ نعم الإقليم بهدوء كامل لم تعكر صفوه الحساسيات الطائفية ولم يسقط أبناؤه في حمأة الصراع الطائفي والمذهبي، حتى إذا كان الإجتياح الإسرائيلي في حزيران عام ١٩٨٢ اتضحت أهداف الغزو بالقضاء على المقاومة الفلسطينية وإثارة الفتنة الطائفية في لبنان.

وكانت إسرائيل تدرك أهمية منطقة الإقليم التي تشكل خاصرة الجبل وحلقة الوصل بين بيروت والجنوب، فدشنت إجتياحها للإقليم بقصف بلدة كترمايا باعتبارها بوابة الإقليم، مدمرة حياً سكنياً بكامله، وكانت حصيلة هذه المجزرة ٣٣ شهيداً وأكثر من مئة جريح. وإدراكاً منها لمشاعر أبناء الإقليم القومية عمدت إسرائيل إلى تجريدهم من السلاح منذ اليوم الأول لاجتياحها المنطقة. وحصل ما توقعته، فبالرغم من الإغراءات العديدة التي قدمتها للسكان، لم يتعاملوا معها سياسياً أو اقتصادياً، ولهذا عمدت إلى اعتقال المئات منهم حتى بلغ عدد المعتقلين في بلدة برجا وحدها وفي يوم واحد ٤٠٠ معتقل، وفي شحيم حوالي مئة معتقل، عدا عشرات المعتقلين في القرى الأخرى، ولم يستكن أبناء الإقليم فهبوا يقاومون الإحتلال بكل الوسائل المتاحة، سلاحهم في بادىء الأمر الإيمان

والحجارة، وكان لأبناء هذه المنطقة شرف القيام بالإنتفاضة الشعبية الأولى في تاريخ الإحتلال، فكانت المظاهرة النسائية التي انطلقت في برجا صبيحة الأول من تموز ١٩٨٢ ــ ولما يمض شهر واحد على الإحتلال ــ احتجاجاً على اعتقال شبابها وتصدت للعدو بالحجارة والشتائم، وتبعتها في ذلك كافة بلدات الإقليم وكان من ابرزها التصدي للدبابات الإسرائيلية في عانوت من قبل الأطفال والنساء مما هدم جدار الخوف، حتى إذا ما تهيأت الظروف للمقاومة المسلحة، شارك شباب المنطقة مع أبطال المقاومة الوطنية في ١٤ عملية في أرض الإقليم رغم ضيقها نسبياً. «٦ عمليات بين معمل كهرباء الجية ومفرق وادي الزينة، عمليتين في الجية، ٣ عمليات في السعديات ــ الدامور، وعملية في كل من برجا ــ الدبية ــ طريق شحيم البرجين. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن إثنتين من هذه العمليات كانت باعتراف المعلقين نقلة نوعية في طبيعة عمليات جبهة المقاومة الوطنية: الأولى معركة المجابهة البطولية في وادي الزينة يوم ١٣ آذار ١٩٨٣ والتي دامت أكثر من ٢٠ دقيقة خسر العدو بنتيجتها ١٧ قتيلاً و ١٣ جريحاً، والعملية الثانية هي الهجوم البطولي على قاعدة عسكرية لجنود العدو على مدخل بلدة برجا».(١٨)

أخيراً لا بد من الإشارة إلى أن النضالات التي عددناها لم تكن من نتاج حزب أو مجموعة من الأحزاب، بل هي نضالات جماهيرية تستند إلى طهارة المثل والقيم التي تعمر الوجدان الشعبي في الإقليم سعياً وراء مشروع وطني توحيدي لا سعياً وراء مشروع مذهبي تقسيمي.

●

الحواشي

(١) راجع كتاب «مباحث علمية واجتماعية» نشرته لجنة من الأدباء بإشراف إسماعيل حقي بك متصرف جبل لبنان عام ١٩١٨. منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١ٹ٧٠، الجزء الثاني ص ٣٨٣.
(٢) صالح بن يحيى: «تاريخ بيروت»، دار المشرق، بيروت ١٩٦٩، ص ٤٣.
(٣) المرجع نفسه: ص ٥٩.
(٤) «لبنان مباحث علمية وإجتماعية»، المرجع السابق، ج ١، ص ٤٨.
(٥) محمد حسين الميسو الحجار: «تاريخ إقليم الخروب»، مؤسسة البيادر للطباعة، مزرعة الضهر، ١٩٧٨، ص ٣٦.
(٦) طنوس الشدياق: «أخبار الأعيان في جبل لبنان»، منشورات الجامعة اللبنانية، الجزء الثاني بيروت ١٩٧٠، ص ٣٣١.
(٧) المرجع نفسه: ص ٣٥٩.
(٨) «لبنان مباحث علمية واجتماعية»، المرجع السابق، ص ١٨٠.
(٩) طنوس الشدياق: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٣٩، ويذكر محمد الميسو الحجار في كتابه «تاريخ إقليم الخروب» ص ٦٧ أن «شحيم وعانوت وداريا ومزبود وكترماية ودلهون والمعنية في اقطاع آل حماده. وبرجا والبرجين والجية والدبية وضهر المغارة في إقطاع آل أبي نكد وسبلين وسائر القسم الجنوبي من الإقليم في إقطاع آل جنبلاط».
(١٠) محمد الميسو الحجار، المرجع المذكور سابقاً، ص ٦٨.
(١١) أحمد طربين: «لبنان منذ عهد المتصرفية، إلى بداية عهد الإنتداب»، جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٩٥.
(١٢) راجع محمد الميسو الحجار، المرجع المذكور سابقاً، ص ١٢٨.
(١٣) المرجع نفسه، ص ١٦٨.
(١٤) أمين سعيد: «الثورة العربية الكبرى»، المجلد الثاني ــ بدون تاريخ ــ ص ٣٢٠.
(١٥) مقابلة مع الأستاذ فريد الخطيب بتاريخ ١/١٠/١٩٨٩.
(١٦) راجع بحثنا المنشور في كتاب «عامان من الإحتلال عامان، من المقاومة» ــ منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، بيروت ١٩٨٤، ص ٨٥ ــ ٩٠.
(١٧) راجع بهذا الصدد: «أوراق لبنانية»، ج ١، ص ٢٨٤.
(١٨) راجع مداخلة د. خالد حدادة: إقليم الخروب همزة الوصل الوطنية بين بيروت والجنوب» المنشورة في كتاب «عامان من الإحتلال، عامان من المقاومة»، مرجع مذكور سابقاً، ص ٩٢ ــ ٩٣.



□ الأمير فخر الدين المعني الكبير

الجبل تشكيليا

كيف تقرأ الابداع الفني في الجبل؟

عمران القيسي(*)

ليس صعباً تاسيس تلك العلاقة الديناميكية الضرورية بين جمالية المكان وحالة الإنخطاف به. فالفن التشكيلي الذي تندرج تحت عنوانه الكبير شتى صنوف الفنون المكانية من رسم ونحت وتجميل وديكور وتطريز. هو الإبداع البصري الذي يشكل العمود الثاني من أعمدة ثقافتنا الإنسانية القائمة أصلاً على خاصية تفاعل وتتابع الثقافتين السمعية والبصرية أو بصيغة أوضح الثقافتين الزمانية والمكانية. إذا يستحيل على أمة من الأمم، أو تجمع من التجمعات الإنسانية، أن تقتصر ثقافته على جانب آحادي من جوانب الثقافة، دون أن يكون للجانب المكمل الثاني حضوره البارز أيضاً.

من هنا قرأ النقاد موضوع وحدة الثقافة البشرية وتنوعها، حيث الإبداع كقوة متكاملة الجوانب هو عصارة الوعي المتنامي لدى الجماعة عبر إنجازات النخبة التي غالباً ما تشكل البؤرة الوجدانية الأكثر تفاعلاً.

ولو درسنا الجبل اللبناني. وهنا نستعير قليلاً من التعريفات (الجيوثقافية) العامة، بدلاً من الإستغراق في الواقع «الأثني» الذي ميز المجتمع الجبلي اللبناني منذ بروزه على المسرح السياسي والمسرح الثقافي كقوة مؤثرة ومتأثرة بالوضع الوطني العام. فسوف نجد أن أهم ما يمتاز به الجبل اللبناني هو وحدة الشخصية الثقافية العامة. بحيث تستطيع أن تتحدث بوضوح، عن شعر جبلي وكتابة جبلية. ونص فكري مجبول بخواص الجبل، تماماً كما يمكننا الحديث عن عمارة جبلية لها مميزاتها. وعن فنون ديكورية وحرفية اقتصرت على الجبل وحده. من هنا يمكننا القول بإن مدرسة الفن التشكيلي اللبناني التي انطلقت منذ أكثر من قرن ونصف القرن من الزمن. لم تنطلق من الساحل وحده، بل كانت انطلاقتها الأولى جبلية، جردية.

* عمران القيسي: فنان تشكيلي وناقدوصحافي، لهمعارض عديد في لبنان والخارج. وله أعمال فنية في العديد من المتاحف. ألف في الفن التشكيلي العربي واللبناني العديد من المؤلفات. المدير التنفيذي للمؤسسة العربية للثقافة والفنون في لبنان.



□ زي جبلي زمن المعنيين، لوحة استشراقية

حاملة كافة الخواص التأملية التي تفرضها تلك الطبيعة الساكنة على الفنان المتأمل المبدع.

فعبد الله زاخر لم يكن ليترهبن للطبيعة وينسحر بجمالها الآخاذ لو لم يكن ذلك الجبلي العاشق لسنديانة دير مار يوحنا الصايغ قرب الشوير في الثلث الأول من القرن الماضي. وكنعان ديب هو ابن قرية غزير الجبلية الجميلة الذي كان أول رسام لبناني يدرس الفن سنة ١٨٥٢ في إيطاليا. أما راهب دير طاميش الرسام يوسف سمعان فإن حضوره سنة ١٨٦٥ يشكل نقلة نوعية في الفن النهضوي آنذاك.

أما الجسر الذي ربط بين عصر النهضة وعصر التعبيريين الرومانسيين فهو الفنان خليل الصليبي ابن ضيعة بطلّون الذي عاش ما بين ١٨٧٠ ــ ١٩٢٨، والذي درس الفن في أكاديمية أديمبرة في الولايات المتحدة الأميركية ثم بباريس تحت إشراف الفنان الفرنسي الكبير (بوفيس دوشافان) ويعتبر هذا الفنان أول فنان لبناني تغتاله الأيدي الحاقدة على الفن المتحرر الجريء.

زمن الإنتباه لجمالية المكان

يرى الفنان اللبناني المؤسس مصطفى فروخ: «ان النور والألوان في لبنان هي منحة السماء لهذه البلاد. مما جعل القريب يقف مسحوراً بها. لذلك احتل تصوير المناظر الطبيعية مكاناً بارزاً يكسب الأشياء بهاءً ونضرة...».

والواقع أن ما أراد أن يعبر عنه هذا الفنان الإنطباعي الرائد وأحد مؤسسي مدرسة التصوير اللبنانية ذات الخصائص المحلية، إن التفسير الإنطباعي التعبير لدى الرعيل الثاني من فناني لبنان أي مصطفى فروخ، قيصر الجميل، عمر الأنسي، رشيد وهبي لم يأت عفوياً بل جاء مدعوماً بركائز جمالية محلية أملت عليه طابعه الذي هو أقرب إلى حالة الإنشاء التصويري، حيث الفنان سيبدو مشدوداً ومندهشاً بالطبيعة. فكلهم سواء أكانوا من سكان الساحل أمثال فروخ والأنسي ووهبي أم من سكان الجرد أمثال قيصر الجميل وسعدي سينوي. حيث جمالية المكان الجبلي وعلاقة الشجرة بالصخرة، والإطلالة المتغيرة للمنظر المدهش خلال فترات النهار سوف تدفع بهؤلاء إلى التعامل بلغة ضوئية خاصة مع المنظر، مستعملين في الغالب الألوان (الأكواريلية) المائية التي تمتلك خاصية الإضاءة الضمنية. والمقدرة على موسقة اللون وتحويل اللوحة إلى قطعة بالغة الغنائية والإنسجام.

إن رعيلاً من المندهشين بجمالية الجبل اللبناني سوف يورث هذا الإندهاش للرعيل الإختباري الأول الذي استجلب الجرأة والحداثة من محترفات باريس وروما. حتى أننا نستطيع هنا أن نتحدث بارتياح عن مغامرات متناثرة تلتقي تفسيرياً في المفهوم الأدق للمغامرة التصويرية.

إن إطلالة عارف الريس. إبن مدينة عاليه وإن كانت بداياتها أواسط الأربعينات في السينيغال بإفريقيا (هو من مواليد ١٩٢٨). فإنها ليست بعيدة عن حالة المراقبة والإندماج بالمغامرة التصويرية. فوالدته وهي من آل أبي رافع درست الرسم على يد فنان روسي أبيض كان يعيش في مدينة (عالية). ووالده نجيب الريس صاحب مكتبة النجابة في المدينة المذكورة كان يرسم أيضاً وله لوحات جيدة ذات مواضيع تاريخية. فلا غرابة أن تصاب العائلة بلوثة الإبداع الفني، حيث شهدنا أيضاً حضور شقيقته المرحومة (سلمى الريس) كفنانة في العاصمة البريطانية خلال حقبة الثمانينات.

على المقلب الثاني من الجبل. حيث دير القمر تلك الضيعة العريقة بعائلاتها وباثرها السياسي والثقافي. ولد الفنان الراحل منير نجم عام ١٩٣٣. حيث تتلمذ في بداياته على يد الأستاذ قيصر الجميل، وأكمل دراسته في الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة، ثم درس لاحقاً بباريس. حيث إنطلق في أواسط الستينات يقيم المعارض ويحصد العديد من الجوائز.

يمثل منير نجم روح التيار الإختباري الثاني الذي تعامل مع اللوحة بروح تجريدية وتعبيرية في آن واحد، كانت حالة الرسم عنده مزيج من التأليف العفوي والإقتطاف الرائع للموضوع عبر اللون. من هنا شكلت لوحة الفنان مفاجأة أطلق عليها البعض لقب مراعي الألوان.

ثم نصعد على مقربة من الباروك إلى بتدِّين حيث ندلف محترف الفنان (وهيب بتديني) — من مواليد ١٩٣٠ الشوف — فهو منذ عودته عام ١٩٦٦ من الإتحاد السوفياتي بعد دراسته هناك سوف يكرس نمطاً من الأكاديمية التعبيرية التي تتعامل مع الواقع نحتاً وتصويراً بلغة تسير على الحافة ما بين الضربات التكعيبية الواثقة والتقريرية التصويرية الملتزمة. إنه فنان يمارس النحت والرسم إنطلاقاً من معيار عقلاني واثق.

ولكن هل بإمكاننا أن نتحدث عن الأجيال اللاحقة دون التوقف أمام محطتي الجبل الأساسيتين (سعدي سينوي) و (سعيد أ. عقل)؟

ولد الفنان سعدي سينوي عام ١٩٠٢، وقد جذبه الهم الثقافي منذ البداية. فقبل الإستقلال اللبناني فكر بمنبر للفنان. حيث أنشأ مجلة صوت الفنان عام ١٩٤٢. ثم ترأس جمعية الرسامين اللبنانيين عام ١٩٤٦. حيث أدار الجمعية كفنان حريص على الإبداع لمدة ست



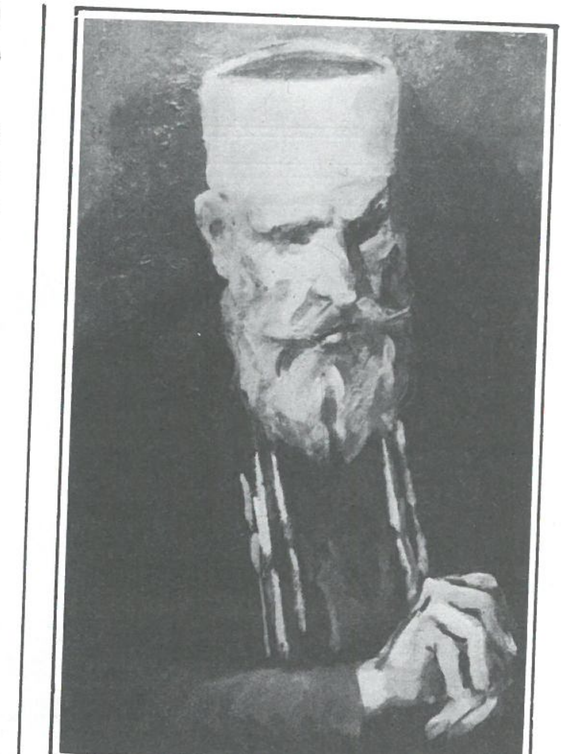
□ الامير بشير بريشة رسام من عصر النهضة

سنوات. وقد امتازت لوحاته بالجنوح نحو تدوين المواضيع القروية الجبلية. حيث الوجوه المعروفة، والبيوت المزروعة بالجرد، والعادات القروية المعروفة هي العالم الذي استثار الفنان. لذلك يعتبر الشاهد المعلن شهادته لصالح الجبل وجماليته.

أما سعيد أ. عقل. ابن الدامور وسليل إحدى عائلاتها المعروفة بالمكانة الثقافية والسياسية. فهو أول فنان لبناني يعالج حركة الإشارة الحروفية. دون أن ندعي أنه كان فناناً حروفياً. لأن سعيد أ. عقل هو الفنان المجرد الذي يستل مفردته من جوهر حركة الحرف بوصفة إشارة صورية أكثر من كونه دلالة صوتية.

أسراب الحداثة في الجبل

لو أردنا أن نجري اليوم إحصاءاً دقيقاً على الحركة الفنية التشكيلية في الجبل. فسوف يكون بمقدورنا أن ندون بياناً رائعاً عن التنوع والإختبار في أعمال الرعيل المعاصر من فناني الجبل. إذ أن أغلبهم من خريجي المعاهد والأكاديميات اللبنانية. لذلك فهم يتقدمون مدعومين بالمعرفة الأساسية المطلوبة من الفنان. لكنهم يصرون على التمايز منطلقين من استلهامهم لخاصية المكان وجماليته الأزلية، ثم مسايرتهم للتيارات السائدة في الفن الحديث.



□ شيخ درزي بريشة وهيب بتديني

صحيح أنه يستحيل تقسيم الفنّ اللبناني وفقاً لواقع (جيوثقافي) بحيث نستطيع أن نقول بأن هذه اللوحة تنتمي إلى الجبل وهذه تنتمي إلى الساحل أو إلى الجنوب، إلا أننا وبكل إنصاف نستطيع أن نستل بعضاً من الملامح الجغرافية في العديد من الأعمال الإنطباعية والتعبيرية السائدة.

إن المنظر غالباً ما يطرح هوية المكان الجغرافية. لكن اللوحة التي هي ليست تدويناً للذاكرة المكانية في الغالب. بل هي ليست رصداً بصرياً سلبياً للمكان، سيكون عليها أن تصرح بصوت خفي عن هويتها المكانية تعزيزاً للحضور الإبداعي للفنان. بوصفه مصوراً بارعاً يمتلك تلك المقدرة الفذة على تدوين الطبيعة جمالياً.

أما بالنسبة للوحة التي تتجاوز حدود الرصد التعبيري والإنطباعي والواقعي للطبيعة. فإن العلاقات اللونية والإشارات التجريدية ستلعب دورها الإفصاحي أيضاً.

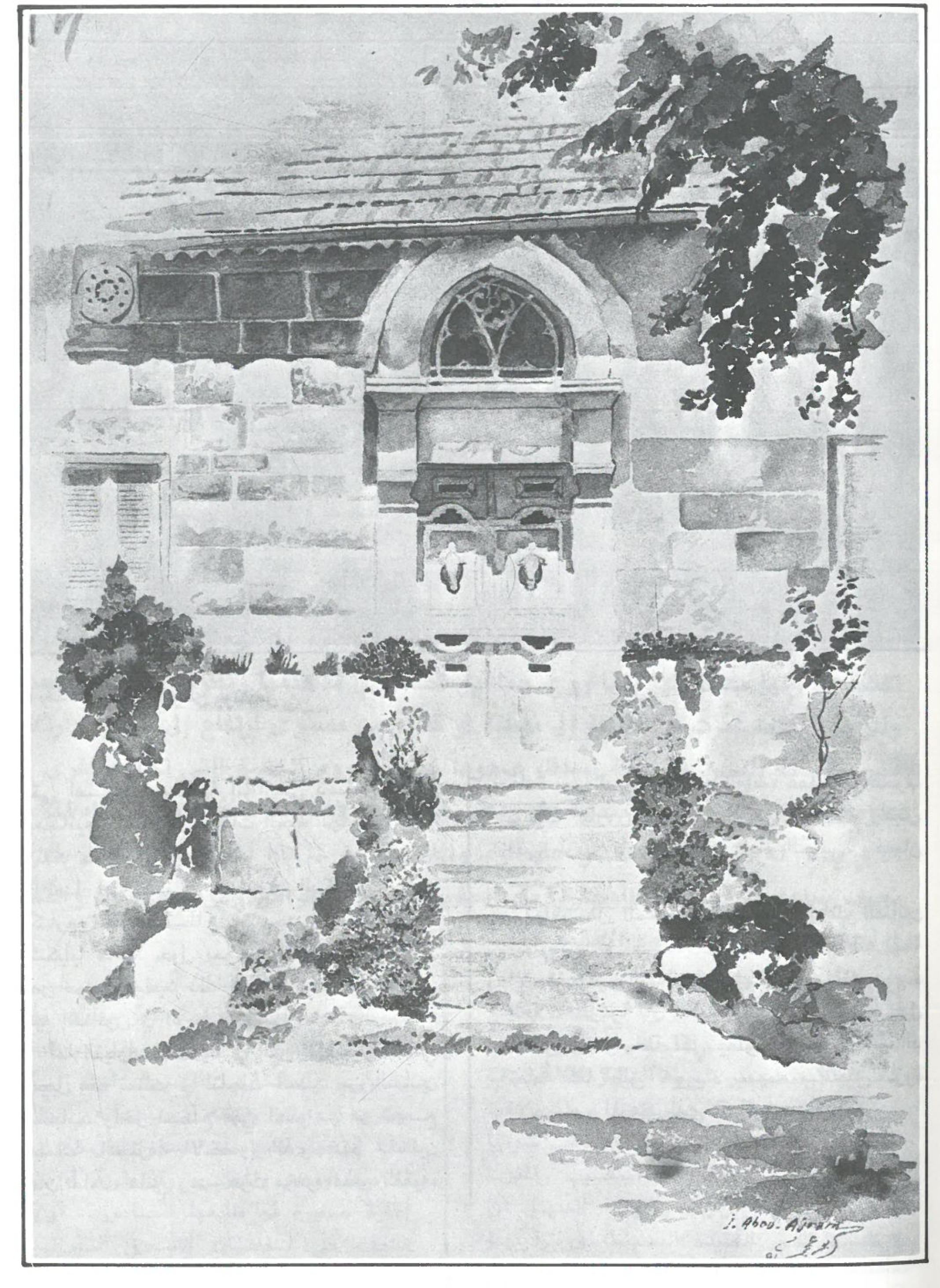
إن فناناً بمستوى (عماد أبو عجرم). حيث براعته التأليفية في اللوحة الأكواريلية تؤهله لأن يكون مسجلاً جيداً لجمالية المكان الجبلي (الفنان مواليد بعقلين). سوف يكون بمقدرونا أن نقرأ من خلال لوحته مسحاً إنطباعياً شاملاً لجمالية المكان. كما سنكتشف من خلاله أيضاً، إمكانات فذة لتعامل الفنان مع الذاكرة المكانية المحكوم بخاصية التفاعل والتواجد خلالها.

والأمر ذاته بالنسبة لفنانة مرهفة مثل (غادة نور الدين) التي لولا عيشها اليومي في الجبل لما كان بمقدور لوحتها أن تتحمل كل هذا الشحن اللوني، والإضاءة المثيرة لأكثر المواضيع بساطة.

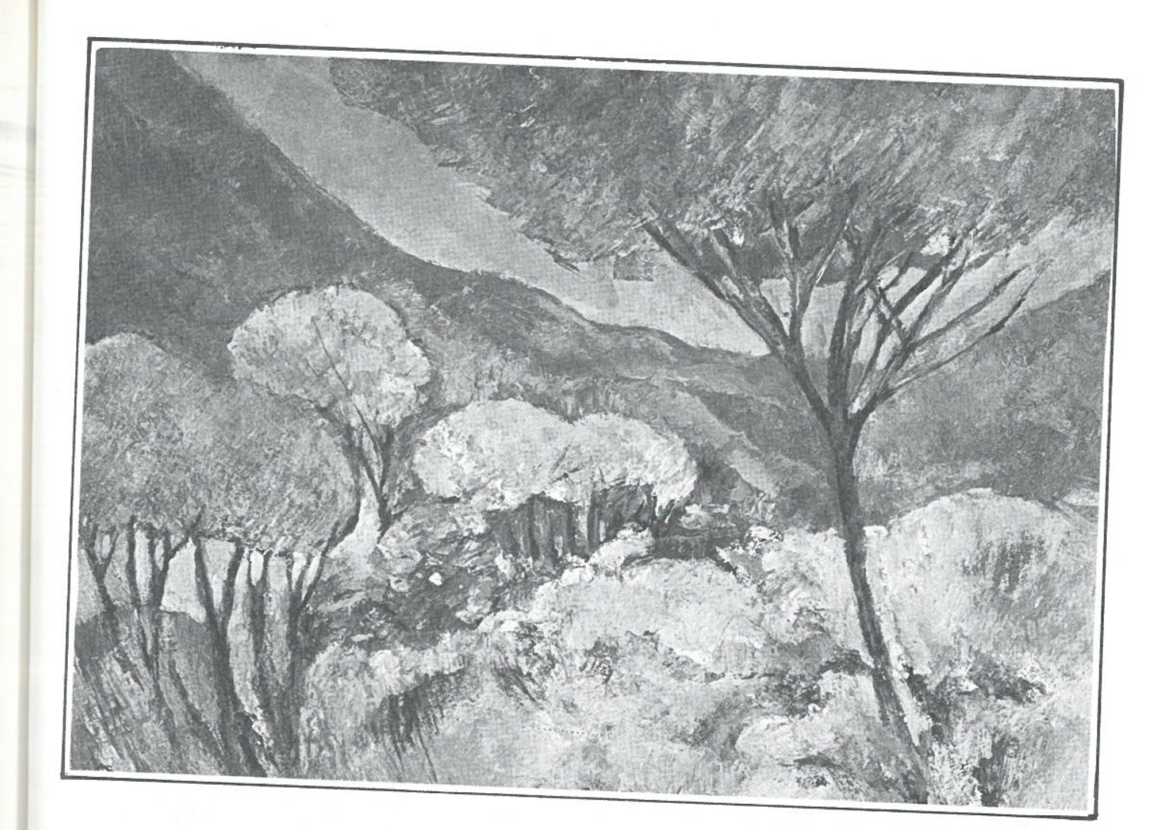
ولكن هل ينطبق الأمر على يوسف مارون الذي كرس لوحته لتسجيل حالات الإنسان الجبلي وعلاقاته مع الطبيعة؟

ولا ننسى طبعاً مغامرة مفيد زيتوني الإختباري الذي جرب أغلب الإتجاهات الفنية. مزاوجاً بذلك بين معارفه الفنية المكتسبة أكاديمياً وعلاقاته مع المحيط الجبلي المجبول فيه سلوكاً وإبداعاً.

واليوم إذ تبدو الحياة الفنية التشكيلية في الجبل أكثر نضوجاً وزخماً. وذلك بفعل وجود أكبر متحف للفن اللبناني هناك. حيث فكرة تحويل قصر بيت الدين إلى متحف يحتوي على ما لا يقل عن ستمائة عمل فني أضحت هي الحقيقة المؤثرة والقائمة رغم كل ما يدبر ضده من أفكار ربما أكثرها غرابة تلك التي تسعى إلى إرجاعه ثكنة أو مقراً شخصياً للسياسيين. نقول أن وجود هذا الصرح الفني هناك. ووجود الفرع الرابع من معهد الفنون الجميلة في دير القمر. سوف يكون بإمكانهما أن يلعبا الدور الأكبر في إنهاض الحركة الفنية في الجبل. ولو أردنا أن نحصي التيارات الأساسية المتواجدة حالياً لتوجب علينا أن نبدأ أولاً بالتيارات الحروفية والخطية. أي أن ننطلق من ضربة ريشة ذلك الشيخ الدرزي المبدع الكبير نسيب مكارم. صاحب الإعجاز الخطي الذي قدم للخط العربي نماذج قل مثيلها، ربما كان أهمها حبة الأرز التي كتب عليها العديد من أبيات الشعر. والبيضة



□ بيت جبلي للفنان عماد ابو عجرم



□ حمانا بريشة موريس بونفيس

التي استوعب سطحها الخارجي دستور الدولة العثمانية. ناهيك عن لوحات الخط الزجاجي التي ارتقت حدود الإعجاز.

أما إبنه الفنان الحروفي الدكتور سامي مكارم. فقد استطاع أن يجد لنفسه خطاً تشكيلياً مميزاً حول بموجبه النص المكتوب إلى نص مرسوم مقيماً ذلك الجسر الذي طالما سعى إليه الفنانون في الربط بين فني الخط والرسم.

أما التيارات الحديثة في الفن التشكيلي لفناني الجبل فقد تمثلت في نتاجات العديد من الفنانين الشباب. وآخر تجمع فني احتواهم هو تجمع (جماعة المحترف الأخضر) الذي ضم الفنانين أمين حامد، هاني رعد، عزت مزهر، هدى الفقيه، غادة نور الدين، جاك رزق الله، عماد أبو عجرم، يوسف مارون، سامي جركس، حمادة زعيتر، منى طربيه، أنور غندور، ناصر الحلبي، وحسان صعب.

ولكن هل الجبل تشكيلياً يعني أولئك الفنانين المولودين أو الساكنين في الجبل، أم أنه نقطة الإستقطاب الجمالية لكل فنان اقتنى بهذه العلاقة الوثنية بين الطبيعة والضوء. حيث يتحول الفنان إلى واسطة لكي يطلق سر الجمال الخالد تماماً كما أطلق كيوبيد سهمه باتجاه بؤرة الإحساس المرهف لدى العاشق.

●

لبنان والقضية العربية

كمال جنبلاط

إن لبنان، يقوم على غرابة ما فيه من إزدواج وتناقضات، ومن تيارات فكرية وحضارية مختلفة تنتسب إلى أحقاب تراثية متفاوتة في عمقها في التاريخ، كأن تطور الشرق العربي، قبل الإسلام والمسيحية وبعدها قد تجمع فيه وانكفأ ضمن حدوده. ولعل في تكوين طبيعة لبنان الجغرافية وفي ما انقسمت إليه من أودية تفصلها، بعضها عن بعض، جدران حقيقية من الجبال، فتتوزع المنبطحات والوديان والأنهر والسهول الصغيرة فيما بينها كأنها مقاطعات ومناطق اقليميّة متعددة، لها لهجتها الخاصة بها، ولها تقاليدها، ولها معتقداتها ولها روح جماعية تختلف في مفاهيمها ونظرتها لشؤون الحياة وللوجود، كلما عبرت من منطقة إلى منطقة أو قفزت من مستوى ارتفاع إلى مستوى ارتفاع آخر بالنسبة للبحر، في حركة تسلقك صعوداً نحو الجرود العالية التي تكلّلها القرى إلى علو ألف وستماية وألف وثمنماية متر واكثر، أو هطبت في نزولك نحو مستوى الماء المالح الذي يدين له «الجبل ــ الجدار» بأمطاره، ولطف مناخه ــ هذا المناخ الذي ينتقل بك، في نصف ساعة من انطلاقة السيارة، من الطقس الشبه استوائي رطوبة وحرارة وانتاجاً زراعياً، إلى ثلج وأرز وقمم الأقاليم الباردة وانتاجها.

وقد تجمعت ضمن حدود لبنان وتوزعت، في زوايا جباله، جميع الهرتقات والمذاهب تقريباً التي شهدها الشرق الأوسط، عبر تاريخه الشامل لثلاثة آلاف من السنين بعد أن كانت تتقلص أو تكاد عقب انتشارها وسيطرتها على سهول ومربعات سوريا والجزيرة العربية والهلال الخصيب والمغرب العربي ومصر وإيران.. وطبيعة السهل أن لا تتسع لغير العقيدة البسيطة في تركيبها الفكري والواحدة الشاملة.. وهكذا كان أنه كلما تعقد معتقد أو مذهب، بفعل مختلف تيارات التراث، وتقلص عن مستوى مفاهيم السهول والبيادي والصحاري الفسيحة، لجأ إلى لبنان ينزوي في إحدى وديانه أو منبطحاته.. فلبنان في هذه الوجهة فسيفساء مصغرة لخريطة الشرق الأوسط ومصر والمغرب.. وكل قرية أو دسكرة إمارة صغيرة لها طابعها الخاص... أو كأنه متحف حي لمخلّفات الشرق التراثية..

□ ملخص من فصل كتاب «حقيقة الثورة اللبنانية» للمرحوم الأستاذ كمال جنبلاط ــ من ضمن سلسلة الكتاب العربي ــ ٢. منشورات دار النشر العربية ــ شباط ١٩٥٩.

فالسريانية — وهي فرع متأخر للآرامية الكنعانية — لا تزال لغة معتقد الطائفة المارونية، واليونانية والحانها مرتكز طقوس الارثوذكسية، وفي الدرزية شيء كثير من الأفلاطونية القديمة والمستحدثة، وفي الشيعة شيء من اليونان ومن إيران... فهناك ستة عشر مذهب وهرطقة ومدرسة فكرية وملة.. هذه الفسيفساء يجمعها ويضمها بعضها إلى بعض، وحدة الجبل الطبيعية المتأكدة بالرغم من توزع زواياه وتعاريجه والتفافاته — هذا الجبل «الحد» الفاصل بين سهول وبيادي الداخل وسهول مياه البحر المتوسط المالحة التي تتمدد وتزحف لتلف وتغطي أقدامه.. وهذه الفسيفساء يجمعها ويضمها ويوحدها في تدرج متزايد، في العصر الحديث، رباط اللغة العربية وتراثها السياسي والاجتماعي والعلمي والأدبي النامي، و«صمغ» الشعور العربي والوعي العربي المتطور والمتركز أكثر فأكثر على وحدة المصالح ووحدة الاشتراك في الحياة في عالم تتقلص وتكاد تمحي حدوده، ووحدة المصير..[١]

وهذه العناصر المؤلفة من أزواج متباينة متنافرة أحياناً تدفع بالبلد اللبناني إلى التفكك والإنزواء والإنعزال، ورابطة الوطنية والعروبة ووحدة التعايش والشعور بالمصير المشترك تدفع «بأجزاء لبنان الروحية» وبأقسامه الطبيعية الجغرافية إلى التكتل والتجاذب والإنصهار..

ولا يمكن فصل الوطنية اللبنانية، إلى حدّ كبير، عن الشعور العربي وعن الوعي العربي، كما تأكدنا ذلك بوضوح لا يخامره الشك في اختبارنا الوجودي الصميمي أيام إندلاع ثورة لبنان الأخيرة.. وما كانت محاولات فخر الدين المعني وسواه من كبار أمراء لبنان في حقل إنشاء دولة مستقلة، إلا تمهيداً للنهضة السياسية العربية فيما بعد..[٢]

وإذا ما عدنا إلى التاريخ الحديث نرى هذا الإرتباط الحياتي الصميمي جلياً.. فبعد هذا الإنبعاث السياسي المتمثل بسيطرة عائلة محمد علي ومصر على سوريا وبعض أجزاء الجزيرة العربية وحملته على الأمبراطورية العثمانية، هذه الإنطلاقة التي يسميها جورج أنطونيوس «البداية الخاطئة» — في محاولة إنشاء سلطنة صغيرة على شواطىء البحر المتوسط، بعد هذا الحدث العسكري والسياسي العابر الذي كان له ولا شك أثره في الوضع المعنوي العام للشرق العربي، بدأت النهضة العربية، في الحقيقة وفي الواقع، يوم أخذ الوعي للأدب العربي ولأسرار كنوز لغة الضاد ينبثق في لبنان وينمو وينتشر، وما لبث الوعي السياسي للقضية العربية وللقومية العربية أن استيقظ بدوره وأخذت موجة تحققه واندفاعة تقوى وتعم الأقطار العربية، تتدفق إليها من البلد اللبناني الصغير...

أما النهضة الأدبية فقد سبقها ومهّد لها قدوم بعثات التبشير الأجنبية وإقامتها في سوريا — وكان هذا الإسم مشتركا للبنان وسوريا آنذاك في التسمية العادية وفي معجم أرباب التاريخ والجغرافيا — وذلك منذ بدايات القرن السابع عشر. وكان هم هذه المؤسسات التبشيرية بادىء ذي بدء — على هامش نشاطهما التثقيفي — نشر الدين المسيحي، والتسابق فيما بينهما، يوم أقبل المبشرون الأميركيون البروتستانت بدورهم، على الزيادة من عدد المؤمنين بهذا أو ذاك المذهب من المعتقد المسيحي الواحد... وكان ولا يزال التنافس فيما بينها قنص أرواح الناس هذا إلى الجنة وذاك إلى جهنم، على أشدّه... وفي سنة ١٨٣٤ أعاد الآباء العزاريون الإفرنسيون فتح كلية عينطورة للصبيان. ثم كان الحدث الثاني وهو إنتقال مطبعة هيئة التبشير الأميركية بآلاتها ومعداتها من مالطة إلى بيروت. والحدث الثالث كان تأسيس مدرسة للبنات على يد «إلي سميث» وزوجته.. أما الحدث الرابع فكان أن أدخل إبراهيم باشا لسوريا وحقق نظاماً واسعاً للتعليم الإبتدائي للصبيان على شاكلة ما قام به والده في مصر.. وكان مستوى التعليم قبل ذلك منخفضاً جداً، بالرغم من المحاولات التي برزت في مدرسة

عينطوره (المتن) المارونية، للإكليريكيين الجدد، التي أوكل أمر إدارتها لليسوعيين، وفي كليات زغرتا (١٧٣٥) وعين ورقا (١٧٨٩). وكانت تأسست مطابع عربية في اسطمبول (١٨١٦) وفي القاهرة (١٨٢٢) أخذت تسهم في طباعة ونشر بعض الكتب.. ولم يكن نشاط هيئات التبشير الكاثوليكية أقل بروزاً من إخوانهم البروتستانت، فقد تأسست على يدهم عدة مدارس وكليات منها: في بيروت (١٨٣٩) وغزير (١٨٤٣) وزحلة (١٨٤٤) ودمشق (١٨٧٢) وحلب (١٨٧٣)... وتحولت مدرسة غزير سنة (١٨٧٥) عند انتقالها إلى بيروت إلى جامعة القديس يوسف في مقابل الجامعة الأميركية (الكلية البروتستانتية السورية التي كانت تأسس وانطلقت سنة ١٨٦٦ في بيروت)..

هذه النهضة التعليمية وهذا التسابق على حشد الناس على أبواب الجنة دفعت بالنهضة الأدبية واللغوية إلى النمو والإزدهار.. «وبدون مدرسة أو كتاب لا يمكننا أن نتصور نشوء الأمم في العصور الحديثة». على حد تعبير جورج أنطونيوس.. وكانت هذه النهضة الأدبية عربية في كل ما لهذا التعبير من دلالة، تمثلت بشخصيتين كبيرتين: ناصيف اليازجي (١٨٠٠ — ١٨٧١) وبطرس البستاني... ثم أخذت تنتشر الجمعيات العلمية: «جمعية العلوم والفنون» (١٨٤٧) التي أسسها اليازجي والبستاني، وكان الكولونيل تشرشل المشهور أحد أعضائها وكانت تضم خمسين عضواً معظمهم من المسيحيين، ثم عمد الآباء اليسوعيون إلى تأسيس «الجمعية الشرقية» ثم ما لبثت هاتان المحاولتان أن اندثرتا وانبثقت «الجمعية العلمية السورية» التي كانت تضم مايـة وخمسين عضواً من مختلف الشخصيات العربية والمعتقدات، وكان يرأسها الأمير المثقف الدرزي محمد رسلان... وفي بعض الإجتماعات السرية لهذه الجمعية العلمية السورية، على حد تعبير جورج أنطونيوس الشوفي[٣]، ارتفعت أول صرخة وجاش أول نداء لحركة القومية العربية. وكان أحد أعضاء هذه الجمعية الأديب الكبير إبراهيم اليازجي أحد أولاد ناصيف، قد نظم قصيدة بشكل نشيد ضمنها الدعوة للأمة العربية ولتحقيق أمجادها الغابرة، والقضاء على المنازعات الحزبية والطائفية، متهجماً على ظلامات الحكم القائم وعدوانه، داعياً «السوريين» إلى التكتل والتضامن لأجل الخلاص من نير الإحتلال العثماني.. وقد كان لهذه القصيدة الوطنية العربية إنتشاراً هائلاً في البلاد، يتناقلونها عن ظهر القلب...

وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي دامت خلافته ثلاثة وثلاثين سنة حتى سنة ١٩٠٩، نمت الفكرة العربية التي رأينا بذورها تتوزع وتنتشر منذ بدايات القرن التاسع عشر، وأخذ الوعي العربي القومي الذي انبثق من أرض لبنان وسوريا يعمّ الأقطار المجاورة الناطقة باللغة العربية.. وكان نظام ١٨٦٤ الموضوع يضمن للبنان الصغير حرية نسبية في التعبير عن الرأي وفي حقوق المواطن العامة، واستقلالا محدوداً، بالرغم مما اشتمل عليه هذا النظام من تكريس وإذكاء وتقوية للطائفية السياسية في أنظمة الدولة — الأمر الذي لا تزال تعاني آلامه وتئن من نتائجه ومن تأثيره على المجتمع اللبناني — هذا التكريس الطائفي الذي سيشكل، أحد أسباب الثورة اللبنانية الأخيرة..

أما هذا الوعي الوطني العربي، فقد تمثل في الحقل السياسي، أول ما تمثل، وفي النطاق اللبناني السوري، يوم أقدم خمسة من الشباب المثقفين في المدرسة السورية البروتستانتية في بيروت على تأليف جمعية سياسية سرية.. وكان هؤلاء الشبان الخمسة جميعهم مسيحيين، على انهم قرروا فيما بعد أن يضموا إليهم بعض الدروز والمسلمين الآخرين، لما لمسوه من ضرورة ذلك... وكان مركز الجمعية في بيروت، ثم أقاموا لهذه الجمعية فروعاً في دمشق وطرابلس وصيدا.. وكان هؤلاء الشباب نظراً لأهدافهم





الثورية، يعملون في الكتمان الشديد.. وتحقق ابرز نشاطهم في تعليق البيانات المغفلة في الشوارع.. وكانت هذه البيانات تثير اهتمام الناس وتشكل محور أحاديثهم وتعليقاتهم في أنديتهم الخاصة، ثم يعود «الإخوان المتآمرون» على سلامة الدولة، وينشرون البيانات المغفلة الأخرى على ضوء ما كان يجري في هذه الأندية من تقولات وتعليقات.. وسيطر القلق على سلطات ذاك العهد مما كانت تتداوله على التوالي شوارع المدن الكبرى من عملية لصق الإعلانات، كأنها تجري بسرعة هائلة واتقان وتصميم مسبق.. وكان بين أعضاء هذه الجمعية السرية الدكتور فارس نمر، أحد مؤسسي المقتطف والمقطم، فيما بعد في مصر.. أما أهداف الحركة فقد أعلنتها الجمعية وحددتها بما يلي:

— «منح الاستقلال لسوريا وبالاتحاد مع لبنان».

— «الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد».

— «إزالة الرقابة وسواها من القيود المفروضة على حرية التعبير ونشر المعرفة.

— «عدم استخدام وحدات الجيش التي ينتسب أفرادها لسوريا وللبنان خارج حدود هذه البلاد..

ولما تطورت القضيّة العربيّة وتحددت مفاهيمها، كان للبنانين سهم كبير، في بلادهم وفي مصر والسودان والعراق والعربيّة السعودية، في تطويرها ودعم إنطلاقتها، وتزعم نضالها، وخاصة في حقل تأسيس الصحف والمجلات وبعث النهضة في الأدب العربي والشعر وتأسيس دور الطباعة والتعليم وإنشاء الجمعيات السياسية كجامعة الوطن العربي (Ligue de la patrie Arabe) التي أسسها في باريس سنة ١٩٠٤ نجيب العازوري وكان هدفها المعلن تحرير سوريا والعراق من السيطرة العثمانية، وجمعية «الإخاء العربي» وجمعية «المنتدى العربي» ثم «القحطانية»[٤] وجمعية «العربية الفتاة»[٥] التي كان الأمير فيصل فيما بعد أحد أعضائها؛ و«جمعية العهد» السرية للضباط العسكريين، وحزب اللامركزية الإدارية العثماني[٦] الخ..

وكان التيار اللبناني الانكماشي التقليدي يتمثل، في مقابل هذه الجمعيات العربية، في بعض المجالات والتكتلات «كجمعية الأرز» وسواها، التي لم يكن لها أثراً كبيراً في النضال الثوري المباشر، لتغلغل فكرة الحماية الأجنبية وضرورتها وسيطرة مركب الإنعزالية والخوف على هذه المحاولات، خاصة بسبب ما خلفته في الأذهان حوادث (١٨٤٠ — ١٨٦٠) المؤسفة.. على أن هذه المحاولات والتكتلات ساهمت في إدماج الشعور العام المسيحي اللبناني التقليدي المتطرف وفي صهر نشاط رجال الدين السياسي في الحركة التحريرية العامة.. فتلاقى الجميع على انهم عرب مستعمرين (بفتح الميم) مقابل أتراك مستعمرين (بكسر الميم)..

ثم اندلعت الثورة العربية في الجزيرة واشترك العديد من إخواننا المسيحيين فيها وساهموا في تنظيمها ورافقوا فيصل جنباً إلى جنب معه[٧]..

وكان أن تقلصت السيطرة العثمانية عن بلاد العرب أثر الحرب العالمية الأولى، فظهرت من جديد الإنشقاقات العقائدية والتوجيهات المختلفة في النضال الوطني اللبناني العام، وتجلى التيار الإنكماشي التقليدي في مطالبة فريق من اللبنانيين وعلى رأسهم رجال الإكليروس الماروني وكثرة الزعماء المسيحيين مع نفر من المتزعمين السنة والشيعة والدروز، بالمطالبة باستقلال لبنان الوهمي تحت رعاية وحماية الإنتداب الإفرنسي.. فبدا للملأ أن الإتحاد إبان المعركة وفي المحنة إنما كان لأجل الخلاص لا أكثر من الإستعمار التركي وإبداله بإنتداب آخر.. فكانت الفرقة بين اللبنانيين وهذا الشعور العميق بالجفاء وهذا الإتهام المشترك بخيانة لبنان (هؤلاء لأنهم يريدون الوحدة مع سوريا، وأولئك لأنهم يريدون بقاء الإحتلال الأجنبي في البلاد!..)

وما كانت مؤامرات الدول الأوروبية الكبرى على تقسيم أجزاء واسعة من العالم العربي فيما بينها، وتدخل الإفرنسيين العسكريين لإزالة حكم فيصل عن دمشق وسواها من الأحداث، إلا لتزيد الكبت الداخلي بالنسبة للوطنيين «الوحدويين» العرب في لبنان وكل من لف لفهم ممّن لا يروق لهم الاحتلال والمبدأ الطائفي المسيحي الذي انبثقت منه الدولة اللبنانية المستحدثة — على عكس سابقاتها في التاريخ التي لم ترتدي مطلقاً طابع ومركب الأقليات..

ولما جاءت انتفاضة سوريا سنة ١٩٢٥ التي تمثلت بثورة إبراهيم هنانو وخاصة بثورة جبل الدروز (جبل العرب فيما بعد)، وامتدت هذه الثورة إلى مناطق راشيا وحاصبيا والشوف وبعلبك في لبنان، واجتاحت قوات الثورة وعلى رأسها الأمير عادل أرسلان وفؤاد بك سليم هذه المناطق، أوشكت الحرب الطائفية أن تندلع من جديد، لشعور كثرة اللبنانيين المسيحيين بأن انتصار الثورة السورية يعني تقلص النفوذ الإفرنسي عن سوريا، مما يمهّد لزواله عن لبنان أيضاً.. وقد أفاد الإفرنسيون من هذا الشعور ليضرموا نار الفتنة وليشوهوا الإنتفاضة الشعبية السورية الكبرى التي استمرت ثلاثة سنوات في وجه أقوى جيوش الحلفاء آنذاك، فكان اللبنانيون في بعض المناطق المشتركة في سكناها يستيقظون، ليشاهدوا أحياناً جثة درزي قتيل قد وضعت بالقرب من بلدة مسيحية، أو جثة مسيحي بالقرب من قرية درزية... وكنا لا نشك أن للأمن العام اللبناني الإفرنسي يد في ذلك... ولولا تدخل العقلاء وبينهم سيدتي الوالدة، ولولا الإنضباط التي تحلى به الثوار، لكانت وقعت — لا سمح الله — الواقعة... واندلعت نار الفتنة الطائفية...

وظل البلد اللبناني على هذه الحال من التناقض الداخلي والإنشقاق والقلق والحذر المشترك حتى سنة ١٩٣٦، بالرغم من محاولات الإفرنسيين اليائسة في صهر المتنكرين للوضع وبعض زعمائهم في بوتقة المواطنية «الإفرنسية اللبنانية» على طريقة الجزائر أو ربما جزيرة كورسيكا.. وكانت التظاهرات والإضرابات في المدن الكبرى، وأعمال الشقاوة تتكرر وتستمر، تستمد حيويتها من هذه النقمة والفرقة ذاتها.. وارتفعت المطالبة بالدستور التي التف حولها الرأي العام اللبناني لإقتناعه بأنها الخطوة التمهيدية الأولى في طريق المطالبة بالإستقلال والسيادة.. وظفر اللبنانيون بدستورهم، على أن تنفيذه ظل رهن إرادة أهواء السلطة المنتدبة الإفرنسية، فكان يعلّق ثم يعاد العمل به.. وتمَّ تأليف الكتلة الدستورية التي كان يرأسها بشارة الخوري، ومعظم رجالاتها من المسيحيين كميشال زكور وسليم تقلا، للمطالبة بالدستور وبعدم تعليقه.. وأيد وساند التيار الوطني العربي هذه المطاليب.. وما لبث أن التقى الفريقان على صعيد واحد، على الأقل فيما يتعلق ببعض شؤون الحكم الداخلي اللبناني.. ثم تطور الأمر بالكتلة الدستورية إلى المطالبة بالإستقلال مع إنشاء إرتباط تعاقدي مع الإفرنسيين، كما أن أعضاء الكتلة الدستورية قبلوا بصبغة لبنان العربية.. وكان هذا الإعلان في الواقع رقبة الجسر التي مهدت للقوى الشعبية المتناقضة أن تتلاقى وأن تنفتح بعضها على بعض وأن تتفق على المطالبة بإستقلال البلد اللبناني، لما أخذت مساوىء حكم الإنتداب الداخلية تظهر للعيان فانجرف في موجة النقمة، المسيحي والمحمدي على السواء...

وكانت معاهدة ١٩٣٦، المعروضة من قبل السلطة الإفرنسية على سوريا إثر تسلم الجبهة الشعبية مقاليد الحكم في فرنسا، الباب الطبيعي الذي انفتح أمام اللبنانيين أيضاً للخلاص من السيطرة الأجنبية المشتركة.. وكل ما ينفذ في سوريا لا بد أن يجري شيء يقابله في لبنان.. وهكذا تم توقيع أول معاهدة، في طريق الإستقلال، بين ممثلي الحكومة والمعارضة اللبنانية من جهة، وبين الفريق الفرنسي المفاوض.



إلا أن المجلس النيابي الإفرنسي رفض إبرام هذه المعاهدات.. وكان على اللبنانيين أن ينتظروا الحرب العالمية الثانية وسنة ١٩٤٣، ليحققوا أمنيتهم الغالية هذه.. وكان الرأي العام اللبناني أخذ يتقارب كثيراً بعضه من بعض وبدأت الشقتان تنسجمان وتتوافقان وكأنهما على وشك الإنصهار..

وولد الاستقلال سنة ١٩٤٣ في هذه النشوة التوحدية بين مختلف أجزاء الوطن اللبناني وتنوع مذاهبه ونزعاته واتجاهاته، بالرغم من مقاومة التيار الإنعزالي التقليدي..

وتم دخول لبنان في الجامعة العربية التي تأسست آنذاك والتي ساهم في فكرة تأسيسها بعض رجال الدولة اللبنانيين، وذلك دون أن يقع أي رد فعل يذكر للفئة الإنعزالية. وقد كان لرياض الصلح ولعبد الحميد كرامي ولبشارة الخوري سهم مجلي في تهيئة الجو الملائم لإقامة واستقرار الأوضاع الجديدة.. وكان الفضل لرياض الصلح في إيجاد الصيغة التي اتفق عليها جميع الفرقاء والتي أوجدت ما يسمونه في لبنان: الميثاق الوطني، أي هذا التوافق والاتفاق بأن يعدل هذا الفريق عن المطالبة بالوحدة السورية ويقبل بكيان لبنان وباستقلاله «عن الشرق (أي عن الداخل) وعن الغرب» وأن يعدل الفريق الآخر عن الحماية الأجنبية ويقبل بالاستقلال الناجز وبالسيادة التامة بدون معاهدة أو حماية، «وبوجه لبنان العربي» (أي، في الواقع، بعروبة لبنان)..

وكان من المتفق عليه ألا يرتبط لبنان بمعاهدة وألا يكون فيه امتياز للدولة بالنسبة لدولة أخرى، وأن تكون سياسته الخارجية عربية تحررية وأن تنتهج الحياد السياسي..

كما وأنه جرى اتفاق ضمني على توزيع بعض الوظائف الكبرى في الدولة على بعض الطوائف صوناً لروح التفاهم العام..

الميثاق الوطني هو كل هذا.. وقد حرص العهد الاستقلالي الأول على تنفيذه، خاصة يوم كان التوافق والتعاون على أتمه بين رجل المسيحيين القوي آنذاك بشارة الخوري ورجل المسلمين القوي رياض الصلح.. وللشخصية أهمية أساسية أولى في لبنان، بلد الفردية الجامحة..

على أن الميثاق الوطني مرحلة تمهيدية «وسطية» بين وضعين، ولا يجوز التوقف عندها دون اجتيازها إلى تأسيس الدولة والوطن والأمة.. وإلا انقلب السحر على الساحر، ولا ترتضي الشعوب إلا ما تؤمن به، ولا تؤمن إلا بقيم وأهداف واضحة جلية.. ولا يبنى إيمان ولا تقوم إرادة ارتباط بالأرض وبالتاريخ ولا يؤسس وطن على التسوية فقط دون تجاوزها إلى ما يشكل تجسداً أقوى وأوضح وأعمق لقيم الإنسان والمجتمع والحياة..

وكانت هذه هي ناحية الضعف في السياسة «النصفية» التي اتبعها فيما بعد بشارة الخوري ورياض الصلح في «تدبير وترتيب الأمور» على حد اللغة الدارجة آنذاك.. وهذه النصفيّة في معالجة أخطر قضايا المجتمع والوطن إطلاقاً أوقفت المجال أو السعي الطبيعي لتطور فكرة الوطن والدولة في لبنان، وكانت سبباً فيما بعد للثورة اللبنانية.

وكانت سياسة بشارة الخوري ورياض الصلح، من هذه الوجهة، قصيرة النظر تعوزها الجرأة الخالقة للأمة وللتاريخ في لفتة من قدر التطور السانح.. كان يتوجب طبعاً إلقاء شيء من فتات مائدة الدولة لمستغلي الطائفيّات، وأن يكون للشيطان حصته في كل هذا، على أنه كان يجدر الإلتفات إلى تكوين وطن لبناني متحرر من الطائفية ومن الأوضاع التأخرية، في تخطيط وتوجيه صارم وتعديل تدريجي للقوانين والدستور والأنظمة.. وإلى الذين يدعون بأن الأكثرية لم تكن توافق على مثل هذا التحول التقدمي للدولة اللبنانية، يسهل الجواب: بأن الأقلية الوطنية الواعية هي وحدها التي تستطيع تطوير مفاهيم الأمة ودمغ المجتمع بطابع الحياة والتقدم والإيمان والقوة، ولا قيمة للأكثرية في وجه هذه الخميرة الفاعلة.. ثم أن المتذرع بمثل هذه الأعذار، يجهل أو يتجاهل ما للقوة المعنوية (قوة التوجيه والإيمان بأهداف مثالية وواقعية واضحة) وما للقوة المادية (قوة السلطة الإكراهية) مجتمعتين من تأثير في صهر الجماعة وإنشائها وتحريكها و«قولبتها»؛ فهذه القوة «في معنياها المزدوجين» هي «القاطرة» التي ترفع بالنضال الشعبي وبروحيته فوق مستواه العادي المتعثر، وتدفع بالشعوب وبالتاريخ أجيالاً إلى الأمام.. ثم أن المشاكل السياسية والإجتماعية التي يتغاضى رجل الدولة عن حلها في الوقت المناسب تتعاظم مع الزمن وتتعقد وتصبح مصدراً لسواها من المشكلات..

وقد فاتت كميل شمعون ذاته فرصة تبديل الوضع اللبناني على الشكل الذي يتوجب، يوم حمله إجماع الشعب والمجلس إلى كرسي القيادة الأولى في الدولة.. أو بالحري فاته أن يتلفت إلى عناصر التطوّر في المجتمع اللبناني وأن يواكبها برعاية ودفع من القوانين والمؤسسات، وأن ينميها ويوصلها إلى خواتيمها وإلى تحقيق أهدافها الأخيرة.. وقد التهى الرجل بالمخاتير والنواطير، وتعيين الموظفين وترقيتهم على الطريقة العثمانية الإقطاعية القديمة.. وعبثاً كنا نمسك بهذا الوجدان المتحجر لنقذفه ببصيرته تطلعاً نحو قمم الصيرورة والوجود.. ولكنه كان لا يبصر «أكثر من مدى أنفه»،

وكانت سياسة شمعون الداخلية عكس ذلك تماماً.. فكان يبدو جلياً، للمطلع عليها والذي يحاول تحليلها، أنها تهدف، روحاً وواقعياً، إلى هدم «الميثاق الوطني اللبناني» ذاته!.. فهو لم يذكر مرة واحدة في خطبه كله الميثاق، (أي الرباط الوطني) بينما كان يتغنى به دائماً قبيل رئاسته...

ثم أخذ يمهد ويسعى إلى إضعاف «الرؤوس الكبيرة» أو القضاء عليها، إلى أي طائفة إنتسبت.. ولكن حيث أنه ليس للمسيحيين في الواقع زعامات بالمعنى الصحيح الزمني، سوى مركز البطريركية المارونية المعنوي، فإنه وجه ضرباته للزعماء المحمديين، وللحركات السياسية التطورية التي تهدد كيان وأوضاع دولة المخاتير..

وكانت سياسة شمعون تقوم على مقومين أساسيين:

١ ــ إثارة وتغذية روح الطائفية في الأوساط المسيحية إلى أقصى إمكانات ذلك.. واستخدام رجال الدين الذين يسهل تضليلهم وإثارة طموحهم للزعامة السياسية لأجل هذه الغاية.. وسياسة التضليل والتغرير الطائفي هذه كانت تقترن طبعاً بتوزيع المنافع الخاصة ورشوة الوظيفة والنفوذ والمال.. وإذا كان بدا له انعدام جدوى استخدام التضليل والإغراء، كان شمعون يجمح إلى سياسة ضرب الناس بعضهم ببعض ودفعهم للاشتباك والاقتتال كما حصل في مجزرة العاقورة وزغرتا ومزيارة..

٢ ــ استخدام سياسة التجزئة والانقسام والمناقضة بين العناصر المحمدية، هذه السياسة المقرونة أيضاً برشوة الوظيفة والنفوذ والمال..

وقد بلغ استغلال شمعون للطائفية مبلغاً من نفوس الجماهير المسيحية شعر هو من جرّاء نجاحه بالقوة إلى درجة أنه أضحى في آخر عهده يعتبر نفسه «حامي النصارى» في لبنان وإن رجال الإكليروس موظفون عنده لا أكثر، في خدمة إشاعة هذه الدعاية المقيتة وإذكاء روح هذا التعصب.. وما عاد يقيم لرجال الدين وزناً.. وقد شكى لنا أسقف جليل من معاملة شمعون السيئة للأساقفة ورجال الدين في حضرته..

وكان شمعون فعلاً «عبقرياً» في هذا النوع من فنون تفرقة الناس والدس بينهم ومعاكستهم بعضهم لبعض وجذبهم بما هو أحط ما فيهم من أفكار وعواطف ونزعات..

ولم يقف همّ شمعون على الحقل السياسي، بل تعداه إلى الحقل الديني ذاته.. فأثار الموارنة على بطريركهم بعد أن حاول تنصيب أسقفاً من الموالين للعهد بطريركاً للمشرق، وفشل في محاولته التي كانت أوشكت أن تنجح لولا قلق الفاتيكان وتدخله السريع في الأمر وإقدامه على تعيين البطريرك الجديد.. ثم حاول تشجيع الموارنة على الخروج على سلطة قداسة البابا وأمعن في تشجيع أحد الأساقفة الغاضبين على معارضة البطريرك والتنكر لطاعته.. وكانت سياسة شمعون تزيد في عنفها ضد سيد بكركي، كلما لمس منه بادرة سمحاء في حقل الوطنية والتوجيه السليم «المسيحي الحقيقي المنفتح الأصيل».. وتوصلت عنجهية الراحل إلى إصدار المناشير وتوزيعها من القصر الجمهوري ذاته في حملته المناوئة للبطريرك المعوشي وإلى إصدار الأمر بالتصدي لبعض الوفود القادمة من دير القمر إلى بكركي ومحاولة منعها من الوصول بالقوة..

وبلغ التضليل الشمعوني الطائفي حداً مضحكاً ومفجعاً في آن واحد.. فقد صدف لصديقنا الدكتور إلياس البعقليني — على ما روي لنا — أن اقترب من المذبح ليتناول القربان المقدس في بيروت — وهو مؤمن ورع — فلاحظت ذلك إحدى السيدات المسيحيات بدهشة بالغة وقالت: «كيف يجوز ذلك، فهو معارض ومن أنصار البطريرك في بيروت...»

وحيث ما لمس شمعون معارضة لسياسته تدخل.. وهكذا كان بالنسبة لاخواننا الأرمن، فقد انشطرت الطائفة الكريمة بفضل تدخلاته في انتخاب الكاتوليكوس إلى شطرين متناحرين، لا يقر فريق كبير منهم بسلطة الرأس الديني الجديد المنتخب... وكان حظ إخواننا الدروز وافراً أيضاً في التعرض إلى شعائرهم الدينية وفي تحقيق سياسة تفرقة وانقسام عميقة الأثر في أوساط «العقال» والزمنين الدروز، نتيجة لتدخل شمعون لفرض «شيخ عقل» معيّن وتأييده على سواه.. وتعطلت المحاكم المذهبية الدرزية من جراء ذلك ولا تزال..

وجنحت بشمعون هذه السياسة الطائفية إلى تأييد قيام وطن قومي مسيحي في لبنان وإلى تصغير لبنان وتقسيمه على شاكلة إسرائيل.. ولعل هذا كان ولا يزال من أهداف بعض السياسات الأجنبية المعروفة.. وكان يخطط مشروعه هذا ويسعى لتحقيقه بعد أن لمس فشل سياسة التحكم والاستئثار: «يكون جبل لبنان مستقلاً بحماية دولة كبرى أجنبية، تستأجر لها قاعدة عسكرية ضخمة في بعض أنحائه ببضع عشرات الملايين من الدولارات مما يكفي لإملاء صندوق ميزانية هذه الدويلة.. وتكون بيروت مدينة حرة مفتوحة.. أما سائر الأقاليم فلتلتحق بسوريا..».

ولما بدأت قوى الثوار في الشوف تندفع في إتجاه بيروت بعد أن احتلت بعض القرى القريبة من العاصمة، قبيل «زيارة الأسطول السادس الأميركي وإنزاله لجيوش الاحتلال بأسبوع، كان شمعون على ما علمنا بصورة أكيدة، يفكر بإخلاء بيروت والانتقال إلى مدينة جبيل في الشمال لطلب المعونة الأجنبية العسكرية تحقيقاً لهذا التخطيط والتقسيم لكيان ودولة لبنان..

وسط هذا الجو المشحون بمختلف الانقسامات والأحقاد والعصبيات والمشاحنات، وهذا القلق المصطنع الذي كان شمعون يحاول تنميته في نفوس الكثرة من المسيحيين دون أن يلقي مقاومة فعلية إيجابية من الزعماء الوطنيين المسيحيين أو حتى من رجال الإكليروس إذا استثنينا البطريرك وبعض الأباء ونفر قليل من الأساقفة، وسط هذا الجو المنذر بالعاصفة وبالاشتباك وبالدفاع عن حق الحياة والبقاء والمصير، أعلنت أفواج الأثير نبأ الوحدة المصرية — السورية وقيام الجمهورية العربية المتحدة.. قامت طبعاً المظاهرات ومهرجانات الاغتباط لهذا الفريق من الوطنيين في العواصم وفي الأرياف.. وطبعاً تمثل الفريق الآخر في هذه المظاهر والأفراح شبح الوحدة يلفهم ويضم لبنان، وتصوروا، على خطأ أو على صواب، أن هذه الإعلانات للابتهاج ما كانت لتصدر بهذا العنف لولا النكاية بهم ولولا النيات المبيّتة... وحاول شمعون استغلال الحدث بإشاعة دعايات القلق في الأوساط المسيحية وفي البلاد، ليظهر نفسه بمظهر «سيف النصارى» والمدافع الأوحد عن الكيان اللبناني الضامن لبقاء المسيحيين

مستقلين في أساليب حياتهم ونهج شعائرهم، ولكي يدعموه، في مقابل ذلك، لأجل، تمديد البقاء وتجديد الرئاسة لا أكثر...

وهكذا تقوّي بين فئة من إخواننا اللبنانيين نوع من المرض النفساني اللاعقلاني، المندفع مع تخيّلات العاطفة والتواءات التفكير: شعور بالغربة في بلاد هي وطنهم ولكنها توشك أن لا تعود ولا تكون كذلك في المقبل القريب.. تقوية شعور اللاجىء واللجوء السياسي الذي لا تزال رواسب حوادث منتصف الجيل السابق الطائفية تذكيها في النفوس، بالرغم من أن أحد الأسباب الرئيسية لهذه الفتنة ولدت من طموح بعض الأساقفة ورجال الدين المسيحيين أنفسهم بأن يتزعموا سياسياً زمنياً وأن يسيطروا بالقضاء على الإقطاعيين والزعماء الزمنيين كافة...(٨)

وفكرة اللجوء السياسي لا تبرر وجود الوطن.. ولا تقوم دولة أو ينشأ ويدوم وطن على فكرة الالتجاء.. اللاجيء لا يدافع عن بلاده، ولا يؤمن بها..

وكان لهذه الفرقة البعيدة الأثر في المجتمع اللبناني، وهذا الإمعان «المريض» لشمعون وأعوانه في نشر العصبية الطائفية وإثارة القلق وفي اضطهاد المحمديين وزعمائهم، أثر وسهم في اندلاع الثورة اللبنانية التي حاول شمعون أن يحولها إلى فتنة طائفية لم ينجح..

فارتدت المعركة طابع المحافظة على عروبة لبنان، وعلى لبنانيته الأصيلة، على الشعور الوطني بكل ما للكلمة من دلالة، تمهيداً لأعادة التعاون وربما على أسس جديدة مع العالم العربي وخاصة مع الجمهورية العربية المتحدة — نواة الوحدة العربية — هذه العروبة التي بدونها لا يستطيع لبنان أن يعيش، كمن يفصل نفسه عن ينبوع التغذية في حضن أمه، هذه العروبة التي أول ما نطق بها وكافح لأجلها اللبنانيون في صراعهم عبر العصور الحديثة لأجل الاستقلال والنهضة والحرية..

●

الهوامش

(١) راجع بحثنا عن «الواقع اللبناني» المنشور في مجلة الندوة اللبنانية.

(٢) كما كانت بالنسبة للقطر السوري حركات ومحاولات الانتفاضات الشعبية، لبعض الأمراء وبعض الزعماء المغامرين وخاصة محاولة الأمير علي باشا جانبولاد، جد الأسرة الجنبلاطية اليوم في لبنان وتأسيسه لإمارة شملت سوريا من حدود كيليكيا حتى عريش مصر (راجع المؤرخ الأب قرعلي)، وكذلك الثورات المتصلة تقريباً لسكان جبل الدروز في سوريا — جبل العرب — ضد السيطرة العثمانية...

(٣) جورج انطونيوس: مؤلف كتاب «اليقظة العربية» (**The Arab Awakening**) الشهير، وهو من مواطنينا المسيحيين الشوفيين ومن مواليد عنبال «لبنان».

(٤) ومن أعضاء القحطانية: سليم الجزائري «دمشق»، الأمراء أمين وعادل أرسلان «لبنان»، خليل حماده «بيروت»، أمين قوزما «حمص»، علي النشاشيبي «القدس»، صفوت العوي وشكري العسلي «دمشق».

(٥) ومن أعضائها: عوني عبد الهادي «جنين»، جميل مردم «دمشق» محمد الحمصاني «بيروت»، رستم حيدر «بعلبك»، توفيق الناطور «بيروت»، رفيق التميمي «نابلس»، عبد الغني العرايسي «بيروت». وقد شنق الأتراك ثلاثة منهم هم الناطور والمحمصاني والعرايسي.

(٦) ومن أعضائه: رفيق العظم «دمشق»، رشيد رضا «طرابلس»، اسكندر عمون «دير القمر، لبنان»، فؤاد الخطيب «لبنان» سليم عبد الهادي «جنين» حافظ السعيد «يافا»، نايف تلق «دمشق» علي النشاشيبي «القدس».

(٧) نذكر على سبيل المثال جورج أنطونيوس وسليم عمون.

(٨) راجع المراجع التاريخية اللبنانية والأجنبية في ذلك.. وخاصة جورج أنطونيوس والكولونيل تشرشل وجويلان الخ..

وكان يقول لي الدكتور أسد رستم ونحن نزور برفقته دير عين سعاده: «هنا في هذه الغرفة اتفق المطران طوبيا وقنصل فرنسا على تدبير فتنة الستين..!»

وكان النفوذ البريطاني من جهة أخرى يتعلق بلبنان كجزء من سوريا الطبيعية بوصف هذه الجبال مركزاً استراتيجياً بالغ الأهمية على «طريق الهند» الشهيرة.

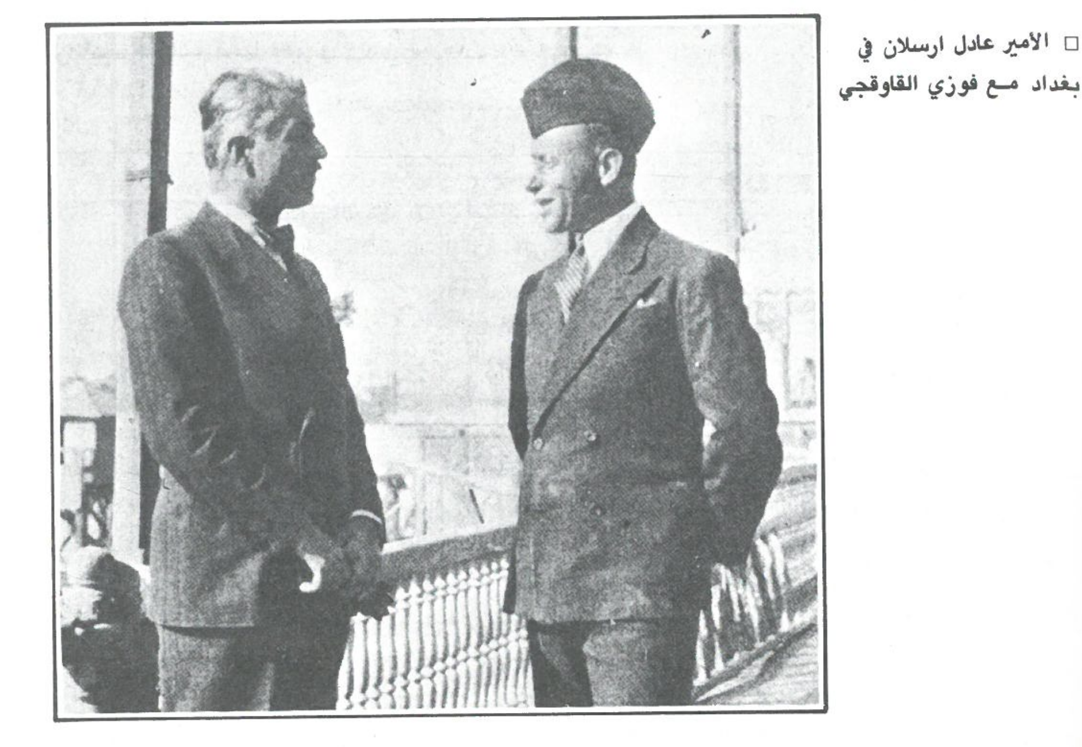
عادل أرسلان أمير السيف والقلم

د. يوسف ايبش

ولد الأمير عادل أرسلان عام ١٨٨٧ في الشويفات، فكان رابع ثلاثة إخوة: الأمير نسيب والأمير شكيب والأمير حسن أبناء الأمير حمود بن حسن أرسلان. وآل أرسلان هم أمراء بلاد الشوف وينتهي نسبهم إلى اللخميين. ومات الأمير عادل عام ١٩٥٤ في بيروت. تميزت الفترة التي عاشها الأمير الرائد بظاهرة بارزة هي انحلال المجتمع التقليدي وغرق العالم العربي في صعوبات التفتيش عن صيغ جديدة لتركيب اجتماعي يؤمن استقلالية الذات العربية من جهة وانتماءها الخلاق لركب الحضارة الإنسانية الحديثة من جهة ثانية. هي أزمة تكوّن حادة مؤلمة تشمل مختلف العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقانونية والثقافية والروحية، عاصرها الأمير عادل معاصرة العقل الواعي والهمة القوية والجرأة المتحدية.

لقد كان مولده في أعقاب فتنة عام ١٨٦٠، ذلك العَلَم البارز في تاريخ هذه المنطقة من العالم، التي طغت صفتها كحرب أهلية طائفية على حقيقة معناها كظاهرة تمرد على غزوة أوروبا للمجتمع العربي التقليدي. ففتنة عام ١٨٦٠ لم تكن في جوهرها إلا علامة إنحلال «النواة» الاجتماعية تحت تأثير الغزوة الصناعية الأوروبية التي نقلت الى البلاد بضائع لم تستطع الحرف والصناعات اليدوية المحلية الصمود في وجهها وانتهت بربط اقتصاد البلاد ومقدراتها الحياتية بالاقتصاد الأوروبي بشكل محكم، وتحت تأثير أفكار الثورة الفرنسية التي عجزت النظم القائمة وبالأخص نظام الاقطاع أن يقارعها. إذ كانت الفتنة انتفاضة دامية لطريقة في الحياة مهددة بالزوال.

نشأ الأمير عادل في جو الشعور بالخطر على الوجود والتراث. تلقى دروسه في مدرسة الحكمة، تعلم فيها الفرنسية على المربي الشهير أوغست أديب، ودرس العربية على المعلم عبد الله البستاني. وبعدها تابع دراسته في الكلية الاسلامية حيث اتقن اللغة التركية، ثم سافر الى استانبول وتابع تحصيله العالي في كلية الحقوق والادارة العامة. عين بعدها موظفاً في وزارة



□ الأمير عادل ارسلان في بغداد مع فوزي القاوقجي

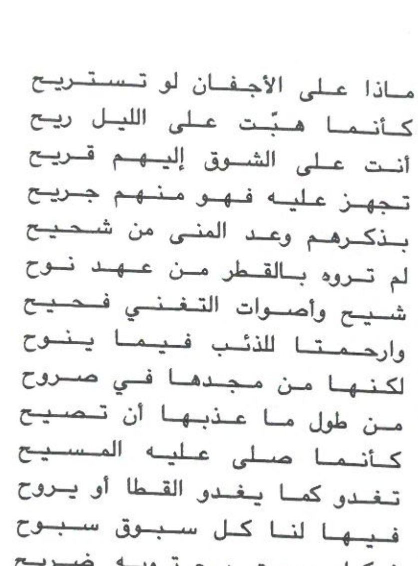
الداخلية في بيروت. انتخب نائباً عن جبل لبنان في مجلس المبعوثان العثماني وانتقل الى استانبول (١٩١٦ ــ ١٩١٨) فكان أصغر النواب سناً ومثّل في ذلك المجلس شباب العرب وأماني العرب بما قاله في المجلس عن حكومة ذلك العهد وبالطعن الذي صوبه الى جمال باشا قائد الجيش الرابع وحاكم بلاد الشام العسكري. تعرَّف في استانبول على عزيز باشا المصري ومحمود شوكت باشا البغدادي وفهمي بك المصراطي الطرابلسي وسليم بك الجزائري. وكان سليم بك متوقد الذكاء أديباً عالماً رياضياً مؤرخاً ومحدثاً ظريفاً ينظم الشعر. وكان الأمير عادل يزوره ويجلس يمازحه مرتجلاً الشعر، تارة هجاء وطوراً غزلاً وقال له يوماً أبيات منها:

أتراك تمنعني الصبابة بعدما
اعددت قلبي للغرام وقالبي
مهلاً سليم ففي فروق كواعب
ربي يريك عذاب حب الكاعب
من كل غانية يكاد حجابها
ينشق مقدوداً بسيف الحاجب

وبصحبة هؤلاء الرجال في استانبول وبدخوله في الجمعية القحطانية أولى الجمعيات العربية السرية ترسخت فكرة القومية العربية في قلب الأمير عادل وانتقل من «الجنتلمان العثماني» الى الأمير اللبناني العربي.

التحق عام ١٩١٩ بالأمير فيصل بدمشق فجعله سكرتيره الخاص وأرسله بمهمة إبلاغ دول العالم اعتداء الجنرال غورو على البلاد بزحف جيشه على عاصمتها. سقطت دمشق بعد معركة ميسلون في يد الفرنسيين وتقوّض العرش الهاشمي في سورية وحكمت فرنسا على الأمير عادل بالاعدام غيابياً عام ١٩٢٠. رجع من أوروبا فجعله الأمير عبد الله، أمير الأردن، رئيس ديوانه ومستشاره (١٩٢١ ــ ١٩٢٣) حتى وقع الخلاف في الرأي بينهما فأبعد الى الحجاز ومنها انتقل الى القاهرة عام ١٩٢٤. وهنا بدأت مرحلة جديدة في حياة الأمير عادل، مرحلة الأمير الثائر حيث التحق بالثورة السورية وتولى قيادة إقليم البلان، وظهرت شجاعته في القتال فلقب «بأمير السيف والقلم» ونظم أجمل قصائده أثناء القتال،

والأبيات التالية قالها وهو في وادي سرحان عام ١٩٢٦:



طال انتظاري للنهار الصبيح   ماذا على الأجفان لو تستريح
شرار فحم الليل لا ينطفي   كأنما هبّت على الليل ريح
يا ساهراً في النبك أين الألى   أنت على الشوق إليهم قريح
أبق على القلب المعنّى ولا   تجهز عليه فهو منهم جريح
يهمس في الليلاء مستنجزاً   بذكرهم وعد المنى من شحيح
في مهمة قفر كأن السما   لم ترْوِه بالقطر من عهد نوح
إنسانه ضب وأشجاره   شيح وأصوات التغني فحيح
ينوح فيه الذئب مستوحشاً   وارحمتا للذئب فيما ينوح
وعصبة عرباء فوق الثرى   لكنها من مجدها في صروح
أخرسها الصبر ومن حقها   من طول ما عذبها أن تصيح
كل رغيف أهله تسعة   كأنما صلى عليه المسيح
وصافنات صائمات لنا   تغدو كما يغدو القطا أو يروح
تكاد لا تمشي وعهدي بها   فيها لنا كل سبوق سبوح
قد زعموا الوادي لنا مرقداً   فكل بيت يحتويه ضريح
وما دروا أن نفوساً لنا   تنفحنا في كل يوم بروح
ويل لقوم جهلوا أنها   قد خلقت من دونهم للفتوح

وكتب حينما قصف الجيش الفرنسي دمشق بالمدافع:

أضاحية الفيحاء هل جفت الدما   وهل آن للموتور أن يتبسما؟
وهل أبطلت فيك المدافع رعدها   وهل أذنت للطيران يترنما
سلام على الفيحاء من قلب موجع   أبت نفسه في الحب أن يتظلما
فتى أخذت أيدي النوى من شبابه   فما تركت إلا فؤاداً متيما
وعزماً يريه العام يوماً وليلة   وصبراً يريه القفر أحلى وأحلما
وما ضره أن يشمل الشيب رأسه   وهل عاب نسر الجو أن صار قشعما
نعمت صباحاً جنة الأرض كلها   وأسكن من تبكينهم جنة السما
ولا زلت في وجه الجزيرة شامة   وأصبحت من باريس أحلى وأعظما
سلام على الإخوان فيك ومن يطق   على هجرهم صبراً فقد ذاق علقما

وبعد الثورة سافر الأمير عادل الى أوروبا وحيداً مشرداً وكتب رسالة لشقيقه الأمير شكيب قال فيها: «لا أشتاق الى المال والا أذكره لطمع في الدنيا أو لملاذ استعين بالمال لبلوغها، ولكن المال في هذا العصر أقوى سلطاناً منه في كل العصور، وقد أشعرتني الغربة افتقاري الى المال فقبلت أن اكون وكيلاً لشركات أجنبية لها مصالح معينة في بعض البلدان ولا دخل لها ولا لمصالحها في السياسة، ويعاكسني أكثر الأصدقاء وغير الأصدقاء، لعلاقة للبعض منهم بشركات أخرى، مدّعين أنه لا يليق لى وأنا العربي الوطني المجاهد في سبيل العرب أن أكون وكيلاً لشركات أجنبية...» وعندما كان في طريقه من بغداد الى لندن منعته الشرطة الانكليزية في فلسطين من دخول البلاد فكتب في مفكرته ما يلي: «أنا في بلاد عربية شارك أجدادي في فتحها، وفي جوار أجندين دفن أول شهيد منهم... عون بن نعمان المنذري اللخمي. ولا أملك فيها حق الاقامة ولا



الزعماء بالترتيب من اليسار إلى اليمين:

□ ــ الأمير عادل أرسلان بالطربوش ــ سلطان باشا الأطرش ــ صيّاح بك الأطرش ــ القائد حسيب بك ذبيان ــ الدكتور علي بك الشواف ــ القائد المدفعي عبد الكريم بك ــ القائد شوكت بك العائدي

الكلام في السياسة، ولا أكون فيها ساعة الا صحّ في قول الشاعر:

أحقاً عباد الله أن لست داخلاً
ولا خارجاً إلا عليّ رقيب
ولا زائراً فرداً ولا في
جماعة من الناس إلا قيل أنت مريب

وكل يهودي، يمنياً كان أو روسياً ومغربياً أو أميركياً، له أن يدخل فلسطين بجواز أو بلا جواز، وأن يقيم فيها ما شاء، وأن يكون فلسطينياً من ساعة دخوله، وأن يتكلم بما شاء، وأن يفعل ما يشاء».

عكف الأمير عادل أثناء غربته الغربية على تعلم اللغة الانكليزية وعلى دراسة أسباب تأخر العرب فوجد أن فساد أخلاق الحكام وأهل الحل والعقد أضعف العزائم أمام هجمات الاستعمار الأوروبي الشرسة، وأنانية رجال السياسة وحبهم للزعامة الفارغة وتعلقهم بالمظاهر الزائفة فرقت كلمتهم تجاه المحتل الأجنبي، ويضيف بقوله: «لهفي على قضية لا يتفق إثنان من أبنائها عندما يحسب أحدهما أن الآخر سيكون شيئاً أو سيعمل عملاً يترك له ذاكراً». ومن أكبر عوامل الانحطاط بطش الحكام بالأمة وظنهم أنها خلقت لهم يفعلون بها ما يشاؤون، وإذا حاول محاول أن ينصحهم بطشوا به عبرة لمن يعتبر، ويساندهم في ذلك العلماء المتزلفون يفتوا بطشهم بحجة أنه خرج عن الجماعة فدمه حلال. وعامة الناس مخدوعون أو مغلوب على أمرهم، فهزيمة الشعب أمام الحكام هي التي مهدت الطريق لهزيمة الجميع أمام الأعداء. والجهل والعلم الناقص هما من عوامل التأخر في البلاد العربية، وهنا نجد الأمير عادل على اتفاق كامل مع شقيقه الأمير شكيب بقوله: «العلم الناقص أشد من الجهل البسيط، لأن الجاهل إذا قيض الله له مرشداً عالماً أطاعه، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري! فعليه ابتلاؤكم بجاهل خير من ابتلائكم بشبه عالم». وهكذا تضيع الأمة بين الجامدين والجاحدين، وآفة العرب هي الفئة الجامدة، التي تريد أن تغير شيئاً ولا ترضى بادخال التعديل في أي مجال من مجالات الحياة ظناً منهم بأن الاقتداء بالعالم الحديث هو الاقتضاء بالكفار وبالتالي هو الكفر! أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج العرب

ويخرجهم على مقومات حضارتهم، ويحملهم على نكران تاريخهم وضياع هويتهم وإذابتهم في المجتمع الأوروبي. كل هذا مخالف للسنين الطبيعية التي جعلت في كل أمة ميلاً طبيعياً بمقومات شخصيتهاالحضارية. ومن خلال الجاحدين يتغلغل الاستعمار ويترسخ في البلاد العربية.

والعربي الجامد في رأي الأمير عادل ليس بأخف ضرراً من الجاحد. فالجامد هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها بحجة أنها علوم كفار، فحرم الأمة ثمرات هذه العلوم، وأورث الأجيال الصاعدة الجهل والفقر والذل الذي هم فيه، وسلبهم القدرة على إنتاج الأسلحة الحديثة والقتال به فأصبحوا فريسة للغزات. فالتمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية. والمسلمون الأولون أخذوا علوم اليونان والفرس والهنود ونمّوها واستفادوا منها. ولا يمكن الاستعداد للتحرر من نير الاستعمار الظاهر منه والخفي ومحاربة أعداء العرب بمثل سلاحهم إلا بالعلم والمعرفة. أنتركهم يستغلون مواردنا البشرية والطبيعية والبترولية وينعمون بها ثم نكتفي منهم بدراهم معدودات؟ أنهم ما وصلوا الى اخضاعنا واستغلالنا إلا بمعارفهم، ولم ترتق إلا بالعدل والحرية.

ويقول الأمير عادل: «مررت بفيينا (عاصمة نمسا) فوجدت على أبواب أحد قصورها محفور في الحجر الأصم: **العدل أساس الملك**. كانت هذه الحاضرة عاصمة لامبراطورية عظيمة ذات سلطان وخطر وعندما فقد العدل فيها أصبحت عاصمة لجمهورية من الدرجة الرابعة، وهي الآن مظلومة. وكان العرب أعدل الناس في الناس من غير العرب، وهم الآن هدف لسهام الظلم من كل جانب، ذلك لأن عدلهم في الناس لم يعادل ظلمهم لأنفسهم...» ويضيف في مذكراته أنه ذات يوم دخل الى غرفته في انكلترا طائر سنونو فخاطبه الأمير قائلاً: «أهلاً وسهلاً... ما لي لا أرحب بطائر يلجأ الى غرفتي ولا أفتح له الأبواب والنوافذ وأنا الذي سدّت في وجهي الأبواب والنوافذ وأقيمت في سبيلي الموانع والعراقيل حتى صرت لا أدري الى أين أذهب. أنا أعرف بالحرية وعكسها وأعلم بما في نفس المظلوم المجني عليه. أدخل أيها الطائر الصغير آمناً مأموناً منك وأجعل عشك في غرفتي، وإن شئت ففي ثوبي، وليدرج أفراخك على كتفي وفوق رأسي، فإن منعتك غرفتي أو شيئاً في يدي فلا شكوى لي على الظالمين».

خرج الأمير بمعادلة جوهرية: العدل والحرية هما ركنا الدولة، وهما اللذان كانا في البلاد العربية فازدهرت ثم فقدا فاضمحلت، ولم يكونا في أوروبا فانتابها الظلام والتأخر، ثم كانا فصلح حالها وبلغ أهلها ما بلغوا من تقدم ورقي وقوة كل ذلك بفضل العدل والحرية. إذن عدل وحرية يتبعهما رقي وعمران، ظلم واستبداد يتبعها اضمحلال وخراب.

صهرت الغربة الغربية روح وعقل الأمير عادل وهيأته للدور الجديد الذي كان ينتظره، دور الدبلوماسي — رجل الدولة. عاد من منفاه عام ١٩٣٦ وبدأ حياة جديدة في السلك الدبلوماسي السوري وشارك في أعمال الوفود السورية في هيئة الأمم المتحدة كما شغل مناصب وزارية كثيرة منها الدفاع والخارجية والتربية. كان القطب في المؤتمرات والندوات والحلقات السياسية العالمية. فارع القامة، جميل الصورة، قوي الحجة، فصيح اللسان، أمير المجالس، فذ الشخصية والأثر المشع، تتجسم فيه العفة والشهامة، رحيماً بأهله، وخلانه، شديداً على الأعداء، متعلقاً بوالدته، متفانياً في حبه لوطنه واخلاصه لأمته، معتزاً بنفسه وعروبته. ●

□ **من مقدمة الكتاب «مذكرات الأمير عادل ارسلان» — تحقيق الدكتور يوسف ايبش — عام ١٩٨٣**



□ **تاجر من دير القمر — ١٨٢٠.**

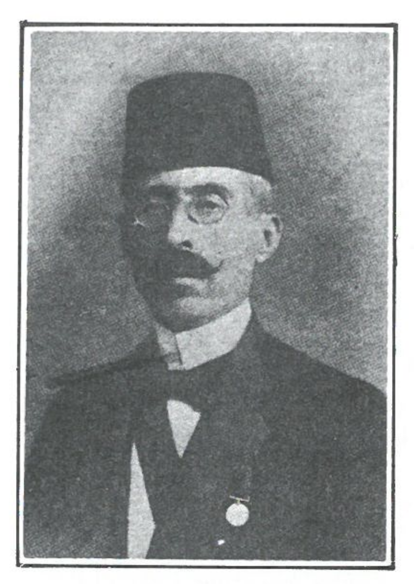
أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير*

الأمير شكيب أرسلان
رئيس المجمع العلمي في سورية ١٩٣٠

من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل ثقةٍ بأنفسهم وهو من أشد الأمراض الاجتماعية وأخبث الآفات الروحية لا يتسلط هذا الداء على إنسان إلا أودى به ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء وكيف يرجو الشفاء عليل يعتقد بحق أو بباطل أن علته قاتلتُهُ؟ وقد أجمع الأطباء في الأمراض البدنية أن القوة المعنوية هي رأس الأدوية وأن من أعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء فكيف يصلح المجتمع الإسلامي ومعظم أهله يعتقدون انهم لا يصلحون لشيء ولا يمكن أن يصلح على أيديهم شيء وانهم اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرون أن يضارعوا الأوروبيين في شيء وكيف يمكنهم أن يناهضوا الأوروبيين في معترك وهم موقنون أن الطائلة الأخيرة ستكون للأوروبيين لا محالة فصار مثلهم مع هؤلاء مثل أولئك الأقران الذين كان يبطش بهم سيدنا عليّ، رضي الله عنه، في وقائعه فقد حدثوا أنه سمعت له في صفين أربعمائة تكبيرة وكان من عادته، كرم الله وجهه، أنه يكبّر كلما صرع قرناً، فقيل له في ذلك فأجاب: كنت إذا حملت على الفارس ظننت أني قاتله وظن هو أيضاً أني قاتله فكنت أنا ونفسه عليه.

وهكذا أصبح المسلمون في الأعصر الأخيرة يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والأوروبي إلا سينتهي بمصرع المسلم ولو طال كفاحه. وقرّ ذلك في نفوسهم وتخمَّر في رؤوسهم لا سيّما هذه الطبقة التي تزعم أنها الطبقة المفكّرة العاقلة المولعة بالحقائق الصادقة عن الخيالات بزعمها فإنها صارت تقرّر هذه المشؤومة في كل نادٍ وتجعل التشاؤم المستمر والنعاب الدائم من دلائل العقل وسعة الإدراك وتحسب اليأس من صلاح حال المسلمين من مقتضيات العلم والحكمة وما زالت تنفخ في بوق التثبيط وتبث في سواد الأمّة دعاية العجز إلى أن صار الاستخذاء ديدن الجميع إلا من رحم ربّك وكانت روحه من أصل فطرتها قوية عزيزة. ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هي متردية متدنية لا تقاس بحالة الإفرنج في قليل ولا كثير بل زعمت أن التعب في مجاراة المسلمين للإفرنج في علم أو صناعة أو كسب أو تجارة أو زراعة أو حرب أو سلم أو أي منحى من مناحي العمران هو ضرب من المحال وشغل بالعبث لا يليق بالعاقل أتيانه، وكأنّ المسلمين من طينة والإفرنج من طينة أخرى فعلوّ الإفرنج على المسلمين أمرٌ لا بدّ منه وكأنّه كتب في اللوح المحفوظ وجفّ به القلم ولم يبق أمام المسلمين إلا أن يعملوا كونهم طبقة منحطة عن طبقة الإفرنجة ويعملوا بمتقضى هذه العقيدة. وكثيراً ما وقعت لي مجادلات مع هؤلاء المتفلسفين بالفارغ صغار النفوس ولم يكن يدخل في عقولهم المنطق ولا يعظهم التاريخ ولا ينفع في إقناعهم علم الطبيعة ولا التشريح ولا يحيك بهم استنتاج ولا قياس وذلك لما غلب عليهم من آفة الذلّ ومرض الاستخذاء وقد أحسّ الأوربيون بما عند المسلمين من هذه الحالة الروحية الموافقة لمصالحهم الاستعمارية فصاروا يروجونها فيهم ويقوون عندهم هذه العقيدة فانطبق على هؤلاء الناعقين بالبين الآية الشريفة (في قلُوبهِم مَّرَضٌ فَزَادَهمُ الله مرضاً) ولم يكن الإفرنجة وسعاتهم ودعاتهم بملومين على ترويج هذه النظريات التاعسة بين المسلمين لأنها مما يسهّل الاستعمار ويمهّد طرقه ويكفيهم المقاتلات والمنازلات ويوفر عليهم المزاحمات والسابقات ويجعل لهم التفوّق بلا نزاع والتسلُّط دون جدال ولكن العجب كل العجب من هؤلاء المسلمين الذين أمرهم الله ليتّصفوا بالعزّة ويتّسموا بالأنفة ويستوفوا تمام الرجولية كيف كانوا ينقادون لهذه الأضاليل التي مآلها عبوديتهم للأجانب. لقد صدق فيهم كلام الله تعالى (وفيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ والله عليمٌ بالظالمين).

وأكثر ما كانوا يؤكدونه للناس من عدم قابلية المسلمين هو استحالة قيامهم بالمشروعات العمرانية والأعمال المادّية وكل ما يتعلّق به حساب ورقم أو مساحة وقياس فإذا قلت لهم: إن كان المسلمون لا يحسنون هذه العلوم كما تزعمون فكيف استطاعوا أن يؤثروا هذه الآثار الباهرة التي يؤمّها السيَّاح من أقاصي الدنيا وكيف ملأوا مصر والشام والعراق والمغرب وإيران والهند والقسطنطينية وغيرها مباني


□ الأمير شكيب أرسلان

ومؤسسات تبهر الأبصار وتحيّر الأفكار وكانت لهم معامل ومناسج ودور صناعات متنوعة وغير ذلك مما يعد في الصناعة من الطراز الأول أجابوك: قد كان هذا قبل أن يرقى الإفرنج هذا الرقي الحديث وقبل أن يكشفوا أسرار الكون التي كشفوها وغير ذلك مما ليس بجواب عن هذا الخطاب والموضوع هو في واد وهذا في واد. فنحن نريد أن نقول أن كل من سار على الدرب وصل وأن المسلمين إذا تعلّموا العلوم العصرية استطاعوا أن يعملوا الأعمال العمرانية التي يقوم بها الإفرنج وأنه ليس هناك فرق في القابلية البشرية ولكن على شرط أن ينفض المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول ويلغوا هذه القاعدة التي قد كانت من أسباب شقائهم زمناً طويلاً وهي أن كل عمل عمراني في الشرق لا بدّ أن يستعار له شركة أوروبية لتقوم به وإلا فلا يستطاع عمله. ولقد أتت التجاريب بعد ذلك بما يثبت فساد هذه النظرية بتمامها وتمكن المسلمون في كثير من البلاد من إنشاء شركات صناعية وتجارية وتأسيس معامل ومناسج ودور صناعة نجحت نجاحاً باهراً كذب مزاعم تلك الفئة المثبطة وصيَّرها موضوعاً للهزؤ. ولما عزم السلطان عبد الحميد الثاني العثماني على مدّ سكة

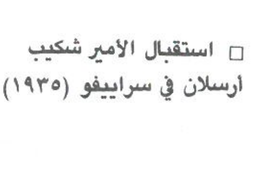
* من كتاب «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم»، للأمير شكيب ارسلان، الطبعة الثالثة عام ١٣٥٨هـ ــ طبع بمطبعة عيسى البابي وشركاه بمصر.

حديدية من دمشق إلى الحرمين الشريفين قوبل هذا المشروع أوانئذٍ بمزيد الاستغراب تبعاً للعادة ومن الناس من ضحكوا به وقالوا: نحن نرى أنفسنا عاجزين عن إنشاء طريق عجلات فكيف نستطيع أن ننشىء سكّة حديدية طولها يزيد على ألفي كيلو متر وأنّى لنا المال والعلم اللازمان لمشروع عظيم كهذا؟ وأغرب من تشاؤم المسلمين وشعورهم بالعجز عن القيام بهذا العمل أن المهندس الألماني الكبير مايسنر باشا انتدبه السلطان لرئاسة مهندسي هذا الخط هو نفسه كان لا يعتقد إمكان إنشاء هذا الخط وكان هذا الرجل صديقي فسألته مرة عن رأيه فيه فقال لي أنه يرجو إيصاله إلى معان وهي مسافة أربعمائة كيلو متر من دمشق فأما مدّهُ من معان إلى المدينة فيكاد يكون من المستحيل فسألته هل ذلك من عدم وجود المال؟ قال: على فرض وجد المال فإن دون إنشاء الخط موانع طبيعية يتعذّر التغلب عليها فإن السكة يلزم لها ماء في كل محطة والماء لا يوجد إلا في محطات معدودة وإن أنشأنا صهاريج تُملأ بماء المطر لم يؤمن أن الحرارة في الصيف تنشّف بشدتها مياه الصهاريج وهناك صعوبة أخرى وهي أن الخط سيمتد في أمكنة كلها رمال وقد تهبّ الريح السافياء فتأتي برمال تغطي الخط ولا يمكن منع ذلك إلا بزرع الحلفاء والقصب والطرفاء وكل هذا يلزمه ماء حتى ينمو وأين الماء من تلك الأراضي؟ هذا كان كلام المهندس الكبير لي من جهة الطبيعة. ثم ذكر الخطر الواقع على الخط من أعراب البادية. فأما انا فكنت معتقداً خلاف اعتقاد الآخرين قائلاً بأن ليس ثمّة صعوبات لا يستطاع تذليلها وكنت من الذين يندّدون بالمتشائمين والمتهكمين ونظمت في هذا المشروع قصيدة أحثّ بها الأمّة على التبرّع لأجله وتبرعت أنا من جيبي بخمسة عشر جنيهاً وذكرت ما سيكون لهذا الخط من الفوائد العمرانية والاقتصادية والعسكرية فضلاً عن تسهيل الحج الذي هو هدفه الأسمى وكان مطلع قصيدتي:

الا يا بني الإسلام هل من مساعد

لفعل سماوي المثوبة ماجد

فلما طبعتُ القصيدة ونشرتها سلقني الكثيرون من أولئك الغربان بألسنة حدادٍ وكأني كفرت في تنويهي بمشروع يربط الشام بالحجاز ويختصر المسافة بينهما على الحجاج من ٤٠ يوماً إلى أربعة أيام وهزأوا ما شاءوا وتمطّقوا بقدر ما أرادوا. ولكن كل تلك الفلسفة لم تجدهم فتيلا ونجز الخط الحديدي من دمشق إلى المدينة المنورة وهي مسافة ألف وأربعمائة كيلو مترولولا خلع السلطان عبد الحميد لكان قد تمّ إلى البلد الحرام، ولكن من بعده فترت الهمة بإكماله وجاءت الحرب وعواقبها فقضت بإهماله. ثم إن هذا الخط جاء من أبدع الخطوط الحديدية في العالم، صادفت مرة فيه أحد كبراء مسلمي الهند من أعضاء مجلسها الأعلى وهو ممن تثقفوا ثقافة إنكليزية محضة وتخرج من جامعة أكسفورد فقال لي: لا يوجد في نفس إنكلترة سكة حديدية تضاهي في الإتقان هذه السكة ولو لم أشاهدها بعيوني ما صدّقت بوجودها. وبالفعل لم يصدّق كثير من المسلمين أخبارها فأرسلوا وفوداً يشاهدونها بأعينهم، فكان المسافر يصل من دمشق إلى المدينة في ليلتين وكانت دمشق تستفيد كل سنة من هذا الخط ما يقارب ٢٠٠ ألف جنيه وعمرت القرى التي يمر بها الخط وارتفعت أثمان الأراضي ارتفاعاً مدهشاً وتضاعف عمران المدينة المنورة أضعافاً، هذا فضلاً عما توفر من المشاق والأخطار على الحجاج والزائرين والتجار والمسافرين. وأما الصعوبات الطبيعية التي كانوا يقدرونها فلم يصحّ منها شيء وأما الأعراب فلم يقع منهم على الخط أدنى اعتداء. وكان عند كل محطة من محاط الخط قلعة فيها جند للمحافظة وكل تلك المحطات والقلاع كانت مبنية أمتن بناء. ولما كان لا يتاح لغير المسلمين دخول أرض الحجاز فكان إنشاء الخط أي القسم الداخل منه في الحجاز كله على أيدي مهندسين مسلمين حتى أن مايسنر باشا الألماني نفسه لم يتجاوز في إشرافه بلدة تبوك. ولما ذهبت إلى المدينة المنورة زائراً النبي صلى الله عليه وسلم وذلك سنة ١٣٣٠ كنت أسمع أن عدم مدّ الخط الحديدي من المدينة إلى مكة نشأ عن اعتراض قبائل العرب من حرب وغيرها وأنهم لا يسمحون



□ استقبال الامير شكيب ارسلان في سراييفو (١٩٣٥)



بمرور الخط في أراضيهم ففحصت عن هذه القضية فوجدت أكثرها هراءً وافتراءً، وسألت شيوخ القبائل عما يقال من معارضتهم في إنشاء السكة فقالوا: لو كنا معارضين لإنشائها لعارضنا ذلك من أول دخولها في أرض الحجاز، والحال أننا كنا مساعدين للحكومة على هذا المشروع بكل قوانا، فسألتهم التوقيع على عريضة للدولة يطلبون فيها تمديد هذا الخط من المدينة إلى مكة، فوقّع عليها جم من أولئك المشايخ، ولم تكن الدولة عهدت إليّ بهذه المهمة وإنما قمت بها خدمة للوطن وللملة. ولو لا طروء الحرب العامة بعد ذلك بقليل لكان بوشر بمدّ الخط الحديدي من المدينة إلى مكة. فلما انتهت الحرب العامة واحتلت إنكلترة فلسطين وفرنسا سورية كان أول ما توجهت إليه همم الإنكليز والفرنسيس هو تعطيل هذا الخط الحديدي الذي يربط القطر الشامي بجزيرة العرب ويقرّب صلات المسلمين بعضهم ببعض. وكم احتجّ المسلمون على تعطيل هاتين الدولتين لهذا الخط الحيوي للشام والحجاز وكم أبدوا وأعادوا في أن هذه السكة الحديدية الحجازية كانت تركيا قد جعلتها من جملة أوقاف المسلمين فلا يحق لدولة أجنبية أن تعبث بأوقافهم فلم يكن ذلك ليقنع تينك الدولتين بالاعتدال ورفع الاعتداء ولا تزال هذه المؤامرة الفظيعة على هذا الحق المقدس من حقوق المسلمين نافذة إلى يوم الناس هذا. فإذا قام شخص مثلنا يذكرهم بهذا الاعتداء القبيح ضاقت صدورهم به ودسّ عليه الإنكليز في السر وطعن عليه الفرنسيس في الجهر ونعتوه «بعدوّ فرنسا» وما أشبه ذلك. والحال أننا إنما نريد صلاح أحوال بلادنا ولا نضمر لأحد سوءاً. والشاهد الذي نقصده هنا هو ما سبق إنشاء سكة الحجاز من تشاؤم كثير من المسلمين واستهزائهم واستنكارهم وتأكيد أنه خط محال إنشاؤه ومشروع يكون من قلّة العقل تعليق الأمل به. وهذا مثال من أمثلة كثيرة لا يمكن استقصاؤها من كثرتها فقلّما تدخل بلداً من بلدان الإسلام ولا يوردون لك من هذه الأمثال.

وكما ظنّ المسلمون أنهم لا يحسنون شيئاً من المشروعات العمرانية وأنه لا بدّ لهم من الأوربي حتى يدخلوا على يده الإصلاح في بلادهم وأنه من دون الإفرنجي لا يقدرون على أية عمارة ولا مرفق ذي بال، كذلك ذهبوا إلى أنه لا حظّ لهم في الأعمال الاقتصادية أصلاً وأن كل مشروع اقتصادي إسلامي صائر إلى الحبوط إن لم تكن له أركان إفرنجية وقد طال نومهم على هذه العقيدة الفاسدة حتى لم يبق في بلادهم شيء اسمه اقتصاد إلا كانت إدارته بأيدي الإفرنج او اليهود وحتى لو دعا منهم داعٍ إلى تأليف شركة تجارية أو صناعية أو زراعيةً لم يدخلها صاحب رأس مال من المسلمين إلا إذا كانت إدارتها بيد إفرنجي أو يهودي. وكلمة الجميع عندهم: نحن لا يخرج من أيدينا عمل ولا نصلح لشيء. وقد بقي اليهود والإفرنجة يتمتّعون بخيرات بلاد الإسلام قروناً وحقباً طوالاً دون مزاحم ولا مراغم ويستدرّون فيها أخلاف كل صنعة ويستورون زناد كل مرفق إلا ما ليس له بال حتى لو قدّر ما ضاع على المسلمين في ظل هذا الوهم بالمليارات وعشرات المليارات ما كانت فيه مبالغة وكأن المسلمين لم يوجدوا في الدنيا إلا عَمَلَةً أو أكَرَة يشتغلون بأيديهم ولا يشتغلون بعقولهم. وبهذا السبب خلا الميدان في بلاد الإسلام لأصناف الأجانب يركضون فيه جياد قرائحهم وعزائمهم ويجمعون الثروات التي ليس وراءها متطلع لمزيد وذلك على ظهور المسلمين ومن أكياسهم. وقد يكثر التحدّث بما يصيب الأجانب من هذه المكاسب الطائلة التي كان أهل الإسلام أولى بها لأنها من بلادهم ولا تحفزهم همة ولا تأخذهم غيرة فيجربوا الخبّ في الحلبات الاقتصادية إلى أن نبغ في مصر محمد طلعت باشا حرب، فكان في هذا الباب أمّة وحده وأدرك بواسع عقله وثاقب فكره أن ليس في هذا الموضوع شيء يفوق طاقة المسلمين ولا مما يتعذّر وجود أدواته عندهم وأن قصورهم فيه عن مباراة الأجانب لم يكن إلا من آثار ذلك التوهم القديم الذي هو أنهم لا يحسنون الجري في أي ميدان من ميادين الاقتصاد وقد وجدت عند هذا الرجل في جانب رجاحة العقل وسداد الحكم همّة بعيدة قعساء ونزعة وطنية صافية من الأقذاء سالمة من الأهواء فاجتمعت فيه جميع الشروط اللازمة لمن شاء أن يبدأ في الشرق بنهضة اقتصادية تزاحم بالمناكب وثبات الأجانب ومما يندر في الرجال الجمع بين الحساب الدقيق والخيال الواسع وهما قد انتظما جنباً إلى جنب في دماغ طلعت باشا حرب فكانت سعة خياله مساعدة له على الإقدام نحو المشروعات التي هي مظان الأرباح وكانت دقة حسابه مساعدة له على نجاحها وضمان أرباحها. وبالاختصار اقتحم طلعت حرب معركة هي الأولى من نوعها في المجتمع الشرقي. وعند ما باشر جمع رأس المال الذي كان حدده لإنشاء بنك مصر وهو ٨٠ الف جنيه عانى في ذلك أهوالاً ونحت جبالاً وذلك لما ران على عقول المسلمين من أنهم لا يقدرون على الاستقلال بعمل اقتصادي وأن كل عملٍ منهم في هذا السبيل حابطٌ من نفسه هابطٌ على أم رأسه فلما اخذ طلعت باشا حرب يتقاضى أغنياء مصر المشاطرة في هذا المشروع لبّوا نداءه حياءً منه لا اعتقاداً بأنه سيأتي بثمرة وبقيت ثقتهم بأجمعها في بنوك الأجانب، وما زال معولهم عليها إلى أن شاهدوا بأعينهم النجاح الذي كاد يكون معجزة في نظرهم وارتفع رأس مال بنك مصر من ٨٠ ألف جنيه إلى مليون جنيه واحتوت خزائنه من الودائع على عدة ملايين من الجنيهات واشتمل على أملاك وسلفات وشركات متعددة متنوعة تقدر بملايين أخرى من الجنيهات بحيث زادت الأموال التي تحت تصرّف البنك على عشرين مليون جنيه وكل هذا في ثماني عشرة سنة أنشأ فيها طلعت باشا حرب ومدحت باشا يكن ورفاقهما على حساب بنك مصر شركة مصر للغزل والنسج التي معملها في المحلة هو من أكمل وأعظم معامل الغزل والنسج في العالم يعمل فيه ١٨ ألف عامل يندر فيهم غير المصري ويسدّ من المنسوجات القطنية ثلث حاجة القطر المصري بأجمعه فيكون قد وفرّ على المملكة المصرية ثلاثة ملايين جنيه سنوياً كانت من قبل تخرج من جيوب المصريين لتدخل في جيوب الأوروبيين. وهناك من توابع بنك مصر شركة مصر لنسج الحرير وشركة مصر للتمثيل والسينما وكل هذه نالت معروضاتها الجوائز الكبرى في المعرض الدولي الباريزي سنة ١٩٣٧

ثم شركة مصر لمصايد الأسماك وشركة مطبعة مصر وشركة مصر للطيران وشركة مصر للسياحة وناهيك بشركة مصر للملاحة البحرية وما أنشأته من المنشآت الجواري كالأعلام مثل زمزم والكوثر والنيل وغيرها مما كاد يكون كالأحلام فصار الحجاج يبلغون الحجاز على بواخر يرون بها أنفسهم في مثل قصور الملوك فراهةً ورفاهةً وراحةً ونعيماً ومقاماً كريماً، وصار سيّاح مصر الكثيرون إلى أوروبة في فصل الصيف يركبون تحت العلم المصري الشريف بواخر لوقرنت ببواخر الأمم الأوروبية حلّت بينها في الصف الأول هذا بعد أن قضينا كل هذا الدهر نسير ونسرى في البواخر الأجنبية ونؤدي إليها أموالنا بلا سبب سوى قصور هممنا عن إنشاء بواخر خاصة بأوطاننا بها ركوبنا وعليها نقل بضائعنا وليس هنا محل تفصيل مشروعات طلعت باشا حرب باعث النهضة الاقتصادية في الشرق لنخوض في هذا العباب ولا مقصدنا تمجيده والإشادة بمآثره ولو بالحقيقة، وإنما كان إيرادنا هذه القصة على سبيل المثال لما كان عليه المسلمون من الجبن في المواطن الاقتصادية إلى أن هبَّ هذا الرجل مدير بنك مصر فأيقظهم من سباتهم وأعلمهم أنهم رجال كما الأروبيون رجال وأنهم إذا شحذوا غرار عزائمهم اعملوا أسنة قرائحهم قدروا على ما يقدر عليه الأجانب من الأعمال الاقتصادية الكبيرة. وها نحن أولاء الآن نرى العاملين في بنك مصر وفي الشركات المضافة إليه ثلاثين ألف مستخدم وعامل كلّهم مصريون إلا النّادر الأندر، وهكذا بدأ المسلمون يقتحمون معارك الحياة الاقتصادية في كل فن من فنونها وتولّدت عندهم في أنفسهم ثقة كانت محجوبة عنهم من قبل بحيث أن أحمد حلمي باشا والسيد عبد الحميد شومان من فلسطين أسسا في القدس بنكا كل رأس ماله خمسة عشر ألف جنيه، وتوفقا بحسن إدارتهما إلى أن صيرا هذا البنك العربي الوحيد في القطر الشامي من البنوك المعدودة ذوي الفروع الكثيرة وصار يشتمل على خمسمائة ألف جنيه. وكذلك أسسا بنكاً زراعياً شاطر في تأسيسه أكثر من خمسة آلاف مساهم من عرب فلسطين وبلغ رأس ماله نيفاً ومائة ألف جنيه، فسدّت بهذين البنكين الأمة العربية في فلسطين حاجتها واستغنى ذو الحمية منها عن الالتجاء إلى بنوك الأجانب، وفهم الناس أن هؤلاء ليسوا فوق الشرقيين وأنهم لا يعجزون.

إنما جئنا بهذين المسألتين للاستدلال على الأضرار الفظيعة التي كان يحدثها بالمسلمين عدم ثقتهم بأنفسهم. ولعلّهم بدأوا يتعافون الآن من هذا المرض الاجتماعي المهلك والله غالب على أمره.

●



- يستطيع كل حاكم أن يقيم لنفسه عرشاً من السيوف والحراب ولكنه لا يستطيع أن يجلس عليه.

(القسيس انج)

- أبعدوني عمن يقول: أنا كالشمعة أذيب نفسي ليستضيء الناس بنوري، وقربوني ممن يحس أنه يستضيء دائماً بأنوار الناس.

(؟) إغريقي

- أحببت العدالة وكرهت الظلم، لذلك أموت في منفاي.

(البابا جريجور الرابع)

- النزيه من نزّه نفسه حتى عن النزاهة، وكان عفيفاً حتى عن الإحساس بالعفة، فكانت العفة في نفسه دون حسه.

حكيم

الحياة الاجتماعية والآثار في «دير القمر» في القرن التاسع عشر

شكري البستاني

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» وبمناسبة إصدارها العدد الخاص عن «الجبل» أن تنتقي دراسة مميزة عن مدينة «دير القمر» جاءت في كتاب نشره معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية ــ مركز الأبحاث ــ عام ١٩٦٩ تحت عنوان: «دير القمر»، وهو عبارة عن مخطوطة لشكري البستاني مختار دير القمر قد دوّنها بعد أن تحرّى مضامينها لدى شيوخ الدير الذين عاشوا تلك الحقبة من القرن التاسع عشر.

أمّا تلك الدراسة فانتقيناها لتكون على نوعين، الأوّل «الحياة الاجتماعية والملاهي وعادات أهل الدير في تلك الفترة» والنوع الثاني، يتناول «القصور والمباني الأثرية» في تلك المدينة.

لأهل السوق في دير القمر عادات متأصّلة ورثوها عمّن قبلهم من أصحاب الحوانيت وهي: سماع القدّاس، وزيارة كنيسة سيدة التلة، قبل كل عمل. ثم يفتحون محلاتهم التجارية أو الصناعية. وهذه العادة تتكرر كل يوم وبدون إنقطاع.

كانوا يحبّون الألعاب، والملاهي، وإرتياد المقاهي، ولعب الورق في السهرات وأوقات الفراغ. وغالباً ما يكون لعب الورق يوم الأحد أو العيد، أو عند عصر النهار العادي، أيام الحرّ الشديد، في باحة السوق، على حصير مربع الشكلِ غليظ الحياكة، مثقوبةٌ جوانبه الأربعة، أي أنه محترق من السكاير التي يضعها الجالسون على الزوايا في أثناء اللعب. أما الألعاب التي كانت جارية في ذاك الوقت فهي أكثر من أن تحصى نخصّ بالذكر منها: الديكا أو الميتين ــ الكوتيليا ــ الكوتشينا ــ المستكري.

ومنهم من يرتاد المقاهي ليشرب النارجيلة، أو يلعب البيزيك، أو الداما، أو طاولة الزهر، أو غير ألعاب لا تتيسّر إلّا هناك.

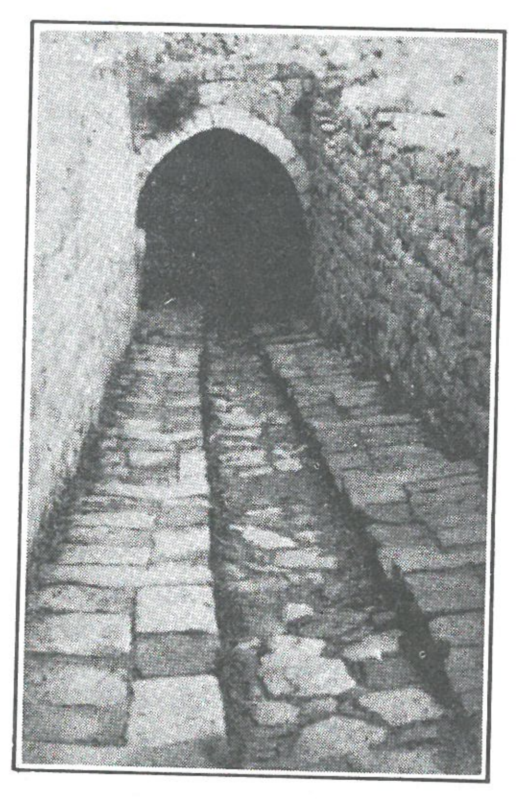
كأنوا يسردون الحكايات الطويلة. مبتدئين بالمقدمة: كا ما كان على قديم الزمان ــ عن شكي عن بكي الخ. وأشهرها حكايات الشاطر حسن وجحا. يسمعون الحكواتي بالمقاهي ــ يحضرون عيواظ وكركوز وغناء العوالم (تشخيص الروايات) ــ ودق العود والقانون ــ والمنجيرة ــ ونقر الدفوف ــ لعب الجريد على ظهور الخيل ــ الصلايه في البريّة للحساسين والعصافير ــ صيد الطيور ــ الحجال ــ الأرانب ــ شمّ الهواء على ظهور الحمير أو في عربات الخيل ــ شرب العرق في المنشيه وعين وريت، وعين الحيات، وفي بعض حوانيت البلدة وفي محلات أُخرى خارجها.

نوع آخر من التسلية هو: قراءة القصص والحكايات كقصة عنتر بن شداد، والزير، وبني هلال، وفيروز شاه...

اذكر أني كنت أحضر قراءة هذه الكتب في بيت أحد مشايخ عائلتنا مسعود إفرام البستاني في دارِهِ الفسيحة. فتمتلىء هذه الدار بالرجال والنساء والأطفال لسماع سيرة عنترة الفرسان من فم القراء كخليل أو عبد الله ولدَي صاحب الدار، وتارةً أسعد حسن إفرام البستاني أو أحد الشبان من الأقرباء وممن يحسن القراءة. فتمتدّ سهراتهم إلى الساعة الثالثة أو الرابعة على الحساب العربي الذي تكون فيه الثانية عشرة عند غياب الشمس. هكذا كانوا يضبطون الساعات في تلك الأيام.

أما في أيام الشتاء فتتحوّل قراءة القصص إلى داخل البيوت. فتُفرش الجلود الطويلة الصوف والطراريح. فيجلس السامعون عليها جنباً إلى جنب متراصين بعد أن يتركوا أحذيتهم في الساطوينه، وعشرات الأراكيل مصفوفة أمامهم، ودخانها ودخان السجاير يملأ أجواق البيت. ويصادف أحياناً أن أحدهم ينكش نار نارجيلة جارِهِ ظناً منه أنها نارجيلته أو يحكّ رجل الذي جنبه ظاناً أنه يحكّ رجله، ثم تعمّ الفوضى عند الرحيل. فكل يلبس الحذاء الذي يصادفه في الساطوينه. وفي اليوم التالي يدور أحد الفتيان على البيوت قائلاً: «هوذا حذاؤكم وأعطونا حذاءنا».

أما في سوق السكافين فنرى نخبة شباب دير القمر وجوارها. وتسليتهم المفضلة هي اقتناء الحساسين الأصلية، وقلما تجد في هذا السوق قنطرة أو دكاناً لا يعلقون فيها أو أمامها قفصاً فيه حسون.



□ قنطرة مار إلياس وإحدى الطرق المرصوفة في دير القمر

يعرفون الحسون من أي قطاعٍ، أو جبلٍ، من زقزقته وتغريده ويعطون لكل جنسٍ إسمه، فهناك أجناسٌ متعددة وهي: البَسَابارِيا ــ السكوِيتوَاتا ــ الترَستلالا ــ الهَلاِليسلي ــ الاسْتليَا ــ النهري ــ القصير والطويل ــ ويقولون للذي ليس له لغةٌ رسمية «مقلعجي».

فلغة الحساسين هي كما صار عليها الإصطلاح في هذا السوق: الكرّة ــ الزيغه ــ الزلغوطه ــ الدقّة ــ النهره ــ إلى غير ذلك. ومنهم من كان ينتظر يوم الأحد، أو يوم الفراغ بفارغ الصبر، ليأخذ الحسون والدبق إلى الصلاية في جوار البلدة: عين وريت، المعاصر، الخسفة قرب كفرنبرخ، كفرحمّل، وأحياناً بسري أو المعوش...

وغالباً ما كانون يلعبون الكوتشينا أو المستكري على التزكا في الدكاكين. وفي فصل الشتاء يلعبون بالطابة أو يتضاربون بالثلج.

ليلة عيد البربارة ترى عشرات الشبان في هذا السوق تتهيأ لعمل العرندس. واثنين الصوم، او اثنين الراهب كما كانوا يسمونه، يمشي صبيان البلدة خلف راهبٍ مزيّفٍ يركب حماراً وهم ينادون: «جبنا الرَّاهب وجينا، من دير بزمار». فيمرّ موكبهم بالأسواق على هذه الصورة ثم يرجعون من حيث أتوا، عادة قديمة لا تزال في دير القمر.

ثم عادةٌ أخرى قديمة يجرونها عند إنحباس المطر وهي حمل خشبة طويلة يضعون على رأسها شكل إنسان لابساً ثياباً رثة. وهذه العادة مأخوذة عنْ قدماء المسيحيين إذ كانوا عندما يُحبس المطر ويرون أن الأرض بحاجة إليهِ يضعون صورة العذراء على رأس خشبةٍ منادين: «يا أم الغيث غيثينا». وعلى ممر الأيام صارت: «يا أم غاد وغادينا شتي في حقالينا».

ثم سبت اليعازار. يرتدي الأولاد الثياب الجديدة التي تكون مهيأة للعيد الكبير ويدورون جماعات على البيوت مرنمين ترنيمة اليعازار وقيامه من بين الأموات. ومحاورة السيد المسيح مع مريم شقيقة اليعازار إلى غير ذلك. فينفحونهم بما تيسر من دراهم أو بيضٍ مسلوق. ويرجعون من حيث اتوا بعد ان يزوروا كل بيوت البلدة.

وفي عيد الفصح حتى الأحد الذي يليه ويسمونه «الأحد الجديد»، ترى فرقاً من الصبيان في الأسواق يتفاقسون بالبيض الملوّن يشترونه من الباعة في الأسواق أو يجلبونه من بيوتهم.

وكانت التسلية الكبرى أيضاً لأبناء البلدة عموماً: التفرّج على لعب الجريد في الميدان العتيق، قرب المنشية، أو في ميدانٍ آخر بين الصنوبر في مرج القطن.

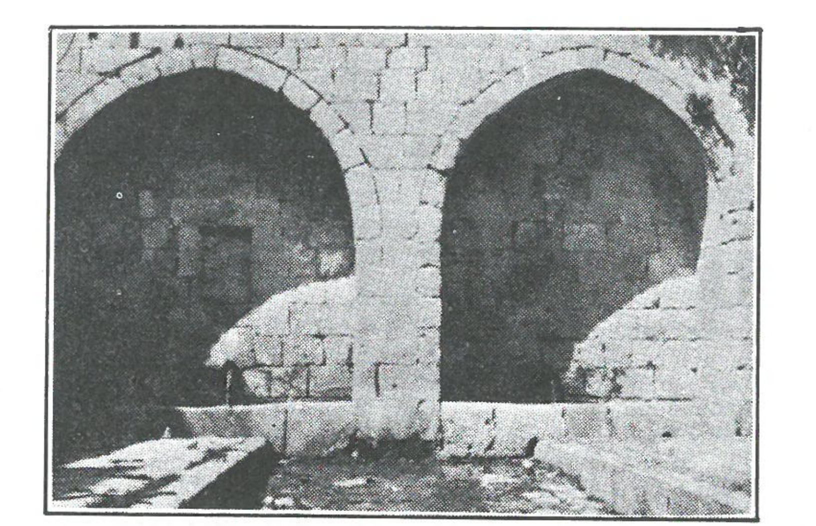
تسرج خيالة دير القمر المشهورين بالفروسية خيلها، وتقصد الميدان، وتتبارى بلعب الجريد. وهو ان تُقسم الخيالة قسمين كل قسم لجهة، فينزل احدهم بحصانهِ ساحباً جريدته أي قضيّبه الخيزران وينادي خصمه في الجهة المقابلة: «الك الك الك» ويضرب الجريد. فيلحقه الخصم. فإذا أصابه بجريدتهِ عند الإنطلاق فلا يعود له الحق في النزول للساحة.

والفرسان المشهورون في ذاك الوقت هم: شهدان تابت. وهذا كان كبير الجثة، قوي العضل، يلاعب عصا القبان على رؤوس أصابعه وهو على ظهر حصانهِ. ثم خليل مسعود افرام البستاني. وداود يوسف اسطفان نعمه وأخوه مسعود، وسعيد داود افرام البستاني وأخوه رفول يوسف عبود، ديب ناصيف خالد. سليمان هيكل المكنى «الدعموس». وهذا من الشياح متأهل من دير القمر. داود بو غندور نعمه. وأحياناً توفيق عزير، ويوسف قزحيا أيوب، وغيرهم. خيولهم كلها كريمة الأصل، حلوة الشكل، جميلة العدة.

لم يكن في ذاك الوقت الإعتبار للمشايخ والمسنين «موضة باطلة» كما هي اليوم. فشيخ العائلة مهما بلغ من انحطاط قدرهِ، وقلة ماديّاته وفقرهِ، دائماً كانت له الكلمة الأولى، والرأي الأول في عشيرته وبيتِه. والشيخ المسنّ مكرّمٌ أينما حلّ، وله صدر المقام أينما وُجد. والسهرات العائلية تكون دائماً في بيت شيخ العائلة... يمشي أمام الجميع، يتكلم قبل الجميع. وغالباً ما يكون الشيخ ذا لحيةٍ كثيفةٍ وشاربين غليظين، إذ كان الإعتقاد السائد إن كبر مقام الإنسان في لحيته وشاربيه. فيقولون: «فلان له شاربانِ كشوارب السبع». و«فلان له شاربان يغطّ عليهما النسر» إلى غير ذلك من العبارات. وكانوا يعيبون الذي يختصر من شاربيه أو يقصّ منهما... فلكي يؤكد أحدهم للآخر خبراً يقول: «بحلق شواربي إذا ما كان الأمر كذا — أو بقص ميله من شواربي إذا ما كان هيك صحيح».

يلقي الصغير دائماً السلام على الأكبر منه سناً وأحياناً يناديه: «يا عمي» ولو لم يكن عمه حقيقةً. يسلمون بقولهم: «الله معكم». «نهاركم سعيد» — «يعطيكم العافية»، إذا كانوا يشتغلون — «على البركة»، إذا كانوا يأكلون، أو يخبزون، أو يقطفون شرانق الحرير أو الأثمار، وما أشبه. «السلام عليكم»، في أي وقت — «مساء الخير» عند المساء — «صباح الخير» عند الصباح، إذ أنهم كانوا لم يتعرفوا بعد على «البونجور والبونسوار — والأورفوار — والبون شانس».

□ عين ام نقولا الأثرية



كان ابناء دير القمر يدققون في الكلام، ويتحفظون فيه عندما يكون للكلام معنى غير الذي يقصدونه فيقولون «بلا معنى» أو «بلا قافية».

وإذا تكلموا عن مرضٍ أو شيءٍ مؤسفٍ يقولون «بعيد عنكم».

وأن أحبّوا أن يشكروا أعمال شخصٍ ما أو يطنبوا فيه فيقولون «يسعد مساكم ومساه»، و«بلا زغرة».

وإذا ذكروا أحد الموتى بالمليح يقولون: «يرحم مواتكم ويرحمه».

وإن ذكروا أحد الأحياء مع أحد الأموات يقولون: «ما ينذكر معه بسوء».

إلى غير ذلك من العبارات التي لم نعد نألفها...

يتحاشى بعضهم ذكر اسم زوجته امام الناس فيقول: «بنت عمي» أو «أهل البيت» أو «أم فلان» إذا كان له ولد.

بعضهم يكنى فلان قبل أن يتزوّج ويرزق ولداً، فتبقى كنيته لبعد زواجه. وهذه عادة أصبحت مألوفة بأن يكنى مثلاً: جرجس بأبي عساف — والياس بأبي ناصيف — ويوسف بأبي حسن الخ...

يقولون للشاب العازب: «نفرح منك» وعندما يتزوج يقولون له: «نقشعلك عريس»، وإن أنجب ولداً وكان انثى يقولون له: «نقشعلك مع سلامتها، أو تقشع لها الأخوة». وإذا كثرت أولاده يقولون له: «تفرح منهم أو تقشع بكوريتهم».. وإذا زوّج أحد أبنائه يقولون له: «تفرح من العاوزين». وإذا كبر في السن يقولون له: «تزوّج الكل في أيامك». وللكاهن يقولون بعد أن ينهي مراسيم الزواج: «تزوّج الكل في أيامك»...

قديماً كان الإشتياق على قدر ما يرشقون من وابل السلامات والإستفحاصات مثل: كيف حالكم — كيف صحتكم — كيف حال من عندكم — كيف حال الفارقتو — انشاء الله مبسوطين — إن شاء الله ما حدا ساخن — كيف حيال العيال؟

وبعدئذٍ يسألون عن كل بمفرده ثم عن الأغلال — وعن الطروش — وعن أخبار الغائبين الخ..

ويجب أن يكون المسلّم عليه متمرناً التمرين الكافي ليتمكن من الجواب عن كل هذه الأسئلة بما يتفق وروح البيئة التي يعيش فيها.

ولقد اشتهر الديريون كغيرهم من ابناء القرى اللبنانية بالضيافة الكريمة، وبشاشة الوجه للضيوف فيقولون: فلان «وجهه حامي» أي أنه يستقبل ضيوفه بكل حميةٍ ورغبةٍ صادقة. وفلان

«عزيمته حدّة» أي أنه يرحّب من كل قلبه بضيوفه وزائريه مكرراً كلمة أهلاً وسهلاً ـ تفضلوا شرّفوا ـ ميّلوا ارتاحوا، البيت بيتكم ـ عدّ ومدّ حتى شرّفتوا حيّنا أو بلدتنا ـ حلّت البركة الخ...

وبعد القيام بالواجب نحو الضيوف تقدّم لهم القهوة فيشربونها ويدعون بدوامها ودوام أصحابها وسلامتهم.

ولما كان البعض لا يدوم حزنه على فقد زوجته شبّهوا ألم فقدانها بالألم الذي يشعر به المرء عند اصطدام كوعه بشيء صلب، فقالوا: «موت المرأة مثل دقة الكوع».

جرت العادة قديماً أنه عندما يمرض أحد ابناء البلدة، ويطول مرضه، يقبل الناس على «استفقاده في بيته. فإن كان المريض فقير الحال يقولون: «رقيق الحاشية» فيضعون تحت وسادته ما يتيسر من الدراهم. فيبلّ، ويشفى، ولا يرجع ما نفحوه به اثناء المرض لأن التقاليد تقضي بذلك...

أما تدبيج الرسائل فكثير جداً فكل طبقة من الناس لها القابٌ مخصوصة وتتميز عن غيرها بعنوان الرجل مثلاً: الأجل، الأمجد، كريم، الشيم، سني الهمم ـ صاحب المجد الأثيل، والجاه الطويل، الحسيب النسيب ذو الفضائل العميمة والمكارم الجسيمة ـ الكريم الفعال الجميل الصفات علامة دهره وفريد عصره ـ صاحب الخلق الحميد والأثر المجيد ـ إلى غير ذلك من الألقاب والنعوت التي لم نعد نذكرها والتي لم يعد لها قيمة. وصاحب الرسالة ينهي رسالته أحياناً بكلمة: المطيع ـ أو عبد سعادتكم أو خادمكم الخ...

ينقطعون عن كافة الأشغال في أيام الآحاد والأعياد الرسمية. يلبسون الثياب اللائقة. يسمعون القداس، يقضون ما عليهم من واجبٍ أو زيارة، أو مباركة بعيد، أو تهنئة، أو تعزيةً. يأوون إلى بيوتهم عادة عند غروب الشمس أي في الساعة الثانية عشرة على الحساب العربي.

الأب والأم لهما حق السهرة عند الأقارب والجيران والأصحاب. يمكث الأولاد في البيت. فهناك مراجعة دروسٍ، وتسلية ببعض الألعاب الدارجة.

كانت البنات يشتغلن بالتطريز على المخمل أو الكتان. أو يصوّرن العروق الجميلة بخيطان الحرير وشرانق دود القزّ. كنّ يشتغلن التخريم والكركر الذي كان شائعاً ذاك الزمن، وذلك مع الأشغال البيتية.

كان الأولاد يلعبون بالطابة ـ الكلة ـ البلبل ـ الكعاب ـ وهناك العاب الركض المتعددة الأشكال وصندوق الفرجة.

لقد كانت دير القمر عظيمة في أعين أهلها، يعتزّون بأنفسهم عندما ينتسبون إليها حتى كنت تراهم يقيسونها بباريس أو لوندرا أو نيويورك أو غيرها ويفضلونها على عواصم العالم.

واليك حادثة جرت على متن بابور ايطالياني اذ كان احد أبناء دير القمر، المدعو اسكندر طنوس الكك، مسافراً إلى البلاد الأميركية فتشاجر مع أحد ركاب البابور من التبعة البريطانية فعيّره هذا بأصله وجنسيته. وإذ عرف اسكندر ما يقوله بلغته الإنكليزية أجابه قائلاً: لا تفتخر بأنك من لوندرا. فأنا اشرف منك أصلاً. أني من دير القمر...

أما النساء فعلى عاتقهنّ اشغال البيت جميعها: الطهي ـ العجين ـ الغسيل ـ رثي الثياب، وعمل كل ما يخفف العبء عن كاهل الزوج. فالتي ليس لديها خادمة لم يكن لها الوقت الكافي للتبرّج والإعتناء بنفسها فالدين بنظرها يحرّم الأنانية وإهمال العائلة.

كان أهل دير القمر يصنعون أصنافاً متعددة من الحلوايات في الأعياد. ففي العيد الكبير أي عيد القيامة، يعملون «الأقراص» و«المعمول» بالسمن الحموي الصافي إذ لم يكن يوجد نوع آخر من السمن ليزغلوه. يتفننون بنقشه، وضفره، بمساعدة الجيران والأقارب. على عيد الميلاد يعملون «المغلي» بالجوز والصنوبر. على عيد البربارة يعملون «المقشورة» أي القمح المقشور والمطبوخ بالسكر وغيره. في عيد الغطاس يعملون «الزلابية» «والعوّيمات» و«المعكرون». على المرفع يعملون «الفروشية» بالنشاء، والسكر، والسمن الحموي الجيّد. وهكذا كانت لا تمرّ الأعياد بدون عمل «بركة العيد» كما كانوا يسمونها. وكانت النساء يتباهين ويتنافسن بعمل الأحسن والأطيب وبالشغل المتقن حتى كنت



□ صورة «سيدة التلة» كتلك التي كانوا يلصقونها على علبة بزر القز وقد كتب عليها: «بزر قز إفرادي للتوليد مفحوص فحصاً مدققا على طريقة بستار»

ابراهيم فرام واولاده ـ دير القمر

تسمعهنّ في المجتمعات يتحدثن عن إتقان شغل بيت فلان، وطيبة سمن بيت فلان، وكبر معمول بيت فلان وينتقدن بيت فلان إلى غير ذلك...

أما في أيامنا هذه فإن أهالي دير القمر محافظون كل المحافظة على تقاليد ورثوها من أجدادهم من جهة التديّن الصحيح، والإحتشام في الملبس، وعدم إهمال العائلة، وعزّة النفس، وكرم الخلق، والضيافة السخية. فالفقراء فيها اليوم يعلّمون أولادهم بالفلس الذي يملكون، ولا فرق بينهم وبين الغني. فالفقير يلبس كما يلبس الغني، ويعلّم أولاده مثلما يعلّم الغني أولاده، وأحياناً في نفسِ المعهد. الغني يملك سيارة والفقير يملكها. وأُلغيت كلمة «معلمي» من قاموس هذا العصر..

الثقافة هي اليوم المبدأ الوحيد لابناء بلدتنا فالمثقفون، والمحامون، والأطباء، والمهندسون، وأرباب الحرف العالية، يزداد عددهم فيها بصورةٍ مستمرة...

المعالم الأثرية في دير القمر

١ ـ جامع الأمير فخر الدين المعني الأول الذي بني سنة ١٤٩٣.

٢ ـ سراي الأمير فخر الدين المعني الثاني. ومدخلها من الجهة الشرقية من بواباتٍ مزخرفةٍ بحجر عكار الأحمر المشهور. وهذه البوابات لم تزل على حالها الأصلي، وهي اليوم مدخل بيت السيد اميل جرجي باز المتكوّن من مدخل السراي المذكورة وغرف الحرس فيها. وهي عقود عالية محاطة بدار فسيحة في وسطها بركة ماء.

كان يملكه بشارة واكيم. وسكنه الأخوة المريميون حين مجيئهم إلى دير القمر سنة ١٩٠٤.

٣ ـ قيصرية (قيسارية) الحرير. بناها الأمير فخر الدين المعني الثاني ١٦٢٦ بجانب قصره

لتكون سوقاً للحرير والحياكة والتجارة.

٤ ــ سراي الأمير ملحم حيدر الشهابي. هذا البناء كان مؤلفاً من طابقين لم يبقَ سوى الطابق الأسفل وهو المسمى «قـاعة العمـود» والعلوي منه كان مسكناً للأمير المذكور وقد هدم على مر السنين. وقد دوَّنا خارطة لهذا المسكن.

٥ ــ سراي الأمير أحمد الشهابي: ويُعرف اليوم بقصر بو عساف جرجس باز. بنيتْ سنة ١٧٥٥. واشتراها ابو عساف من ورثة الأمير أحمد سنة ١٨٠٠.

٦ ــ سراي الأمير محمود: بناءٌ قديم أقيم على ظهر أقبية وعقود قديمة العهد. له بوابة مزخرفة جميلة الشكل. كان يملكها ورثة انطون عيد البستاني وهي اليوم ملك الأستاذ فـؤاد الطحيني.

٧ ــ سراي الأمير يوسف ابن الأمير ملحم. شيّـدت سنة ١٧٧٠ عـلى انقاض بنـاءٍ قديم للمعنيين.

٨ ــ دار المعلم نقولا الترك شاعر الأمير بشير تمّ بناؤها سنة ١٨٠٥. ثم انتقلت إلى موسى شوعا المثري اليهودي. ثم إلى موسى سعد. واليوم يملكها الدكتور فؤاد افرام البستاني. وهي دارٌ مربعة الشكل لها بركة ماءٍ في وسطها فسيحة الأرجاء. فيها ليوانان يزدان أحدهما ببركة ثانية من الفسيفساء. ولها قنـاطر منحوتـة وأبواب وشبابيك ذات أقواس وقمندلونات وساطوينات جميلة الصنع، وسبل ماءٍ جارٍ، ومدخل جميل، وبئر عميقة شرقي الدار، وكل شيء اثري.

٩ ــ دار موسى شوعا واخوتـه قرب ديـر راهبات مار يوسف. يملكها اليوم ورثة منصور القبـع. دارٌ واسعة ذات أبواب وشبابيك بأقواس وقمندلونات وساطوينات اثرية. ولا نزال نرى في الأقواس المنحوتة للأبواب آثار حفرٍ طولها خمسة عشر سنتيمتراً بسعة ثلاثة وبعمقٍ ثلاثة لوضع قطعة المعدن المنقوشة فيها وصايا الله العشر. وذلك لجلب الحظ لهذا البيت.

١٠ ــ دار المعلم بطرس كرامة شاعر الأمير بشير. امتلكها المثلث الرحمات المطران باسيليوس حجار مطران صيدا ودير القمر للكاثوليك. رممها وغيّر في بنائها ولم يبقَ من القديم فيها سوى الأقبية. وهي اليوم مقر المدرسة الرسمية.

١١ ــ القبة او «قبة المشانيق» كما تسميها اهالي دير القمر. فيها مدفنان من حجر المرمر الجميل. دُفن فيها الأمـير أحمد بن ملحم اخ الأمير فخر الدين المعني الكبير سنة ١٦٩٧. وفيها دُفن أيضاً الأمير حيدر بن موسى الشهابي حفيد الأمير أحمد المعني سنة ١٧٣٣ ثم دُفن والد الأمير حيدر الشهابي. ثم الأمير فندي سنة ١٧٧٠.

١٢ ــ دار المشايـخ ــ آل علوان: هي دار قديمة العهد ولا يعرف بالضبط تاريـخ بنائها بسبب فقدان التاريـخ الذي كان مثبتاً فوق رتاج مدخلها الذي كان بيضوي الشكل. تداعت من الإرتجاج الذي سببه حريق «الجبخانة» في بيت الدين سنة ١٩١٣. والذي يثبت لنا قدمية هذه الدار. وجود حجر عكار الأحمر في أقواس أبوابها وفي غير محل.. فيها عقود واقبية وقناطر جميلة. ابوابها وشبـابيكها أقـواس. فيها قمنـدلونات وسـاطوينات حسنـة الصنع. معـظم الحيطان الداخلية منحوتة باعتناء. في حيطانها الداخن والخراقات واليوك. والدرج المخفي من الطابق العلوي إلى الأسفـل ومن قـاعـة الإستقبـال الفسيحة إلى غرفة الحريم الخ. إلا أنها تداعت مـع مرور الزمن واسندتها مـديـريـة الآثـار بالأخشاب من زمن طويل ولما تزل. يملك هذه الدارة ورثة ملحم عزير.

١٣ ــ دير راهبات مار يوسف الظهور، دير قديم العهد كان قبلاً ملك الرهبان اليسوعيين. فيـه دورٌ وعقودٌ ضخمـة وجنائن. وقـد رتّب الراهبات هذه العقود كنيسة على اسم القديس يوسف. وبعد ان ابتاع هذا الدير الطبيب بشارة البويز قسّم هذه الكنيسة إلى بيـوت للإيجار. والطابق العلوي مستشفى.

١٤ ــ المنشية بناء مسدس جميل الصنع غربـي البلدة في أرض تخص بلدية دير القمر بناه أحد أبنائها المدعو جبور الهنود بمعرفته قناطر عالية جميلة وقبوة مدورة في قلبه. يُشرف على البحر وعلى بعض قرى المناطق وهو المتنزه الرسمي الوحيد لأبناء دير القمر. وكثيراً ما كان المتصـرف أي «البـاشـا» يأتي في بعض أيـام الصيف من بيت الدين ليمضي النهار مع عائلته في هذه المنشية. وموسيقى الدرك اللبناني كثيراً

ما كانت تجيء المنشية وتصدح بأنغامها فيها.

١٥ ــ كنيسة سيدة التلة: ونخص بالذكر المعلم الأثر الهام «كنيسة سيدة التلة» لما لها من مكان بارز لدى جميـع أهل الدير.

كنيسة سيدة التلة هي كل شيء لأبناء دير القمر. هي المعبد، والمرجع، والشفيـع، والمنقذ، والمحامي، والعنوان، ومحل الإجتماع للمشاورة موقعها أول سوق الميدان للجهة الشرقية القبلية. لا بيت بلا صورة سيدة التلة، ولا حانـوت أو محلّ بلا ايقونتها. ولا سفر بلا وداعها، وطلب المعونة والتوفيق منها، ولا إياب من سفرٍ بدون زيارتها وتحيّتها وشكرانها.

وعندما تتفشى الأمراض الوبائية في دير القمر كالجُدَريّ، والحمّى، أو غيرها، تبادر كل اسرةٍ الى التبرع بكميةٍ من القطن المبروم يربط بعضه ببعض وتحاط به جدران الكنيسة من الداخل، وبذلك تحصر العذراء مريم الوباء ولا يعود.

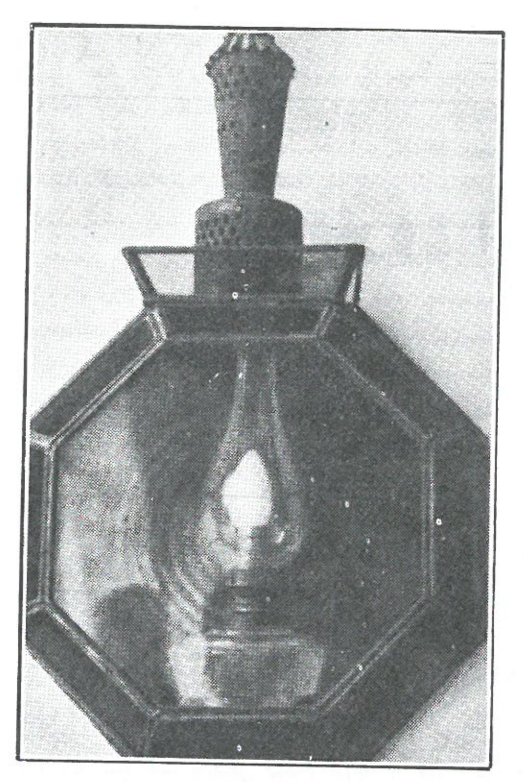
يروى أن المشايـخ النكدية كانوا لا يحاربون ولا يسافرون قبل زيارتهـا، ووضع قليـلٍ من التراب في طيّات لفة كلٍ منهم من تراب أرضها. كـذلك أصحاب الحـوانيت والدكاكـين كـانـوا لا يفتحونها قبل زيارة كنيسة سيدة التلة، أو سماع القداس الأول فيها. وهذه عادة مستحبة لديهم لا يبطلونها.

يحلف ابن دير القمر باسمها برهبةٍ وخشوع، وكـأنـه يحلف بـاسـم الله العظيم. ولا يـذكـره إلا بالإعتبار، ومن يحلف بها يُعرف انه ابن دير القمر.

عند الخطر الداهم او الإستعداد لحرب، كانوا يجتمعـون في انطوش سيـدة التلة للمشاورة، وأحياناً في مقرّ اخوية الحبل بلا دنس للرجال في حارة الخندق. فابن دير القمر لا يأتي عمـلاً ما إلّا ويذكر اسم هذه الشفيعة العظيمة.

لقد خصّص الجناح الخلفي من الكنيسـة للنساء كما نراه اليوم، لكنه مفصولٌ عن جناح الرجـال بشعريـةٍ من خشب. ومحظورٌ عليهنّ الإختلاط بهم حتى تراهنّ عند انتهاء الصلوات لا يبارحن الكنيسة قبل خروج الرجال.

المقاعد للنسـاء في الكنيسـة هي الطراريح والبنوك؛ وللرجال الكراسي.



□ قنديل على الكاز وغلافه الزجاجي

أما الذين كانوا يخدمون القداس في هـذه الكنيسة فنذكر منهم: انطون فرح، مخايل افرام البستاني، قزحيا عاد، الياس عازار.

والذي يلم الصينية «حسنة القداس» غالباً ناصيف بو سابا نعمه، يوسف اسطفان نعمه، أبو إبراهيم داود افرام البستاني.

زار تلك الجهات قديمـاً الشـاعـر الأفرنسي لامـارتين قبـل بنـاء المنشيـة وأعجب بالمنـاظـر الطبيعية.

ونخص بالذكر أيضـاً جميـع المعابد في دير القمر ومعظمها قديمة العهد مثل «سيدة النجاة» للروم الأرثوذكس. و«سيدة الورديـة» في حارة الدلغانة و«سيدة الفقيرة» ذات المذبـح المرصّع بالفسيفساء للروم الكاثوليك و«كنيسة مار الياس» للروم الكاثوليك المزدان مدّخلها ومذبحها بحجر البوزنار الأحمر الجميل شغل ابراهيم الخوري سنة ١٨٦٨. والتي ثبّت على احد جدران ساحتها تاريـخ لوفاة نقولا الترك شاعر الأمير بشير. ●

مشروع الاتحاد العربي

وضعه: علي ناصر الدين

القومية العربية عند علي ناصر الدين ليست تنظيراً من التنظيرات السياسية أو الإجتماعية، إنها اعمق من ذلك بكثير. القومية العربية عنده هي نتيجة حتمية لتكوين هذا الإنسان العربي. وبما أن الإنسان كائن اجتماعي، مكون من عقل وحس معاً ومن روح وجسد هو آلة وحقل لهذه الروح. فإن الطبيعة الإجتماعية للإنسان، وهي قوميته، تشمل جميع مناحي حياة هذا الإنسان. من هنا كانت القومية عند علي ناصر الدين ظاهرة حتمية واجبة الوجود تشمل حياة الفرد والمجتمع، السياسية والإجتماعية والروحية والفكرية معاً.

تعبيراً عن نظرة علي ناصر الدين للقومية العربية ونضاله المستمر في سبيلها ننشر فيما يلي هذه الوثيقة التي قدمها المناضل علي ناصر الدين عام ١٩٤٩ إلى جميع الحكام والمسؤولين العرب.

كنت وضعت مشروع الاتحاد هذا خلال سنة ١٩٤٩، على أثر النكبة المنقطعة النظير في التاريخ، نكبة العرب في فلسطين، ثم أدخلت عليه بعض التعديل سنة ١٩٥٦، وبقي مطوياً يترقب وأترقب معه تطور العرب ومدى انفعالهم في مختلف أقطارهم الآسيوية والأفريقية، بالعظات والعبر تحملها المشكلات والمحن والتجارب، إلى أن كانت هذه السنة (سنة ١٩٦١) فنشرته جريدة «الهدف» ونقله عنها بعض الصحف العربية في الوطن وفي المهجر. والآن وبعد اليوم الثامن والعشرين من شهر أيلول من عام ١٩٦١ قررت أن أطبع هذا المشروع في كراس مستقل، فإنه أضمن لحفظه ودرسه ووعيه، وأن أوزعه على الحكام العرب كلهم في آسية وفي أفريقية، وعلى جامعة الدول العربية والنخبة في الوطن العربي، ما استطعت إلى ذلك من سبيل، ليرى فيه أعلام الفكر والقانون والسياسة رأيهم الموفق إلى الصواب إن شاء الله. وانا لا أدعي أنني بلغت الغاية في مشروعي هذا، فقد يكون فاتني شيء كثير مما يجب أن يحتويه. وقد يكون في بعض مواد منه شيء من العوج أو النقص. ولكنني أعتقد مخلصاً

وأقولها في صراحة وتواضع، وفي معرفة — اكسبتنيها التجارب ببني قومي وبقضيتهم، التي شرفتني المقادير بأن أكون احد خدامها الأمناء طوال أربعين سنة ونيف — إنه المشروع الخيّر المعقول من حيث المبدأ، الممكن البدء في تحقيقه عملياً منذ الآن. وإنه المشروع الذي يُفضي بنا تحقيقه إلى ما نطمح إليه — كما ندعي — من وحدة صف في العمل ومن عزة ومَنَعة وكرامة عيش للعرب جميعهم، إذا هو جدّ فيه الحكام العرب في نية صالحة ومحبة صادقة، وفي صراحة وتعقل، وفي شجاعة حكيمة مطمئنة بنّاءة، متجنبين قولاً وعملاً كل ما يمكن أن يبدو فيه شيء، مهما يكن ضئيلاً، من حب الاستعلاء والسيطرة، أو روح التبجح والنكاية، أو الكره لهذا الفريق أو ذلك الفريق والاستخفاف به؛ غير مستجيبين إلّا لعَظَمة الخُلُق، (وإنك لعلى خلق عظيم) ورجاحة العقل، وحكم المصلحة العربية العامة الشاملة، التي توخاها هذا المشروع مراعياً حالة البيئة في مختلف أقطارنا الحبيبة كلها.

وأسأل الله أن يجعل منهم جميعهم ليس حكاماً منصفين أقوياء وحسب، بل ومعلمين أيضاً صالحين في هذه الأمة؛ وأن يجعل منهم، إلى العرب وإلى الناس كافة، رسل خير ومحبة وحق وعظمة، هادين مهديين، غير مغضوب عليهم ولا ضالين.

علي ناصر الدين

توطئة

إن حكومات الدول العربية الموقعة على هذا الميثاق، اعتقاداً منها بأن بقاء الحال في الوطن العربي على ما هي عليه من تجزئة وتفكك، أمر يجعل من العرب كمية غير ذات شأن في نظر العالم ويضر بمصلحتهم في مختلف نواحي الحياة.

وإيمانا منها بما يكمن في التراث العربي وفي النفوس العربية من قيم عظيمة الشأن، تستطيع إذا هي بُعثت في علم وحكمة مجتمعة في ظل اتحاد فيدرالي ان تجعل من الأمة العربية الواحدة في آسية وأفريقية عنصراً قوياً فعالاً ليس فقط من عناصر التقدم الاجتماعي والاقتصادي بل من عناصر سيادة الحرية والحق والعدل ايضاً، في العالم، الامر الذي يسهل معه عندئذ العمل الجدي لتعاون دولي عام يضمن للجميع عدا الحرية السياسية وغيرها من الحريات، كرامة العيش قومياً وإنسانياً، واستجابة لأماني النخبة ولمصلحة الأمة العربية كلها، قررت هذه الحكومات إنشاء اتحاد فيدرالي بينها بأوسع معاني الاتحاد.

الفصل الأول

الغاية من الاتحاد

المادة الأولى — إن الغاية من الاتحاد هي تكوين قوة عربية صالحة محترمة تريد، وتستطيع، المحافظة على أرض الوطن وشرفه وحقوقه ومصالحه؛ والتعاون مع قوى الخير أينما كانت تعاون الأنداد لخير الانسانية في مختلف الميادين

المادة الثانية — لتكوين هذه القوة ليس من سبيل سوى جمع الدول العربية في اتحاد فيدرالي واسع يصل ما انقطع من الروابط بين قطر وقطر من أقطار الوطن العربي ويوثّق هذه الروابط التي كونتها منذ القدم عوامل طبيعية حيوية أصيلة، آخذاً بعين الاعتبار وضع كل قطر من النواحي التاريخية والجغرافية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية ترسيخاً لمقومات الاتحاد كاملة.

الفصل الثاني

السلطة الاتحادية

المادة الثالثة — يتألف الاتحاد من الدول العربية في آسية وفي أفريقية، ويقوم عليه مجلس يمثلها كلها يدعى المجلس الأعلى للاتحاد

أو المجلس الاتحادي الأعلى وتستند ميزانيته العامة على ميزانية كل دولة من الدول الممثلة فيه.

المادة الرابعة — يترتب على الدول التي يكون لها فضل الأولية في تكوين الاتحاد أن تدعو إليه بالحسنى والقول الكريم وأساليب المنطق والاقناع، بقية الدول، وتسهل لها الانضمام اليه بمختلف الوسائل الخيرة.

المادة الخامسة — لا يشترط على أية دولة عربية في الانضمام الى الاتحاد سوى قبولها العمل بهذا الميثاق مقتنعة مختارة.

المادة السادسة — إذا أبدت دولتان أو أكثر من دول الاتحاد — بدون أي ضغط على الاطلاق — رغبة في الاندماج التام الواحدة في الأخرى، لتكوين دولة واحدة موحدة، فمن حق المجلس أن ينظر في الأمر ويشترط للقبول به الاجماع التام.

المادة السابعة — في حالة حدوث الاندماج المذكور في المادة السادسة تستمر الدولة الجديدة بصورة عفوية عضواً في الاتحاد.

المادة الثامنة — من حق الأجزاء التي ليس لها صفة دولة في الوطن العربي أن تنضم الى الاتحاد، ومن واجب الاتحاد أن يدعوها الى ذلك ويشجعها بالقول الكريم والعمل الصالح.

المادة التاسعة — لا يجوز لأية دولة من الدول التي يتألف منها الاتحاد أن تعقد منفردة أية معاهدة أو اتفاقية مع أية دولة على الاطلاق.

المادة العاشرة — لا يجوز لأية دولة من الدول التي يتألف منها الاتحاد أن تنسحب من الاتحاد.

المادة الحادية عشر —

أ — يتألف المجلس الأعلى للاتحاد من ممثلين عن كل دولة من الدول العربية المنضمة الى الاتحاد.

ب — تنتخب المجالس النيابية أو مجلس الشورى في دول الاتحاد من بين أعضائها من يمثلها في المجلس الأعلى للاتحاد على أن يتساوى عدد المنتخبين من هذه الدول كبيرة كانت أو صغيرة.

ج — ينتخب المجلس الأعلى للاتحاد من بين أعضائه هيئة يكون لها في نطاق هذا الاتحاد صفة السلطة التنفيذية أي صفة مجلس وزراء اتحادي تتمثل فيه دول الاتحاد كلها.

د — يرئس هذه الهيئة رئيس المجلس الاتحادي نفسه.

المادة الثانية عشر — يضع المجلس نظامه الداخلي ويشكل الهيئات واللجان التي تقضي بها طبيعة عمله من بين أعضائه.

الفصل الثالث

صلاحيات السلطة الاتحادية

المادة الثالثة عشر — تهيمن السلطة الاتحادية هيمنة كاملة على السياسة الخارجية والعسكرية والاقتصادية والثقافية في الدول التي يتألف منها الاتحاد ويعني ذلك:

أولاً — وحدة التمثيل السياسي والخارجي.

ثانياً — وحدة المناهج العسكرية في التدريس والرتب والسلاح ووحدة القيادة.

ثالثاً — وحدة مناهج التعليم والتربية الشاملة من حيث الأساس.

رابعاً — الوحدة الجمركية، من حيث الأساس، مع مراعاة الوضع الاقتصادي زراعياً وصناعياً.

خامساً — وحدة النقد وأدوات القياس والوزن والكيل، ووحدة نظام الضرائب من حيث الأساس.

سادساً — وحدة قوانين العمل والعمال من حيث الأساس.

سابعاً — وحدة أوراق الهوية مع الاحتفاظ لكل مواطن بالصفة القطرية فيقال: عربي يمني، مثلاً، عربي عراقي، عربي تونسي، عربي سوري، مغربي الخ.

ثامناً — مع وجود علم خاص لكل دولة من دول الاتحاد، يكون للاتحاد مجتمعاً، علم جامع واحد يُرمز فيه برمز يُتفق عليه الى كل دولة من دول الاتحاد.

المادة الرابعة عشر — إن القرارات التي يتخذها المجلس الاتحادي الأعلى في نطاق صلاحيته المذكورة في المادة ١٣ تعرض على

المجالس النيابية والحكومات في كل دولة من دول الاتحاد لتبدي فيها رأيها على أن يكون رأياً استشارياً لا غير، فهي مقررات ملزمة لا يملك احد حق ردها أو الاعتراض عليها.

المادة الخامسة عشر — للمجالس النيابية والحكومات في الدول التي يتألف منها الاتحاد حق تقديم الاقتراحات والمشروعات التي تريدها وتتصل بالمصلحة الاتحادية العامة الى المجلس الاتحادي الأعلى.

المادة السادسة عشر — يبقى قائماً في الدول المنضمة الى الاتحاد ما تختاره كل دولة لنفسها من قوانين ونظم للادارة الداخلية التي لا تتصل بسياسة الدولة الخارجية أو بسياسة الدفاع، أو غير ذلك مما نصت عليه المادة ١٣.

المادة السابعة عشر — لا يجوز للسلطة الاتحادية عقد أية معاهدة مع أية دولة من الدول العربية التي تكون باقية خارج الاتحاد باعتبار أن مصلحة الاتحاد ومصلحتها هي نفسها، تقضي بانضمامها الى الاتحاد، وفي ذلك غنى عن المعاهدات.

المادة الثامنة عشر — لا يجوز للسلطة الاتحادية عقد أية معاهدة أو اتفاقية مع أية دولة من الدول الأجنبية، من شأنها أن تضر بمصلحة أي جزء من أجزاء الوطن العربي التي تكون باقية خارج الاتحاد.

المادة التاسعة عشر — على المجلس الاتحادي الأعلى أن يطلع الدول العربية التي تكون باقية خارج الاتحاد على المحاولات التي قد تقع لعقد اتفاقية ما، بينه وبين أية دولة أجنبية. وإذا حاولت دولة باقية خارج الاتحاد عقد معاهدة أو اتفاقية قد تضر بالمصلحة العربية العامة فعلى السلطة الاتحادية أن تحول دون ذلك بأنجع الوسائل الشريفة.

المادة العشرون — لا يجوز للسلطة الاتحادية أن تعقد أية معاهدة عسكرية أو سياسية مع أية دولة أجنبية إلا بعد أن يشمل الاتحاد الدول العربية جميعها، عندئذ فقط يجوز البحث في مثل هذا الأمر.

المادة الواحدة والعشرون:

(أ) مدة هذا المجلس الاتحادي الأعلى خمس سنوات تبدأ من اليوم الأول لدورته الأولى.

(ب) رئاسة الاتحاد تكون بالتناوب بين رؤساء الدول المنضمة الى الاتحاد ملكية كانت أو جمهورية، وتكون مدتها ست سنوات ويتولاها أولاً رئيس الدولة الأكثر عدداً أو الأكبر سناً.

المادة الثانية والعشرون — كل مواطن عربي في دولة من دول الاتحاد يعتبر مواطناً للدولة الاتحادية.

المادة الثالثة والعشرون — تحتفظ كل دولة من دول الاتحاد بشخصيتها القطرية وتصريف شؤونها الداخلية الخارجة عن صلاحيات السلطة الاتحادية المذكورة في المادة الثالثة عشر.

المادة الرابعة والعشرون — المعاهدات والاتفاقيات غير الموصوفة في المادة العشرين من هذا الميثاق يحق للمجلس الأعلى للاتحاد أن يعقدها. ويجب أن يحصل لأجل ذلك على أكثرية الثلثين من مجموع عدد أعضائه.

المادة الخامسة والعشرون — يُجرّم بجريمة الخيانة الوطنية كل من يفرق أو يحاول التفريق بإسم الدين أو المذهب أو اسم منهج ما بين المواطنين في دول الاتحاد ويحاكم استناداً الى قانون خاص يضعه المجلس الاتحادي الأعلى.

المادة السادسة والعشرون — هذا الميثاق قابل للتعديل، يعدله المجلس الاتحادي الأعلى على أن يكون التعديل في مصلحة الاتحاد أي في سبيل تقوية أواصر الاتحاد واعطائه تدريجياً الشكل الذي تقتضيه المصلحة العربية العامة في نطاق التطور العلمي والاقتصادي والفكري والاجتماعي.

بيروت سنة ١٩٦١

سألني أخ صديق ورفيق قديم من القوميين العرب المؤمنين، بعد اطلاعه على مشروع الاتحاد هذا فقال:

الا يُضر بالاتحاد أن لا ينضم اليه لبنان؟

فقلت لا. إن عدم إنضمام لبنان الى الاتحاد لا يضر بالاتحاد وقد ينفعه.

قال — وعدم إنضمام لبنان الى الاتحاد الا يُضر بلبنان؟

فقلت — لا. ما دامت سياسة لبنان تنسجم إنسجاماً تاماً مع السياسة العربية العامة، لمصلحته ومصلحة الاتحاد، الأمر الذي من الطبيعي أن يكون كذلك. ●

الخط العربي عند الشيخ الفنان نسيب مكارم

سمير أبو حمدان

كأن في تعرّجه، وتثاؤبه، وأنحنائه، شيئاً يشبه النداء إلى محبة الله وطلب مغفرته. هكذا، في بَدْوَة الأمر، نستطيع مباشرة كلامنا على الخط العربي عند الشيخ الفنان نسيب مكارم. فانحناؤه أمامنا، على الورق الصقيل، نوع من الصلاة، بل نوع من الدعوة إلى أن نتحقق في الخالق ونندمج به ونعود إليه. والخالق، من خلال الحرف الذي وضعه أمانةً في أعناقنا، يوعز إلينا بأن نتأمله، ونسعى إلى معرفته السعيَ الحثيث.

هوذا الخط العربي، عند الشيخ نسيب، شيء خارج عن نطاق اللغة. إنه لغة أقرب ما تكون إلى التشكيل، منفصلة عما تلغو به ألسنتنا وشفاهنا وتداولنا بعضاً مع بعض.

كأني بالخط، هنا، قد ساءه ما يجري على ألسنة البشر من كلام هازل، هازيء، صفيق، فانفصل عن الكلام واللغة، تمرد، ورفض أن يكون منطوقاً إلا فيما حلّل الله وأمر به. فلقد تحول الخط هنا عن مسار اللغة ليصبح بعد حين لغةً مفعمة بمفردات العفة، والطهارة، والصدق، ومحبة الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتهجُّد، والصلاة، ومحبة الخير. والخط، على هذا الأساس، أصبح ينتمي إلى لغة اخرى غير التي نعرف ونتداول. فهو أشبه بكلام غير منطوق، إذ أن وظيفته سَمَت على النطق، وانطلقت نحو ذلك الفضاء الرحب تتأمل في موجودات الله ومخلوقاته.

ونستطيع أن نعتبر بأن الخط عند الشيخ نسيب تمرّد على اللغة، وترفّع عن قاموسها ومفرداتها، إنه هروبٌ من الدنيوي إلى المقدس. فإذا كانت اللغةُ ترمي إلى تأمين التخاطب بين البشر والتواصل، فإن الخط العربي ينهه نحو شيء آخر أكثر سمواً حيث المطلوب، هنا، التخاطب والتواصل الوجدانيينْ مع الله. ولهذا لم يركز الخط عند الشيخ نسيب إلا على كلام الله وآياته، وبمقدار أقل على ذلك الشعر الذي، وإن كان شعراً، فهو يتغنى بحكمة السماء ويرددها.

وعلى هذا فإن فن الشيخ نسيب لم يبتذل يوماً، ولم يترجَّل عن صهوته السامقة فيخط تلك اللغة المعاشة والسائدة ذات الوظيفة المحددة والمحدودة، وإنما خطَّ لغة أخرى يستطيع من خلالها أن يتصل بالسماء... وأن يحاكيها. وفي هذا تتجلى عظمة الخط العربي عنده، إذ أصبح ينتمي إلى منطقة المقدس تاركاً سائر المناطق الأخرى لتلك اللغة التي تلهج بها ألسنتنا وتدور على شفاهنا.

وليس ثمة شك بأن الخط العربي واحدٌ من الإنجازات الكبرى التي حققتها الحضارة العربية ـ الإسلامية. ولئن كانت هذه الحضارة قد اعتبرت بأن اللغة (والشعر خاصة) هي (ديوان العرب)، غير أنها ميزت بين نوعين من اللغة: بين لغة ترمي إلى تسهيل التخاطب بين البشر، ولغة أخرى أكثر سمواً واتقاناً وجمالاً تنهد نحو إيجاد تخاطب من نوع ما بين الله والإنسان، اسمى مخلوقاته.

ونحن لو تأملنا سائر لغات الأرض لتبين لنا انها لم تشهد حدثاً موازياً أو مشابهاً لذلك الحدث الذي عرفته اللغة العربية في طريقة كتابتها. ففي اللغات الأخرى نشهد أن (المقدس) و (الدنيوي) يندمجان، ويتخالطان، وينسجمان مع بعضهما البعض بحيث أن كلام البشر ـ في هذه اللغات ـ أصبح هو نفسه كلام الله! على حين أن الحضارة العربية ـ الإسلامية، حتى على صعيد اللغة وكتابتها، جعلت ما لله لله وما للبشر للبشر. فالله عزّ وجل، المنزّه عن الصفات، الجليل، ملك السموات والأرض، يجب أن نسعى إلى معرفته بواسطة التأمل، وقهر النفس، والتحرر من الغرائز والشهوات، وخاصة بواسطة الكلمة (إذ في البدء كانت الكلمة) التي يشْرَئِّب عنقها صعوداً في صلاةٍ لا تنتهي.

وعليه فالخط عند الشيخ الفنان نسيب مكارم تقوى، وورع، ونسك، وتوقٌ إلى الله. فالحرف الذي يخطّه يتلوّى صعوداً، ونشعر به وهو يصعد من قعر الكلمة وحتى أبعد نقطة ممكنة؛ إن هو إلا تعبير عن توق النفس ورغبتها في ملامسة السماء. ولعل ذلك التداخل أو التعانق الحميم فيما بين الحروف والكلمات والنقاط عنده يمكن إعتباره تأشيراً على حتمية العودة إلى الله حيث كل شيء يصدر عنه ويعود إليه. ●

المؤسسة الدرزية للرعاية الاجتماعية

المواجهة الاجتماعية وتحديات المستقبل

إن سنوات الحرب الدامية التي عصفت بالوطن وهزت كيانه، أظهرت مواقع الضعف في تركيبة النظام السياسي اللبناني، وعدم قدرته على استيعاب التطورات الاقتصادية والاجتماعية. فالخلل الذي بلغته الآلية الحكومية في استهدافاتها من خلال السياسة المالية على مدى العهود الاستقلالية حيث الغبن المميز لمناطق على حساب مناطق أخرى حسبما كانت تمليه المعادلات الطائفية زادت المناطق المحرومة في الأساس حرماناً وتقدمت مناطق أخرى تقدماً ملموساً واتسعت الهوة الإجتماعية، ففي منطقة مثل منطقة الجبل مثلاً كانت الطرقات حتى وقت قصير مثالاً للإهمال حتى أن بعضها كان على حاله كما تركه العثمانيون، ناهيك عن الافتقار إلى مياه الشفة والكهرباء والمدارس والمستوصفات والمستشفيات والهاتف إلى ما هنالك من أسباب الخدمات الحياتية الضرورية. وذلك في محاولة حصار وابعاد للمؤسسات الحكومية الخدماتية وتركيزها في مناطق معينة لا تخدم الحاجات الملحة للسكان كما يقتضي واجبها وتقتضي الغاية من وجودها.

إن هذه الوقائع إضافة إلى ما خلفته الحرب من نتائج على جميع المستويات انعكست بكل ثقلها على المواطنين معاناة يومية وحملت إلى التشرد والجوع واليأس وأفرزت حكايات حزينة لعائلات ناءت تحت وطأة المتطلبات الحياتية الضرورية.

وسط هذا الليل الطويل وما خلفه من عذابات وآلام كانت المؤسسة الدرزية للرعاية الاجتماعية جسر عبور وبارقة أمل في المواجهة الاجتماعية بكل تحدياتها.

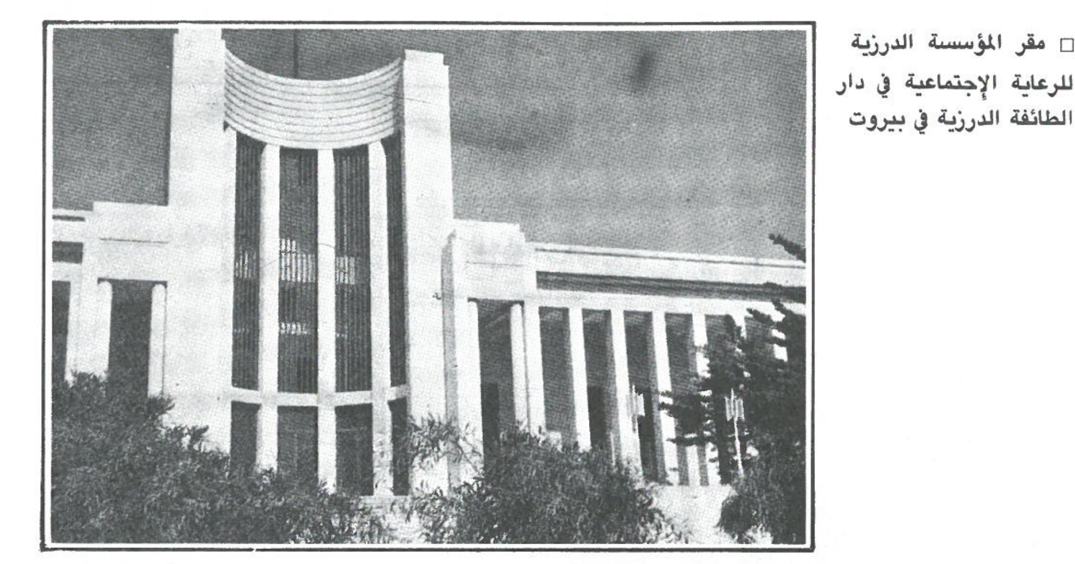
إن غاية المؤسسات الدرزية للرعاية الاجتماعية جاءت تعبيراً صادقاً عن التزامها بقضية الإنسان والمجتمع وفق مفاهيم وطنية واضحة تنشد الخدمة العامة عن طريق الاهتمام بشؤون المواطن اللبناني بصورة عامة وأبناء الطائفة الدرزية بصورة خاصة.

من هنا لم تقتصر المساعدات الاجتماعية والتربوية والحياتية على منطقة واحدة إنما تعدّتها إلى بعض المناطق التي أرهقها الحرمان فأفقدها القدرة على الصمود وتخطي المصاعب.

إن المؤسسة الدرزية للرعاية الاجتماعية تسعى إلى تحقيق أهدافها من خلال البرامج التالية:

١ ــ **مساعدات شهرية نقدية** لعائلات الشهداء والمعاقين والمحتاجين.

٢ ــ **المساعدات الصحية**: وتتضمن معالجة المرضى وتأمين فرص الاستشفاء اللائق لهم



□ مقر المؤسسة الدرزية للرعاية الإجتماعية في دار الطائفة الدرزية في بيروت

وتأمين الأدوية والمستلزمات الطبية الضرورية لحسن سير العمل في المستوصفات والمستشفيات.

٣ ــ **المساعدات التربوية**: وتشمل تأمين بعض المساهمات للطلاب لتمكنهم من متابعة تحصيلهم العلمي والمهني.

٤ ــ **مساعدات تموينية** من خلال برامج مدروسة لعائلات الشهداء والمعاقين.

٥ ــ **دعم الجهود الآيلة** إلى تحقيق **تواصل** بين الوطن وبلدان الاغتراب.

٦ ــ **وضع دراسات ومناهج** عمل بهدف توظيفها في مجالات التنمية الاجتماعية.

٧ ــ **العمل على تنمية قدرات الفرد** في مواجهة التحديات الاقتصادية والاجتماعية ضمن بيئة.

٨ ــ **تفعيل دور المؤسسات المحلية** من خلال وضع برامج عمل تنسجم مع الأوضاع الاجتماعية.

٩ ــ **المساهمة في إقامة مراكز صحية وتربوية**.

١٠ ــ **التنسيق والتعاون** مع المؤسسات الانمائية المحلية والعربية الدولية.

إن المؤسسة الدرزية للرعاية الاجتماعية عملت في ظل ظروف بالغة الدقة والتعقيد وارتبطت بشبكة علاقات محلية واقليمية وعالمية مع المؤسسات الإنسانية معززة مصداقيتها وقدرتها على تلبية الحاجات الأساسية للمواطنين، وهي في **علاقتها مع الإغتراب** نشطت حلقة التواصل الحياتي والإجتماعي بين المغتربين والمقيمين **وعززت أقنية الإتصال** ورسمت تصورات الأوضاع وحقائقها على أرض الوطن.

ولقد اسهمت «المؤسسة الدرزية للرعاية الاجتماعية» في هذه الحرب الأهلية وما تزال تسهم بما تجمعه من تبرعات لمساعدة ذوي الشهداء والمصابين والمحتاجين والمعاقين بأموال عينية وغير عينية وذلك بما بذله ويبذله مجلس أمناء هذه المؤسسة من مجهود كبير ولا يسعنا هنا، إلا أن ننوه بما بذله أمينها العام السابق الأستاذ عصام مكارم من مجهود إداري ومادي كبير وبما يبذله كذلك أمينها العام الحالي الأستاذ مجيد جنبلاط.

إن خدمة المجتمع وإغاثة السكان وتلبية الحاجات وتعميم القيم الحضارية والأخلاقية ليست حلماً، إنما مسؤولية وقدر. يبقى الأمل أن نستطيع مواجهة التحديات من أجل مستقبل نراه مشرقاً وواعداً بالسلام والعدالة وتبقى الرسالة وفاء وعهد.

●

العامَّة والأنعام

● كان المأمون قد همَّ بلعن معاوية بن أبي سفيان. فمنعه عن ذلك يحيى بن أكثم، وقال له:

يا أمير المؤمنين، إن العامة لا تحتمل هذا، دعهم على ما هم عليه، ولا تُظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفِرَق، فإن ذلك أصلحُ في السياسة.

فركن المأمون إلى قوله.

فلما دخل عليه ثُمامة بن الأشرس، قال له المأمون:

يا ثُمامة، قد علمتَ ما كنا دبَّرناه في معاوية، وقد عارضَنا رأيٌ أصلح في تدبير المملكة، وأبقَى ذكراً في العامة.

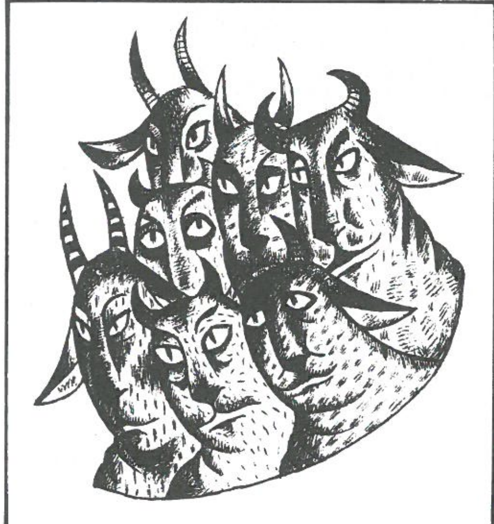
ثم أخبره أن يحيى خوفه إياها.

فقال ثمامة:

يا أمير المؤمنين، والعامة عندك في هذا الموضع الذي وضعها فيه يحيى؟! والله ما رضي الله أن سوّاها بالأنعام حتى جعلها أضلّ سبيلاً، فقال تبارك وتعالى: (أم تَحسَبُ أنَّ أكثَرهم يسمعون أو يعقلون. إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً). والله لقد مررت منذ أيام في شارع الخُلد، فإذا إنسانٌ قد بسط كِساءه وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادي:

هذا الدواء للبياض في العين والغشاوة وضعف البصر.

وإن إحدى عينيه لَمطموسة والأخرى مُؤْلَمَة. والناس قد انثالوا عليه، واحتلفوا إليه يستوصفونه.




فنزلت عن دابتي، ودخلتُ بين تلك الجماعة فقلت:

يا هذا، أرى عينيك أحوجَ الأعين إلى العلاج، وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء، فما بالك لا تستعمله؟!

فقال:

أنا في هذا الموضع من عشرين سنة ما رأيتُ شيخاً قط أجهل منك ولا أحمق!

قلت: وكيف ذلك؟

قال: يا جاهل، أتدري أين اشتكت عيني؟

قلت: لا.

قال: بمصر!

فأقبلت عليّ الجماعة فقالت: صدق الرجل. أنت جاهل!

وهمّوا بي. فقلت:

والله ما علمتُ أن عينه اشتكت بمصر.

فما تخلّصتُ منهم إلا بهذه الحجّة!

من كتاب «المحاسن والمساوىء» لابراهيم بن محمد البيهقي.



رُقْيَة بُديح

● دخل عبد الله بن جعفر على الخليفة عبد الملك بن مروان وهو يتأوّه، فقال:

ما علّتك يا أمير المؤمنين؟

قال:

هاج بي عِرق النَّسا في ليلتي هذه فبلغ مني.

فقال له ابن جعفر:

إن لي مولىً يُدعى بُديح، كانت أمّه بربرية، وكانت تَرقِي من هذه العِلّة، وقد أخذ ذلك منها.

قال: فادْعُ به.

فلما مضى الرسول، سُقط في يَدَي ابن جعفر، وقال في نفسه:

كِذْبة قبيحة عند خليفة!

فما كان بأسرعَ من أن طلع بُديح. فقال له عبد الملك:

كيف رُقيتك من عِرق النَّسا؟

قال: أرقَى الخلقِ يا أمير المؤمنين!

فسُرِّيَ عن ابن جعفر لأن بُديحاً كان صاحب فكاهة يُعرف بها. وجعل بُديح يتفُل على ركبة عبد الملك ويُهَمْهم، ثم قال:

قم يا أمير المؤمنين، جعلني الله فِداك.

فقام عبد الملك لا يجدُ وجعاً.

فقال:

الله أكبر! وجدتُ والله خَفّاً! يا غلام، ادعُ فلانة الجارية حتى تكتب الرُّقية، فإنّا لا نأمن هيجتها بالليل فلا نَذْعَر بُدَيحاً.

فلما جاءت الجارية، قال بديح:

يا أمير المؤمنين، امرأتي طالق إن كَتَبْتها حتى تُعَجِّل صِلَتي.

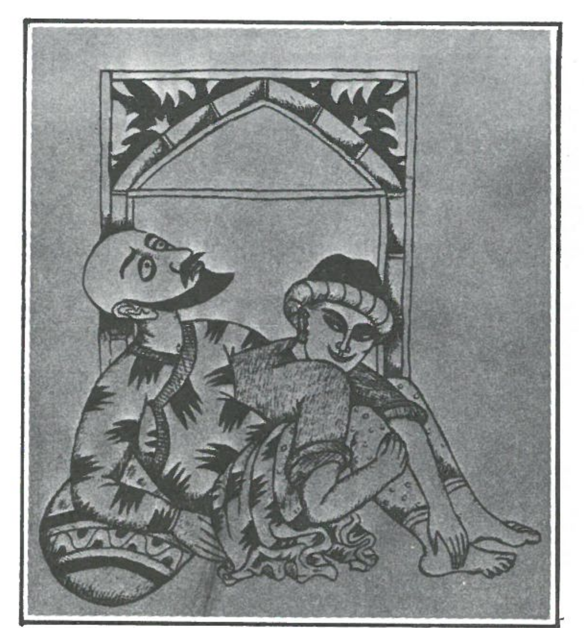
فأمر له بأربعة آلاف درهم. فلما صار المال بين يديه قال: امرأتي طالق إن كَتَبْتُها أو يصير المال إلى منزلي.

فأمر به فحُمل إلى منزله. ثم شرعت الجارية تكتب «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال بُديح:

ليس فيها باسم الله الرحمن الرحيم!

• قال عبد الملك:

كيف تكون ويلَك رُقيةٌ ليس فيها باسم الله الرحمن الرحيم؟!



قال بديح:

هو ذاك. امرأتي طالق إن كنتُ قد قرأت على رجِلك إلا بيت نصيب:

الا إن ليلى العامرية أصبحت
على النَّأْي منِّي ذَنْبَ غَيْرِي تنقِمُ!

قال عبد الملك:

ويلك، ما تقول؟

قال: هو ذاك!

فطفق عبد الملك ضاحكاً يفحص برِجْلَيْه.

من كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.

علينا الانطلاق من الصفر لإعادة بناء لبنان

عصمت صعب

يعتبر قطاع التعهدات من القطاعات التنفيذية لدى الدولة والقطاع الخاص على حد سواء، فهو يضم إلى جانبه القطاعات الأخرى بدءاً من المصانع المنتجة لمستلزمات البناء أو الطرق مروراً بالمصارف والتقنيين واليد العاملة، فهو إذن يتكامل مع غيره من القطاعات.

لكن اداء المتعهدين خلال فترة الحرب تدنى مستواه من الناحية التقنية نظراً لكثرة المتعهدين الجدد، الأمر الذي أثر سلباً على قطاع التعهدات، لهذا طالبنا الدولة بوضع قانون جديد لتصنيف المتعهدين عادل ومنطقي سعياً لتحسين الوضع. وبالنسبة إلى القطاع الخاص هناك عدد قليل جداً من الأشخاص المعنويين والطبيعيين الذين يلجأون إلى المقاولين لتنفيذ الأعمال والسبب هو النقص في التوعية، لأن صاحب المشروع يرى في نفسه إمكانية تنفيذ أعماله دون الحاجة إلى مقاول.

علينا الانطلاق من الصفر لإعادة بناء لبنان مما يفرض وجود خطة شاملة مبرمجة لبناء الهيكلية التحتية للبلد وتأمين المتطلبات الضرورية للمواطن. فهذه الأمور تحرك العجلة الاقتصادية وهناك أيضاً موضوع الإسكان الذي يشكل مشكلة كبيرة بدءاً من القوانين التي وضعت مؤخراً، فقانون الإيجار المؤقت مثلاً عندما تنتهي مدته سيحصل تمديد له مما سيعطل مفعول حرية التعاقد وهذا الأمر انعكس سلباً على سوق البناء حيث اختفى قسم الإيجار منها بينما هناك شريحتان من الشعب واحدة لا يمكنها التملك وأخرى تحتاج إلى تمويل طويل الأمد.

ويبقى الوسط التجاري المشروع الكبير الذي نعلق عليه الآمال نظراً لأن لبنان في تاريخه لم يعرف مثل هذا الحجم من المشاريع التي ستنعكس على صورته مستقبلاً. لا شك في أن للشركة العقارية دوراً كبيراً في تنفيذه مع ضرورة إعطاء المالك حقه. إلى ذلك نأمل بعدم تجميع مشاريع الوسط التجاري في مشروع واحد عبر طرح تلزيمه عالمياً إلى ثلاث أو أربع شركات لتنفيذه لأن لديها إمكانية إدارة المشاريع على مستوى عال جداً بل يجب تجزئته إلى عدد من المشاريع كي تتمكن الشركات المحلية والإقليمية من المساهمة فيه الأمر الذي يساعد على تحريك الاقتصاد بصورة عامة. كما على اللبنانيين الناجحين نتيجة الفورة غير الطبيعية التي حصلت في الشرق الأوسط واستفادوا منها، واجب إعادة جزء من رساميلهم إلى لبنان ودخول الشركة العقارية، وهؤلاء في معظمهم هم من المقاولين، ولتنشيط الحركة الاقتصادية يجب أن يكون منفذو هذه المشاريع الإعمارية لبنانيين إذا ما توفرت لديهم الإمكانات. فنحن لا نطلب إعطاء المقاول اللبناني الأفضلية في الدعم بل الأفضلية في حال كان جميع المتنافسين متساوون. ●